مـارك غريـنـي

مكتبة

THE GRAY MAN

الرجل الرمادي

MARK GREANEY



ترجمة: كريم كيلاني

الرجل الرمادي

غريني، مارك
الرجل الرمادي: رواية /مارك غريني.
ترجمة : كريم الكيلاني.
القاهرة : كيان للنشر والتوزيع، 2024.
416 صفحة، 20 سم.
تدمك : 978-977-820-125-3
ا- القصص الأمريكية
أ- كيلاني، كريم (مترجم)
ب- العنوان : 823
رقم الإيداع : 19045 / 2022
الطبعة الأولى : يناير 2024.

كيان للنشر والتوزيع
إشراف عام:
محمد جميل صبري
نيفين التهامي



٤ ش حسين عباس من شارع جمال الدين الأفغاني- الهرم
هاتف أرضي: 0235918808
هاتف محمول: 01000405450 – 01001872290
بريد إلكتروني: kayanpub@gmail.com
info@kayanpublishing.com
الموقع الرسمي: www.kayanpublishing.com

الرجل الرمادي

مارك غريني

ترجمة
كريم كيلاني



هذا العمل خيالي، الأسماء والشخصيات والأماكن والحوادث هي إما من خيال المؤلف، وأي تشابه مع أشخاص حقيقيين، أحياء أو أموات، أو مؤسسات تجارية، أو أحداث، أو أماكن فهو من قبيل الصدفة البحتة، وليس لدى الناشر أي سلطة ولا يتحمل أي مسؤولية عن المؤلف أو المواقع الإلكترونية لطرف ثالث أو محتواها.

الإهداء

إلى إدوارد إف غريني جونيور وكاثلين كليغورن غريني: أمي وأبي، أفتقدكما كثيرًا

أود أن أشكر جيمس ييغر وكادره الرائع من المدربين في شركة الاستجابة التكتيكية في كامدن بولاية تينيسي على تمكيني من الاطلاع على البنادق والمسدسات وتكتيكات العمل الطبي الفوري وتكتيكات الفريق وخاصةً للمهارة التي أظهروها في إخماد الحريق الذي لحق بي، بارك الله فيكم، أمريكا مكان أكثر أمانًا بسبب كل ما تفعله أنت وطلابك، الآن اذهب واقضِ على بعض الكراهية.

كما أتوجه بالشكر الجزيل إلى الكتاب الذين يقدرون القراء: جيمس رولينز وديفين جريني وكارين أوت ماير وجون وكاري إيكولز ومايك كوان وجريج جونز وأبريل آدامز ونيكول جير روبرتس وستيفاني وآبي ستوفال وجيني كرافت، إنني أقدركم جميعًا.

امتناني العميق والأبدي لوكيل أعمالي سكوت ميلر في مجموعة ترايدنت ميديا، والمحرر توم كولجان في بيركلي ، كان هذا ممتعا يا رفاق ، سنفعل ذلك مرة أخرى في وقت ما.

MarkGreaneyBooks.com

لفت انتباه سائق سيارة اللاند روفر الملطخ بالدماء وميضٌ يلمع بعيدًا في سماء الصباح، وحمى عينيه من أشعة الشمس الشديدة بنظارة أوكليز المستقطبة، وحدق عبر عدساتها المتوهجة يحاول يائسًا أن يحدد الطائرة المحترقة التي كانت تدور وتندفع نحو الأرض، مخلفةً وراءها ذيلًا من الدخان الأسود المتصاعد.

كانت طائرة هليكوبتر عسكرية كبيرة من طراز الشينوك. وبالرغم من كون الوضع مأساويًا لمن كانوا على متنها، فإن سائق اللاند روفر تنفس الصعداء، إذ كان من المقرر أن تكون وسيلة خروجه روسية الصنع من طراز **(KA-32T)**، وبها طاقم من المرتزقة البولنديين لينتقلوا فوق الحدود في تركيا، أحس السائق أن طائرة شينوك البالية مثيرة للإزعاج، ولكن هذا أفضل من أن يكون في طائرة **(KA-32T)** الموشكة على السقوط.

شاهد المروحية تدور في أثناء هبوطها غير المنضبط، وتلطخت السماء الزرقاء أمامه بالوقود المحترق.

أدار السيارة اللاند روفر بقوة إلى اليمين، وأسرع باتجاه الشرق. أراد السائق الملطخ بالدماء أن يبتعد بأسرع ما يمكنه، تمنى لو كان بوسعه أن يفعل شيئًا من أجل الأمريكيين على متن الطائرة الشينوك، لكنه كان يعلم أن مصيرهم ليس بيده، وأن أمامه مشكلاته الخاصة.

أسرع لمدة خمس ساعات عبر الأراضي المنبسطة في غرب العراق، هربًا من العمل القذر الذي تركه وراءه، والآن كان على بعد أقل من عشرين دقيقة من موقع انسحابه، وإسقاط مروحية يعني أنه في غضون دقائق سيعج هذا المكان بالمقاتلين المسلحين، سيمثِّلون بالجثث، ويطلقون رصاص بنادقهم في الهواء، ويقفزون مثل الحمقى الأغبياء.

لقد كانت حفلة لا يمانع السائق الملطخ بالدماء في تفويتها، إلا خشية أن يصبح هو نفسه هدية الحفلة.

غرقت طائرة شينوك على يساره، واختفت خلف سلسلة من التلال البنية المترامية، ثبت السائق عينيه على الطريق أمامه، وقال لنفسه: «ليست مشكلتي». لم يتدرب على البحث والإنقاذ، ولا على تقديم المساعدة، وبالتأكيد لم يكن مُدرَّبًا على التفاوض من أجل تحرير الرهائن.

لقد تدرب على القتل، وقد فعل هذا على حدود سوريا، والآن حان وقت الخروج من منطقة القتال.

مع ازدياد سرعة سيارته اللاند روفر عبر الضباب والغبار بأكثر من مائة كيلو متر في الساعة بدأ حوارًا مع نفسه، حدَّثتهُ نفسه بالعودة إلى الوراء، وأن ينطلق إلى موقع تحطم الشينوك للبحث عن ناجين، من ناحية أخرى، كان عقله أكثر واقعية، وقال له: «استمر في الحركة يا جينتري، لا تتوقف، انتهى أمر هؤلاء الرجال، لا يمكنك فعل أي شيء حيال ذلك».

كانت كلمات جينتري التي نطق بها عقلانية، لكن حديث نفسه لم يصمت.

1

لم يكن أول الواصلين إلى موقع الحطام من المسلحين ينتمون إلى القاعدة، ولا علاقة لهم بإطلاق النار، بل كانوا أربعة فتيان محليين ببنادق كلاشنكوف قديمة ذات كعب خشبي، يسيطرون على حاجز أمني صباحي مهمل على بعد عدة أمتار من موقع سقوط المروحية في أحد شوارع المدينة.

تدافعوا عبر حشد المتفرجين المتزايد، وأصحاب المتاجر، وأطفال الشارع الذين أسرعوا للاختباء عندما اندفعت المروحية ذات الدوار المزدوج لتسقط عليهم في الشارع، بينما انحرف سائقو عربات الأجرة عن الطريق لتفادي الطائرة الأمريكية.

اقترب الشباب المسلحون من الموقع بحذر، لكن دون أي شيء ينم عن مهارة عسكرية، دوت فرقعة من النيران المشتعلة، رصاصة مسدس فجرتها الحرارة أجبرتهم جميعًا على الاختباء، بعد لحظة من التردد، رفعوا رؤوسهم مرة أخرى، وصوبوا بنادقهم، ثم أفرغوا ذخيرة أسلحتهم المدوية في الآلة المعدنية المشوهة.

زحف رجل يرتدي زيًّا عسكريًّا أمريكيًّا أسود خارجًا من الحطام، فتلقى عشرين رصاصة من أسلحة الفتيان، انتهت معاناة الجندي فور أن مزقت الرصاصات الأولى ظهره.

خرج الفتية من مخبئهم مدفوعين بالشجاعة التي أفرزها أدرينالين قتلهم شخصًا أمام صراخ حشود المدنيين، أعادوا تعبئة ذخيرة بنادقهم، ورفعوها ليطلقوا النار على الجثث المشتعلة لطاقم الطائرة في قمرة القيادة، لكن قبل أن يطلقوا الرصاص هرعت من الخلف ثلاث شاحنات، ذات دفع رباعي مملوءة بمسلحين عرب. إنهم من القاعدة.

انسحب الفتيان المحليون بحذرٍ من موقع الطائرة، ووقفوا بين المدنيين، علت أصواتهم بالتكبير، بينما انتشر الملثمون حول الحطام، سقطت جثتا جنديين آخرين من مؤخرة الطائرة الشينوك، وكانت هذه هي أولى الصور التي التقطها طاقم قناة الجزيرة المكون من ثلاثة أفراد، كانوا قد نزلوا من الشاحنة الثالثة إلى موقع الحطام.

على بعد ميل تقريبًا انعطف جينتري عن الطريق إلى مجرى نهر جاف، ودفع سيارة اللاند روفر بصعوبة عبر حشائش النهر البنية، ثم ترجل من الشاحنة، وأسرع إلى الباب الخلفي، تأرجحت على ظهره حقيبة، بينما أحكم قبضته على حقيبة عمل طويلة ذات لونٍ جملي.

وهو يبتعد عن الشاحنة ـلاحظ لأولـ مرة الدماء الجافة على ملابسه المحلية الفضفاضة، لم تكن دماءه، لكن بقع الدماء لم تكن لغزًا، كان يعرف دماء من هذه، بعد ثلاثين ثانية وصل إلى قمة التلال الصغيرة بجوار مجرى النهر الجاف، وزحف إلى الأمام بأسرع ما يستطيع، دافعًا عتاده أمامه، عندما شعر جينتري بأنه اختبأ بشكل جيد بين الرمال والقصب، سحب منظارًا من الحقيبة، ونظر من خلاله إلى عمود دخان أسود يتصاعد في الأفق.

انقبضت عضلات فكيه المشدودة.

كانت الطائرة الشينوك قد استقرت في أحد شوارع قرية الباعج، وقد هجمت عليها ـبالفعلـ عصابة من الغوغاء لتغنم ما فيها، لم يكن منظار جينتري قويًا بما يكفي ليظهر هذه التفاصيل؛ لذا زحف على جانبه وفتح الحقيبة ذات اللون الجملي، التي بداخلها بندقية آلية من طراز **باريت إم 107**، وهي بندقية من عيار خمسين، تُطلق قذائف بنصف حجم زجاجة بيرة، وينطلق رصاصها الثقيل من فوهة سرعتها تغطي تقريبًا تسعة ملاعب كرة قدمٍ في الثانية.

لم يُلقم جينتري سلاحه ذخيرةً، بل صوَّب بندقيته تجاه موقع الحطام لاستخدام عدساتها القوية ذات قوة ست عشرة درجة، ومن

خلالها استطاع أن يرى النار والشاحنات الصغيرة والمدنيين العزل والمسلحين، بعضهم لم يكن يرتدي قناعًا، بل كانوا من العصابات المحلية.

كان بعضهم يرتدي أقنعة سوداء، بينما يخفي بعضهم الآخر وجوههم بالكوفيات، كان هذا فريق القاعدة الأوغاد الأجانب الذين جاؤوا لقتل الأمريكان ومعاونيهم، واستغلال الاضطراب في المنطقة.

ارتفع بريق معدني في الهواء، ثم هوى إلى أسفل، كأنه سيف يخترق هيئةً ما على الأرض، حتى من خلال منظار القناصة القوي لم يعرف جينتري ما إذا كان الرجل الممدد أرضًا حيًّا أم ميتًا عندما اخترقه نصل السيف.

انقبض فكاه مرة أخرى، لم يكن جينتري جنديًّا أمريكيًّا فحسب، بل كان مواطنًا أمريكيًّا قبل ذلك، وعلى الرغم من أنه لم يكن مسؤولًا أو تربطه علاقة بالجيش الأمريكي، فقد شاهد على مدار سنوات صورًا تلفزيونية لمذابح كتلك المذبحة التي تحدث أمام عينيه، وأصابته بالغضب والاشمئزاز لأبعد ما يمكن أن تتحمله قدرته على ضبط النفس.

احتشد الرجال الذين تجمعوا حول الطائرة معًا كأنهم شخص واحد، احتاج لحظة ليفهم ما يجري عند الوهج الذي ينبعث من الأرض القاحلة، لكن سرعان ما ميَّز بهجة الجزارين الذين تجمعوا حول الطائرة المنكوبة، كان الأوغاد يرقصون فوق الجثث.

أبعد جينتري إصبعه عن زناد البندقية البيريت الكبيرة، وظل يحرك طرفه الناعم بأصابعه، أوضح له الليزر المسافة، وألهمته بضع خيام مصنوعة من الخيش رفرفت في النسيم بمسار الرياح، لكنه ما كان ليطلق النار من البندقية البيريت، فلو أنه ألقم سلاحه، وضغط على الزناد فسيقتل بضعة أوغاد بالفعل، ولكن المنطقة ستشتعل بأسرها، فضلًا عن انتشار خبر وجود قناص سيلاحقه كل ذكر بالغ يحمل

مسدسًا وهاتفًا قبل أن يبتعد لمسافة خمسة أميال ويهرب، وحينها ستُلغى عملية تسلل جينتري، وسيتعين عليه أن يشق طريقه بنفسه ليغادر منطقة القتال.

لا.

قالها جينتري لنفسه، من حقه أن يثأر قليلًا بالطبع، لكن هذا قد يثير عاصفة من المتاعب، وهو غير مستعد للتعامل معها، لم يكن جينتري مقامرًا، بل قاتلًا يعمل لحسابه الخاص، قاتلًا مأجورًا متعاقدًا، يمكنه أن يصيب ستة من هؤلاء الذين أمامه بالشظايا بنفس سرعة ربطه لحذائه العالي، لكنه يعلم أن مثل هذا الانتقام لن يستحق التكلفة.

بصق أمامه مزيجًا من اللعاب والرمال، ثم استدار ليضع بندقية البيريت مرة أخرى في حقيبته.

***

كان طاقم قناة الجزيرة قد تسللوا عبر الحدود السورية قبل أسبوع من أجل هدف واحد هو توثيق انتصار القاعدة في شمال العراق، سار كل من مصور الفيديو وفني الصوت والمراسل / المنتج على طريق يسيطر عليه تنظيم القاعدة، وناموا في بيوت آمنة تابعة للقاعدة بجوار خلية التنظيم، وقد صوروا إطلاق القذيفة التي اصطدمت بالطائرة الشينوك، وكذلك صوروا الكرة الملتهبة في السماء.

الآن يصورون مراسم قطع رأس الجندي الأمريكي الميت مسبقًا، رجل في منتصف العمر، اسمه مكتوب على شارة بخط اليد ملصقة بسترته الواقية «فيليبس ـ الحرس الوطني بمسيسيبي». لم يكن أحد من طاقم التصوير يتحدث الإنجليزية، لكنهم جميعًا اتفقوا أنهم سجلوا ـ بوضوح لتوهم ـ تدمير آلية من صفوة كوماندوز الاستخبارات المركزية الأمريكية.

علت التكبيرات التقليدية، بينما يرقص المقاتلون على وقْع إطلاق الرصاص في الهواء، وعلى الرغم من أن عدد أفراد الخلية كان ستة عشر رجلًا، فقد كان هناك أكثر من ثلاثين مسلحًا يتمشى بعضهم بجوار بعض أمام هذا العملاق المعدني المشتعل في الشارع.

ركز مصور الفيديو عدسته على المختار، وهو شيخ قبيلة يرقص في وسط الاحتفال، وصوره تصويرًا متقنًا أمام الحطام، فأظهر بياض دشداشته الانسيابي تباينًا ساحرًا مع الدخان الأسود الذي يتصاعد خلفه، وثب المختار على قدم واحدة فوق جثة الأمريكي مقطوع الرأس، ورفع يده إلى أعلى في الهواء ليلوح بسيف معقوف مضرج بالدماء.

كانت هذه هي أهم لقطة، ابتسم مصور الفيديو، وبذل قصارى جهده ليحافظ على احترافيته، يحذر أن ينساق وراء الألحان ورقصات الاحتفال بنصرة الله، التي شهد عليها هو والكاميرا.

صاح المختار عاليًا: «الله أكبر!».

راح يقفز بنشوة مع باقي المسلحين المقنَّعين، وانكشفت أسنانه من بين شعر لحيته الكثيفة وشاربه الكث إذ يضحك، بينما ينظر تحته إلى قطعة اللحم الأمريكية المحترقة الدامية الملقاة في الشارع.

صاح فريق الجزيرة أيضًا في نشوة، وسجَّل مصور الفيديو المشهد كله بيد ثابتة، كان محترفًا، فظل هدفه في المنتصف تمامًا، ولم تتحرك الكاميرا أو تهتز.

وفي تلك اللحظة، تمزقت رقبة المختار من جانبها، وانفجرت كالعنب المهروس، تناثرت الأوتار والدماء والعظام بعنفٍ في كل الاتجاهات.

وحينئذٍ اهتزت الكاميرا.

***

لم يتمالك جينتري أعصابه، فأطلق رصاصة تلو الأخرى على حشد المسلحين، وهو يطلق السباب بصوت عالٍ لعدم ضبط نفسه، إذ أدرك أنه يخاطر بوقته وبالعملية كلها، هذا لا يعني أنه قد سمع سبابه، فحتى مع سدادات الأذن كان صوت البندقية البيريت يصم الآذان، وقد أطلق على الهدف كمية هائلة من الرصاص، ومع توالي إطلاق النار انحل كعب البندقية، فاندفعت إلى وجهه وذراعه الحجارة والرمال التي ملأت الأرض من حوله.

توقف ليلتقط خزينة ثقيلة أخرى ليثبتها في البندقية، وقيَّم موقفه، من وجهة نظر احترافية، فهذه أشد الحركة غباء يمكن أن يؤديها، وعمليًّا كان يصيح في وجه المسلحين أن عدوهم اللدود موجود هنا بينهم.

ليته لم يعتقد أنها خطوة سديدة. أمَّن وضعية البندقية الآلية عند ثنية كتفه التي ارتجت بالفعل من أثر الارتداد، وشخَص ببصره نحو موقع سقوط المروحية، ثم واصل قصاصه العادل. رأى من المنظار الكبير أعضاء بشرية تدور في الهواء، في اللحظة التي استقرت رصاصة ضخمة أخرى في جسد ملثم من المسلحين.

كان هذا انتقامًا فحسب ليس أكثر. عرف جينتري أن أفعاله غيرت قليلًا حسابات المشهد، هذا بخلاف قتله بضعة أوغاد، واصل إطلاق النار على حشد القتلة وهم يتشتتون، لكن عقله انشغل بالفعل بمستقبله القريب، ضاعت فرصة الوصول إلى مهبط طائرات الآن، إن ظهور مروحية أخرى فرصة لن يتجاهلها الناجون من القاعدة.

لا. قرَّر جنتري. سيختبئ، سيبحث عن قناة للصرف الصحي أو وادٍ صغير، ويغطي نفسه بالتراب والطين، ويقضي طول النهار في الحرارة، ويتجاهل الجوع ولدغات الحشرات ورغبته في التبول. سيكون وضعًا سيئًا، ومع ذلك ظل يبرر أفكاره، بينما يثبِّت الخزينة الثالثة والأخيرة في البندقية الساخنة، كان لقراره الأهوج منَافع أيضًا، ففي النهاية يظل قتْل ستة أوغاد مكسبًا.

2

بعد أربع دقائق من إطلاق القناص آخرَ وابلٍ من الرصاص، مال أحد الناجين من القاعدة برأسه خارج مدخل محلٍ تصليح الإطارات حيث كان يحتمي، بعد لحظات قليلة، كانت كل ثانية تمنحه ثقة متزايدة بأن رأسه سيبقى ملتصقًا برقبته، حتى خرج اليمني البالغ من العمر ستة وثلاثين عامًا بأكمله إلى الشارع.

سرعان ما تبعه آخرون، ووقفوا جميعًا حول المذبحة، أحصى سبعة قتلى، وحسبهم عن طريق تحديد عدد أرجلهم الملتوية في الوحل الدامي، ثم قسم عددها على اثنين، إذ لم يتبقَّ سوى القليل من الرؤوس والجذوع التي يمكن التعرف بها على الجثث، كان خمسة من القتلى من إخوانه في القاعدة، بمن فيهم الرجل الكبير في الخلية وكبير ملازميه، واثنان آخران من السكان المحليين.

على يساره استمر احتراق الطائرة، سار نحوها، ومر برجال يختبئون وراء السيارات وصناديق القمامة، اتسعت حدقات عيونهم من الصدمة، بينما فقد أحد السكان السيطرة على أمعائه بسبب الرعب فسقط على الرصيف يتلوى كالمجنون وقد لطخ سرواله.صاح فيه اليمني المقنع: «انهض أيها الأحمق!». ثم ركل الرجل في جانبه، وواصل طريقه ناحية المروحية. وقف أربعة آخرون من زملائه خلف إحدى شاحناتهم الصغيرة مع طاقم تصوير قناة الجزيرة. كان مصور الفيديو يدخن بيدٍ مرتجفةٍ كما لو كان في مرحلة متقدمة من الشلل الرعاش، بينما علَّق كاميرتهُ إلى جانبه.

أحضِروا كل من بقي حيًّا إلى الشاحنات، سنعثر على القناص.

نظر إلى الحقول والتلال الجافة والطرق الممتدة جنوبًا، تعلوها سحابة من الغبار على ارتفاع ما يقرب من ميل واحد.

أشار اليمني قائلًا: «هناك!».

سأل فني الصوت في الجزيرة: «نحن. سنذهب إلى هناك؟».-إن شاء الله. إن شاء الله.

عندها فقط نادى صبي محلي أحدَ ممثلي القاعدة طالبًا منهم أن يأتوا ويلقوا نظرة، كان الصبي قد اختبأ في كشك شاي على بعد خمسة عشر مترًا من مخروط مقدمة المروحية المثقوب. صعد اليمني واثنان من رجاله فوق جذع بشري غارق في الدماء لم يثبته بباقي الجسد سوى رداء أسود ممزق، كان هذا قائدهم الأردني، تشعّب مسار الدماء من حيث سقط على الجدران الخارجية ونافذة كشك الشاي، فاكتسى المبنى باللون القرمزي.

صاح اليمني باندفاع غاضب: «ما هذا يا فتى؟». وتحدث الطفل لاهثًا من فرط التنفس مجيبًا: «وجدت شيئًا!».

تبعَ اليمنيُّ واثنان من رجاله الصبيَّ إلى المقهى الصغير، بينما يخطون في الدماء، ونظروا حول طاولة مقلوبة، ثم عادوا خلف المنضدة. كان هناك جندي أمريكي شاب يجلس على الأرض وظهره إلى الحائط. كانت عيناه مفتوحتين وترمشان بسرعة، ويحتضن كافرًا آخر بين ذراعيه. كان هذا الرجل أسود، وبدا إما فاقدًا للوعي أو ميتًا، ولم يكن هناك أي أسلحة.

ابتسم اليمني وربت على كتف الصبي، استدار وصاح إلى من في الخارج: «أحضروا الشاحنة!». بعد اثنتي عشرة دقيقة افترقت شاحنات القاعدة الثلاث عند مفترق طرق.

توجه تسعة رجال إلى الجنوب في شاحنتين، وأجروا اتصالات عبر هواتفهم المحمولة للحصول على مساعدة المحليين في بحثهم عن القناص الوحيد، تولى اليمني واثنان آخران من القاعدة نقل السجينين الأمريكيين الجريحين إلى منزل آمن في مدينة الحضر القريبة، حيث اتصل اليمني بقيادته لمعرفة أفضل طريقة لاستغلال مكافأة صيده

الحديث، تولى اليمني عجلة القيادة، وركب شاب سوري في مقعد الراكب، بينما تولى مصري حراسة الجندي شبه المشلول وشريكه المحتضر في صندوق الشاحنة.

***

استفاق ريكي بايليس ذو العشرين عامًا من صدمة الحادثة بعض الشيء، عرف هذا لأن الارتجاج الثقيل الذي شعر به في عظمته المكسورة تحول إلى نوبات مؤلمة تصل سخونتها إلى درجة الانصهار. نظر إلى الأسفل نحو ساقه فلم يرَ سوى سرواله العسكري الممزق محترقًا، وحذاء معلق وممزق إلى اليمين يرقد خلفه الجندي الآخر، لم يكن بايليس يعرف الجندي الأسود، لكن شارة الاسم أوضحت أن اسمه كليفلاند، وكان كليفلاند فاقدًا للوعي، كاد بايليس يظن أن كليفلاند مات، لولا أنه لاحظ أن يتحرك ينتفخ قليلًا أسفل سترته الواقية.

في لحظة مفعمة بالأدرينالين ومدفوعة بالغريزة سحب ريكي الرجل بعيدًا عن موقع الحطام، بينما يزحف إلى متجر قريب من موقع الحادثة، لكن كشف أمرَه بعد عدة لحظات أطفال عراقيون ذوو عيون واسعة.

للحظة فكر في أصدقائه الذين ماتوا في الطائرة الشينوك، وشعر بحزنٍ خيّم عليه الذهول وعدم التصديق، تبدد الحزن سريعًا عندما رفع بصره ليرى الرجل الجالس في صندوق الشاحنة، أصدقاء ريكي الأوغاد كانوا محظوظين بموتهم، بينما كان هو البائس، هو وكليفلاند الذي لو استيقظ فسيُقطع رأساهما علنًا وعلى الهواء مباشرة.

نظر الإرهابي إلى الأسفل نحو بايليس، وداس بحذائه الرياضي ساقَه المحطمة، وضغط ببطء مع ابتسامة واسعة كشفت عن أسنانه المكسورة حتى بدت كأنياب مفترس.

صرخ ريكي.

***

انطلقت الشاحنة بسرعة على الطريق حتى بلغت منطقة مرتفعة خارج الباعج، ثم تباطأت فجأة قبيل حاجز على أطراف المدينة، كان كمينًا محليًّا اعتياديًّا نصبه المتمردون، عبارة عن سلسلة ثقيلة ملفوفة في عمودين معلقين على مستوى منخفض فوق الرصيف المغبر.

ظهر اثنان من رجال الميليشيات، يجلس أحدهما بكسل على مقعد بلاستيكي، ورأسه متكئ على جدار ملعب مدرسة ثانوية، ووقف الآخر عند أحد طرفي السلسلة بجانب شريكه الذي يقضي وقت القيلولة نائمًا، معلقًا على ظهره رشاش كلاشنكوف وُجّهت فوهته إلى الأسفل، وبين يديه صحن من الحمص والخبز المسطَح، وقد عَلِقَ الطعام في لحيته.

على الجانب الآخر من الحاجز، حث راعي ماعز عجوز قطيعه الهزيل على التحرك بطول الرصيف. وسبَّ رجل القاعدة ضعف عزيمة التمرد هنا في شمال غرب العراق. ألم يكن بوسعهم سوى حشد رجلين كسلانين مثلهما لنقطة تفتيش؟ بهذه الحماقة قد يسلم السُنَّة السيطرة للأكراد والإيزيديين.

أبطأ اليمني شاحنته، وأنزل زجاج النافذة، صرخ في العراقي الواقف: «افتح هذه البوابة أيها الأحمق! هناك قناص في الجنوب!».

ترك رجل الميليشيات غداءه، وسار بتباطؤ نحو الشاحنة الصغيرة في منتصف الطريق، ثم وضع يده على أذنه كأنه لم يسمع صياح اليمني.

وأكمل: «افتح البوابة وإلا...».

أدار اليمني رأسه بعيدًا عن المتمرد الذي يقترب من شاحنته ناحية الآخر الذي يجلس قبالة الجدار، وقد مال رأسه جانبًا، وظل معلقًا هكذا، بعد لحظة تدحرج جسده إلى الأمام وسقط من المقعد أرضًا، اتضح أن رجل المليشيات ميت، لقد قُطعت رقبته من الفقرة العنقية.

لاحظ ذلك أيضًا المسلح الذي يجلس في مؤخرة الشاحنة، ونهض بسرعة في الصندوق حين استشعر التهديد، لكن الموقف أثار حيرته،

عاود النظر، هو وقائده الجديد في المقعد الأمامي، إلى الرجل المحلي على الطريق، رفع عضو المليشيات الملتحي ذراعه اليمنى أمامه، فظهر أسفل كمي عباءته الفضفاضة مسدس أسود.

طلقتان سريعتان لا تردد بينهما أردتا المصري الجالس في صندوق الشاحنة قتيلًا.

***

استلقى بايليس على ظهره رافعًا بصره إلى الشمس الحارقة وقت الظهيرة، شعر أن السيارة تبطئ وتتوقف، وسمع صراخ السائق، والطلقات النارية السريعة بشكل لا يُصدق، وشاهد الرجل الملثم يسقط فوقه ميتًا.

سمع دوي وابل آخر من طلقات المسدس من حوله، ووقد رأى زجاجًا يتحطم، كما سمع صياحًا وجيزًا باللغة العربية، ثم ساد الصمت، راح ريكي يصرخ ويضرب بشكل محموم ليُبعد عنه الجثة الدامية، انتهى كفاحه عندما أبعِد الإرهابي القتيل من صندوق الشاحنة وألقاه في الشارع.

أمسك رجل ملتح يرتدي الدشداشة الرمادية ريكي من سترته العسكرية، ورفعه إلى أعلى مثبتًا إياه في وضعية الجلوس، طغت الشمس القاسية على رؤية بايليس وجهًا غريبًا، وسأله: «**هل يمكنك المشي؟**».

ظن ريكي أنها هلوسة ما بعد الصدمة، لقد تحدث الرجل باللغة الإنجليزية بلهجة أمريكية، ثم صاح الغريب مرددًا ما قاله: «أنت يا فتى! هل تسمعني؟ هل يمكنك المشي؟».

قال بايليس ببطء مجيبًا طيف ذلك الرجل : «ساقي مكسورة، وهذا الشخص مصاب بشدة».

فحص الغريب ساق بايليس المصابة وشخَّصها: «كسر في عظم الشظية. ستعيش».

ثم وضع يده على عنق الرجل الذي فقد وعيه وقدَّم تشخيصًا أوليًا محبطًا قائلًا: «لا أمل في نجاته».

التفت حوله بسرعة، وحتى هذه اللحظة لم يتمكن الشاب القادم من ميسيسيبي من رؤية وجهه.

ـ اتركه هنا، سنفعل من أجله ما بوسعنا، لكني أحتاج إليك في مقعد الراكب، لُفَّ هذه حول وجهك.

سحب الرجل الملتحي الكوفية من رقبة الإرهابي الميت وأعطاها بايليس إياها.

ـ لا يمكنني المشي على هذه الساق.

ـ تحمَّل! علينا أن ننطلق، سأحضر عتادي، هيا تحرك!استدار الغريب، وركض في زقاق مظلل، رمى بايليس خوذته الكيفلر في الكابينة، ولف غطاء الرأس مكانها، ثم نهض ونزل من صندوق الشاحنة على ساقه السليمة، سرى ألم مبرح من ساقه اليمنى إلى دماغه.

ازدحم الشارع بمدنيين من شتى الأعمار، يقفون على مسافة كأنهم جمهور يشاهد مسرحية عنيفة.

قفز بايليس إلى باب مقعد الراكب ثم فتحه، فسقط عربي يرتدي قميصًا أسود في الشارع، وقد أصيب برصاصة واحدة فوق عينه اليسرى، وكان هناك إرهابي ثانٍ ملقى على المقود، يقطر من شفتيه زبد دام وهو يلهث بخفوت. كانّ ريكي قد أغلق بابه لتوه عندما فتح الأمريكي الغريب باب السائق، وأخرج الرجل ثم تركه يسقط على الأسفلت، سحب مسدسه مرة أخرى، ودون أن يلتفت أطلق رصاصة واحدة على الرجل في الشارع، ثم التفت إلى الشاحنة ليلقي فيها حقيبة معدات بنية اللون، وبندقية كلاشنكوف **AK-47**، وبندقية **(M4)**، قفز خلف المقود، ومالت الشاحنة إلى الأمام، إذ تعبر فوق سلسلة الحاجز المنخفضة.

تحدث ريكي بهدوء، فما زال يحاول استيعاب ما يحدث حوله:ـ علينا أن نعود، ربما هناك آخرون على قيد الحياة.

ـ لا يوجد. أنت فقط.

ـ كيف عرفت ذلك؟

ـ أنا أعرف.

تردد ريكي ثم قال: «لأنك كنت ضمن فريق القناصة الذي مزق هؤلاء الرجال في موقع الحطام؟».

ـ ربما.

كان هناك صمت لمدة دقيقة تقريبًا، نظر بايليس من الزجاج الأمامي إلى الجبال، ثم إلى أسفل حيث ترتعش يداه، وسرعان ما انتبه الجندي الشاب إلى السائق، فصاح الغريب: «لا تنظر إلى وجهي!».

أطاعه بايليس، وعاد ينظر إلى الطريق أمامه قبل أن يسأله: «هل أنت أمريكي؟».

ـ هذا صحيح.

ـ أأنت ضمن القوات الخاصة؟

ـ لا.

ـ أأنت ضمن القوات البحرية؟

ـ لا.

ـ هل أنت من العمليات الخاصة في البحرية؟

ـ لا.

ـ أأنت منتم إلى قوات المشاة البحرية؟

ـ لا.

ـ فهمت، ربما أنت تعمل في وكالة الاستخبارات المركزية أو شيء من هذا القبيل.

ـ لا.

كاد بايليس ينظر إلى الرجل الملتحي مرة أخرى، ولكنه منع نفسه.
سأله: «ماذا إذن؟».
أجابه: «فقط عابر سبيل».
ـ فقط عابر سبيل؟
ـ هل تمزح؟
ـ لا مزيد من الأسئلة.
واصلوا السير لنحو كيلو متر كامل، قبل أن يسأل ريكي: «ما الخطة؟».
أجابه: «لا توجد خطة».
ـ أليس لديك خطة؟ إذن ماذا نفعل؟ إلى أين نحن ذاهبون؟
أجابه:
ـ «كان لديَّ خطة لكن لم تكن جزءًا منها، فلا تبدأ في التذمر، وتؤنبني على ما يحدث بينما أمضي».
ظل بايليس هادئًا لبرهة ثم قال: «عُلِم! الخطط أمر مبالغ فيه».
بعد دقيقة أخرى من القيادة ألقى بايليس نظرة خاطفة على عداد السرعة، ورأى أنهم يسيرون بسرعة 60 ميلًا في الساعة على طريق يغطيه الحصى.
سأله الجندي: «ألديك أي مورفين في هذه الحقيبة؟ ساقي تؤلمني للغاية».
ـ آسف يا فتى، أحتاج إليك متيقظًا، يجب أن تقود.
ـ أقود؟
ـ عندما نبلغ التلال سنتوقف جانبًا. سأنزل أنا وستُكملان طريقكما وحدكما.
ـ وماذا عنك؟ لدينا قاعدة جوية في تلعفر، كانت هذه وجهتنا عندما تعرضنا للقصف، يمكننا أن نذهب إلى هناك.

قاعدة العمليات الأمامية ستكون بسيطة ومعزولة، لكنها مجهزة على نحو كافٍ لصد المهاجمين، وستكون أكثر أمانًا من شاحنة صغيرة على طريقٍ مفتوح.

ـ يمكنك أنت، أنا لا أستطيع.

ـ لماذا؟

ـ إنها قصة طويلة، لا مزيد من الأسئلة أيها الجندي، هل تذكر؟

ـ ما الذي يقلقك يا أخي؟ سيعطونك ميدالية أو هراءً من هذا القبيل نظير ما فعلته.

ـ سيعطونني هراءً.

بعد عدة دقائق وصلوا إلى سفوح تلال منطقة جبال سنجار، أوقف الغريب الشاحنة على جانب الطريق في بستانٍ تملؤه أشجار النخيل، وخرج وسحب البندقية الآلية M4، وحقيبته، ثم ساعد الجندي على الجلوس خلف المقود. تأوه بايليس ألمًا.

بعد ذلك تفقد الغريب الجندي الذي يرقد في صندوق الشاحنة، ثم قال بلا مبالاة: «لقد مات».

سارع بإزالة درع كليفلاند الواقية وزيه الرسمي، وتركه في صندوق الشاحنة مرتديًا سرواله وقميصه البنيين، انزعج بايليس من معاملة الجندي القتيل، لكنه لم يقلِ شيئًا، هذا الرجل، هذا. أيًّا من كان بالضبط، لم ينجُ هنا في بلد قُطاع الطرق هذا إلا باستغلال الفرص، وليس بالعاطفة.

ألقى الغريب المعدات بجوار جذع نخلة، وقال: «سيتعين عليك استخدام ساقك اليسرى للضغط على المكابح والوقود».

ـ عُلِم يا سيدي!

ـ إن قاعدتك في الشمال على بعد خمسة عشر كيلو مترًا، أبقِ هذا الرشاش في حجرك، والخزائن بجوارك، وإذا أمكنك فلتبقَ مختبئًا.

ـ ماذا تقصد بمختبئ؟

ـ اختبئ. لا تُسرع أو تظهر، ولا تنزع هذه الكوفية عن وجهك.

ـ عُلِم.

ـ لكن لو تحتم عليك الاشتباك، فلتطلق النار على أي شيء يثير ريبتك، هل تفهم؟ استخدم عقلك يا فتى، عليك أن تكون شرسًا بعض الشيء لتنجو في نصف الساعة المقبلة.

ـ حسنًا يا سيدي. وماذا عنك؟

ـ أنا شرس بالفعل.

جفل الجندي ريكي بايليس إذ يضرب الألمِ ساقه، نظر إلى الأمام وليس إلى الرجل عن يساره وقال: «أيًّا من كنتِ، شكرًا لك».

ـ اشكرني بأن تعود إلى المنزل، بحق الجحيم وأن تنسى أنك التقيتني.

قال: «عُلِم». ثم هز رأسه متمتمًا: «فقط عابر سبيل».

غادر بايليس البستان، وعاد بالشاحنة إلى الطريق، نظر إلى المرآة الخلفية ليلقي نظرة خاطفة أخيرة على الغريب، لكن سديم الحرارة، والغبار المنبعث من إطارات الشاحنة أعاقا الرؤية من الخلف.

3

في شارع بيزووتر بلندن يشرف مبنى تجاري من ستة طوابق على ريف وسط المدينة، وحديقة هايد بارك وحدائق كنسينجتون.

يضم الطابق العلوي من المبنى الأبيض جناحًا كبيرًا لمكاتب شلتنهام للخدمات الأمنية، وهي شركة خاصة تتعاقد مع ضباط لحماية المسؤولين، وأفراد لحراسة المنشآت، وخدمات الاستخبارات الاستراتيجية للشركات البريطانية، وغيرها من الشركات الأوروبية والغربية التي تعمل بالخارج. أشرف على تصميم (ش.خ.أ)[1] وتأسيسه وتشغيله يوميًّا رجل إنجليزي يبلغ من العمر ثمانية وستين عامًا، يُدعى سير دونالد فيتزروي.

قضى فيتزروي الجزء الأول من يوم الأربعاء منهمكًا في العمل، لكنه بعد ذلك أجبر نفسه على إخراج هذه المهمة من ذهنه، استغرق لحظة لتصفية أفكاره، دق بأصابعه على مكتبه المزخرف ذي الأدراج والخزائن الجانبية، لم يكن لديه وقت للرجل الذي ينتظر بأدب في الخارج مع سكرتيرته، ثمة مسألة ملحة تتطلب تركيزه الكامل، لكن لم يكن بوسعه إبعاد الزائر، على فيتزروي أن يؤجل أزمته اللحظية وحسب.

لقد اتصل الشاب قبل ساعة، وأخبر سكرتيرة السير دونالد بأنه يحتاج إلى التحدث مع السيد فيتزروي في شأن طارئ. مثل هذه المكالمات اعتيادية في مكاتب (ش.خ.أ)، لكن الغريب في المكالمة، والسبب الذي منع فيتزروي من أن يطلب من الشاب العنيد الحضور في يوم آخر، هو أن زائره يعمل لدى مجموعة لوران، وهي شركة فرنسية

(1) Cheltenham Security Services :CSS.

عملاقة، أدارت عمليات الشحن والنقل البحري والهندسة ومنشآت الموانى للنفط والغاز والصناعات المعدنية في جميع أنحاء أوروبا وآسيا وإفريقيا وأمريكا الجنوبية. لقد كانوا أكبر زبائن فيتزروي، ولهذا السبب وحده لن يُصرف الرجل باعتذاراتٍ، بغض النظر عن مدى إلحاح الأمور الأخرى.

تولت شركة فيتزروي تأمين مواقع مكاتب مجموعة لوران في بلجيكا وهولندا والمملكة المتحدة، ولكن بالرغم من ضخامة عقد فيتزروي مع لوران مقارنة بحسابات الشركات الأخرى في (ش.خ.أ)، فقد أدرك السير دونالد أن الأمر لم يكن أكثر من قطرة في محيط المجموعة، مقارنة بالميزانية الأمنية السنوية الإجمالية للشركة العملاقة.

اشتهرت مجموعة لوران في دوائر الحماية بأنها تدير أقسامها الأمنية الخاصة بها بطريقة لا مركزية، وتوظف السكان المحليين لتأدية معظم المهام الثقيلة في الدول الثمانين التي تستثمر فيها الشركة.

قد يعني هذا شيئًا بسيطًا كفحص سكرتيرات في مكتب في كوالالمبور، لكنه قد يشمل أيضًا أمورًا شنيعة مثل كسر ساقي عامل ميناء غير مطيع في بومباي، أو تفرقة تجمع نقابي مثير للمتاعب في غدانسك.

بالتأكيد بعض الأزمات كانت تضطر المسؤولين التنفيذيين في مكتب لوران بباريس إلى السفر من وقتٍ إلى آخر في مهام أطول أمدًا، وكان فيتزروي يعلم أن لديهم رجالًا مستعدين لذلك أيضًا.

هناك نقطة ضعف قذرة لدى معظم الشركات متعددة الجنسيات في جميع أنحاء العالم، إذ تعاملت مع بلطجية أكثر من تعاملها مع رجال شرطة، ومع جوعى يبحثون عن عمل أكثر من متعلمين يريدون التنظيم والإصلاح. نعم، استخدمت معظم الشركات متعددة الجنسيات أساليب لا تُحصى في جلسات إحاطة رؤساء الشركة، أو في بنود

الميزانية في التقرير المالي السنوي. لكن عُرف عن مجموعة لوران أنها شركة عملاقة، خصوصًا فيما يتعلق بعملاءَ العالم الثالث وموارده.

لم يؤثر هذا في أسعار السوق على الإطلاق.

أبعد دونالد فيتزروي عن رأسه قلقه بشأن الأمر الآخر، وضغط على زر الاتصال الداخلي طالبًا من سكرتيرته أن تُدخل الزائر، لاحظ فيتزروي أولًا البذلة الأنيقة التي يرتديها الشاب الوسيم، كان هذا عرفًا محليًّا في لندن، فالحكمة تقول: »تعرَّف إلى الخيَّاط تتعرف إلى الرجل».

علم أنه اشتراها من متجر هانتسمان في شارع سافيل رو، وقد أخبرت تلك الملاحظة فيتزروي الكثير عن زائره، السير دونالد نفسه كان من زبائن متجر نورتون وأبنائه[1]، ملابسه أنيقة لكنها بشكلٍ ما لا تناسب بيئة العمل، رغم ذلك فقد أعجبه ذوق الرجل.

بنظرة سريعة متمرسة توصل الرجل الإنجليزي إلى أن زائره محام، تلقى تعليمًا جيدًا، وأمريكي بالرغم من احترامه عادات المملكة المتحدة وآدابها.

قال فيتزروي وهو يقطع مكتبه بابتسامة لطيفة: «لا تخبرني سيد لويد، دعني أخمن، كلية حقوق هنا في مكان ما؟ كلية الملك في لندن؟ أعتقد ربما بعد الانتهاء من الجامعة في وطنك بالولايات المتحدة، سأغامر وأخمن، جامعة ييل، لكن يجب عليَّ أن أسمع منك أولًا».

ابتسم الشاب، ومد يده مقلمة الأظفار بقبضة قوية وهو يقول: «صحيح يا سيدي، كانت كلية الملك، لكني تخرجت في برينستون في وطني».

---

(1) Norton & Sons: متجر خياطة شهير في لندن أسسه والتر جرانت نورتون في عام 1821، واشتراه المصمم الأسكتلندي باتريك جرانت في عام 2005. (المترجم)

تصافحا، وأشار فيتزروي إلى مكان جلوس أمام مكتبه وهو يقول: «نعم، الآن أفهم. برينستون».

عندما جلس فيتزروي على المقعد المواجه لطاولة القهوة أمام ضيفه، قال لويد: «مذهل يا سير دونالد، أظن أنك تعلمت تقييم الناس من وظيفتك السابقة».

رفع فيتزروي حاجبيه الأبيضين الكثيفين، بينما يصب القهوة لكليهما من أدوات الخدمة الفضية على الطاولة وقال: «كان هناك مقال عني قبل عام أو نحو ذلك في الإكونومست، ربما عرفت شذرات عن عملي مع التاج[1] ».أومأ لويد، وأخذ رشفة من قهوته قبل أن يقولَ: «مذنب بحسب الاتهام، قضيتَ أغلب الأعوام الثلاثين التي أمضيتها في الاستخبارات العسكرية في أولستر[2] في أثناء الاضطرابات، ثم غيَّرت مهنتك لأمن المؤسسات، أثق أن هذا المقال الرائع قد ساعدك في عملك».

قال فيتزروي بابتسامة تدرب عليها جيدًا: «بالطبع».قال لويد: «ويجب أن أعترف أنني لم ألتقِ فارسًا نزيهًا من قبل».

ضحك فيتزروي بصوتٍ عالٍ ثم قال: «إنه لقب ما زالت زوجتي السابقة تسخر منه أمام أصدقائنا، إنها تحب أن تشير إلى أنه لقب يُمنح للكرماء وليس النبلاء، وبما أن كلا الوصفين لا ينطبق عليَّ، فقد رأت أنها تسمية غير مناسبة تمامًا».

قال فيتزروي هذا بلا ضغينة، بل بسخرية ذاتية مرحة، بينما ضحك لويد بشكل مهذب.

وقال: «في العادة أباشر الأعمال مع السيد ستانلي في مكتبكم بلندن، ماذا تفعل في مجموعة لوران يا سيد لويد؟».

---

(1) : التاج البريطاني. كنايةً عن الحكومة البريطانية

(2) : إحدى مقاطعات أيرلندا الأربع، تقع في أيرلندا الشمالية. (المترجم)

وضع لويد فنجانه على صحنه ثم قال: «أرجو أن تعذرني لطلبي المفاجئ لقاءك، وكذلك فظاظتي».

أجابه فيتزروي: «إطلاقًا أيها الشاب. على عكس العديد من الإنجليز وخاصة من جيلي، فإنني أحترم فطنة رجل الأعمال الأمريكي، لقد أضرت كثرة الشاي والكعك بالإنتاجية البريطانية ولا شك في ذلك، لذا اطلب مني ما تريد بكل جراأة، كما تحبون أن تقولوا أيها اليانكيز». ورشف فيتزروي قهوته.

مال الشاب الأمريكي إلى الأمام وقال: «إن اندفاعي لا علاقة له بكوني أمريكيًّا بقدر الطبيعة الحرجة لاحتياجات شركتي».

ـ آمل أن أُساعدك.

ـ أنا واثق بهذا، أنا هنا لمناقشة حدث وقع قبل عشرين ساعة في الحسكة.

أطرق فيتزروي برأسه في حيرة وابتسم قائلًا: «نلت مني يا فتى، أعترف أنني لا أعرف الاسم».

ـ إنها في شرق سوريا يا سيد فيتزروي.

تلاشت ابتسامة دونالد فيتزروي المتمرسة ولم يقل شيئًا. أنزل فنجانه ببطء إلى صحنه ووضعه أمامه على المنضدة.

قال لويد: «أعتذر مرة أخرى عن الطريقة التي أندفع بها، لكنِ الوقت في هذه المسألة ليس أمرًا مهمًّا فحسب، بل مؤثرًا وخطيرًا جدًّا».

ـ كلي آذان مصغية.

الآن ماتت ابتسامة الرجل الإنجليزي الدافئة قبل عشر ثوان ودُفنت.

ـ في الساعة الثامنة تقريبًا بالتوقيت المحلي مساء أمس، أنهى

قاتل مأجور حياة الدكتور إسحاق أبو بكر، ربما تعرف أنه كان وزير الطاقة النيجيري.

تحدث فيتزروي بنبرة أقل ودية بشكل واضح عن ذي قبل: «أثرتَ فضولي، هل لديك أي فكرة عما كان يفعله وزير الطاقة النيجيري في

شرق سوريا؟ الطاقة الوحيدة التي يمكن استخراجها هناك هي حماسة الجهاديين الذين يحتشدون قبل التسلل إلى العراق لتأجيج الصراع».

ابتسم لويد: «كان الطبيب الطيب مسلمًا ذا فكر متطرف، ربما كان في المنطقة لتقديم بعض الدعم المادي للقضية. لست هنا للدفاع عن أفعال الرجل، أنا قلق فقط بشأن قاتله الذي نجا وهرب إلى العراق».

ـ يا لسوء الحظ!

ـ ليس للقاتل، كان القاتل بارعًا، بل أفضل من بارع، كان الأفضل على الإطلاق، كان هو من يطلقون عليه الرجل الرمادي.

عقد فيتزروي ساقيه ومال إلى الخلف. وقال: «أسطورة!».

ـ ليس أسطورة بل رجلًا، رجلًا مهارته عالية، لكنه في النهاية رجل من لحم ودم.

خلا صَوت فيتزروي من الحس الأبوي الذي حفلت به المحادثة السابقة وسأله: «لماذا أنت هنا؟».

ـ أنا هنا لأنك المسؤول عنه.

ـ أنا ماذا؟

ـ المسؤول عنه، أنت تنتقي له عقوده، توفر له الاحتياجات اللوجستية، تساعده بالمعلومات الاستخباراتية، تجمع الأموال من دافعيها، وتحول التعويضات إلى حساباته المصرفية.

ـ أين سمعت هذا الهراء؟

ـ سير دونالد، لو كان لديَّ وقت لقدمت لك كل المجاملات التي تستحقها، ويمكننا أن نتجادل، وأن نتبارز بالكلمات، فأضرب وتتفادى، كنا سنحوم حول الغرفة حتى يسجل أحدنا بسيفه ضربة قاتلة. لكن لسوء الحظ يا سيدي، أنا تحت ضغط هائل، مما يجبرني على الاستغناء عن المجاملات المعتادة.

ارتشَف قهوته مرة أخرى، وقد امتعض وجهه قليلًا من مرارتها.

وأكمل: «أعرف أن القاتل هو الرجل الرمادي، وأنا أعلم أنك مسؤول عنه، يمكنك أن تسألني: كيف أعرف هذا؟ لكنني سأكذب وحسب، وعلاقتنا في الساعات القليلة القادمة تعتمد على قدرتنا على التحدث بصراحة».

ـ أكمل.

ـ كما قلت، هرب الرجل الرمادي إلى العراق، لكنه أخطأ في عملية خروجه، لأنه اشتبك ـ بحماقة ـ مع قوة متفوقة من المتمردين في معركة بالأسلحة النارية، قتل أو جرح أكثر من عشرة رجال، وأنقذ أحد رجال الحرس الوطني الأمريكي، وأخرج جثة آخر، والآن هو هارب.

ـ كيف تعرف أن الرجل الرمادي هو من قتل الدكتور أبا بكر؟

ـ لم يكن ليُرسَل أي شخص آخر في العالم من أجل هذه المهمة، لأنه لا يوجد شخص آخر في العالم يمكنه توجيه هذه الضربة.

ـ ومع ذلك تقول إنه قد ارتكب خطأ أحمق!

ـ أقوى دليل على كلامي، أن الرجل الرمادي عمل لدى حكومة الولايات المتحدة، وارتكب خطأ ما فاستهدفته وكالة الاستخبارات الأمريكية، واختبأ من رؤسائه السابقين، بالرغم من علاقته المتوترة بلانجلي[1] فإن الرجل الرمادي يعتبر أمريكيًا وطنيًا، لم يستطع أن يترك تحطم طائرة مروحية، ومقتل أحد عشر أمريكيًا يمر من دون عقاب.

ـ أهذا هو دليلك؟

سوّى لويد طيّة معطف بذلته وقال: «نعلم منذ فترة أن الرجل الرمادي قَبِل التعاقد لتنفيذ اغتيال أبي بكر، عندما مات الطبيب الصالح غدرًا لَم يكن من الصعب التنبُّؤ بشخصية القاتل».

---

(1) : كناية دارجة عن وكالة الاستخبارات الأمريكية، التي يقع مقرها في منطقة لانجلي بولاية فيرجينيا. (المترجم)

ـ اعذرني يا سيد لويد؛ أنا رجل عجوز، عليك أن تعينني على الفهم، ماذا تفعل في مكتبي؟

ـ إن شركتي على استعداد لأن تعرض عليك عقودًا بزيادة قدرها ثلاثة أضعاف لو ساعدتنا على التخلص من الرجل الرمادي. ودون الخوض في تفاصيل غير ضرورية، فإن الرئيس النيجيري يطلب منا أن نساعده على القصاص، وأخذ حق أخيه من قاتله.

ـ لماذا مجموعة لوران؟

ـ سيتضمن ذلك تفاصيل غير ضرورية.

ـ ستكتشف أنها ضرورية إن أردتَ لهذه المحادثة أن تستمر.

4

تردد لويد ثم أومأ ببطء وقال: «ممتاز. هناك سببان: الأول أن شركتي تمتلك جهازًا أمنيًّا قويًّا وبعيد المدى، ويعتقد الرئيس أن لدينا الوسائل المتاحة للتعامل مع هذا الوضع نيابةً عنه. لقد نفذنا عمليات مشبوهة صغيرة للنيجيريين في الماضي، أنت تفهم مقصدي». ثم أضاف وهو يلوح بيده: «خدمة عملاء جيدة».

ارتفع حاجبا فيتزروي حتى تماسا.

«أما السبب الثاني فهو أن يوليوس أبو بكر يشعر بأن لديه بعض النفوذ علينا، لدينا عقدٌ واعِد ينتظر التوقيع، كان على مكتبه عندما قتل رجلك شقيقه، سيغادر الرئيس منصبه في أقل من أسبوع، وقد منحنا مهلة حتى ذلك الحين للانتقام لمقتل أخيه».

ـ ما نوع العقد الذي تنتظر موافقته عليه؟

ـ من النوع الذي لا يمكننا تحمل خسارته، هل تعلم يا سير دونالد، لا تنتج نيجيريا فائضًا من النفط فحسب، بل لديها أيضًا فائض من الغاز الطبيعي؟ هذا الغاز يُهدر بالكامل ويعلو على شكل فقاعات تخرج من آبار النفط التي يملكونها لتتبخر في الهواء، هدر كامل للطاقة والربح.

ـ وتطمع مجموعة لوران في الغاز؟

ـ قطعًا لا، الغاز مورد طبيعي يملكه شعب نيجيريا الطيب، لكن لدينا التكنولوجيا الكافية لأن تعمل في آبارهم، وتعبئ الغاز المُسال في أنابيب حتى يُشحن في لاجوس، ثم يُنقل إلى محطات التصفية في ناقلاتنا مزدوجة الهياكل، التي تخضع حرارتها للتحكم، ثم تكريره من أجل النيجيريين، لقد أمضينا أربع سنوات، وأنفقنا أكثر من ثلاثمائة

مليون دولار على بحث هذا المشروع وتطويره، بنينا السفن، وطورنا ترسانات السفن لبناء المزيد منها، وتفاوضنا على حقوق الأرض لمد خط الأنابيب.

قال فيتزروي ساخرًا: «كل ذلك دون عقد لتصدير المنتج؟ يبدو أن مجموعة لوران بحاجة إلى محامين جدد». أجابه لويد «محامي المجموعة» بغضب: «كان لدينا عقد مع أبي بكر، لكن شعبه عثر فيه على ثغرة فأصلحنا الخطأ المؤسف، واحتجنا فقط إلى إمضائه فوق المستند لإبرام الصفقة وبدء العمليات، حتى قتل رجلك أخاه».

ـ ما زلتُ لا أرى الصِّلة.

ـ الصلة ـ وسامحني على هذه الكلمات ـ هي أن الرئيس أبا بكر هذا وغد.

لاحظ فيتزروي شيئًا ما في هياج المحامي الشاب.

ـ أعتقد أنني فهمت، ارتكب مكتبك خطأً بسبب ثغرة في العقد، وأرسلك سادتك في هذه المهمة لإصلاح ما أفسدوه.

خلع لويد نظارته الرفيعة، وفرك عظمة أنفه ببطء.

ـ سهو ضئيل لن يبرر الاحتجاز خمس ثوان في أي قاعة محكمة في العالم المتحضر.

ـ لكنك تتعامل مع أكثر الدول فسادًا على وجه الأرض.

قال لويد: «ثالث أكثر الدول فسادًا في الواقع، لكن وجهة نظرك صحيحة».

ابتسم بصعوبة بعد أن رشف من القهوة، وأكمل: «أبو بكر يهدد بإسناد العملية لمنافسنا، شركة لم تسعَ حتى إلى الحصول على العقد، يحتاج منافسنا إلى نحو عشر سنوات قبل أن يصل إلى مستوى بنيتنا التحتية من عملاء وخبرة فنية، وستخسر نيجيريا مليارات الدولارات بعد سنوات».

ـ وكذلك مجموعة لوران.

ـ بالتأكيد، لسنا قسم خدمات اجتماعية داخل الحكومة النيجيرية. مصلحتنا الذاتية هي دافعنا. أنا فقط أذكر الفائدة المشتركة لفقراء نيجيريا البائسين الذين سيخسرون، إذا لم أجد الرجل الرمادي وأقتله.

ـ لو ظل هؤلاء البائسون المساكين فقراء بعد المليارات السنوية من الثروة النفطية التي تتدفق بالفعل إلى نيجيريا، فلا أظن أن بضعة خطوط من الغاز ستحسّن مصيرهم في الحياة كثيرًا.

هز لويد كتفيه وقال: «يبدو أننا نحيد عن موضوعنا الرئيس».

سأل فيتزروي: «ماذا عن مُموِّل المشروع؟ لماذا لا يطارده الرئيس؟ لو كانت معلوماتكم صحيحة، فالرجل الرمادي ما هو إلا أجير».

ابتسم لويد ببرودٍ وقال: «كما تعلم جيدًا، فقد قُتل مُموّل المشروع في حادثة تحطمٍ طائرة منذ أشهر. كان يمكن للرجل الرمادي أن يحتفظ بالمال الذي حُوّل إليه بالفعل وينسى المهمة، لكن قاتلك واصل مهمته، يبدو أنه كان يعتقد أنه يفعل شيئًا نبيلًا».

ـ ماذا عني؟ إذا كنت تعتقد أنني متورط في التخطيط لموت إسحاق أبو بكر، فلماذا لا تتخلص مني أيضًا؟

ـ نحن نعلم أن مُموِّل المشروع تصرف من خلال وسيط، هذا الوسيط ـ بدوره ـ كان لديه وسيط، وهو الذي تفاوض معك، الرئيس يوليوس أبو بكر ليس ممن يهتمون بمثل هذه المؤامرات، إنه فقط يريد رأس قاتل أخيه، هذا كل شيء.

ـ أفترض أنك حين تقول يريد رأسًا، فأنت تتحدث مجازًا.

ـ وهل كنت سأفعل ذلك؟ لقد أرسل الرئيس رجلًا من طاقمه الشخصي ليتحقق من إنجازي المهمةَ، يخبرني هذا الرجل أنه سيضع رأس الرجل الرمادي في صندوق من الثلج، ويسلمه لقائده في حقيبة دبلوماسية. أوغاد متوحشون.

بدا أن لويد كان يحادث نفسه في الجملة الأخيرة.

سأله فيتزروي: «ألا توجد طريقة أخرى يمكنك أن ترشو بها الرئيس أبا بكر؟». كان يعلم كيف تسير عقود القطاع العام في العالم الثالث.

نظر لويد إلى بقعة على الحائط، وشردت عيناه واتسعتا حتى أصبحتا أكبر من ملامحه، قبل أن يقول: «لقد رشوناه بالفعل يا سيد فيتزروي بالمال والعاهرات والمخدرات والمنازل والبواخر. إنه وغد لا يشبع، لقد قدمنا الغالي والنفيس من أجل عقد لاجوس، ومع ذلك يتفاوض مع منافسنا. ولكن أن نحضر له رأس قاتل أخيه فهو أمر لا يمكن لأحد آخر أن يفعله، وهو الشيء الذي يستخدمه ضدنا».

سأل فيتزروي: «إذا كان أبو بكر طاغية هكذا، فلماذا يتخلى عن الحكم طواعية؟».

لوَّح لويد بيده في الهواء، كأن الإجابة بديهية وقال: «إنه بالفعل رجل فاحش الثراء، لقد استنزف موارد بلاده والآن حان الوقت لينعم بغنائمه».

ـ ولهذا أنت هنا.

ـ بمنتهى البساطة يا سيد فيتزروي، واعذرني مجددًا على تدخلي الفظ، لكنني على ثقة أن العمل الذي سنوفره لشركة شلتنهام الأمنية سيعوض خسارة قاتل مأجور واحد، مهما تبلغ براعته.

قال فيتزروي: «سيد لويد، أنا أوظف شُبانًا يُعتمد عليهم اعتمادًا أساسيًّا، يفهمون معاني الولاء والثقة والشرف. أحيانًا تضيع مثل هذه المعاني، لكنها بالرغم من ذلك تحفزهم. فإذا تخليت عن حياة رجل، بل أفضل رجالي، من أجل عقد مربح، فلن يخدم هذا مصالحي».

قال لويد: «على العكس، رجلك هذا ليس سوى منتج كباقي المنتجات، هذا النوع مدة صلاحيته قصيرة. ستة أشهر، سنة. بالتأكيد ليس أكثر من ثلاثة أعوام، وبعدها إما سيموت وإما سيصبح عاجزًا، أي بلا قيمة لك كونه مصدرًا للدخل، ما أعرضه عليك سيملأ خزائن شركتك ما بقيت.

ـ أنا لا أضحي برجالي في سبيل العمل.

بعد لحظة صمت، قال لويد:

ـ أفهمُك، سأتواصل مع باريس، ربما يمكنني تحلية العرض قليلًا.

ـ الأمر لا يتعلق بمذاق ما تعرضه، أنا أرفض العرض برمته.

مال لويد مقتربًا، وكان ثمة تهديد خافت في صوته:

ـ إذا لم أتمكن من تحلية العرض، فسأضطر إلى تقليبه، أريد إنهاء قاتلك، أود استخدام الجزرة، لكنني على استعداد لاستخدام العصا.

ـ ربما يجب أن تحذر يا فتى، لا أحب الاتجاه الذي تنحرف إليه هذه المناقشة.

حدق الرجلان أحدهما إلى الآخر لعدة ثوان. قال لويد: «أعلم أن لديك فرقة إخلاء في الطريق لالتقاط الرجل الرِّمادي الليلة. أريدك أن تأمر رجالك بالقضاء عليه، بمكالمة هاتفية واحدة وحافز مالي يُمكن أن ينتهي هذا الأمر بسرعة وبصورة نظيفة».

ضاقت عينا فيتزروي وسأله: «أين سمعت هذا؟».

ـ لا يمكنني الكشف عن مصادري الاستخباراتية.

ـ أنت مخادع. أنت لا تعرف شيئًا.

ابتسم لويد: «سأعطيك لمحة سريعة عما أعرفه، وبعد ذلك قرِّر ما إذا كان الأمر كله خدعة. أظن أن ما أعرفه عن فتاك أكثر مما تعرفهَ. الاسم الحقيقي لقاتلك هو كورتلاند جينتري ولقبه كورت، يبلغ من العمر ستة وثلاثين عامًا، أمريكي وكان والده يدير مدرسة لفرقة التدخل السريع بالقرب من تالاهاسي بفلوريدا، حيث نشأ جينتري، تدرب الصبي مع الضباط المقاتلين يوميًا، وفي السادسة عشرة من عمره كان يوجه فرق التدخل السريع لتقنيات العمليات القتالية المتلاحمة.

عندما كان في الثامنة عشرة من عمره، صاحب أصدقاء سوء في ميامي، وعمل لفترة مع عصابة كولومبية، واعْتُقِل في كي ويست؛ لمقتل ثلاثة من تجار المخدرات الكوبيين بالرصاص في فورت لودرديل.

تمكن مسؤول كبير في وكالة الاستخبارات المركزية ـ تدرب في ميدان رماية والد كورت ـ من تهريب الفتى من السجن، وأرسله للعمل مع وحدة سرية داخل إدارة العمليات. لسنواتٍ تولى تنفيذ مهمات سرية حول العالم، أغلبها عمليات تجسس، حتى 11 سبتمبر حيث نُقِل إلى قسم الأنشطة الخاصة، وعمل أحيانًا ضمن فرقة العمليات الخاصة في وحدة الترحيل السري، المعروفة رسميًا باسم كتيبة جولف سييرا الخاصة، التي اشتهرت بين القلة الذين عرفوا عنها على الإطلاق باسم فرقة الأشقياء».

ـ بالتأكيد أنت تختلق هذا.

تجاهله لويد وواصل: «لقد كانت فرقة هجومية مخصصة للعقوبات، مؤلفة مما نسميه في العمل: عملاء ذوي سرعة عالية وفعالية أكيدة. الأفضل على الإطلاق، وليس طراز جيمس بوند. كان هؤلاء الرجال يركزون أكثر على الضرب بالخنجر ويتجاهلون صيت دراما التجسس. لبضع سنوات كانوا أفضل وأشرس وحدة في وكالة الاستخبارات المركزية. لقد قتلوا من لم نتمكن من تسليمهم، وقتلوا من لم نكن نتوقع أن نعرف منهم الكثير من المعلومات المفيدة، وقتلوا أولئك الذين يزرع موتهم الخوف في قلوب الإرهابيين وعقولهم.

ثم ساءت الأمور قبل أربع سنوات. يقول البعض إن الحسابات السياسية كان لها شأن، والبعض الآخر مقتنع بأن جينتري أخطأ في عملية ما ولم يعد مفيدًا، ولا يزال آخرون يصرون على أنه أصبح قذرًا. أيًا كان السبب فقد صدر بحقه إشعار حرق[1]، ثم أمْر بقتله حال رؤيته. لقد استهدفه زملاؤه السابقون في قسم الأنشطة الخاصة. ولكن جينتري لم يستسلم قط، لقد قتل بعض زملائه في كتيبة أشقياء جولف سييرا الذين كانوا يعتزمون قتله، ثم توارى عن الأنظار.

(1) : بيان رسمي عن وكالة استخبارات إلى وكالات أخرى، يُعلَن فيه أن أحد العملاء أو مصدر استخبارات أصبح غير موثوق به لسبب أو لآخر.

أمضى فترة في بيرو وبنجلاديش وروسيا، وأماكن أخرى غير معلومة. في غضون ستة أشهر نفد ماله، فانخرط في العمل في القطاع الخاص، وعمل عندك، ليفعل كل ما يبرع فيه: من طلقات في الرأس، ونحر الأعناق، وبنادق قنص، ومطاوٍ».

كانت هناك دقات خافتة على باب المكتب، مالت سكرتيرة فيتزروي إلى الداخل.

قالت: «عذرًا يا سيدي، لديك مكالمة». ثم أغلقت الباب وراءها.

نهض فيتزروي ثم تبعه لويد. قال له الشاب الأمريكي: «يمكنني أن أنتظر بالخارج».

ـ لا داعي، لقد انتهت المقابلة.

ـ أنت ترتكب خطأ فادحًا بالتخلص مني، أحتاج أن تأمر فرقة الإخلاء التابعة لك بأن تصفّي الرجل الرمادي، وإذا لم يقنعك العرض الذي قدمته لك، فيمكنني أن أجري بضع مكالمات هاتفية، وسأبذل ما بوسعي، لكن ما ليس بوسعي فعله يا سيد فيتزروي هو رجوعي لمرؤوسيَّ دون حل لهذه الأزمة.

كان فيتزروي قد اكتفى.

ـ لقد أساءت شركتك الحكم، فلا يمكنهم رشوتي كما فعلوا مع ذلك الدكتاتور الإفريقي الوضيع.

حدجه الشاب الأمريكي بنظرةٍ ثم قال: «إذًا. أقدم إليك اعتذاري».

تصافح الرجلان، لكن نظراتهما كانت باردة. عندما سار لويد نحو الباب، انحرف إلى اليسار وتطلع إلى نسخة مؤطرة من مقالة الإيكونوميست معلقة على الحائط. جاء في العنوان: «مدير وكالة تجسس سابق يصبح رجل أعمال في مجال أمن الشركات»، أشار لويد إلى الإطار، وعاد إلى الرجل الإنجليزي الأكبر سنًّا.

وقال: «مقال رائع، به الكثير من المعلومات». ثم نظر إلى صورة على الحائط لابن فيتزروي مع زوجته وابنه المراهق.

وأكمل: «ابنك لديه ابنتان الآن، أليس كذلك؟ يعيش هنا في لندن، لديه منزل مستقل في حدائق ساسكس، إذا كنت أتذكر جيدًا ما قرأته في مجلة الإيكونوميست».

ـ لم يرد ذلك في مقال الإيكونوميست.

ـ حقًّا؟

هز لويد كتفيه ثم أكمل: «ربما التقطتُ هذا من مكان آخر. يومًا سعيدًا يا سير دونالد، سنكون على اتصال، قد تتوقع طردًا في غضون ساعة.

استدار واختفى من الباب.

وقف فيتزروي وحيدًا في مكتبه للحظة.

لم يكن السير دونالد ليفزع بسهولة، لكنه شعر برعشة خوفٍ لا ريب فيها.

5

قبل الفجر بساعتين كانت الحرارة قد ارتفعت بالفعل في المطار المهجور. كانت الطائرة العملاقة **لوكهيد إل-100** الجاثمة في نهاية المدرج متوقفة عن العمل، وقد أطفأت أنوارها حتى لا تُرى من مسافة بعيدة، لكن طاقم الطائرة جلسوا في مقاعدهم وأيديهم ترتعش بالقرب من الصمام الخانق، نفثت المراوح الغبار الجاف والرمال الحادة في وجوه الرجال الخمسة التي أرهقتها الرياح، بينما أصاب الجفاف حلوقهم، وهم يقفون في المطار عند نهاية مدرج الطائرة المنخفض.

كانت كل العيون تنظر نحو الجنوب، بعيدًا عن المطار الأشبه بكوخ صغير، وإلى الخارج عبر السياج المتشابك، وخارجه نحو الظلام اللامتناهي في غرب العراق.

وقف الرجال الخمسة متقاربين، لكن التواصل الطبيعي كان مستحيلًا. حتى في وضع الاسترخاء، ملأت محركات أليسون في الطائرة ذات الشفرات الأربع الهواء بطنين متواصل هز الأرض، لولا أجهزة راديو هاريس فالكون للمسافات القصيرة وميكروفونات الصوت لضاعت كلمات الرجال مثل المناظر الطبيعية التي لا تلتقطها نظاراتهم للرؤية الليلية.

أمسك ماركهام بيده اليسرى رشاشًا من طراز هيكلر وكوخ[1] متدليًا على صدره، وضغط بيمينه على زر الإرسال اللاسلكي على سترته متعددة الجيوب ثم قال: «لقد تأخر».

---

(1) Heckler & Koch GmbH: شركة ألمانية شهيرة لتصنيع المسدسات والبنادق والمسدسات الرشاشة وقاذفات القنابل اليدوية.

عض بيريني طرف الأنبوب المعلق فوق كتفه، وامتص الماء الدافئ من القربة نصف الفارغة في حقيبته، بصق معظمه على مهبط الطائرات الرملي أمام حذائه، تدلت بندقيته الآلية من طراز موسبرج من يده اليمنى.

وقال: «إذا كان هذا الوغد بارعًا، فلماذا لا ينفذ عملية الإخلاء في الوقت المحدد؟».

قال دولين: «إن الرجل الرمادي شخصٌ بارع، وإذا تأخر فلديه سبب وجيه»، بينما يضع يديه على وركيه، والرشاش ذو الماسورة القصيرة معلق أفقيًا على صدره، وأكمل: «كن حذرًا، إنها عملية صغيرة فحسب، سنأخذه ونعتني به حتى الحدود، ثم ننسى أننا رأينا هذا الوغد».

قال ماكفي ببعض التبجيل: «الرجل الرمادي، إنه الرجل الذي قتل ميلوسيفيتش، لقد تسلل إلى سجن تابع للأمم المتحدة وسمَّم ذلك الوغد»، تدلى مسدسه الرشاش (إم بي5) من حمّالته، بينما يشير كاتم الصوت إلى الأسفل مباشرة باتجاه المدرج، ثبَّت رسغه على كعب السلاح القصير.

قال بيريني: «لا يا أخي، لقد فهمتها بالعكس، لقد قتل الرجل الذي قتل ميلوسيفيتش. كان ميلوسيفيتش على وشك أن يكشف أسماء، مسؤولي الأمم المتحدة الذين ساعدوه في الإبادة الجماعية في البوسنة وكوسوفو. أرسلت الأمم المتحدة قاتلًا لتسميم سلوبو العجوز، ثم قتل الرجل الرمادي القاتل بعد الواقعة». شرب بشراهة ثم بصق الماء الدافئ من فمه، وقال: «الرجل الرمادي بارع للغاية، إنه لا يعبأ بشيء ولا يخاف».

كرر دولين ما قاله من قبل: «إنه متأخر للغاية، هو دومًا كذلك». ثم نظر إلى ساعته وهو يقول: «قال فيتزروي إنه قد يتعين علينا

الانتظار، وقد نضطر إلى القتال، فكل خمسين كيلو مترًا ينتظره صيَّاد ما ليصطاده بأبشع الطرق».

كان بارنز صامتًا، لكنه تحدث الآن: «سمعت أنه نفذ هذه العملية في كييف».

تمشى بعيدًا عن مدرج الطائرة، إذ يمسح الظلام بمنظار الرؤية الليلية الثلاثية على بندقيته الآلية القصيرة إم4 .

قال دولين: «هراء!». وعلى الفور اتفق معه الاثنان الآخران، إلا أن ماكفي أيَّد بارنز قائلًا: «نعم، هذا ما سمعته، هذا الشخص الرمادي نفذ العملية بمفرده».

قال ماركام: «مستحيل! ما كان لعمليةٍ كييف أن ينفذها رجل واحد، بل على الأقل فريق من اثني عشر رجلًا على أعلى مستوى».

هز بارنز رأسه في الظلام، وقال: «سمعت أنه كان صيادًا واحدًا. سمعت أنه الرجل الرمادي».

أجاب ماركهام: «أنا لا أومن بالسحر».

في تلك اللحظة دوت خشخشة في سماعات أذن الرجال الخمسة بالتزامن. رفع دولين يده لإسكات فريقه، وضغط على زر التحدث على جهاز صدره وقال: «كرر الإرسال الأخير».

سُمعت خشخشة أخرى، في النهاية ظهرت كلمات أخرى مفككة عبر جهاز الإرسال «ثلاثين ثانية. تحرك. مطارد!». لم يكن هناك إمكانية للتعرف إلى الصوت، ولكن من الواضح أن الرسالة كانت عاجلة.

سأل بارنز: «هل هذا هو؟».

لا أحد يمكنه التأكيد.

مرة أخرى دبَّت الحياة في جهاز الاتصالات بصورة أكثر وضوحًا الآن، نظروا نحو البوابة المفتوحة في مقدمة المطار الصغير.

ـ أنا قادمٌ بسرعة! لا تطلقوا النار!

رد دولين عبر جهاز الاتصالات: «إشارتك متقطعة. حدِّد موقعك مرة أخرى». سُمعت خشخشة إرسال: «شمال غرب».

عندها فقط سمعوا صوت اصطدام في الشمال وبوق سيارة. تطلع الجميع جنوبًا، وأداروا رؤوسهم وفوهات بنادقهم الآلية شمالًا باتجاه الضجة، ورأوا شاحنة دفع رباعي مدنية، أحد مصابيحها الأمامية مطفأ، تُحطم السياج وتخرج فجأة من الرمال إلى مدرج المطار. كانت الشاحنة تتحرك بسرعة مذهلة مباشرة نحو الطائرة **(L-100)**.

جاء الصوت عبر الاتصالات مرة أخرى: «لست وحدي!».

حينها فقط ظهرت إضاءة مصابيح أمامية بطول المسار الواسع خلف الشاحنة التي راحت تقفز بعنفٍ، في البداية ظهرت مجموعتان، ثم أربعة، ثم أكثر.

قيّم دولين الوضع في ثانية واحدة، ثم صاح في طاقمه وسط طنين المحرك: «إلى الطائرة!».

***

صعد الخمسة جميعًا إلى متن الطائرة، وكانت **(L-100)** تتحرك بالفعل على مدرج المطار عندما انطلق رجل مسلح يرتدي ملابس قذرة وسترة واقية وصعد إلى الباب الخلفي. أمسك ماكفي بيد «الرجل الهارب» المرتدي القفازات، وسحبه أعلى المنحدر الحاد، وضرب ماركهام يده على ذراع الرفع الهيدروليكي لإغلاق الباب الخلفي إذ أمر دولين الطيارين عبر نظام الاتصال الداخلي في المقصورة، وأطلقت المحركات الأربعة المروحية من أجل الإقلاع.

مع إغلاق المخرج الخلفي، سقط الرجل على واقيات الركبة التي يرتديها في منتصف المقصورة الخالية، علّق بندقيته **(إم4)** على حزام الأدوات حول صدره، لكنه فقد معظم ذخيرته، وسترة نومكس بنية

ممزقة في عدة أماكن، غطت نظارة واقية وجه الرجل الذي تلطخ بالشحوم والعرق.

خلع خوذته وألقاها على أرضية المقصورة، التي مالت في أثناء دوران الإقلاع، انبعث البخار من شعره البني الكثيف المتشابك، وظلت لحيته تقطر عرقًا كصنبور مسرب.

رفع دولين الرجل الرمادي عن الأرض، ووضعه على المقعد المثبت في جسم المقصورة، ثبّته على المقعد بحزام وجلس بجانبه.

سأل: «هل تتألم؟».هز الرجل رأسه.

صاح دولين وسط دوي المحركات: «دعني أساعدك على نزع معداتك».

ـ لن أنزعها.

ـ كما تشاء، مدة الرحلة أربعون دقيقة فقط، فور وصولنا تركيا سنمضي إلى مأوى آمن، ومساء غد سيطلعك فيتزروي على التعليمات، سنحميك حتى ذلك الحين.

قال الرجل المتسخ وقد شق عليه التنفس: «أقدّر ذلك». وتسمّرت عيناه في الأرض إذ يتحدث، وضم ذراعيه حول طرف البندقية التي تتدلى من رقبته.

جلس الأربعة الآخرون في المقعد الشبكي الأحمر الذي يبطّن جانب جسم الطائرة، وراحوا يحدقون جميعًا إلى الرجل، وحاولوا دون جدوى التوفيق بين العميل متوسط المظهر الذي يجلس بينهم وبين سمعته الخارقة.

جلس الرجل الرمادي، ودولين بجوار لوح لنقل المعدات مربوط بحزام إلى وسط الطائرة.

قال دولين: «سأتصل بفيتزروي وأخبره أننا أقلعنا، سأجلب لك ماء وأعود بسرعة».

استدار وجاهد ليصل إلى مقدمة المقصورة في أثناء الارتفاع الحاد للطائرة. أخرج هاتفه المتصل بالقمر الصناعي في أثناء مشيه.

***

كانت الساعة قد تخطت الثالثة صباحًا في لندن، وفي الطابق السادس من مبنى تجاري أبيض في طريق بيزووتر، طرق رجل مسن يرتدي بذلة مقلمة ومجعدة بأصابعه على مكتبه. كان وجهه شاحبًا والعرق يتصبب على رقبته المكتنزة، ليبلل بذلته الأكسفورد المصنوعة من الصوف المصري. حاول دونالد فيتزروي الاسترخاء لإزالة القلق البارز في صوته.

رن الهاتف الذي يعمل بالأقمار الصناعية مرة أخرى.

نظر مرة أخرى، للمرة العشرين، إلى الصورة المؤطرة على مكتبه، كانت لابنه. أنه في الأربعين الآن، جالس على أرجوحة على الشاطئ، بجواره زوجته الجميلة، بينما يجلس توأمان، فتاتان، على ساقي الأب والأم إذ تبتسمان بشدة.

أبعد فيتزروي نظره عن الصورة المؤطرة، ونظر إلى مجموعة من الصور المتفرقة بين يديه المكتنزتين وقد ألقى عليها عشرين نظرة أيضًا. كانوا الأربعة أنفسهم، العائلة نفسها، على الرغم من أن التوأمين قد صارتا أكبر سنًّا بعض الشيء.

كانت عملية مراقبة تقليدية: الأسرة في الحديقة، والتوأمان في مدرستهما بالقرب من ميدان جروسفينور، وزوجة الابن تدفع عربة التسوق في السوق. استنتج فيتزروي من الزوايا والمسافة من الأهداف رسالة المصور ومفادها: أن بإمكانه الوصول بسهولة إلى الأربعة والإمساك بكل واحد منهم.

كان تلميح لويد واضحًا: يمكن الوصول إلى عائلة فيتزروي في أي وقت.

رن الهاتف عبر الأقمار الصناعية مرة ثالثة. زفر فيتزروي بقوة ملقيًا الصور على الأرض، وأمسك الجهاز المزعج.

ـ ستاندستيل. هل تسمعني يا فولكورت؟

***

قال دولين: «أسمعك بوضوح، ستاندستيل». ضغط أذنه بقوة على سماعة هاتف القمر الصناعي ليتخلص من هدير المحرك. وأكمل: «كيف تسمعني؟».

ـ صوتك واضح وعال. أبلغ عن حالتك.

ـ ستانسدتيل. فولكورت، الرجل معنا، وأخلينا الموقع المستهدف.

ـ مفهوم. ما وضعه؟

ـ يبدو في حالة سيئة يا سيدي، لكنه يقول إنه على ما يرام.

قال فيتزروي: «مفهوم، انتظر لحظة».

فرك دولين وجهه بيده ذات القفاز، ونظر إلى الجزء الخلفي من طائرة الشحن إلى مساعديه الأربعة، ثم وقع بصره على الرجل الرمادي الذي جلس في نهاية المقعد، تُخفي وجهه نظارة واقية ولحية وشحم، ومع ذلك استطاع دولين أن يستنتج أن الرجل مرهق، إذ مال ظهره على جدار جسم الطائرة، واستند بذراعيه إلى بندقيته **(إم4)** وحدقت عيناه إلى الفراغ.

كان طاقم دولين على يمين الرمادي، وكانوا جميعًا مسلحين تسليحًا موحدًا، ولكن تفصلهم عنه بضع أقدام. أي مسافة مقعد.

بعد ثلاثين ثانية، عاد دونالد فيتزروي إلى الخط. وقال: «فولكورت، هذا ستاندستيل. هناك تغيير في العملية، سيُدفع أجرك أنت ورجالك بالطبع وفقًا لذلك».

اعتدل دولين في جلسته وقطب جبينه. وقال: «عُلِم يا ستاندستيل. تابع تحديث تفاصيل العملية».

ـ أحتاج إلى إلغاء تسليم الرجل.

أطرق دولين برأسه. وقال: «هذا أمر مرفوض يا ستاندستيل، لا يمكننا العودة إلى المطار، إنه يضج بعناصر المعارضة و...».

ـ ليس هذا ما أعنيه يا فولكورت، أحتاجك أن... تقضي عليه.

لحظة صمت، ثم قال: «ستاندستيل. فولكورت. كرر جملتك الأخيرة».

تغيرت نبرة الصوت عبر هاتف الأقمار الصناعية، فصارت أقل رسمية وأكثر إنسانية. قال: «لديَّ مشكلة. هنا، فولكورت».

قال دولين بينما فقدت نبرة صوته الإيقاع المقتضب لبروتوكول الراديو: «نعم، أظن أن لديك مشكلة بالفعل».

ـ أريد أن يُقضى عليه.

وضع دولين رأسه في يده التي ترتدي قفازًا. بدأ ينقر بأصابعه على جانب وجهه.

وسأل: «هل أنت واثق بهذا؟ إنه أحد رجالك».

ـ وأنا أعلم ذلك.

ـ أنا أحد رجالك.

ـ الأمر معقد، يا فتى هذه ليست الطريقة التي أدير بها الأمور عادة.

ـ لا يبدو هذا صائبًا.

ـ كما قلت، ستُعَوَّضون جميعًا عن هذا التغيير في العملية الأصلية.

ظلت عينا دولين على الرجل الرمادي وهو يسأل: «كم؟».

بعد خمس دقائق، نظر دولين إلى رجاله وهو يبحث عن مفتاح اختيار الراديو الخاص به على جهاز الصدر. أدار الاتصال الهاتفي ببضع نقرات.

وقال: «لا تنطقوا شيئًا. فقط أومئوا برؤوسكم إذا سمعتم».

تطلع كلٌّ من بارنز وماكفي وبيريني وماركهام إلى أعلى ومن حولهم حتى استقرت نظراتهم على دولين عند الحاجز وأومؤوا في الوقت نفسه.

لم يدرك الرجل الرمادي ما يدور حوله، وحدق بهدوء إلى منصة تحميل المعدات أمامه.

قال دولين: «اسمعوا، أمَرنا ستاندستيل أن نتخلص من الرجل الرمادي».

رأى دولين الذهول على وجوه رجاله عبر ثلاثين قدمًا من المساحة الواسعة في المقصورة عالية الإضاءة، وهز كتفيه تملصًا: وأكمل: «لا تسألوني يا شباب، أنا فقط أعمل هنا».

نظر إليه الرجال الأربعة الجالسونٍ على المقعد مع الرجل ، ورأوه الأقرب إلى الباب المنحدر، مربوطا، وبندقيته **(إم4)** على صدره، ووجهه الملتحي يحدق إلى أرضية المقصورة.

تطلعوا مرة أخرى إلى قائدهم، وأومؤوا برؤوسهم ببطء في حركة واحدة.

6

جلس كورت جينتري بمفرده بالقرب من مخرج الطائرة المغلق، واستمع إلى صوت المحركات محاولًا التقاط أنفاسه للسيطرة على مشاعره. كان جسده على مقعد شبكي في الجزء الخلفي من الطائرة، لكن عقله كان يهوي إلى الأسفل، في الظلام، في الرمال. في المتاعب.

نهض العميل الأقرب ليمينه وتحرك حول منصة المعدات، ثم جلس على المقعد المواجه له. نظر جينتري مكتوف اليدين إلى يمينه، ولاحظ قائد فريق الإخلاء وهو يضبط معداته. بدأ ينظر إلى الرجال الآخرين، لكن رأسه عاد إلى الرجل عند الحاجز.

شيء ما لم يكن على ما يرام.

كان ظهر قائد الفريق مستقيمًا، ووجهه جادًّا، رغم أنه لم يكن ينظر إلى أي شيء محدد، كان رشّاش **(إم بي5)** على صدره، وعدّل قفاز يده اليمنى في أثناء تحرك فمه، كان يبعث بإشاراتٍ عبر جهاز الإرسال القريب، يرسل الأوامر إلى رجاله.

نظر جينتري إلى جهاز راديو هاريس فالكون الخاص به، لقد كان على القناة نفسها مثل باقي الفريق، لكنه الآن لا يستطيع سماع الإرسال.

استدار كورت إلى الرجال الثلاثة بجانبه على المنصة، من وقفتهم وتعابير وجوههم توصل جينتري إلى أن شأنهم شأن قائدهم، لم يتخلصوا من التوتر بعد الإجلاء من منطقة الخطر. لا، لقد تحركوا وبدا كأنهم على وشك الشروع في العمل.أمضى جينتري ستة عشر عامًا في العمليات السرية، درس الوجوه وتقييم تهديدات الحياة. كان يعرف كيف يبدو المجند عند انتهاء المعركة، ويعرف كيف يبدو عندما يكون هناك قتال على وشك البدء.

حلَّ الشريط الذي يثبته إلى المقعد خلسةً، واستدار في مقعده لمواجهة الرجال حوله. كان دولين على الحاجز، لم يعد يرسل إشارات بل راح يحدق إلى جينتري.

صاح جينتري عبر هدير المحرك: «كيف الحال؟».وقف دولين ببطء، فصاح كورت مرة أخرى عبر المقصورة المزعجة: «أيًّا كان الذي تفكر في فعله، عليك فقط...».

استدار ماركهام بسرعة على المقعد، والتفت باتجاه الرجل الرمادي، شاهرًا مسدسه أمامه بالفعل. ضغط جينتري بحذائه المغبر بالرمال على الجدار وراء المقعد، وانطلق عبر المقصورة، حاول أن يستتر خلف منصة المعدات المثبتة على الأرض.

بدأ القتال. لم ينشغل كورت بمعرفة سبب انقلاب من أنقذوه عليه، لم يهدر خلية دماغية واحدة في تأمل مجريات الأحداث. كان كورت قاتل بشر، وهؤلاء كانوا بشرًا، وهذا كل ما في الأمر.

أطلق ماركهام رصاصة من مسدسه الألماني طراز سيج سوير، لكنه أخطأ الهدف قبل أن يختفي جينتري خلف شحنة بضائع، ورأى ماركهام وبارنز يفكان أحزمة مقعديهما بسرعة.

لم يكن هناك سوى ماكفي على يسار جينتري، حيث جثم الرجل الرمادي خلف المنصة مواجهًا أبواب قمرة القيادة على بعد ثلاثين قدمًا. وقف دولين بالقرب من الجدار الفاصل عند الأبواب، وكان المجندون الثلاثة الآخرون في المقدمة وإلى يمينه.

علم جينتري أنه إذا تخلص من الرجل على يساره، فسيقضي على أحد مراكز قوتهم؛ لذلك خرج من خلف المنصة، مستندًا إلى كتفه اليسرى، رافعًا البندقية الآلية **(M4)**، وأطلق وابلًا من الرصاص على المجند. ارتطم وجه الرجل الذي أخفته النظارة الواقية بالحائط، وسقط مسدسه الرشاش **(HK)** من أطراف أصابعه.

تراجع ماكفي مرة أخرى على المقعد ميتًا.

قتله جينتري، ولم يكن لديه أي فكرة عن السبب.

***

سرعان ما بدأ كل رجل في الجزء الخلفي من الطائرة يطلق النار من سلاحه. أربعة بنادق تنهال بالرصاص ناحية جينتري.

اختبأ جينتري خلف مخزن المعدات، وهنا بدأ جدار هيكل الطائرة خلفه يئن. سمحت الثقوب، التي أحدثتها العشرات من طلقات البنادق، للهواء المضغوط أن يخرج من الطائرة. لم يتمكن طاقم طائرة الشحن في المقدمة من سماع صوت الهيكل إذ يتحطم، لكن من الواضح أنهم سمعوا إطلاق النار من خلفهم، لأنهم وضعوا الطائرة في حالة هبوط للوصول إلى هواء أكثر سُمكا، ولخفض فرق الضغط على أمل أن يحافظوا على طائراتهم من التحطم إلى أشلاء.

يبدو أن هبوط الطائرة وفر بيئة منعدمة الوزن لجينتري وباقي القتلة الأربعة المحتملين.

تحرك كورت بعيدًا نسبيًا عن موقع منصة المعدات الآمن، وهبط أخيرًا على سقف المقصورة بقفزتين خلفيتين، ثم انطلق بسرعة على سطحها إلى السلم الخلفي، الذي صار أعلى نقطة في حجرة الشحن.

ارتفع اثنان من المسلحين في الهواء أيضًا وأطلقا النار إلى أعلى على هدفهما.

شعر جينتري برصاصتين يبلغ قطرهما تسعة ملليمترات من رشّاش **(MP5)** تنغرزان في درع سترته الواقية.

أفقدته قوة الاصطدام توازنه للحظة، لكنه رأى من موقعه ـ وقد انقلب رأسًا على عقب ـ مجندًا لم يفك حزام مقعده، وراح يركل الهواء بشكل محموم، مقيدًا إلى الحائط على يمين جينتري. هدف سهل، أطلق جينتري النار على رأس بيريني ببندقية **(M4)** القصيرة،

فترنح جسده، ورقصت ذراعاه وساقاه مع انعدام الوزن بسبب هبوط الطائرة السريع.

في الثواني العشر التالية، دار الأربعة الذين ظلوا على قيد الحياة بالمقصورة في الهواء مثل الجوارب في الغسالة. كان قائد الفريق دولين تحت الآخرين. لقد تمكن من الإمساك بجزء من الحزام على الحاجز الأمامي وربط ذراعه بأمان. والآن حاول توجيه مسدسه الرشاش نحو جينتري الذي يعلوه بثلاثين قدمًا.

لكن ماركهام وبارنز اصطدما بجينتري، إذ يحلّقون جميعًا في الهواء بلا سيطرة على الإطلاق. تطايرت أعقاب البنادق والأحذية والقبضات كلما تحرك الهدف للإمساك بالبندقية.

بالرغم من انعدام وزن الرجال، لكنهم كانوا في الواقع يندفعون نحو الأرض، ويسقطون من السماء بأقصى سرعة. لكن هناك طائرة تحملهم وتسقط أيضًا، لهذا لم يتمكنوا من رؤية أي نقاط استدلال ليدركوا بها أنهم يسقطون مثل الحجارة.

وسط الفوضى والصراخ والتشويش الناتج عن فقدان الأرض الثابتة، دار كورت عائدًا إلى الخلف مرة أخرى، وانزلقت يداه اللتان كانتا تقبضان على البندقية، فانخلعت حمّالتها من رأسه، وظل السلاح يبتعد، فأخرج مسدسه الجلوك وأطلق النار دون تصويب، لكنه شعر بلدغة الرصاصة وهي تخترق ساقه اليمنى، ارتدت ساقه إلى الوراء من أثر الرصاصة كأنها مطرقة، لكنه تجاهل الإصابة، وثبت قدميه على أرض السلم الخلفي. نظر إلى أعلى ـ الذي قد صار في الأسفل ـ ورأى دولين في محيط نظره، كان قائد فريق الإجلاء قد تعلّقت ذراعه بالشبكة الحاجزة، وبالذراع الأخرى أمسك بالرشاش الملفوف حول رأسه وصوّبه إلى الرجل الرمادي.

أطلق كورت ست رصاصات بسرعة ورأى كيف تفاعل جسد المجند مع اختراق الرصاص جذعه وفخذه، ثم التفت جينتري ليصوب باتجاه

بارنز وماركهام، هدفيه الأخيرين، لكن جثة ماكفي طارت عبر مرمى نيرانه. عندها فقط قرر الطيار ـ على ما يبدو ـ أنه رأى ما يكفي من الرمال في زجاجه الأمامي، وسرعان ما خرج من وضع الهبوط. طار جميع الركاب في الخلف، الموتى والأحياء معًا، في الهواء واصطدموا بأرضية الطائرة الفولاذية بقوة، ليتدحرجوا مثل كرات البولينج نحو حاجز الطائرة الأمامي.

طار مسدس كورت بعيدًا عن يده عند الاصطدام، وارتد هو إلى الأمام، حيث اشتعلت حرارة جرح الرصاصة في فخذه مع كل هزة. تدحرج كورت نحو شبكة الحاجز الأمامي في أثناء اعتدال الطائرة، وكاد يمسك به، لكن الطيار وضع الطائرة **(L-100)** مرة أخرى في وضع الصعود. استعان جينتري بقوة الدفع ليبقى في الأمام لبعض الوقت، لكن عندما أصبحت أرضية البضائع منحدرًا حادًّا يتجاوز خمسًا وأربعين درجة فقد آخر ما لديه من ثبات، وبصعوبة تمكنت أطراف أصابعه من لمس حزام النايلون بجوار دولين الذي تحجر مكانه.

عاد الرجل الرمادي إلى الخلف، وتدحرج مستقرًّا على كعبيه وسقط، ثم انزلق قبل أن يتدحرج، وأخيرًا أصبح كورت في الجو عندما انتصفت المسافة بينه وبين المقصورة. تفاقم ألم فخذه عندما هبط على وركيه عند مخرج الطائرة، لكن هذا الألم لم يكن يُقارن بألم ارتطام جسد ماركهام بصدر كورت.

واجه ماركهام الاتجاه الآخر وقد ذُهِل أكثر من جينتري نفسه من أثر الارتطام، لذلك كان من السهل على الرجل الرمادي أن يلف ذراعه حول رأس المجند، كسِرت رقبة ماركهام بالتواء بالغ، مما أدى إلى تدمير حبله الشوكي وقتله على الفور.

كان المجند الميت قد لف الرشاش حول عنقه بحمّالة ذات طرف واحد، وكأنها قلادة تتدلى منها تميمةٌ على هيئة سلاح آلي. حاول

كورت أن ينزعه لكن الحمّالة علقت بسترة المجند الثقيلة، سحب كورت السلاح من كتف الرجل الميت، وحاول بسرعة أن يلحق بآخر أعضاء فريق الإجلاء، الذي استعان بأرجل أحد المقاعد ليصعد من المقصورة إلى المطبخ الملحق بمنصة التحميل في الأمام.

ضغط كورت الزناد، لكن لم يطلق السلاح شيئًا. تحسس ذخيرة سترته بحثًا عن خزينة جديدة، وثبتها بعنفٍ في رشاش **(MP5)**، عندما استعد للتصويب على هدفه، كان الأخير قد اختفى في المطبخ. استقرت الطائرة مرة أخرى، فاستعاد كورت جاذبيته. اختبأ خلف منصة التحميل قرب الفتحة الخلفية، منتظرًا بارنز أن يخرج ليلقي نظرة.

فجأة سمع جينتري جلبة عالية، وشعر ببوابة الشحن الخلفي تتحرك، وعوت الرياح.

لقد فتح بارنز المخرج من المقصورة الأمامية، بعد ثانية أخرى بدأت الطائرة تهبط بحدة. وبينما كان كورت يندفع للإمساك بالشبكة فوق المنصة أمامه، ظهر بارنز بالقرب من الحاجز.

كان المجند يرتدي ملابس دكناء، وقد علّق على ظهره مظلة. يبدو أنه اعتقد أن هذه الطائرة قد نالت ما يكفي من الأضرار، أو ربما كان يشعر بالقلق من أن الطيارين قد لقوا حتفهم بنيران طائشة. أمسك بارنز بحزام الحاجزِ بكل قوته، وأطلق دفعة رصاص تلو الأخرى في اتجاه جينتري ممسكا بالبندقية القصيرة **(M4)** بيد واحدة، حيث انفتح المخرج المنحدر بالكامل خلف الرجل الرمادي.

تسلل كورت خلفه، وجرّد رقبة ماركهام من السلاح قبل أن تتدحرج جثته مباشرة من الطائرة إلى الظلام.

واصل الطيّار صعوده، وفور انزلاق جسد ماكفي أمام جينتري إلى ظلام الليل، كانت جثة بيريني مثبتة في مقعده، بينما لم تبرح جثة دولين مكانها في شبكة الحاجز.

لم ينجُ سوى جينتري وبارنز.

أمسك جينتري بالمسدس الرشاش في يده اليمنى، وضغطت يده اليسرى على شبكة منصة المعدات، فاعتصرت القفازات أصابعه، وعلم أنه لن يصمد أطول من ذلك. ركل بحذائه أرض الطائرة بكل قوته حيث أصبحت زاوية التسلق أكثر انحدارًا.

كان على بعد ثوانٍ من السقوط للخلف أسفل المخرج المنحدِر. لكنٍ جينترٍي كانت لديه فرصة أخيرة. رفع بندقية ماركهام، وأطلق وابلًا طويلًا من الرصاص فوق منصة العدة صوب بارنز، فأصابه مباشرة في سترته، وضرب رأسه مرة أخرى على الحاجز بقوة كافية للقضاء عليه تمامًا.

انحدرت الطائرة بزاوية حادة، وفقد بارنز الجريح قبضته على الشبكة ليسقط على ركبتيه، ثم تدحرج بطول الطائرة نحو الفتحة الخلفية. كانت هذه هي رحلة خروج جينتري من الطائرة المتضررة، ولم يكن ليفوتها. ترك كورت المنصة حين تخطاه العميل العاجز، ودفع نفسه عن الأرض بحذائه وواقيات ركبتيه. قفز جينتري إلى الميمنة، وأمسك بالرجل الذي فقد وعيه من حزام مظلته، فأبحرا معًا عبر الكوة المفتوحة إلى سماء الليل.

***

ربط جينتري ذراعيه حول بارنز وعقد ساقيه خلف ظهره. اختفت الطائرة فوقهما، وسرعان ما تلاشى هدير المحركات، وحل مكانه عواء الريح.

راح كورت يصيح ويصرخ محاولًا أن يتشبث بقدر الإمكان. لم يجرؤ على الوصول إلى حبل فتح المظلة. فلو فقد قبضته الضعيفة فلن يجدها مرة أخرى في سماء الليل الحالك. كان واثقًا تمام الثقة أن هذه المعدات تحتوي على جهاز تشغيل أوتوماتيكي من شأنه أن

يطفو على ارتفاع سبعمائة وخمسين قدمًا إذا كان راكبها لا يزال في حالة سقوط حر.

ظل جينتري وقاتله المحتمل ينقلبان رأسًا على عقب عبر السواد البارد.

ثبت كورت إحدى يديه على حزام الكتف في المظلة، وحرر اليد الأخرى ليجد موضعًا ثابتًا آخر، وما إن تركه، سمع صوت نغمة واحدة استمرت أقل من ثانية. ثم انفتحت المظلة الاحتياطية. أمسك جينتري بيد واحدة. لم تكن هذه المظلة مخصصة لشخصين، أحدهما كان يركُل وينتحب، في محاولة يائسة للحصول على قبضة أقوى، لذلك سقط الرجلان بسرعة كبيرة، ودار أحدهما حول الآخر مثل دوامة.

استمر هذا لبضع ثوانٍ فقط قبل أن يبدأ جينتري بالتقيؤ من الدوار. لم يكن أمامه الكثير من السقوط، لكن غثيانه قد جف بالفعل قبل أن يصطدما بالأرض.

لم يتأثر جينتري بالاصطدام، إذ هبط مباشرة فوق الرجل المعلق بالمظلة. تفقّده وتبين أنه هبط بقوة على وجهه، بينما كان جينتري على ظهره. لم يعثر له جينتري على أي نبض.

ما إن وقف جينتري على أرض صلبة تحكم في غثيان معدته، وأمسك بفخذه، وتلوى من الألم للحظةٍ، ثم تعافى بما يكفي للجلوس. توهجت ألوان الصباح الأولى على يساره، مما دل على الشرق.

الآن بعد أن أصبح يعرف الاتجاهات، رصد محيطه. كان على أرض مستوية، في سفح وادٍ هادئ. ثمة جدول مياه قريب بما يكفي ليسمع ثغاء الماعز من بعد. رقد العميل الميت محطمًا والمظلة الاحتياطية ترفرف خلفه في النسيم البارد قبيل الفجر. فتش جينتري في معدات الرجل ووجد حقيبة إسعافات طبية على ساق بارنز.

جلس على العشب، وبذل أقصى ما بوسعه لعلاج جرحه في الظلام. أراد أن يعالج ساقه المصابة حتى تتمكن من تحمل الرحلة، إذ افترض

أن أمامه مسافة طويلة سيمشيها قبل أن يصل إلى الحدود. كان جرحًا نظيفًا، في الداخل والخارج. لم تتضرر الأوعية الدموية أو العظام؛ لذا فلم يكن هناك داعٍ للقلق إذا عالجه مبكرًا وعلى نحو جيد، وتحمل أيامًا أو أسابيع من الخفقان المزعج. تقيأ جينتري الصفراء مرة أخرى، لا يزال جسده وعقله يحاولان استيعاب فوضى الدقائق الخمس الماضية.

ثم نهض وبدأ يمشي ببطء شمالًا نحو تركيا.

7

جلس فيتزروي على أريكة مكتبه مواجهًا لويد. لم يُبعد عينيه الغاضبتين بعيدًا عن المحامي الشاب حتى عندما كان الرجل الأكبر سنًّا يستمع إلى الطرف الآخر من اتصال القمر الصناعي.

قال فيتزروي عبر الهاتف: «أفهمك، شكرًا لك».

أنهى المكالمة ووضع الهاتف برفق على المنضدة أمامه. بادله لويد التحديق متفائلًا، لكن فيتزروي كسر مسابقة التحديق بنظرة إلى السجادة، وقال: «يبدو أن جميعهم قد ماتوا».

سأل لويد وقد ازداد صوته تفاؤلًا: «من مات؟».ـ الكل ما عدا طاقم الطائرة. قيل لي إن عراكًا قد نشب على متن الطائرة. لم يسقط كورتلاند بسهولة. لا عجب، وقد عثر الطيار على جثتين من رجالي في الخلف، ولم يكن هناك أي أثر للأربعة الآخرين. دماء على الأرض والجدران والسقف، وأكثر من خمسين ثقب رصاص في جسم الطائرة.

قال لويد دون اكتراث حقيقي بينما يتنحنح: «ستعوضك شركتي عن الأضرار. لكنهم لم يجدوا جثة جينتري؟ أيمكن أن يكون قد نجا؟».

ـ لا يبدو. فُقد الكثير من المعدات، وحلقت الطائرة لأميال، بينما كان باب حمولتها الخلفي مفتوحًا، ومن بين المعدات مجهولة المصير مظلة، ولكن لا يوجد سبب للافتراض....

قاطعه لويد: «إذا فُقد هدفنا عند فتحة طائرة مع مظلة، فلا يمكنني إقناع النيجيريين بأن المهمة أُنجزت».

ـ لقد كان الطاقم من الدرجة الأولى، ومكونًا من خمسة أفراد، بينما هو فرد واحد، وجميعهم من القوات الخاصة الكندية سابقًا. من

الواضح أنني أوفيت باتفاقنا حتى النهاية. أطلب منك الآن التفضل بتنفيذ الاتفاق أيضًا. أوقف تهديداتك لعائلتي.

لوَّح لويد بيد رافضة في الهواء. «يريد أبو بكر دليلًا. لقد طلب رأس جينتري في صندوق جليدي».

قال فيتزروي: «تبًّا يا رجل! لقد فعلت ما قيل لي!». كان فيتزروي غاضبًا، لكنه لم يعد خائفًا على عائلة ابنه. قبل وقت قليل من وصول لويد، اتصل السير دونالد بابنه، وطلب منه اصطحاب زوجته وطفلتيه، وأن يهرع إلى محطة سانت بانكراس في الوقت المناسب، ليأخذ قطار يوروستار الثاني في الصباح إلى فرنسا.

حاليًا عليهم أن يستقروا في الفيلا الصيفية للعائلة جنوب شواطئ نورماندي، شعر فيتزروي بالثقة يأن رجال لويد لن يجدوهم هناك.

ـ نعم، لقد فعلتَ ما قيل لك، وستواصل فعل ذلك. لديَّ مواطن نيجيري هادئ للغاية لكنه يتوعد بسوء شديد في مكتبي ولن يغادر بتأكيداتي وحسب. سأحتاج أن تتحقق من مسار رحلة من الطيارين، وسأحتاج إلى إرسال فريق للتحقيق....

رن الهاتف على مكتب فيتزروي برنة مميزة أقرب إلى ثغاء قصير، أدار السير دونالد رأسه إليه ثم عاد إلى لويد.

قال لويد: «إنه هو!». ردًّا على صدمة فيتزروي الواضحة.

ـ تلك هي رنته.

ـ أجِبْهُ إذن، وشغِّل مكبر الصوت.

قطع فيتزروي الغرفة وضغط على زر في وحدة التحكم على مكتبه. «أمن شلتنهام» كان الصوت الذي سُمع عبر الخط بعيدًا، خرجت الكلمات بين أنفاسه المجهدة: «هل تسمي هذا إنقاذًا؟».

ـ أمر جيد أن أسمع صوتك. ماذا حدث؟

سحب لويد دفتر ملاحظات من حقيبته بسرعة.

ـ كنت سأسألك الشيء نفسه.

ـ هل تأذيتَ؟
ـ سأعيش. لا، الفضل يرجع إلى فريق الإجلاء الذي أرسلته لاصطحابي.
نظر فيتزروي إلى لويد، كتب الشاب الأمريكي شيئًا ما في دفتر ملاحظاته ورفعه عاليًا: «نيجيريا».
ـ يا بني. سمعت من طاقم الطائرة عن المشاجرة، لم يكن هؤلاء موظفين دائمين لديَّ، إنهم وحدة مرتزقة فحسب، استخدمتها مرة فيما مضى، عليَّ أن أشكل فريقًا بسرعة بعد انسحاب البولنديين.
ـ بسبب ما حدث في العراق؟
ـ نعم، أصبح هذا القطاع بأكمله منطقة محظورة بعد احتجاجك الصغير أمس، رفض البولنديون الدخول. وبدلًا من ذلك أخبرني الرجال الذين أرسلتهم أنهم سيفعلون أي شيء مقابل المال مهما تكن المخاطر، ومن الواضح أن شخصًا ما وصل إليهم واشتراهم.
ـ من؟
ـ تخبرني مصادري أن الرئيس النيجيري يوليوس أبو بكر يلاحقك.
ـ كيف يعرف أنني من قتل أخاه؟
ـ سُمعتك بلا شك، لقد بلغتَ مكانة يصعب فيها على غيرك تولي المهام شديدة الصعوبة أو رفيعة المستوى.
قال الصوت عبر الخط: «تبًّا!».سأل فيتزروي: «أين أنت؟ سأرسل فريقًا آخر لاصطحابك».
ـ مستحيل، لن يحدث!
ـ يمكنني مساعدتك يا كورت. سيترك أبو بكر منصبه في غضون أيام قليلة، سيغادر بثروة لا يمكن تصورها، لكن ستقل قوته ونفوذه ما إن يصبح مدنيًّا. قريبًا سينتهي الخطر الذي تواجهه. اسمح لي أن أحضِرك، سأحميك حتى ذلك الحين.

ـ يمكنني أن أختبئ بمفردي. اتصل بي عندما تحصل على مزيد من المعلومات عمن يلاحقونني. لا تحاول أن تعثر عليَّ، لن تستطيع.
وهكذا انتهى الاتصال.

صفق لويد: «أحسنت اللعب يا سير دونالد. أداء رائع! لم يشُك فيكَ رجلك على الإطلاق».

قال فيتزروي بغضب: «إنه يثق بي. أربع سنوات تكفي ليقتنع بأنني صديقه».

تجاهل المحامي الأمريكي غضب السير دونالد وسأل: «أين سيذهب؟».

جلس السير دونالد على الأريكة ومرر يديه على رأسه الأصلع. نظر إلى الأعلى بسرعة. وقال: «شبيه! تريد رأسًا في صندوق متجمد؟ سأحضر لك رأسًا في صندوق متجمد! كيف بحق الجحيم سيعرف أبو بكر الفرق؟».

هز لويد رأسه وقال: «قبل أسابيع، قبل أن يطالب الرئيس بقتله، سألنا عن كل المعلومات الاستخباراتية التي كانت لدينا عن الرجل الرمادي. تصادف أن لديَّ صورًا وسجلات أسنان وتاريخًا كاملًا وما إلى ذلك. أرسلت ذلك إليه، معتقدًا أنه هذا الوغد سيقتل جينتري بنفسه قبل أن يُقتَل أخوه. أبو بكر يعرف وجه رجلك. لا يمكننا استخدام جسد شبيه، أو كما تقترح رأسَ شبيهٍ».

أطرق فيتزروي برأسه: «كيف حصلت على هذه المعلومات بحق الجحيم؟».

تأمل لويد السؤال هُنيهة، ثم التقط قطعة من الوبر على ركبة سرواله، وقال: «قبل انتقالي إلى باريس للانضمام إلى لوران، عملت أنا والرجل الرمادي معًا».

ـهل كنت تعمل في الاستخبارات المركزية الأمريكية؟ـسابقًا، قطعًا سابقًا، دعني أقل لك: إن الوطنية غير مربحة.ـلكن ملاحقة الوطنيين والتهديد بإيذاء الأطفال مربح؟

ـمربح للغاية. يتصادف أن العالم مكان غريب، لقد نسخت ملفات سرية في أثناء عملي في الوكالة، وعزمت على استخدامها ورقةَ مساومةٍ لو لاحقوني يومًا ما. إنها مصادفة بحتة أن تساعدني هذه الأوراق في موقفي الحالي.

نهض لويد، وبدأ يقطع مكتب فيتزروي جيئةً وذهابًا. وقال: «أريد أن أعرف أين جينتري الآن، إلى أين سيذهب، وما الذي يفعله عادة عندما يختبئ».

ـعندما يختبئ، فإنه يتلاشى، يمكنك أن تودع غازك الطبيعي، لن يتمكن أحد من رصد الرجل الرمادي مرة أخرى لعدة شهور.

ـغير مقبول، أريدك أن تقدم لي شيئًا، شيئًا لا أعرفه بالفعل عن جينتري، عندما كان يعمل لدينا كان كالآلة. بلا أصدقاء ولا عائلة يهتم لأمرها، ولا حبيبة عالقة بانتظاره بعد ليالي العمل الطويلة، ملفه الإداري هو الأكثر مللًا في قراءته، لا رذائل ولا نقاط ضعف لديه، إنه الآن أكبر سنًّا، وحتمًا أقام علاقات ذات طابع شخصي، وطوَّر ميولًا يمكننا أن نستنتج منها خطوته المقبلة، أثق أن بوسعك إطلاعي على شيء، مهما يبدُ تافهًا، يمكنني استخدامه للتخلص منه.

ابتسم فيتزروي قليلًا وقد أحسّ بيأس خصمه الشاب.

وقال: «لا شيء، لا شيء مطلقًا. إننا نتواصل عبر هاتف قمر صناعي غير قابل للرصد، أو عبر البريد الإلكتروني، لو كان لديه بيت أو حبيبة أو عائلة مختبئون في مكان ما، فأنا لا أعرفه حتى أخبرك به».

سار لويد إلى النافذة خلف مكتب فيتزروي، لم يبرح الرجل الإنجليزي أريكته وراح يشاهد ضيفه الذي كان يتحرك في المكتب كأنه هو مالك شلتنهام للأمن وفيتزروي ضيفه.

فجأة استدار الأمريكي وقال: «يمكنك أن تعرض عليه عملًا، مهمة سهلة ومربحة، حتمًا لن يرفض مهمة سهلة ومربحة للغاية، أرسل له بشأن مهمة جديدة، وسأرسل فريقًا إلى هناك ليقبضوا عليه».

ـ تبًّا! هل حسبتَ أنه نجا هناك كل هذا الوقت لكونه مغفلًا؟ إنه لا يعبأ حاليًّا بجني المال، بل بالاختفاء في المكان المحيط به. كانت لديك فرصة واحدة للقضاء عليه، وقد أفسدتها، عد إلى مكتبك والعق جراحك، دعني أنا وعائلتي وشأننا.

لاحظ فيتزروي رعشة غاضبة في وجه لويد، تبدلت على مهلٍ إلى ابتسامة.

ـ حسنًا، إذا لم تساعدني على استخدام نقاط ضعف جينتري للقضاء عليه، فسأضطر إلى استخدام نقاط ضعفك أنت.

سحب هاتفه من جيبه مبتسمًا للسيد فيتزروي، بينما يتحدث عبر الهاتف. وقال: «اذهب، وخذ فيليب فيتزروي وأسرته، إنهم في منزلهم الصيفي في نورماندي، خذهم إلى قصر لوران».

هب فيتزروي واقفًا على قدميه وصاح: «أيها الوغد الحقير!».

قال: «مذنب وأعترف». كانت نبرة لويد تستهزئ بالرجل الإنجليزي. وأكمل: «شركائي سيحتجزون ابنك وأسرته في منزلٍ مترفٍ تابع لشركة لوران في نورماندي، سيتولون رعايتهم حتى تنتهي هذه المهمة، ستتواصل مع الرجل الرمادي وتعطيه موقعهم، وتخبره أن النيجيريين يحتجزون هناك ابنك الوحيد وزوجته الحبيبة وطفلتيه الصغيرتين، أخبره أن أولئك المتوحشين السود يتوعدون باغتصاب ماما العزيزة وذبح باقي العائلة خلال ثلاثة أيام لو لم تسلم موقع قاتلك المأجور».

ـ وما فائدة ذلك؟

ـ أنا أعرف جينتري، إنه وفيٌّ ككلب مخلص، فحتى لو تعرض للغدر عدة مرات، فسيظل يدافع عن صاحبه حتى الممات.

ـ لا لن يفعل!

ـ بل سيفعل، سيتحمل عبء إنقاذ الموقف، سيتفهم أن الشرطة لا جدوى منها، وسيفعل ما بوسعه للوصول إلى فرنسا. فكما ترى يا سيد دوني، لم يذهب كورت جينتري يومًا إلى الشمال، إنه قاتل مأجور بحق الله! وعلى الرغم من ذلك فكل عملياته، سواء كانت التابعة لوكالة الاستخبارات الأمريكية أو لحسابه الخاص، كلها ضد من حُكم باستحقاقهم الإعدام خارج القانون مثل: إرهابيين، ورؤساء مافيا، وتجار سلاح، وكل شرير يأتي بأعمال شائنة. كورت قاتل، لكنه يحسب نفسه حامي العدالة، أداة لتحقيق العدل، هذا هو عيبه القاتل، وسيكون هذا سبب سقوطه.

كان فيتزروي أيضًا يعلم ذلك عن كورت جينتري، كلام لويد منطقي. ومع ذلك حاول الرجل العجوز أن يناشد المحامي الشاب قائلًا: «لم تكن بحاجة لإقحام عائلتي، سأفعل ما تريد، وقد رأيتَ ذلك، لا ينبغي لك أن تحتجزهم حتى أخبر كورت أنهم محتجزون».

لوح لويد بيده في الهواء رافضًا عرض السير دونالد وهو يقول: «سنوليهم أفضل رعاية، وإن حاولتَ خداعي أو الاحتيال عليَّ، فسأكون في موقع أقوى منك، أليس كذلك؟».

نهض فيتزروي وقطع الغرفة ببطء باتجاه لويد متوعدًا، وبالرغم من أنه كان أكبر سنًّا من المحامي الأمريكي بثلاثين عامًا، فإن بنية العميل السابق في القسم الخامس بالاستخبارات العسكرية البريطانية كانت أضخم. تراجع لويد خطوة إلى الوراء وصاح مناديًا: «سيد ليري! سيد أونيل! فلتدخلا إن شئتما».

كان فيتزروي قد أعطى سكرتيرته عطلة اليوم، وكان بمفرده تمامًا في مكان عمله، إلا أن لويد كان قد أحضر زمليه. دخل المكتب رجلان بهيئة رياضية، ووقفا عند الباب، أحدهما كان أصهب ولون بشرته أبيض يناهز عمره الأربعين عامًا، يحمل حقيبة عمل بسيطة منتفخة عند ساقه، كأن بداخلها كعب مسدس. وكان الثاني أكبر سنًّا،

في الخمسين من عمره تقريبًا. قص شعره الرمادي بطريقة عسكرية، وسترته فضفاضة للغاية بحيث يمكنه أن يخفي بداخلها ترسانة أسلحة كاملة دون أن يلحظ أحد، كان بوسع فيتزروي التعرف إلى البلطجية ما إن يراهم.

قال لويد: «إنهما من الجمهوريين الأيرلنديين، أعداؤكم القدامى، مع أنهم لن يبذلوا جهدًا كثيرًا. أنا وأنت سنرى معًا الكثير في الأيام المقبلة، فلا داعي لأن تفقد علاقتنا ودها».

***

بلغت كلير فيتزروي الثامنة في الصيف الماضي. إنها نهاية نوفمبر الآن، وقد توقعت هي وشقيقتها التوأم كيت أن تبقيا في لندن طوال الخريف الممطر البارد والغائم دون أن تغير نظامها اليومي، فتستيقظ مبكرًا صباح كل يوم من أيام الأسبوع الأسبوع لتذهب إلى مدرستها الابتدائية في شارع أودري الشمالي، وبعد المدرسة ثمة درس بيانو ثلاث مرات أسبوعيًا لكلير، وتمرينات غناء لكيت، أما العطلات الأسبوعية فتقضيها إما في التسوق مع أمها، أو مع أبيها في المنزل، أو في ملعب كرة القدم، وكل أسبوعين تدعو واحدة من الفتيات صديقتها من أجل سهرة مبيت، بينما تتحول سماء لندن الخريفية الكئيبة إلى شتوية أكثر كآبة، تهفو كل أحلام كلير إلى عيد الميلاد.

دائمًا ما تقضي عطلة عيد الميلاد في فرنسا في كوخ أبيها في بايو بعد القناة مباشرة في نورماندي. كانت كلير تفضل نورماندي على لندن، وكانت تتخيل مستقبلها في مزرعة، لذا كانت لحظة مفاجئة ومغامرة عظيمة عندما دخل مدير المدرسة إلى فصل الفتاتين صباح الخميس، بعد الصف مباشرة، لينادي كلير وكيت، ويدعوهما إلى مكتبه. وقال: «أحضرا كتبكما الدراسية يا آنستيَّ من فضلكما، آسف على المقاطعة سيدة ويلينج، من فضلك أكملي».

كان الأب في المكتب، وقد أمسك بيد كل فتاة وقادهما إلى سيارة الأجرة التي انتظرت بالخارج.

امتلك الأب سيارة جاكوار، بينما تقود الأم سيارة من طراز ساب؛ لذلك لم تعرف الفتاتان إلى أين سيذهبون في سيارة الأجرة. جلست الأم في المقعد الخلفي الشاسع، وكانت مثل الأب جادة ومنزوية.

ـ ابنتيَّ. نحن في عطلة صغيرة، سننزل إلى نورماندي بقطار يوروستار. وبالطبع لا توجد مشكلة، لا تكونا سخيفتين.

في القطار لم تجلس الفتاتان على مقعديهما إلا قليلًا. تناجى كلٌّ من الأم والأب تاركين كلير وكيت تركضان في العربة صعودًا وهبوطًا، سمعت كلير أباها يتحدث إلى الجد دون على هاتفه المحمول. بدأ يتحدث بصوت هادئ، لكنه غاضب. وهو صوت لم تسمعه من قبل مع الجد دون. توقفت عن متابعة أختها وهي تحاول القفز بطول العربة بالكامل على ساق واحدة.

نظرت إلى أبيها القلق، وسمعت نبرة صوته الحادة، والكلمات التي يستحيل سماعها، ولكن من المستحيل أن تكون سوى غضب. أغلق والدها الهاتف وتحدث إلى أمها. كانت المرة الوحيدة التي شاهدت فيها كلير والدها منزعجًا انزعاجًا واضحًا عندما صرخ في عامل يصلح الحوض في منزل بلدتهم، بعد أن قال شيئًا للأم جعل وجهها يتحول إلى اللون الأحمر كالفراولة.

بدأت كلير في البكاء، لكنها لم تُظهر الأمر. غادرت وعائلتها قطار يوروستار ليلًا، واستقلوا قطارًا آخر غربًا إلى نورماندي. بحلول الظهيرة كانوا في كوخهم. ساعدت كيت أمها في المطبخ بغسل الذرة الطازجة لتناول العشاء.

جلست كلير على فراشها بالطابق العلوي، وتطلعت إلى والدها إذ يقطع الممشى المفروش بالحصى ذهابًا وإيابًا بينما يتحدث عبر هاتفه

المحمول، ومن حين إلى آخر كان يضع يده على السياج الخشبي حول الحديقة.

أدى غضب والدها وذهولها إلى تلبُّك أحشائها الصغيرة، بينما لم تع أختها بالأسفل ما يحدث ولم تكن قلقة، لكن كلير اعتبرت كيت أقلَ نضجًا منها.

أخيرًا وضع الأب هاتفه في جيبه، وانتفض من برودة سرت في الهواء، ثم استدار ليخطو على الممشى.

لم يكد يخطو خطوتين عندما توقفت خلفه سيارتان بنيّتان، التفت للسيارة في أثناء اندفاع الرجال منها. عدَّتهم كلير، فكانواَ ستة رجال ضخام البنية، يرتدون سترات جلدية بأكثر من لونٍ وطراز، ابتسم أقربهم لوالدها ومد يده، فصافَحه الأب.

وقف باقي الرجال حول أبيها، وتقدموا على الممشى باتجاه الكوخ، نظر الأب إليهم إذ يمرون، وللحظة رأت كلير تعبير وجهه، في البداية كانت حيرة، ثم رعبًا، قفزت كلير الصغيرة على قدميها في غرفتها الصغيرة. وعندما مد الرجال الستة أيديهم داخل ستراتهم مرة واحدة وسحبوا مسدسات سوداء وفضية ضخمة، صرخت كلير فيتزروي ذات الأعوام الثمانية.

8

كيرت ريجيل في الثانية والخمسين من عمره، طويل القامة وأشقر وعريض المنكبين كما يوحي اسمه الجرماني.

انضم إلى مجموعة لوران بعد خروجه من الجيش الألماني قبل سبعة عشر عامًا، وترقى من مساعد مدير الأمن في مكتب هامبورج، مرورًا بعشرات المواقع الأجنبية في العالم الثالث، كل موقع أقذر وأخطر من سابقه. والآن يستقر في مكتب منزله في باريس نائبَ رئيس عمليات إدارة المخاطر الأمنية. كان مسمًى وظيفيًا طويلًا يشرح وظيفته على نحو كاذب.

ريجيل هو من يهاتفونه إن أراد شخص أن يُحدث شرًا: كمشروعات مشبوهة، أو فن أسود، أو مشكلات الموارد البشرية التي تتطلب زيارة من أشخاص عنيفين. أو حقيبة سوداء وفرق سطو ومراقبة، وفرق تجسس للشركات، وخبراء في التضليل الإعلامي. إضافةً إلى القتلة المأجورين.

إذا جاء عملاء ريجيل إلى مكتبك، فهذا يعني إما أنهم جاؤوا لمساعدتك على حل مشكلة صعبة، وإما أنك أنت المشكلة الصعبة التي أرسلهم شخص لحلها.

أكدت قيادة «قسم الإجراءات الضارة» فعليًا أن ريجيل لن يصعد إلى أعلى سلم الشركة. لا أحد يريد أن يدير كبير البلطجية الشركة. لكن ريجيل لم يمانع السقف الزجاجي فوقه. على العكس من ذلك، فقد رأى أن منصبه ثابت تقريبًا، إذ أنشأ حوله أسرة أمنية. خلال السنوات الأربع التي قضاها في منصب نائب رئيس إدارة المخاطر. تخلص عملاؤه من ثلاثة مرشحين سياسيين في إفريقيا، وثلاثة من قادة

حقوق الإنسان في آسيا، وجنرال كولومبي، وصحفيين استقصائيين، وما يقرب من عشرين موظفًا في مجموعة لوران الذين فشلوا، لسبب أو لآخر، في الإذعان لإدارة الشركة.

كان ثمة رجل واحد فقط في لوران على علم بجميع العمليات؛ قسّم ريجيل من هم دونه جيدًا، أما من هم فوقه في الشركة فيعرفون ما يكفي من تكتيكاته، ليدركوا أنهم في الحقيقة لم يرغبوا في معرفة المزيد.

تظهر المشكلات فيُستدعى ريجِيل، تختفي المشكلات فيُقدَّر بهدوء، مما جعل كيرت ريجيل رجلًا شديد القوة بالفعل.

كان مكتب الألماني الكبير، في المقر الرئيس بباريس، مكسوًّا بألواحٍ من خشب الساج، يلائمه على نحو مثالي. كان مثل ريجيل نفسهٌ ضخمًا وأشقر ومتين البنية لكنه هادئ ومحافظ، ويقع بالقرب من قسم الذكاء الاستراتيجي وتكنولوجيا المعلومات في الجناح الجنوبي من شركة لوران، وقد علق على جدران مكتبه أكثر من اثني عشر تذكارًا للصيد.

هناك عامل تحنيط في مونمارتر يكسب عيشه فعليًّا من رحلات السفاري الإفريقية التي ذهب إليها كيرت وبعثاته إلى كندا. حدَّق وحيد القرن، والأسد، والوعلٍ، والغزال في فراغات من أعاليهم على الجدران حول الغرفة. وهنا أيضًا يمارس تمارينه الرياضية اليومية بعد ظهيرة كل يوم في الخامسة.

كان على وشك الانحناء للمرة المائة على ركبته، وقد تعرق بشدة عندما رن خط هاتفه الخارجي، يمكنه أن يتجاهل عدة مكالمات حتى ينتهي من تدريباته، لكن هذا كان الرقم المشفر، الخط الساخن، وقد انتظر هذه المكالمة طوال اليوم تقريبًا. أمسك بفوطة وسار ناحية مكتبه، وشغَّل مكبر الصوت في هاتفه.

ـ ريجيل.

ـ مساء الخير سيد ريجيل، معك لويد من الشؤون القانونية.

رشف ريجيل من زجاجة ماء بالفيتامينات، بينما يجلس على حافة مكتبه.

وقال: «كيف يمكنني مساعدتك يا لويد من الشؤون القانونية؟». كان صوت ريجيل قويًّا كما يليق بضابط سابق في المدفعية.

ـ أبلغوني أنك تنتظر مكالمتي.

ـ تواصل معي الرئيس التنفيذي مارك لوران بنفسه، وأخبرني أن أترك كل شيء وأركز كل جهودي على مشروع ستقدمه لي. أخبرني أيضًا أن أمدك برجالٍ ومتخصصي اتصالات، أتمنى أن يكون الفني وفريق المرتزقة البيلاروسيين قد أعانوك على حل مشكلتك.

قال لويد: «نعم أشكرك، الفني معي هنا، والرجال في فرنسا في هذه اللحظة ينفذون ما أُبلغوا به».

ـ جيد، إنها المرة الأولى التي يتصل فيها مارك لوران بنفسه ليطلب مني أن أولي عملية ما اهتمامًا، عندي فضول أن أعرف أي فوضى أقحمتم أنفسكم فيها في الشؤون القانونية.

ـ حسنًا، هذه المشكلة بحاجة إلى حل سريع من أجل الصالح العام للشركة.

ـ إذن دعنا لا نفوت لحظة، ماذا تريدني أن أوفر لك بخلاف الفريق الذي أرسلته؟

توقف لويد للحظة ثم قال: «حسنًا أكره أن أصدمك بالآتي، لكنني أحتاج إلى قتل شخص ضروريًا».

لم يقل ريجيل شيئًا.

ثم أتبع لويد: «هل أنت معي؟».

ـ أنتظر أن تقول ما سيصدمني.

ـ أفهم من ذلك أنك فعلت هذا من قبل؟

ـ نحن هنا في قسم إدارة المخاطر نقول إن كل مشكلة لها حلّان، إما مشكلة يمكن حلها أو يجب إنهاؤها، إذا كان يمكن حل المشكلة يا سيد لويد فإن هاتفي لا يرن.

ـ هل أنت على دراية بعقد لاجوس للغاز الطبيعي؟

أجاب ريجيل على الفور: «أظن أن له علاقة بالنكبة النيجيرية. تقول الشائعات إن بعض المحامين الأغبياء هناك في الشئون القانونية نسوا مراجعة العقد، والنيجيريون يتراجعون عن صفقة قيمتها عشرة مليارات دولار استثمرنا فيها بالفعل مائتي مليون دولار. كنت أشعر أنه سيجري الاتصال بي بشأن هذه المسألة».

ـ نعم، الأمر أكثر تعقيدًا من ذلك بقليل.

ـ لا يبدو الأمر معقدًا للغاية. أنا فقط بحاجة إلى عنوان هذا المحامي المؤذي، سنجعل الأمر يبدو كأنه انتحار، لا بد أن هذا الوغد الغبي مخلص بما يكفي للشركة، فيشرع في قتل نفسه، لكن لا تنتظر هذا النوع من الولاء من محام في الشؤون القانونية مع احترامي يا لويد.

ـ لا، لا، ريجيل لقد فَهمت الأمر فهمًا خاطئًا. نحن بحاجة لقتل شخص آخر.

تنحنح ريجيل. وقال: «أكمل إذًا».

أخبر لويد نائب رئيس عمليات إدارة المخاطر الأمنية باغتيال إسحاق أبو بكر، ورفْض الرئيس توقيع العقد المُعدَّل دون إثبات وفاة قاتل شقيقه.

قال كيرت ريجيل بسخرية: «نحن نولي ظهورنا لهؤلاء الطغاة، ثم نتفاجأ حين يطعنوننا في ظهورنا».

كانت إنجليزية ريجيل مثالية وباصطلاحات أمريكية. جلس خلف مكتبه وأمسك بقلم، وسحب ورقة من دفترٍ جلْدي ثم قال: «إذًا نحتاج إلى تحديد هوية القاتل والتخلص منه؟»ً.

ـ لقد حددنا هويته بالفعل.

ـ تريد فقط أن تتخلص منه؟ كنت أتوقع شيئًا أكثر تعقيدًا من هذا بعد مكالمة السيد لوران الهاتفية.

ـ نعم، هذا القاتل ليس سهلًا.

ـ المشكلة مع القتلة المأجورين تكمن في تحديد هويتهم، إذا كنت تعرف من هو، فسأعثر عليه، وسيموت في غضون أربع وعشرين ساعة.

ـ سيكون هذا مثاليًا.

ـ أعني، ما لم نكن نتحدث عن الرجل الرمادي. إنه أصعب من غيره قليلًا.

لم ينطق لويد.

بعد تردد الأمريكي الطويل قال ريجيل: «آه إذًا! نحن نتحدث عن الرجل الرمادي، أليس كذلك؟».

ـ هل ستكون هذه مشكلة؟

سكت ريجيل في هذه المرة، ثم قال أخيرًا: «أمر معقد بلا شك، لكن ليست مشكلة. إنه بارع للغاية في التخفي، ومن هنا جاء لقبه. سيكون من الصعب العثور عليه، لكن الخبر السار أنه لا سبب يدفعه ليتوقع أننا سنلاحقه».

صمت لويد مرة أخرى.

ـ أم سيتوقع ذلك؟

ـ لقد رتبت محاولة لاغتياله الليلة الماضية. فشلت ونجا منها.

ـ كم عدد الرجال الذين قتلهم؟ ـ خمسة.

ـ أحمق!

ـ سيد ريجيل من الواضح أن الرجل الرمادي ليس بأحمق، يُظْهِر لنا تاريخه...

ـ ليس هو! بل أنت الأحمق! محام لعين يحاول تنظيم ضربة لأعظم قاتل بارز في العالم. حتمًا خُططت هَذه العملية تخطيطًا سيئًا، ونُفِّذت

على عجل! كان يجب أن تأتي إليَّ على الفور. الآن سيكون على أهبة الاستعداد، متوقعًا أن كل من دبر محاولة اغتياله سيحاول مرة أخرى.
ـ أنا لست أحمق، ريجيل، رئيسه في عهدتي. لقد أقنعته بمساعدتنا على تحديد موقع جينتري.
ـ من جينتري؟
ـ كورتلاند جينتري هو الرجل الرمادي.
اعتدل ريجيل في جلسته، فبدا عريضًا ضخمًا مثل المكتب أمامه. وسأله: «كيف حددتَ هويته؟».
ـ لا يمكنني الإفصاح عن ذلك.
ـ من رئيسه؟
لم يرُق لريجيل أن يكون الطرف المتلقي لمثل هذه المعلومات داخل مجموعة لوران. كانت لديه شبكة استخبارات خاصة به. أن ينقل له محام أمريكي قذر هذه المعلومات كبديهيات جعله يضم قبضتيه في غضبٍ.
ـ اسم رئيسه هو دون فيتزروي. إنه بريطاني، ويعمل رسميًّا هنا في لندن، إنه يؤدي بعض الأعمال من أجلنا. أحكم ريجيل إغلاق قبضتيه معًا بشكل أقوى، وقال: «قل لي يا لويد من الشؤون القانونية إنك لم تختطف سير دونالد فيتزروي!».
ـ لديَّ ابنه وعائلة ابنه في مكانٍ تابع لمجموعة لوران في نورماندي.
أرخى ريجيل كتفيه العريضتين، ووضع رأسه بين يديه. بعد عدة ثوان نظر إلى مكبر الصوت الخاص به، ثم قال: «لقد أخبرتني بوضوح شديد أنك مسؤول عن هذه العملية، سأقدم لكم الرجال والعتاد والمعلومات، وأي نصيحة لديَّ».
ـ هذا صحيح.
ـ إذًا لماذا لا أبدأ ببعض النصائح؟
ـ ممتاز.

ـ نصيحتي يا لويد من الشؤون القانونية أن تعتذر للسير دونالد على سوء التفاهم الجسيم، وأن تطلق سراحه هو وعائلته، وارجع إلى بيتك، وضع مسدسًا في فمك، وشد الزناد! تجاوزك مع فيتزروي كان خطأً كبيرًا.

ـ يمكنك أن تستغني عن نصيحتك، وتكتفي بتزويدي بمزيد من الرجال، حاليًا لا أعرف أين الرجل الرمادي، لكنني أعرف إلىً أين سيذهب، سيرسله فيتزروي إلى نورماندي، سيسافر برًا من الشرق إلى الغرب، لا أعرف نقطة انطلاقه بعد، لكن إن وفرت لي الدعم الكافي، فسأرسلهم إلى كل أنحاء أوروبا للإيقاع به في أثناء اقترابه.

ـ لماذا سيذهب إلى نورماندي؟ لينقذ عائلة فيتزروي؟

ـ بالضبط، سنخبره أن النيجيريين اختطفوهم، ويحتجزونهم لحين تسليم فيتزروي له، سيتعهد بإنقاذ الموقف.

نقر ريجيل على مكتبه ثم قال: «وأنا أتفق مع تقييمك. لديه سمعة بأنه نصير الحق، ولن يثق بالسلطات الفرنسية».

ـ بالضبط. أحتاج أن توفر لي فقط فريق مراقبة وفريق قتل. في الوقت الحالي، يحرس عائلته طاقمك من مينسك في فرنسا، لكني أود أن يموت جينتري قبل أن يصل إلى نورماندي، لأن الوقت مهم للغاية.

ـ إنه الرجل الرمادي. أنت بحاجة إلى أكثر من ذلك.

ـ ماذا تقترح؟ أعني، غير أن أقتل نفسي.

نظر ريجيل إلى أبعد حائط عن المكتب، حيث يحدق إيه رأس خنزير بري وكتفه، أومأ كيرت ببطء إلى نفسه.

ـ لإنجاز هذا في الوقت المسموح به ستحتاج إلى مائة مخبر.

هل يمكنك أن تحضر لي مائة خبير مراقبة؟ـ نطلق عليهم فناني أرصفة.

ـ أيًا كان، يمكنك توفير ذلك؟

ـ بالطبع. وسنحتاج إلى توزيع عشرات الفرق من القتلة الصيادين؛ ليتمركزوا في كل طريق محتمل، بالتنسيق مع مقر قيادة مركزية، وأن تتحفز كل وحدة للعثورً على الهدف وقتله.

قال لويد بنبرة ذهول من حجم المهمة التي عرضها ريجيل: «عشرات الفرق؟».

ـ ليسوا من موظفي الشركة بالطبع، سيكون هناك الكثير من الأعمال الانتقامية ضد شركة لوران، ولا عناصر محلية كذلك، فهؤلاء تعرفهم الشرطة المحلية، وسيكشف هذا عملية المطاردة، لا. نحن بحاجة إلى عناصر أجنبية من مناطق مجهولة، أو كما تطلقون عليهم أيها الأمريكان «أشقياء» إذا كنت تفهمني يا لويد من الشؤون القانونية، فأولئك الأشقياء هم من يتولون المهام التي لا حل لها.

ـ هل تقصد مرتزقة؟

ـ قطعًا لا، فقد أفلت الرجل الرمادي من كل القتلة المأجورين الذي أُرسِلوا في إثره في الماضي أو قتَلهم. نحتاج تحديدًا إلى وحدات ميدانية، فرق قتل حكومية.

ـ لا أفهم، أي حكومة؟

ـ لدينا مكاتب لفروعنا في ثمانين بلدًا، ولديَّ علاقات جيدة مع رؤساء الأمن الداخلي في بضع عشرات من دول العالم الثالث، هؤلاء يديرون مجموعات من القتلة في بلادهم ليُبقوا مواطنيهم وأعداءهم تحت السيطرة.

توقف ريجيل لحظة متأملًا خطته.

وأكمل: «نعم سأتواصل مع زملائي في مكاتب بالعالم الثالث، في بعض الأماكن الخطيرة، إذ يمكنني أن أعثر على رجال أشقياء بلا ذرة ضمير واحدة، سأتصل بأولئك الرجال، وفي غضون نصف يوم من هذه اللحظة ستحلق عشرات الطائرات قادمة من تلك البلاد، كلٌّ طائرة ستمتلئ عن آخرها بأعنف الرجال وأكبر المسدسات، وسيُطلب

من كل فريق تنفيذ المهمة نفسها، سيتنافس جميعهم على فرصة قتل الرجل الرمادي».

ـ كمسابقة؟

ـ بالضبط.

ـ رائع!

ـ لقد فعلناها من قبل، على مستوى أصغر باعتراف الجميع، لكننا فعلناها، كان لدينا مبرر في الماضي لجمع عدة فرق ليتنافسوا على هدف واحد.

ـ لكنني لا أفهم لماذا قد تساعدنا هذه الحكومات؟

ـ ليست الحكومات نفسها، بل وكالات الاستخبارات. هل تتخيل ماذا ستفعل مكافأة عشرين مليون دولار تضاف إلى خزائن المباحث في دول مثل ألبانيا؟ أو الجيش الأوغندي؟ أو إدارة الاستخبارات الداخلية في إندونيسيا؟ تلك المنظمات تعمل باستقلالية عن رؤساء دولها من وقت لآخر كلما كان هذا يناسب أغراض المنظمة أو قادتها. أعرف أي دول تجيز أجهزة أمنها الداخلي لرجالها القتل مقابل المال. ليس لدي شك في ذلك.

كانت هناك وقفة قبل أن يرد لويد: «فهمت، وكالات الاستخبارات هذه لن تقلق بشأن الانتقام الأمريكي. سيعرفون أن وكالة المخابرات المركزية لن تلاحق قتلة الرجل الرمادي».

ـ لويد، من الوارد أن يخبر الفريق المنتصر وكالة الاستخبارات المركزية نفسها. إنهم يسعون إلى الحصول على مكافأة من الأمريكيين أيضًا. لانجلي تلاحق الرجل الرمادي منذ سنوات. لقد قتل أربعة منهم كما تعلم.

ـ نعم أنا أعرف. تعجبني خطتك يا ريجيل. لكن هل يمكننا فعل ذلك بهدوء؟ أعني، دون تأثير سلبي في مجموعة لوران؟

ـ يحتفظ مكتبي بشركات صورية من أجل إنكار المسئولية. سنستخدم الأطقم الجوية لمجموعة لوران في طائرات تحلق تحت القذائف، لتتسلل على متنها فرق القتل وأسلحتهم إلى القارة. سيكون ذلك مكلفًا، لكن مارك لوران أوصاني بالنجاح بأي وسيلة ممكنة.

لا يمكن إنكار اتصالات ريجيل بالمستويات العليا للشركة، لكن فراسة لويد السياسية دفعته إلى إعادة تأكيد موقفه. فقال: «ما زلت مسؤولًا عن العملية. سأنسق تحركات المراقبين والقتلة. أنت فقط أحضر لي هذه القوة البشرية».

ـ اتفقنا. سأرتب لمسابقتنا الصغيرة، سأجهّز الجميع، لكن سأدعك تقود الفرق. أطلعني على التطورات، ولا تتردد في طلب مشورتي. أنا صياد يا لويد. سيكون صيد الرجل الرمادي في شوارع أوروبا أعظم رحلة استكشافية في مسيرتي».

صمت للحظة. ثم أتبع: «كنت فقط أتمنى لو لم تعبث مع فيتزروي».

ـ اتركه لي.

ـ أوه، لا أنوي غير ذلك بالضبط. سيد دونالد وعائلته مشكلتك وليست مشكلتي.

ـ لا توجد مشكلة على الإطلاق.

9

اعترف جينتري لنفسه أخيرًا بأن حظه بدا كأنه يتغير. بعد أن خرج وهو يعرج شمالاً باتجاه الحدود التركية لمدة أقل من ساعة، التقطته دورية من الشرطة الكردية المحلية. الأكراد في شمال العراق يحبون الأمريكيين، وخاصة الجنود الأمريكيين. افترضوا من إصاباته وزيه العسكري الممزق أنه عامل في القوات الخاصة الأمريكية. ولم يحاول جينتري تغيير افتراضهم هذا.

اقتادوه إلى الموصل، وساعدوه على تنظيف نفسه، وأعادوا تضميد جرح ساقه في عيادة أنشأتها الحكومة الأمريكية. في غضون سبع ساعات من هبوطه من فتحة طائرة دون مظلة على ظهره، وجد القاتل الأمريكي نفسه مرتديًا بنطلونًا ضيقًا وقميصًا من الكتان، على متن طائرة تجارية متجهة إلى تبليسي، بجورجيا.

لم يكن تحسن ظروفه بسبب الحظ وحده، لكن تضمنت إحدى خطط جينتري الاحتياطية أن يجد طريقه للخروج من العراق، وقد استعد لهذا الاحتمال بتزوير جواز سفر ونقود وتأشيرات لجورجيا وتركيا، وغيرها من المستندات الضرورية في سرواله.

لا، لقد استفاد جينتري من الحظ قليلًا من حين إلى آخر، لكنه لم يعتمد عليه. لم يكن شيئًا إن لم يكن رجلا مستعدًا. بعد اجتياز الجمارك الجورجية بجواز سفر كندي يعرّف عن نفسه باسم مارتن بالدوين، صحفي مستقل، اشترى تذكرة إلى براغ، بجمهورية التشيك.

كانت الرحلة التي استغرقت خمس ساعات خالية تقريبًا من أي شيء، وهبط جينتري في مطار روزين بعد الساعة العاشرة مساءً بقليل.

كان يحفظ براغ عن ظهر قلب. عمل هنا مرة واحدة، وغالبًا ما استخدم الضواحي المجاورة مكانًا للاختباء.

بعد أن استقل سيارة أجرة، وركب المترو، سار في الشوارع المرصوفة بالحصى في منطقة ستير ميستو، ثم حجز غرفة في فندق صغير يقع على بعد ربع ميل من نهر فلتافا. قضى فترة طويلة في الاستحمام، ثم جلس أخيرًا لتضميد فخذه، حينئذٍ أصدر هاتف القمر الصناعي في حقيبة ظهره الجديدة صوت تنبيه.

نظر جينتري إلى الهاتف، ورأى أن فيتزروي يتصل به. راح يتحدث مع دون في ذلك الصباح، بينما يواصل تضميد جرح الرصاصة. وبدا غضب جينتري مفهومًا من فريق الإجلاء الذي انقلب عليه.

لم يفكر في احتمال أن يكون السير دونالد نفسه قد أمر رجاله بقتله. لا، لقد كان غاضبًا لأن عملية فيتزروي تعرضت لاختراقٍ واضح، لدرجة أن النيجيريين كان بوسعهم التسلل إلى مهمة قيدَ التنفيذ، وكادوا يفلحون في تحويل رجال الإنقاذ إلى قاتليه.

عارض فيتزروي جينتري بشدة لمهاجمة أبي بكر بعد وفاة مصدر التمويل، والآن يتساءل جينتري: هل وضع فيتزروي نصف هيكل دعمٍ وسيلةً يُبدي بها احتجاجه؟

أُطلِق على هيكل الدعم المنظم لفيتزروي اسم الشبكة، وكانت الشبكة بمنزلة شريان الحياة الوحيد لجينتري في هذا المجال. تألفت من أطباء شرعيين يضمدون جروح الرجل دون طرح أي أسئلة، وطياري شحن شرعيين يأخذون مسافرًا خلسة دون النظر إلى المعدات الموجودة على ظهره، وأشخاص قانونين يمكنهم طباعة المستندات وتغييرها.

تطول القائمة وتزداد بمرور الوقت، استخدم جينتري الشبكة أقل استخدام ممكن، أقل بكثير من الرجال الآخرينٍ في وكالة فيتزروي. في النهاية كان الرجل الرمادي موظفًا سريعًا وفعّالًا. لكن يحتاج كل

من يعمل في مهنة جينتري الشاقة إلى بعض المساعدة من وقت إلى آخر، ولم يختلف الأمر مع كورت.

عمل جينتري لدى فيتزروي لأربع سنوات، وذلك بعد بضعة أشهر من الليلة التي قررت فيها الاستخبارات المركزية الاستغناء عن خدمات أفضل قاتل لديها وأكثرهم مهارة ونجاحًا. تذكر كورت تلك الليلة، حين عبّروا فورًا عن استيائهم منه بوضع قنبلة في سيارته، وإرسال فريق اغتيال إلى شقته، ومذكرة اعتقال دولية أصدرتها وزارة العدل، ووزعها الإنتربول على كل جهاز أمني في الكوكب.

كان جينتري حينئذ يبحث باستماتة عن عمل لينفق على نفسه، كونه هاربًا من حكومة الولايات المتحدة، ولهذا تواصل مع السير دونالد فيتزروي، ظاهريًا كان الرجل الإنجليزي يعمل في مجال الأمن، لكن جينتري تعامل مع الجانب المظلم من شركة شلتنهام لخدمات الأمن، في أثناء تنفيذه لعمليات هجوم وتسليم سرية مع إدارة الأنشطة الخاصة في الاستخبارات المركزية. لذلك كان مكانًا مناسبًا لقاتل أصبح لتوه عاطلًا يبحث عن عمل.

ومنذ ذلك الحين ذاع صيته في عالم العملاء المأجورين، بالرغم من أنه ـ عمليًا ـ لم يكن أحد يعرف اسمه الحقيقي، أو حقيقة أنه يعمل لدى فيتزروي، لكن الرجل الرمادي أصبح أسطورة بين العملاء السريين عبر العالم الغربي.

وكما هو الحال مع أي أسطورة، فقد زادت تفاصيلها وأُثريت أو حتى اختُلقت بالكامل. إلا أن إحدى تفاصيل أسطورة الرجل الرمادي كانت حقيقية، وهي مبدؤه الأخلاقي الشخصي بعدم قبول أي عقد إلا ضد أهداف يرى أنها تستحق الإعدام خارج القانون. كان هذا جديدًا تمامًا على عالم القتلة المأجورين، صحيح أنه عزز سمعتَه، لكن هذا جعله حريصًا للغاية بشأن العمليات التي يوافق عليها.

تولى جينتري أصعب العمليات، ذهب بمفرده إلى أعتى البلدان، وواجه جحافل الأعداء، وأسس ـ باعتراف الجميع ـ سمعة وثروة لا مثيل لهما، ودون أن يظهر في الصورة.

في أربع سنواتٍ نفَّذ اثنتي عشرة عملية على نحو مُرض ضد إرهابيين والجهات التي تمولهم: تجار الرقيق الأبيض، مهرِّبي المخدرات والأسلحة غير القانونية، وزعماء المافيا الروسية. ثمة شائعة بأنه جنى من المال ـ بالفعل ـ ما يزيد على حاجته؛ لذا ساد الاستنتاج بأنه يفعل ما يفعله من أجل رد المظالم، وحماية المستضعفين، وتحويل العالم إلى مكان أفضل بفوهة مسدسه.

كانت الأسطورة خيالًا ولم تكن حقيقة، لكن عكس أغلب الخيالات، كان الرجل الذي تدور حوله هذه الأسطورة حقيقيًّا وموجودًا، أما دوافعه فكانت معقدة خلافًا للقصص الهزلية المثيرة التي نُسِبت إليه، لكن في أعماقه اعتبر نفسه بالفعل أحد الأخيار.

لا لم يكن في حاجة إلى المال، ولم يكن يتمنى الموت أيضًا، كان كورت جينتري هو الرجل الرمادي؛ لأنه آمن بأن هذا العالم به أشرار يستحقون الموت حقًّا.

اصطحب لويد وتابعاه الأيرلنديان المخلصان فيتزروي إلى سيارة ليموزين تابعة لمجموعة لوران، التي سارت في المدينة تحت المطِر الغزير. لم تكن هناك أي محادثة، جلس فيتزروي في صمت، ممسكا بقبعته بين ركبتيه، بينما يتأمل الليلة الممطرة عبر الزجاج كرجلٍ مهزوم.

انهمك لويد في هاتفه يرسل ويستقبل مكالمة تلو أخرى، ويتابع باستمرار مع ريجيل، الذي كان يتواصل ـ بدوره ـ مع رجال حول العالم لبدء تنفيذ العملية العاجلة.

وصلت الليموزين إلى فرع مجموعة لوران في المملكة المتحدة بعد الساعة الواحدة صباحًا. يقع مكتبٍ الشركة الفرنسية المحلي في مبنى من ثلاثة طوابق في فولهام. دخل كلٌ من لويد ورجاله وبضاعتهم من البوابة الأمامية، ومروا أمام صفين من الحرس المسلحين، ثم هبطوا عبر الطريق المؤدي إلى مبنى من طابق واحد بجانب مهبط للطائرات.

سيتوفر لك بيت بعد قليل يا سيد دونالد، أعتذر إن لم يرقَ إلى المستوى الذي اعتدته، لكن ـ على الأقل ـ لن تفتقد الصحبة، فأنا ورجالي لن نتركك حتى نسوي الأمور كلها، ويمكننا حينها أن نعيدك إلى شارع بيزووتر، ونتركك حيث أخذناك بعد أن نربت على رأسك الأصلع.

لم يقل فيتزروي شيئًا، بل اتبع الوفد الذي يحاوطه تحت المطر إلى المبنى، حيث عبر رواقًا طويلًا. مر برجلين آخرين، يرتدي كل واحد منهما بذلة، ويقفان في مطبخ صغير، وعلى الفور تعرف إليهما، فهما ضابطا أمن بملابس مدنية، للحظة شعر فيتزروي بومضة من الأمل لاحت على وجهه.

قرأ لويد أفكاره فقال على الفور: «آسف يا سيد دونالد، هؤلاء ليسوا من رجالك، بل بضعة أشقياء من مكتبنا في إدنبره، يدين هؤلاء الأسكتلنديون بالولاء لي وليس لك».

واصل فيتزروي المضي إلى القاعة، وتمتم: «أنا أعرف ألف شاب من هذا القبيل، هؤلاء الرجال ليس عندهم ولاء، إنهم ينضمون إليك من أجل المال، وسينقلبون عليك إذا كان السعر مناسبًا».

مرر لويد بطاقة فوق آلة المرور الإلكترونية بجانب آخر باب في القاعة وهو يقول: «حسنًا، من حسن حظي أنني أدفع جيدًا».

كانت قاعة اجتماعات كبيرة، فيها طاولة مصنوعة من خشب البلوط، ومقاعد بظهور عالية، وجدران مبطنة بشاشات مراقبة مسطحة وأجهزة كمبيوتر وشاشة (إل سي دي) كبيرة تعرض خريطة أوروبا الغربية.

قال لويد: «لماذا لا تترأس الطاولة بما أنك حاصل على لقب فارس نبيل؟ أعتذر لأننا لم نتمكن من توفير طاولة مستديرة، لم نوفق سوى في شراء هذه الطاولة البيضاوية». قهقه الأمريكي على مزحته.

وقف فردا الأمن الأسكتلنديان بالقرب من الباب، وتمركز الأيرلنديان الشماليان في زوايتين. دخل رجل أسود نحيف يرتدي بذلة بنية كستنائية وجلس إلى الطاولة وأمامه زجاجة ماء، فسَّر لويد الأمر قائلًا: «السيد فيليكس يعمل لصالح الرئيس أبي بكر». كان تقديمًا مختصرًا. وأكمل: «إنه هنا للتحقق من أننا قتلنا الرجل الرمادي».

أومأ السيد فيليكس برأسه إلى فيتزروي عبر الطاولة.

تشاور لويد مع شاب يربط شعره على هيئة ذيل حصان، ويضع حلقًا في أنفه، وتعكس نظارته ذات الحافات السميكة الضوء من أجهزة الكمبيوتر الموجودة على المكتب أمامه. نظر إلى لويد هامسًا، فالتفت لويد إلى السير دونالد وقال: «كل شيء له موعد محدد. سيكون هذا الرجل مسؤولًا عن جميع الاتصالات بيني وبين المراقبين والصيادين. سنسميه الفني».

وقف الشاب، ومد يده بأدب كأنه لا يعرف أنه يتعرف إلى إحدى ضحايا الاختطاف، فالتفت فيتزروي بعيدًا.

عندئذٍ تلقى الفني مكالمة في سماعة رأسه. تحدث بهدوء إلى لويد بلهجة بريطانية، فأجاب لويد: «ممتاز، أرسل دعمًا إلى هناك على الفور. حدد موقعه».

ابتسم لويد في وجه فيتزروي: «لقد حان الوقت لقليل من الحظ لي، شوهد جينتري في تبليسي، يستقل طائرة متوجهة إلى براغ. لقد هبطت الرحلة بالفعل؛ لذا لا يمكننا تتبعه من المطار، لكنْ لدينا رجال يفحصون الفنادق. نأمل أن يكون لدينا فريق ناجح هناك في انتظاره عندما يستيقظ في الصباح».

بعد مرور ساعة جلس لويد في مواجهة فيتزروي على الطاولة، كانت الأضواء خافتة، ووضع الفني وراء الأمريكي إضاءة خلفية، ثم دارت كاميرا معلقة بالسقف لتواجهه، وعرضت الشاشة صورة ظلية للويد غير واضحة تمامًا لدرجة أن المحامي الشاب اضطر إلى رفع ذراعه في الهواء ملوحًا للتحقق من أنه كان ينظر إلى نفسه بالفعل.

بعد ذلك، ظهرت شاشات (إل سي دي) بطول الجدار عبر الطاولة واحدة تلو أخرى، في الجزء السفلي من كل شاشة عنوان وتوقيت محلي.

اتصلت لواندا[1] وبوتسوانا أولًا بالإنترنت. جلس أربعة رجال في غرفة اجتماعات مماثلة لتلك الموجودة في إنجلترا. كانت مضاءة من الخلف وفي صورة ظلية على غرار لويد. ثم ظهرت جاكرتا، بإندونيسيا. هذه المرة، كان هناك ستة أشخاص دُكن البشرة يجلسون جنبًا إلى جنب على طاولة وينظرون إلى الشاشة. ثم طرابلس في ليبيا.

بعد دقيقة كاراكاس في فنزويلا، وبريتوريا في جنوب إفريقيا، والرياض في المملكة العربية السعودية، أضاءت كلها في وقت واحد. في غضون الدقائق الخمس التالية، كان البث يعمل من ألبانيا وسريلانكا وكازاخستان وبوليفيا. استغرقت مدينة فريتاون في سيراليون دقيقة أخرى حتى يتمكن الفني من توصيلهم، أخيرًا ظهر الإرسال من كوريا الجنوبية.

جلس رجل آسيوي على المكتب بمفرده. هذه هي فرق القتل الحكومية التي جهزها كيرت ريجيل للمطاردة. لقد تحدث ريجيل بالفعل إلى رئيس وكالة كل فريق، لذلك رفض التحدث إلى العملاء مباشرة. إنها مهمة لويد، كما قال ريجيل، كان فقط يساعد في الترتيبات والاستشارات.

---

(1) : عاصمة أنجولا.

قبل اتصال الصوت بالإنترنت، نادى لويد الفني عبر الغرفة: «أين باقي الكوريين؟». قرأ الفني ورقة على مكتبه بسرعة ثم قال: «لقد أرسلوا رجلًا واحدًا فقط. لا أظن أن الأمر يهم، فالإجمالي لدينا أكثر من خمسين رجلًا من مجموع الفرق الاثنتي عشرة».

أكد الفني للويد أن صوته سيتغير عبر كل الأجهزة والبرامج لتجهيله تمامًا. بعد لحظة أخيرة فحص فيها الفني اتصال الصوت مع المترجمين، الذين يجلسون بعيدًا عن الكاميرا في كل موقع يحتاجون إليه، تنحنح لويد، وأظهرت صورته الظلية يده إذ يضعها على فمه ثم ينزلها.

وقال: «أيها السادة، أعلم أنكم قد اطلعتم بشكل عام على المهمة التي نكلفكم بها، إنها بسيطة للغاية حقًّا. أحتاج إلى العثور على رجل، لكن هذه ليست مشكلتكم. لديَّ ما يقرب من مائة من فناني الأرصفة، إما متأهبون أو يمشطون بالفعل مسرح العمليات في هذه اللحظة تحديدًا. وما إن نعثر عليه، أحتاج إلى القضاء عليه، سيكون هذا هدفكم».

تغيرت الصورة في الشاشات في اثني عشر موقعا متفرقًا، وظهرت على الشاشة صورة ملونة لرجل حليق الذقن، يرتدي معطفًا رياضيًّا، ونظارة بإطار سلكي. أخذها لويد من جواز سفر مزور في ملف وكالة الاستخبارات المركزية.

ثم أكمل: «هذا هو الرجل الرمادي، كورت جينتري، التقطت صورته المعروضة أمامكم قبل خمس سنوات. لا أعرف كيف غيَّر مظهره. لا تدع حياته الطبيعية تخدعك. لقد كان أفضل قاتل عمل في وكالة الاستخبارات المركزية على الإطلاق».

تمتم شخص ما بشيء ما باللغة الإسبانية. فهم لويد كلمة واحدة فقط: «ميلوسيفيتش».

فقال: «نعم، كنت أتوقع أن بعضكم قد يعرف هذا الرجل بالفعل من خلال سمعته. تكثر الشائعات حول عملياته. يقول البعض إنه

قتل ميلوسيفيتش، والبعض يقول إنه لم يفعل. يقول البعض إنه كان مسؤولًا عن الأحداث في كييف العام الماضي. أغلب العقول المنطقية تحسب هذا مستحيلًا. ومع ذلك، فأنا أعرف ما يكفي عن العمليات المحددة التي نفذها، سواء مع الحكومة الأمريكية أو لحسابه الخاص، لأؤكد لكم أن السيد جينتري هو أروع عميل منفرد ستواجهونه على الإطلاق».

تحدث صوت جديد مجهول: «يبدو مخنثًا».

من اللكنة؛ حول لويد انتباهه على الفور إلى بث جنوب إفريقيا.

تردد صدى صوت لويد المجهَّل عبر مكبرات الصوت: «هذا المخنث سيمشي نحوك مباشرة، ويدس مخرز ثلج بين ضلوعك، ويفرقع رئتيك، ويقف فوقك، بينما تختنق حتى الموت في دمائك». كان هناك غضب في صوت المحامي الأمريكي. وأتبع: «اقتله، وبعد ذلك يمكنك أن تخبرني أي مزحة سخيفة هو، ولكن حتى تقتله فلتحتفظ بتعليقاتك الصبيانية لنفسك».

صمت بث جنوب إفريقيا.

تابع لويد وهو لا يزال يحدق إلى الصور الظلية التي تُبَث من بريتوريا: «الرجل الرمادي مُدرَّب على القنص لمسافات طويلة، وعلى المعارك القريبة، والقتال بالأسلحة البيضاء، وكراف ماغا[1]، فنون الدفاع عن النفس التي تستخدمها القوات الخاصة الإسرائيلية. يمكنه القتل بسلاح طويل أو سلاح قصير أو دون سلاح على الإطلاق. يمكنه أن يقضيَ عليك على بعد ميل، أو يمكن أن تموت وأنفاسه في أذنك. لديه

(1) فن قتالي للدفاع عن النفس يرجع أصله إلى قتال الشوارع الذي استُخدم للدفاع عن الحي اليهودي ضد الجماعات الفاشية في تشيكوسلوفاكيا في ثلاثينيات القرن الماضي. ثم طوره جيش الدفاع الإسرائيلي، ويضم تقنيات من الملاكمة والمصارعة والجودو والأيكيدو والكاراتيه. (المترجم)

تدريب مكثف على استخدام الذخائر المتفجرة وحتى السموم. هناك شائعة تدور في وكالة الاستخبارات المركزية مفادها أنه في لاهور بباكستان استخدم نبلة لقتل هدف في مطعم، دون أن يلاحظ أحد من العناصر الأمنية المرافقة للهدف».

توقف لويد للحظة، ثم أكمل: «كان جينتري على الطاولة المجاورة، وواصل تناول وجبته، بينما سقط الهدف ميتًا. ما إن ننتهي، ستصعدون جميعًا على متن الطائرات. سنرسل عشرات الفرق في اثنتي عشرة طائرة إلى اثني عشر مطارًا على طول الطريق الذي نتوقع أن يسلكه جينتري عبر أوروبا في الثماني والأربعين ساعة القادمة. سأشرف على التحركات، وأتولى التنسيق بينها من هنا، وسأنقل أي معلومات استخبارية قد أحصل عليها. سيحصل كل فريق يشارك في الصيد وينجو على مليون دولار، بالإضافة إلى أي نفقات يتكبدها. سيحصل الفريق الذي يقتل جينتري على مكافأة قدرها عشرون مليون دولار».

سأل رجل بصوت إفريقي جهوري: «ماذا ستفعل أمريكا إذا قتلناه؟».تحول لويد إلى البث القادم من سيراليون، لكنه لم يكن واثقًا. قال: «لقد ناقشنا هذا مع قادة منظماتكم. هذا الرجل محكوم عليه بالموت بالفعل من حكومة الولايات المتحدة، وهناك عقوبة في وكالة الاستخبارات المركزية تقضي بقتل المُدان عند رؤيته. ليس لديه أصدقاء ولا عائلة مقرّبة. لا أحد على هذه الأرض سيبكي عليه عندما يموت».

بعد ذلك تحدث شخص ما بلغة آسيوية، وعندما انتهى سأل المترجم: «أين هو الآن؟».

أجاب: «لقد طار إلى براغ الليلة الماضية. عملاؤنا يسألون عنه في الفنادق، لكن لا توجد طريقة لمعرفة ما إذا كان لا يزال هناك».

سأل أحدهم: «أي فريق سيذهب إلى براغ؟». أجاب: «الألبان، هم الأقرب».

صرخ الإفريقي الجنوبي: «هذا ليس عادلًا!». خلع لويد نظارته في الصورة الظلية، وفرك أرنبة أنفه ثم قال: «مع احترامي للألبان، لكنني لا أعتقد أن أول فريق سيواجه سيكون هو الذي سيقضي عليه».

كان هناك تذمر في البث الألباني، ولكن سرعان ما أُخمِد مع الهسهسة.

ثم أكمل: «سنقتل جينتري في اليومين المقبلين، نعم. لكن من المحتمل أن نفعل ذلك بالاستنزاف. قد يموت الكثير منكم». توقف للحظة في محاولة مصطنعة ليبدو كشخص يكترث بهذا. وقال: «ومع ذلك، لسنا على يقين من أن الألبان سيواجهونه أولًا. ربما يتحرك غربًا عندما تهبط طائرتكم. إذا حدث. إذا اقتفينا أثره بعد براغ، فسنعيدكم إلى طائرتكم، وستتخذون نقطة رصد جديدة أقرب إلى الوجهة النهائية. ما من ميزة في الوجود أقصى الشرق أؤكد للجميع».

استقام لويد على كرسيه. بدت صورته الظلية نحيفة لكنها رياضية. وقال: «اسمحوا لي أن أنهي بقولي هذا. افعلوا ما يلزم لإنجاز المهمة. لا أعبأ كثيرًا بالأضرار الجانبية. إذا كنتم لا تتحملون قتل بعض الأطفال أو المتقاعدين أو الجراء، فلا تصعدوا على متن طائرتي. مهمتكم هي قتل كورت جينتري. افعلوا ذلك تجنوا الملايين لمنظمتكم، وستشكركم وكالة الاستخبارات المركزية. وإذا فشلتم، فعلى الأرجح فستموتون على يده. وستنالون ما يكفي من التقدير لمحو مخاوفكم من أي شيء آخر. أي أسئلة؟».

لم تكن هناك أسئلة.

فاختتم: «إذًا أيها السادة. لقد بدأت المهمة».

***

في الساعة الثانية صباحًا، عرض ضابط أمن في مجموعة لوران، من مزرعة ضخمة تابعة للشركة في برنو بجمهورية التشيك، صورة جينتري لموظف مكتب فندق هادئ، في مبنى ضيق من أربعة طوابق في أحد

النُّزُل بستير ميستو في البلدة القديمة ببراغ. أطال الرجل العجوز الذي يقف خلف منضدة الاستقبال بالفندق النظر في الصورة، وقال إنه لا يستطيع التأكيد، ولكن بعد أن دفع الشخص الغريب ذو النظرات الثاقبة خمسمائة كرونة غيَّر العجوز نبرة حديثه.

كان على يقين من أن الرجل الحليق في الصورة والسائح الملتحي في غرفته العلوية هما نفس الشخص.

اتصل عميل المراقبة بلويد على الفور. كان موظفًا في مجموعة لوران، وقد أمر لويد بشكل صارم أن يُبعد موظفي الشركة عن أي إجراء مباشر، لذلك أمره لويد بالعودة إلى المنزل.

قال لويد: «هناك فريق في الطريق».

ـ إذا كنت تريده ميتًا، فسأفعل ذلك مقابل مائة ألف كرونة.

ضحك لويد في الهاتف وقال: «لا، لن تفعل».

ـ هل تقول إنني لا أستطيع التعامل...ـ نعم. هذا بالضبط ما أقوله.

ـ وغد أمريكي.

ـ أنا الوغد الأمريكي الذي أنقذ للتو حياتك التشيكية التافهة. اذهب إلى المنزل، وانسَ الأمر. ستحصل على مكافأة نظير عملك الجيد.

ـ كم أكره الأمريكان!

راح لويد يضحك بصوتٍ عالٍ عندما انقطع الخط.

10

استيقظ جينتري في الخامسة صباحًا، ظل جرح الرصاصة يخفق ويحرقه، لم ينعم بنوم هادئ الليلة على الإطلاق. اعتدل في جلسته ببطء وصعوبة، وانحنى للأمام يمُط أسفل ظهره وأوتار ركبته، وانثنى بقوة للجانبين، أراد أن يمضي اليوم في التحرك. لم يحدد وجهته بعد، لكنه أدرك أنه كلما أسرع بمغادرة الفندق كان هذا أفضل.

بعد زيارة سريعة للحمام ليقضي حاجته، ويفحص ضمادة جرح ساقه، ارتدى الملابس نفسها التي كان يرتديها في الليلة الماضية، ثم تطلع عبر النافذة متفحصًا إذا ما كان أحد يراقبه، فلم يعثر على ما يثير القلق. هبط الدرج، وغادر المبنى في الساعة الثانية وخمسٍ وعشرين دقيقة.

حدد في عقله قائمة مهام، كانت المهمة الأولى أن يذهب إلى مخبأ أسلحة هنا في براغ ليحصل على مسدس صغير. لن يطير مرة أخرى، لم تكن الرحلات الجوية في الساعات الأربع والعشرين الأخيرة مألوفة له. كره كورت تجرده من السلاح، فلم يكن يستقل الطائرات التجارية إلا مضطرًا، ولم يسافر سوى اثنتي عشرة مرة في السنوات الأربع الأخيرة. والآن وبينما يسير في شوارع براغ الحجرية الخالية، شعر بأنه عارٍ، لم يعوضه عن أسلحته سوى مطواة في حزامه اشتراها من ضابط كردي. كانت أفضل من لا شيء، ولكن أقل من أي نوع من الأسلحة النارية.

سيتعين عليه الخروج من البلد بعد أن يحصل على سلاحه من المخبأ، ويشتري دراجة نارية رخيصة، ثم ينطلق خارج براغ. ربما يقضي أسبوعًا أو نحو ذلك متنقلًا من قرية إلى أخرى في جمهورية

التشيك أو سلوفاكيا، كان يأمل أن يبقيه ذلك في أمان لحين مغادرة الرئيس النيجيري قصر الرئاسة، وأن يتركه في سلام.

لا أحد يستطيع التخفي بمهارة وسرعة مثل ذلك الأمريكي ذي الستة وثلاثين عامًا.

وبينما يمشي كورت باتجاه محطة المترو، قرر أن يضع في مقدمة أولويات قائمة مهامه أهم أمر على الإطلاق. اشتم رائحة قهوة طازجة تنبعث من مقهى صغير كان قد فتح لتوه، وفي تلك اللحظة شعر أنه بحاجة إلى القهوة بقدر حاجته إلى مسدسٍ.

لكنه كان مخطئًا.

ملأ الضباب الكثيف الشارع أمام المقهى، وبدأت تُمطر عندما ارتقى كورت بضع درجات إلى المطعم الصغير. كانت الساعة الخامسة والنصف، وشعر أنه أول زبائن المكان. كان كورت يعرف من اللغة التشيكية ما يكفي ليُحَيي الفتاة الواقفة خلف منضدة الحساب. أشار إلى وعاء يتصاعد منه البخار وفطيرة كبيرة، وراح يشاهد الفتاة النحيفة الشاحبة تصب له كوبًا علته الرغوة، مليئًا بالقهوة الغنية السوداء، ووضعت إفطاره في حقيبة.

في تلك اللحظة دق جرس الباب خلفه، التفت للخلف ورأى ثلاثة رجال يدخلون، ويغلقون مظلاتهم، وينفضون عن معاطفهم مياه المطر. بدوا محليين، لكن كورت لم يستطع التأكد، رمقه الرجل الأول بينما يأخذ جينتري ما اشتراه باتجاه طاولة صغيرة، ومعه حليب وسكر ليضيفهما إلى قهوته.

نظر كورت إلى منشور ورقي معلق خلف زجاج على الحائط يروج لقراءة شعرية، وسرح ببصره في النافذة على يمينه، باتجاه الشارع المظلم والغارق في المطر.

خرج بعد ثوانٍ قليلة متجاهلًا الأمطار، وسار نحو محطة المترو في ماستِك. لم يكنْ هناك مشاة آخرون حوله بفضل البرد والمطر والوقت

المبكر. لم يتأفف كورت من الهواء المتجمد، بل استحسن قدرته على حقن الحياة في عضلاته المنهكة ورأسه المرهق. كان هناك عدد قليل من شاحنات التوصيل، نظر جينتري عبر الزجاج الأمامي المبلل لكل شاحنة تمر، ثم عثر على مدخل المترو، فنزل على الدرجات شديدة الانحدار.

تكيفت عيناه المرهقتان ببطء مع الإضاءة الكهربائية العالية حوله، والبلاط الأبيض البارد الذي يعكسها لأعلى. اتبع الإشارات أسفل نفق متعرج باتجاه القطارات. قاده سلم متحرك آخر إلى عمق أكبر أسفل المدينة النائمة، وقاده منعطف آخر إلى مسافة أبعد في أعماق محطة المترو ذات الإضاءة الساطعة.

سرعان ما انعطف إلى اليمين، ومر بصندوق قمامة. ألقى فيه قهوته التي لم يمسها، وحقيبة المعجنات الخاصة به. ثم اتجه إلى اليمين وسار خطوتين أخريين، وتوقف.

ثنى عضلاته بسرعة؛ ذراعيه وظهره وساقيه ورقبته وحتى فكه المتوتر. ثم مد يده إلى حزام خصره ليسحب مطواته، نفضها ليفتحها، فعل هذا بسرعة وكفاءة مذهلتين، ثم استدار إلى الخلف، وخطا خطوة واحدة إلى الوراء في الطريق الذي جاء منه، وقفز في الهواء ليقطع أكبر مساحة ممكنة من الأرض بأقصى سرعة، ليهوي بالشفرة ذات البوصات الثلاث بعمق في حلق الرجل الأول الذي كان يتبعه.

كان رجلًا ممتلئًا وقويًا وطويلًا وعريضًا. قبضت يده اليمنى المكتنزة على مسدس آلي من الفولاذ المقاوم للصدأ. أمسك جينتري بكعب المسدس ووجّه فوهته إلى الأسفل وبعيدًا، خشية أن تتسبب تشنجات الرجل المحتضر في إطلاق النار.

لم يستغرق كورت الكثير من الوقت في النظر إلى عيني الرجل عريض الفكين، فلو فعل لرأى الصدمة والذهول قبل هجوم الذعر والألم، بدلًا من ذلك دفعه الرجل الرمادي إلى زاوية النفق في الخلف

ليصطدم بثاني القتلة المحتملين، أمسك بهذا الرجل الذي كان يحاول تبديل الأدوار وسحب مسدسه. قبض كورت على المطواة بيده اليمنى. كانت لا تزال عالقة في حلق الرجل الأول، فاستخدمها لدفع الأول إلى الثاني، واستخدم يده الأخرى لينتزع المسدس الذي في قبضة المحتضر الأول.

لم يتحرر المسدس، لكن استطاع كورت أن يرى الرجل الثالث الواقف خلف الرجل الثاني في أثناء سقوطه، وكان مسدس الثالث يرتفع استعدادًا لإطلاق النار. وضع جينتري رأسه في صدر الرجل غارزًا المطواة في حلقه، ودفعه على المأجور الذي يهوي أرضًا، وانطلق في إثر الرجل الأخير.

هزّت طلقة ناريّة النفق المكسو بالبلاط بصوتٍ يصم الآذان، وتضخّم ضجيج الانفجار الذي امتد بفعل السقف المنخفض والممر الضيق.

شعر جينتري بالرصاصة ترتطم بظهر الرجل الملطخ بالدماء بين ذراعيه، دوت رصاصة أخرى وثقبت شريك كورت في الرقصة. كان الأمريكي لا يزال يدفع الرجل إلى الوراء، وفي النهاية دفعه بأقصى قوة ممكنة. وعندما ألقى جثة العميل الدامية على الرجل الثالث، أخرج جينتري المطواة من حلقه ووصل أخيرًا إلى المسدس الذي يُحكم عليه قبضته الميتة.

استطاع أن يمسك بالمطواة، لكن الجثة اصطدمت بالعميل الثالث بيده الميتة التي لا تزال تمسك المسدس بقوة.

الآن يقف جينتري بين قاتلَين حيَّيْن، كلاهما مسلح، كل منهما على بعد أقل من عشر أقدام منه. خلف كورت كان المسلح ملقى على الأرض. من المؤكد أنه كان يزحف ليتمكن من التصويب، أمام كورت الرجل الذي كان لا يزال واقفًا، والآن يدفع شريكه الذي يتقيأ دمًا بعيدًا عن طريقه حتى يتمكن من إعادة التصويب على هدفه.

نفض كورت مطواته فأمسك بالشفرة، وسرعان ما ألقاها نحو المسلح الواقف. ضُرب النصل بشكل مثالي، ودُفِن في محجر عين الرجل اليسرى. تدفق الدم، وأسقط العميل مسدسه ليضع كلتا يديه على المطواة، ثم سقط على ركبتيه.

لم ينتبه جينتري إلى الخطر المحدق به من الخلف، بل تقدم إلى الأمام بذراعين ممدودتين، في محاولة يائسة لوضع يديه على السلاح الناري. وقبل أن يصطدم بالأرض، اخترقت رصاصة أخرى الممر. لم يشعر بأي تأثير، حيث افترض أن العميل الذي يقف خلفه كان يستهدف ظهره، لكنه أخطأ بسبب قفزته على الأرض.

ارتطم كورت بالبلاط البارد وانزلق إلى الأمام، ثم رفع مسدس المسلح الثالث. كان الرجل الذي غُرزت المطواة في عينه قد جثا على ركبتيه، يحتضر، ولكنه لم يمت بعد، ويصرخ بشدة. استلقى جينتري على ظهره بجانبه، واستدار لإطلاق النار على آخر عدو لا يزال في القتال. كان لهذا الرجل نصف فرصة لإطلاق النار لكنه تردد، إذ كان كورت يقف بجانب شريكه.

ومع ذلك، لم يتردد الرجل الرمادي، وأطلق رصاصة تلو الأخرى في أثناء انبطاحه على الرجل المسلح بين ساقيه الممدودتين، وشاهده وهو يترنح ويسقط ميتًا. عندما تأكد كورت أن الرجل الوحيد على قيد الحياة هو الرجل المصاب بجانبه والمطواة في عينه، وضع فوهة المسدس في صدغه، وضغط على الزناد دون تردد.

وقف الأمريكي فوق جثث ثلاثة رجال ممددة في الممر الأبيض الساطع. تلطخ الحائط ببقع الدم، وتسربت من الجثث بِرك من الدماء بلغت قدميه. شعر بصفير في أذنيه وألم نابض في جرح فخذه.

لقد كشفوا أنفسهم في المقهى. أدرك أنهم عملاء فيما يزيد قليلًا على ثانية واحدة عندما دخلوا من الباب، ولاحظ وميضًا لا لبس فيه على وجه الرجل الأول عندما ألقى نظرة على جينتري.

بعد التحقق من التهديد الذي يمثله هؤلاء الرجال الثلاثة، شاهدهم كورت في انعكاس لمنشور قراءة الشعر، في انعكاس نوافذ المقهى، وفي الشارع في الزجاج الأمامي للسيارات القليلة التي كانت تمر، وفي السلم المؤدي إلى المترو، شعر بهم يقتربون، ثم اقتربوا أكثر في النفق، وعندما بلغ المنعطف الأخير قبل القطارات، كان يعلم أن الوقت قد حان للعمل.

كان كورت أسرع، وأفضل تدريبًا، وأكثر برودًا، ولكن عندما وقف فوق الجثث الثلاث، تأكد أن هناك مبررًا واحدًا فقط لذبحهم هكذا، وواصل نبضه المتسارع ضخ الدم.

يا لسوء الحظ التَّعس!

لقد قرر هؤلاء القتلة التوقف لتناول القهوة قبل أن يتمركزوا خارج فندقه، وصادف وجود كورت في المقهى عندما وصلوا إلى هناك. وحدثت كل الأشياء الأخرى بعد ذلك تباعًا.

كان كورت محظوظًا، ويعلم أن الحظ السعيد مكسب. لكنه يعلم أيضًا أن حظه قد يتبدل في لحظة. فالحظ عابر، ومتعسف، ومتقلب.

نبش كورت في الجثث بسرعة ودون ذرة ندم. فهو يعلم أن أوائل ركاب الصباح سيظهرون قريبًا، وإما سيتجهونَ نحو القطارات أو سيهربون منها. بعد أقل من ثلاثين ثانية من آخر طلقة نارية، كان مع الرجل الرمادي مسدس تشيكي الصنع، ومجموعة صغيرة من اليورو والكرونه.

بعد دقيقة واحدة، كان قد عاد إلى الشارع، وارتدى سترة قماشية أخذها من أحد الرجال، في حين تكفلت الأمطار بإخفاء الدماء عن سرواله البني. مشى تحت الضباب، بخطى حثيثة، لكن من دون تسرع، نحو محطة للحافلات بالقرب من جسر تشارلز. كان يعرج قليلًا في أثناء مشيه، لكن لم يميزه شيء آخر عن الحشود المتزايدة من الناس في الشارع، حيث كان كل منهم يبدأ تنقلاته اليومية.

***

عُرِض على فيتزروي غرفة صغيرة مع سرير نقّال، لكنه رفض، وكان يغفوَ غفوات متقطعة في غرفة الاجتماعات على كرسي دوّار عالي الظهر.

انتقل الفني من جهاز إلى آخر بهيئته المنحنية، وأجرى لويد مكالمة تلو الأخرى على هاتفه المحمول، بينما وقف رجال الأمن خارج الغرفة وداخلها طوال الليل.

في السادسة والنصف استيقظ السير دونالد، واحتسى القهوة السوداء حين نادى الفني لويد عبر الغرفة: «سيدي. الألبان لم يسجلوا وصولهم».

جلس لويد على كرسي مقابل فيتزروي يشرب القهوة ويحدق إلى خريطة براغ. نظر إلى رجله، ثم هز كتفيه وزم شفتيه. «يصعب تسجيل الوصول عندما تكون ميتًا».

كان الفني ما زال متفائلًا: «لا يمكننا التحقق بعد».

لم يكن لويد ينصت، في الغالب يتحدث إلى نفسه. قال: «سقط واحد، تبقى أحد عشر. هذا سريع».

ابتسم فيتزروي وهو يشرب فنجان قهوته، ولاحظ لويد ذلك. نهض واقفًا على قدميه، ودار حول الطاولة المصنوعة من الماهوجني، وجثا أمام السير دونالد ثم قال بصوت خفيض: «قد نبدو أنا وأنت خصمين، لكن لدينا الهدف نفسه هنا. إذا كنت تحتفل سرًّا بانتصار الرجل الرمادي، فتذكر أنه كلما اقترب من هدفه زادت المخاطر. وكلما اقترب من قبره كان ذلك أفضل لك ولابنك ولزوجة ابنك وبنتيك الصغيرتين الغاليتين».

تلاشت ابتسامة السير دونالد.

بعد أكثرٍ من ساعة، رنَّ هاتف فيتزروي المتصل بالقمر الصناعي. صمت كلٌ من لويد ورجاله على الفور، وبعد الرنة الثالثة مباشرة ضغط السير دونالد على مكبر الصوت:

ـ كورت؟ كنت أحاول الاتصال بك، كيف حالك؟

ـ ماذا يجري بحق الجحيم؟

ـ ماذا تقصد؟

ـ فرقة قتل أخرى حاولت القضاء عليَّ لتوها.

ـ أنت تمزح.

ـ هل أمزح؟

ـ لا يبدو هذا على الإطلاق. من كانوا؟

ـ أنا واثق أنهم لم يكونوا نيجيريين. ثلاثة رجال بيض، بدوا من وسط أوروبا. لم يتسنَّ لي التحقق من وثائق هوياتهم، كانوا ماهرين، ربما لم يحملوها على أي حال.

ـ لا بد أن أبا بكر ما زال يستخدم مأجورين. ليس غريبًا بالنظر إلى موارده الواسعة. هل أصبت على أي نحو؟

ـ نعم، أنا كذلك، ولكن ليس بسبب المهرجين. لقد تلقيت رصاصة في فخذي في الطائرة صباح أمس.

ـ تعرضتَ لإطلاق نارٍ؟

ـ لا يهم.

أخذ لويد المفكرة سريعًا، وراح يدوِّن هذه المعلومات.

ـ يا بني، كانت هناك تعقيدات.

ـ تعقيدات؟ اضطررتُ إلى القضاء على ثمانية رجال في الثماني والعشرين ساعة الماضية؛ بسبب بعض الخرق في شبكتك. أنت محق تمامًا بحق الجحيم كانت هناك تعقيدات!

ـ النيجيريون يعرفون أنك تعمل لديَّ.

توقف الاتصال بالقمر الصناعي للحظة. أخيرًا قال جينتري: «تبًّا يا دون! كيف حدث ذلك؟».

ـ كما قلتُ، تعقيدات.

ـ إذًا فأنت أيضًا في خطر مثلي، إنها مسألة وقت قبل أن يصلوا إليك.

بدا صوت الشاب قلقًا.

ـ لقد فعلوا ذلك بالفعل.

بعد صمت للحظات: سأله: «ماذا حدث؟».

أجاب: «لديهم عائلتي. ابني وزوجته وحفيدتايَ».

قال كورت بهدوء: «التوأمان؟».

ـ نعم. إنهم يحتجزونهم في فرنسا، ويقولون إن عليَّ أن أسلمك وإلا فسيقتلونهم. قبل ثلاثين دقيقة منحوني ثماني وأربعين ساعة لآتي بك حيًّا أو ميتًا. لديهم فِرق تبحث عنك، لكنهم يريدونني أن أقدم لهم معلومات عن مكانك.

ـ وهو ما فعلته على ما يبدو.

ـ لا يا بني، أنا لم أنطق، لقد كُشِفت في العراق بطريقة ما، رآك عميل نيجيري تستقل الطائرة في تبليسي. لم أخبرهم بشيء، ولا أنوي ذلك.

ـ وماذا عن عائلة ابنك؟

ـ أنا لا أسلِّم رجالي، أنت أيضًا من عائلتي.

تحوّلت تعبيرات وجه فيتزروي إلى اشمئزاز مؤلم من كلماته، لكنَّ عيني لويد اتسعتا بشكل كبير في دهشة من قدرة الرجل الإنجليزي الأكبر على التملق والخيانة في وقت واحد. كان فيتزروي يعزف ببراعة على ما تبقى من مشاعر قاتله. لكن لويد كان يحفظ ملف جينتري عن ظهر قلب، وكان يعلم ما سيحدث بعد ذلك.

ـ أين يحتجزونهم؟

ـ في قصر في نورماندي، بفرنسا، شمال بلدة بايو.

ـ منحوك ثماني وأربعين ساعة؟

ـ أقل من ثلاثين ساعة. الموعد النهائي في الثامنة من صباح يوم الأحد. يقولون إن لديهم صلات بالشرطة الوطنية الفرنسية؛ أي تلميح إلى عملية هجومية على موقعهم سيؤدي إلى مذبحة.

ـ نعم، رجال الشرطة لن ينفعوا في شيء. لديّ فرصة أفضل إذا ذهبت بمفردي.

ـ كورت، لا أعرف ما الذي تفكر فيه، لكن من الخطر الشديد عليك أن تحاول أي...

ـ دون، ثق بي. أفضل ما يمكنني فعله هو الوصول إلى هناك وتنظيف هذه الفوضى بنفسي. أريدك أن تعطيني كل المعلومات الممكنة عن هيكل قوتهم، لا تفصح عن أي معلومة عني، وسأستعيد عائلتك.

ـ كيف؟

ـ بطريقة ما.

هذه المرة كان دور السير دونالد للتوقف. فرك عينيه بأصابعه الغليظة وقال ببطء: «سأظل مدينًا لك إلى الأبد يا فتى».

قال: «كل شيء في وقته يا رئيس». ثم انقطع الخط.

لوَّح لويد بقبضته في الهواء انتصارًا. والتفت إليه فيتزروي قائلًا: «سأحضر لك الرأس الذي تبحث عنه، لكن عليك الالتزام بالصفقة حتى نهايتها».

سير دونالد، لا شيء يسعدني أكثر من أن أسحب رجالي وأتركك أنت وعائلتك وشأنكم.

11

عمل كورت جينتري عميلًا خاصًا لأربع سنوات، قبل ذلك كان في جولف سييرا أو ما يعرف بفرقة الأشقياء، وقبل هذا كان ينفذ عمليات بمفرده لصالح الاستخبارات الأمريكية، على الرغم من وجود بعض عملاء الوكالة شديدي الذكاء، فإن جينتري أمضى أغلب حياته بمفرده.

طوَّر ـ بلا شك ـ العلاقات اللازمة لإجراء مهامه في فترة اختبائه، لكن هذه المعاملات كانت عابرة وقائمة على مجموعة من الأكاذيب.

كانت حياته تزدهر في البرد. لم تكن هناك سوى فترة واحدة في الستة عشر عامًا الماضية لم يكن فيها كورت قاتلًا، ولم يكن جاسوسًا، أو شخصية غامضة تتحرك داخل المشهد وخارجه. قبل ذلك بعامين، ولأقل من شهرين، عيَّن فيتزروي الرجل الرمادي في وظيفة مميزة تمامًا عن أي شيء آخر في سيرته الذاتية، إذ تولى كورت منصبًا في الحماية الشخصية القريبة، إذ عمل حارسًا شخصيًا لحفيدتي السير دونالد.

كان والدهما، نجل السير دونالد، مطورًا عقاريًا ناجحًا في لندن. لم يتبع خطى والده في عوالم الاستخبارات الغامضة. لقد كان رجل أعمال نزيهًا، وعمل وفقًا لقواعد العمل. ومع ذلك، تورط فيليب فيتزروي مع بعض جوانب العالم السفلي الباكستاني، وذلك أمر له علاقة بضغط شركته ضد اقتراح من البلدية، الذي كان سيسمح بمزيدٍ من العمالة غير المعتمدة وغير المؤهلة في مواقع البناء الخاصة به.

اعترض فيليب فيتزروي أن من الأفضل للجميع في لندن أن يتولى العمال المدربون جيدًا فقط أمر بناء المساكن ومراكز التسوق، لكن العصابات الباكستانية ظلت تبتز السكان غير المسجلين لسنوات،

فقرروا استقطاع مقابل أكبر من المهاجرين، ما داموا سيحصلون على وظائف برواتب أعلى.

بدأ الأمر بتهديد عبر المكالمات الهاتفية. كان على فيليب أن يتراجع ويتوقف عن حملة الضغط. عثرت زوجة فيليب، إليز فيتزروي، على قنبلة أنبوبية مزيفة في صندوق البريد، أجرت شرطة سكوتلانديارد تحقيقًا. فرك المحققون الواجمون ذقونهم، ووعدوا بتكثيف جهودهم.

واصل فيليب معركته ضد قانون العمل، فناله المزيد من التهديدات، ووضعت الشرطة أمام منزلهم في بلدة ساسكس جاردنز سيارة مع ضابط يغلب عليه النعاس.

كانت إليز تنظف حقيبة ظهر كيت البالغة من العمر ست سنوات بعد ظهر أحد الأيام بينما تشاهد الفتاتان التلفاز. سحبت ورقة مطوية من جيب خارجي، معتقدة أنها رسالة إلى المنزل من السيدة بيلي. فتحتها، كانت مكتوبة بخط سيئ وحروف كبيرة للغاية: «يمكننا أن نحصل عليهما في أي وقت نشاء. توقف يا فيل!».

هاتفت إليز فيليب في حالة هيستيرية، واتصل فيليب بالسيد دونالد ولم يكن أقل هيستيرية، وبعد سبع ساعات وصل السيد دونالد إلى الباب وبرفقته رجل أمريكي.

لم يكن اليانكي[1] كبيرًا ولا صغيرًا، لكنه كان هادئًا، ولم يرفع بصره كثيرًا. اعتقدت إليز أنه كان في أواخر العشرينيات من عمره. وافترض فيل أنه يناهز الأربعين. كان يرتدي الجينز، وحقيبة ظهر صغيرة لا تفارق كتفه أبدًا، وسترة فضفاضة افترض فيليب أنه يخبئ تحتها أدوات خطرة لإلحاق الأذى بالآخرين.

---

(1) لقب يطلق على الأمريكان.

جلس فيتزروي مع إليز وفيليب في غرفة الرسم، بينما انتظر الرجل في الردهة. قال للوالدين القلقين إن الرجل اسمه جيم، وإنه تقريبًا الأكثر براعة في مجاله على مستوى العالم.

سأل فيليب: «ما هذا بالضبط يا أبي؟».

ـ دعني أخبرك أنه أفضل لك من اصطفاف الشارع كله بالشرطة لدرجة الانفجار، لست أبالغ.

ـ لا يبدو بهذه البراعة يا أبي.

ـ هذا جزء من وظيفته، إنه متخفٍ.

ـ أبي، وكيف يمكننا أن نتعاملَ معه بحق الجحيم!ـ قدم له شطيرة بضع مرات يوميًا، وأبقِ إناء القهوة في المطبخ ساخنًا، ثم انسَ أنه موجود.

لكن إليز رفضت أن تعامل الرجل على أنه جماد، لقد كانت مهذبة، ووجدته يبادلها الرد بلطفٍ. لم ينظر إليها يومًا، أكدت ذلك عندما سألها زوجها، قالت: «إنه ينظر عبر النافذة إلى الشارع، وإلى الحديقة الخلفية، أو عبر الباب إلى غرفة التوأمين، لكن لم ينظر إليَّ قط، وهذه سمة مشتركة بينكما يا فيليب، ستنسجمان معًا كثيرًا».

أدى إدخال رجل إضافي إلى أسرة فيتزروي ـ بلا شك ـ إلى خلافات بين الزوج والزوجة.

أحبت كلير وكيت جيم، وكانتا تقلدان لهجته الأمريكية، وتكيَّف هو مع الأمر. كان يذهب بهما إلى المدرسة يوميًا بالسيارة الساب، بينما تجلس إليز إلى جواره. ذات مرة مازحته كيتِ الصغيرة بشأن قيادته السيئة، وفاجأ الأم والابنة بأن انفجر ضاحكا، واعترف بأنه يسافر عادة بالقطار أو الدراجة النارية. وفي ثانية واحدة عاد وجهه إلى جموده المعتاد، مثبّتًا عينيه مرة أخرى على المرايا والطريق أمامه.

لقرابة الشهرين لازم الفتاتين في كل لحظة كانتا فيها مستيقظتين، وكان ينام على سرير صغير أمام باب غرفتهما. أتت لحظة الإثارة

الوحيدة في الأشهر الثمانية يوم الأحد في الطريق إلى السوق، عندما أعاقت الطريق حادثة سيارة، فتوقفت حركة المرور، حينئذ دفع جيم السيارة على الرصيف. فتح معطفه الرياضي، ورأت إليز كعب مسدس تحت ذراعه. قاد السيارة على الرصيف بيده اليسرى، وسط الحشد المتدافع، بينما كانت يده اليمنى تمسك المسدس الموضوع في الجراب المعلّق على كتفه. بعد عشر ثوانٍ كانوا في أمان. لم يقل لهن كلمة واحدة، كما لو كانت رحلة قصيرة أخرى فحسب يوم الأحد لتناول الحليب والكعك. بينما حدقت إليه الأم والطفلتان بعيون متسعة طوال بقية الرحلة.

ثم رحل ذات صباح. ترك اللحاف مطويًا على الفراش الصغير وفوقه الوسادة. نشرت الصحف أن رجال الشرطة ذوي الوجوه الصارمة في سكوتلاند يارد ألقوا القبض على رجال العصابات الباكستانيين، وكان الخطر قد انتهى، فأرسل السير دونالد رجله الأمريكي بعيدًا.

تنفس فيليب وإليز الصعداء في ذهول حين زال التهديد، وسقط القانون السخيف. لكن الفتاتين الصغيرتين بكتا عندما أخبرهما والدهما أن العم جيم يجب أن يعود إلى أمريكا، لا. ليس من المحتمل أن يعود.

***

بعد أقل من ساعة من مكالمته مع فيتزروي اشترى كورت دراجة نارية، كانت **86 هوندا سي إم 450** بمحرك قوي، وإطارين يوحيان بقدرتها على تحمل يومين من العمل الشاق.

كان البائع فتى محليًا يعمل في محطة وقود على طريق سيبيروف جنوب شرق براغ. لقد اشتراها دون أوراق، عملية نقدية فحسب. بضع مئات إضافية من الكرونات لقاء خوذة وخريطة وبعدها أصبح كورت على الطريق.

لم يتردد للحظة منذ أغلق الخط مع دون. كان يعلم أن أمامه يوم سفر أو أكثر إلى نورماندي، يمكنه تجهيز خطة في أثناء التنقل، وفي طريقه سيتابع مع فيتزروي. لا، لا يوجد وقت للجلوس على مقعد في الحديقة هنا على بعد ستمائة ميل من أجل التفكير.

بعد شراء الدراجة النارية، عرج على مخبئه الخاص للأسلحة، في منطقة سكن بالإيجار طويل المدة، على بعد أربعة أميال من جنوب وسط المدينة. اضطر إلى كسر القفل بعد أن أضاع مفتاح الباب. يمكنه الآن تسميع رقم بطاقة الائتمان المستخدمة في دفع إيجاره الشهري إذا جرى استجوابه ولن يسمعه أحد. لقد أنشأ المخبأ منذ ما يقرب من ثلاث سنوات، ولم يعد إليه سوى مرة واحدة فقط، والآن أصبحت الغرفة الصغيرة المظلمة مغبرة ومتعفنة وباردة. كانت مساحتها ثماني أقدام مربعة، فارغة باستثناء أربعة أكياس من القماش الخشن مكدسة بعضها فوق بعض، كل واحدة ملفوفة في كيس قمامة أبيض يغطيه الغبار.

احتوى المخبأ على مسدسات وبنادق وذخيرة، وملابس وأغذية معلبة وإمدادات طبية. ألقى في إحدى الحقائب المسدس التشيكي، الذي التقطه في معركة الأسلحة النارية في المترو. وأخذ مسدس والتر **(P99)** صغير وخزينتين إضافيتين.

كان السلاح نظيفًا ومزيتًا بعناية، لكن لم يمنعه هذا من فحص الذخيرة وشريحة التشغيل وإبرة الإطلاق. متجاهلًا بقية بنادقه. كان يعلم صعوبة أن يعبر الحدود إلى الاتحاد الأوروبي وعلى ظهره ترسانة من الأسلحة.

يكفي المسدس.

بعد ذلك، مزق العدة الطبية فاتحًا إياها، وأنزل سرواله، وجلس على الأرض الباردة المتسخة. أدرك من خربشة جرذ على الجدران الألومنيوم مدى سوء هذه الظروف. لقد فحص إصابته التي أصيب بها

منذ يوم واحدٍ باحترافية مذهلة، لم يُصب كورت بالرصاص من قبل، لكنه أصِّيب بعشرات الإصابات الأخرى في أثناء عمله.

آلمته ساقه لدرجة لا تُحتمل، لكنه تعرض لإصابات أسوأ من الحروق وكسر العظامٍ، وكتل الشظايا في رقبته، هكذا كانت متطلبات وظيفته.

سكب رذاذًا غزيرًا من اليود حول الجرح، ومزق رزمًا مفتوحة من الضمادات وكريم مطهر، وضمد إصابته قدر الإمكان في الإضاءة المنخفضة، ثم كوّم كل إمداداته في كيس صغير دَسَّه في جيبه.

في الحقيبة السميكة الثانية وجد معداتٍ الطقس البارد. بدَّل ملابسه الخفيفة ليرتدي سروالًا قصيرًا سميكًا، لونه بني ملطخ بالدهون، وقميصًا قطنيًّا وسترة قماشية سميكة. ارتدى زوجًا من قفازات العمل على يديه فتوليا تدفئة أصابعه على الفور، وحذاء تنزه جلديًّا، وقبعة سوداء يمكن سحبها إلى أسفل عند وضع قناع التزلج على رأسه.

أغلق كل حقائبه، وتركها كما وجدها، وأغلق الباب، واستقل دراجته النارية مرة أخرى.

بعد دقائق وجد نفسه عند مفترق طرق جنوب المدينة. على بعد ساعات قليلة من الغرب كانت الحدود الألمانية، ثم الحدود الفرنسية، ثم نورماندي.

تنهد إذ يزأر صوت محرك دراجته النارية. وخرج البخار من زفيره في قناع التزلج المصنوع من الألياف الدقيقة ليغطي فمه.

لو كان الأمر فقط بهذه البساطة!

لا، كان عليه أن يتوقف عدة مرات ضرورية على الطريق. احتاج جينتري إلى بعض المعدات قبل وصوله إلى نورماندي. كان يعرف أين يحصل على ما يحتاج إليه، لكنه يعلم أيضًا أن الأمر سيستغرق نصف يوم إضافيًّا على الطريق.

أولًا، يحتاج كورت إلى «هروب» جديد، وأوراق هوية مزورة جديدة. لا يزال يحمل جواز السفر الذي استخدمه للدخول إلى جمهورية

التشيك، وكان يعرف أنه سيصل به إلى أوروبا الوسطى، حيث لم تكن جميع عمليات الهجرة الخاصة بهم محوسبة ومدمجة بعد.

لكنه كُشِف مرة واحدة باسمه المزيف مارتن بالدوين، الصحفي الكندي المستقل. فقط شخص متفائل يائس أو أحمق هو من قد يستخدمه للدخول إلى الاتحاد الأوروبي، ولم يكن جينتري هذا أو ذاك. لكن الأهم من دخوله إلى الاتحاد الأوروبي، أنه كان بحاجة إلى هروب سريع بما يكفي لإخراجه من أوروبا عندما يتوقف إطلاق النار. يدرك أن عليه التواري عن الأنظار بعد إتمام مهمته في نورماندي، في مكان بعيد، وستكون أوراق الهوية الجديدة أسهل طريقة لتحقيق هذه الغاية.

يعرف كورت رجلًا في المجر يمكن أن يدبر له الوثائق المطلوبة سريعًا، يمكنه أن يعبر إلى إحدى دول الاتحاد الأوروبي بسرعة، وعلى النحو المطلوب بأوراقٍ سليمة. وإذا اضطر في أثناء رحلته إلى استخراج أوراق أخرى لأي سَبب، فيمكنه أن يفعل ذلك بأمانٍ، وفور أن يُنهي مهمته يمكنه أن يتخلص من كل أسلحته وعدته، ويقفز في طائرة متجهة إلى أمريكا الجنوبية أو جنوب المحيط الهادئ، أو حتى أنتاركتيكا، إذا استمر الضغط الذي يواجه منذ يومين.

وقته لا يسمح له بالتجول وشراء وثائق مزورة بعد ما حدث في نورماندي، ومن المستحيل أن يغادر القارة دونها.

هبَّت رياح شهر نوفمبر الباردة من الغرب بينما يسلك طريق E65، وهو الطريق السريع الذي يربط مدينة برنو بسلوفاكيا، وقرب باتيسلافا، ثم جنوبًا إلى الحدود المجرية، ومن هناك سيصل سريعًا إلى بودابست، ست ساعاتٍ من السفر، متوقفًا بضع مرات للتزود بالوقود، وعند نقطتين حدوديتين بحراسة ضعيفة.

قاد بأقصى سرعة، وانحنى في وجه الريح الباردة. أجبر نفسه على التفكير في الثماني والأربعين ساعة القادمة. كان تفكيرًا قاتمًا،

لكنه ضروري وأفضل بكثير من البقاء في الثماني والأربعين الصعبة الماضية.

12

دخل جينتري عاصمة المجر في الثالثة بعد الظهر.

كانت الغيوم الممطرة منخفضة، ولونها رماديًّا باهتًا، تلامس أطراف تلال بودا الدائرية الخضراء على الجانب الغربي من نهر الدانوب، الذي يقسم المدينة البالغ عدد سكانها أربعة ملايين نسمة. مرت أربع سنوات منذ آخر زيارة لكورت إلى بودابست. حين كانت أول مهمة لحساب فيتزروي، وهي عملية محلية يسيرة ضد قاتل صربي كان قد وضع قنبلة في مطعم محلي لقتل مهرب أسلحة، لكنه بذلك قتل أيضًا شقيق رجل أمريكي.

كان لدى الأخ الناجي من تلك الحادثة أموال وعلاقات بعالم الجريمة؛ لذا لم يجد صعوبة في التواصل مع فيتزروي وتوظيف قاتل. وكان أمرًا يسيرًا بالنسبة لفيتزروي أن يرسل أحدث عملائه إلى بودابست ليجد الصربي المعتدي في بار برصيف الميناء، ويحثه على الشرب، ثم يغرس سكينًا في عموده الفقري، ويترك جسده الميت ينزلق بصمت في مياه نهر الدانوب السوداء.

عرف جينتري أيضًا بودابست قبل ذلك، في أثناء عمله مع وكالة الاستخبارات الأمريكية. كان يدخل ويخرج من المدينة مرة كل عامين منذ نحو عقد من الزمان؛ يتعقب دبلوماسيين، ويدير عمليات مراقبة وخطف لرجال الأعمال الروس المشبوهين في قصور بودا أو فنادق بيست. ذات مرة طارد قاتلًا طاجيكيًّا استهدف رئيس المقر المحلي للاستخبارات المركزية، إذ لم يكن هناك غيره لتنفيذ المهمة.

وخلال عمل كورت في المدينة، خاض عدة جولات مع أحد السكان المحليين، محتال اسمه لازلو سزابو. كان سزابو مخادعًا حقيرًا بلا

أخلاق، يفعل أي شيء لأي شخص يلوّح في وجهه بحزمة كافية من الفورنت المجري. تخصص في التزوير وشراء أوراق الهوية وبيعها وتعديلها لمن يريد تغيير هويته بسرعة. لقد ساعد عشرات من مجرمي الحرب الصرب المطلوبين وسط أوروبا على الفرار من محكمة العدل الدولية، وجمع الكثير من الأموال للتخلص من التبعات القذرة الواسعة لتلك الحرب وغيرها. ثم في عام 2004 التقى جينتري عندما وافق على إنشاء أوراق لإرهابي شيشاني تسلل من جروزني وهرب من الروس إلى بودابست في طريقه إلى الغرب، لكن تمكن كورت وفرقته من الأشقياء من اللحاق بالشيشاني في مستودع يملكه لازلو في إحدى الضواحي.

احتدمت الأمور، وفي المشاجرة انفجر حوض من المواد الفوتوغرافية الكيميائية الخاصة بسزابو، مما أسفر عن مقتل الإرهابي. اضطر كورت وفريقه إلى التواري عن الأنظار قبل وصول سيارات الإطفاء، تاركين لازلو يفلت من أيديهم.

بعد ذلك مباشرة أُرسِل كورت للإمساك بصيدٍ أكبر، لكنه لم ينسَ سزابو وظل مطلعًا على المزور في حال احتاج إلى خدماته يومًا ما. عادة ما يستخدم كورت الوثائق من شبكة السير دونالد فيتزروي، ولكن كانت ميزة إضافية أن يعرف رجلًا في بودابست يمكن أن يحوله بالسعر المناسب إلى أي شخص يريده، على الأقل على الورق.

كورت على يقين من أن لازلو سزابو حقير لا يمكن إصلاحه، لكنه يعلم أيضًا أن سزابو بارع في عمله.

كانت الساعة الثالثة والنصف عندما عبأ كورت خزان الوقود الخاص به، واشترى بوصلة جيروسكوب وعصير ليمون من كشك تركي صغير في شارع أندراسي. وأوقف دراجته على بعد مبنى واحد من مخبأ لازلو في بيست، على بعد كيلو متر واحد أو نحو ذلك من شواطئ نهر

الدانوب. تساقطت أوراق مجمدة من المطر البارد، لكن جينتري لم يفعل شيئًا لحماية نفسه من الطقس.

أُنهكت عضلاته من يوم طويل بالفعل. بلل المطر شعره ولحيته وملابسه، لكنه أبقاه في حالة تأهب. كان باب مبنى لازلو خادعًا. صفيحة حديدية صدئة، قد ثُبِّتَت على مفصلات غارزة في مبنى حجري في شارع إيوتفوس أوتكا، تَغطيه نشراتٌ إعلانيةٌ صفراء ممزقة، ويبلغ ارتفاعه نحو خمس أقدام.

بدا الأمر كأن أحدًا لم يمر منذ الحرب العالمية الثانية. أنهى كورت لتوه وجبته التي بللها الماء، والمكونة من قطع لحم الضأن وصلصة الخيار مطوية في خبز بيتا، عندما انفتح الباب ليُحدث صريرًا ويخرج رجلان أسودان نحيفان. خمّن كورت أنهما صوماليان، موجودان في أوروبا وجودًا غير قانوني. من الواضح أن أي شخص لا يستطيع الحصول على أوراق رسمية يأتي إلى لازلو.

لكن كورت يدرك مدى سهولة هجرة الأفارقة والشرق ـ أوسطيين هجرة قانونية إلى القارة في هذه الأيام. هذان الأحمقان اللذان يمشيان أمامه تحت المطر، بطريقة لا توحي أنهما حصلا على أي ختم موافقة دولي من أي نوع، نبَّها جينتري إلى أنهما كانا مشبوهين خطرين.

في لحظة تدبر، أدرك الرجل الرمادي أن عددًا قليلًا من الأشخاص على وجه الأرض مطلوبون أكثر منه، لذلك كان كورت ـ بحكم طبيعته ـ ربما أكثر شبهة وخطرًا من هذين الصوماليين.

دق جينتري الباب الحديدي الصغير باسطًا كفه اليسرى، ويمينه فوق مسدس فالتر في حزام خصره المختبئ تحت سترته المبللة. لم يأتِه جواب بعد دقيقة، وطرقة أخرى. أخيرًا عثر كورت على زر اتصال داخلي بلاستيكي صغير مطوي في أعلى الزاوية اليسرى من المدخل.

«سزابو؟ أحتاج إلى مساعدتك. يمكنني الدفع».

جاءه رد مقتضب عبر خط الاتصال الداخلي: «ما توصياتك؟» كانت لهجته مجرية لا لبس فيها، لكن لغته الإنجليزية كانت جيدة، ونبرة صوته الرتيبة، كأنه موظف في محل دهانات. كورت هو خطوة تالية في صف طويل من العملاء الذين وصلوا إلى النافذة للاستفسار عن البضائع.

«أنا أحد رجال دونالد فيتزروي». على الرغم من أن سزابو لم يكن ضمن عملاء الشبكة، لكنه كان يعرف بالتأكيد السير دونالد. توقف للحظة امتدت بما يكفي لإثارة قلق كورت، وانتهى بأزيز ثم صوت فتح أقفال الأبواب التي يجري التحكم فيها عن بُعد. دفع كورت الباب الحديدي بحذر، وانحنى ليدخل إلى ردهة مظلمة تقع خلف الباب، تنبعث إضاءتها الطفيفة على بعد خمسين قدمًا.

يفضي الضوء إلى مدخل آخر، عثر كورت من خلاله على ورشة كبيرة تشتمل على مختبر علمي، ومكتبة واستوديو تصوير. جلس لازلو على مكتب مقابل للحائط، ثم التفت لمواجهة زائره. أرخى سزابو شعره الرمادي الطويل على كتفيه، وكان يرتدي سترة باهتة ذات طابع عسكري، وسروالًا جينز أسود، وقميصًا بوليستر مفتوحًا في المنتصف كاشفًا عن صدره النحيل.

يبلغ من العمر ستين عامًا، لكن بالمقاييس الشرقية، أي إن ملامحه توحي بأنه في الثمانين، بينما يبدو جسده في الثلاثين. حياة قوامها الحركة والمشقة. لقد بدا لكورت كنجم موسيقى الروك المسن الذي ما زال يشعر بتألقه.

حدق إلى كورت لفترة طويلة وقال: «وجه مألوف. ربما كنت سأعرفك دون اللحية ومياه المطر؟». كان كورت يعرف أن سزابو لم يرَ وجهه قط. لقد كان يرتدي قناع بالاكلافا عندما استولى على مخبأ سزابو مع فرقة الأشقياء في عام 2004، بالإضافة إلى أن الظلام كان دامسًا، والحركة سريعة ومربكة.

قال جينتري وهو ينظر في أرجاء الغرفة بحثًا عن أي تهديدات أمنية: «لا أظن».

الأسلاك معلقة على الجدران مثل اللبلاب، وبطول الحائط توجد طاولات ورفوف للمعدات وصناديق وكتب وخزائن الملفات المغلقة، وفي الزاوية استوديو تصوير كامل مع كاميرا على حامل ثلاثي القوائم يواجه كرسيًّا على حامل خشبي.

قال: «أمريكي. عمرك خمسة وثلاثون عامًا، طولك 180، وزنك 71 كيلوجرامًا، لا يبدو من سلوكك أنك جندي أو شرطي، وهذا أمر جيد».

تذكر كورت شذرات من ملف الرجل. درّب السوفييت سزابو على المراقبة الإلكترونية والتزوير وغيرهما من الفنون السوداء غير المميتة. استخدمه الروس للتجسس على شعبه، لكنه عمل لمصلحة لكلا الفريقين، وأعطى موسكو معلومات عن مواطنيه، بينما يوفر للمقتدرين من أهل وطنه المجريين فرصًا للهروب عبر الستار الحديدي[1].

كانت مساعدته الهامشية والمشروطة وغير المخلصة لشعبه كافية لإبعاد السكين عن صدره بعد سقوط الاتحاد السوفيتي، على الرغم من أن جينتري يذكر أنه قرأ ذات مرة كيف تعرض لازلو للأذى انتقامًا من ارتباطه بموسكو.

قال كورت: «أنا فقط رجل يحتاج إلى بعض ما تبيع وبسرعة».

وقف لازلو ومد يده نحو عصا مستندة إلى المنضدة. اتكأ عليها بشدة وهو يقطع الغرفة باتجاه زائره. ولاحظ كورت جسد المجري

(1) : حدود سياسية قسّمت أوروبا إلى منطقتين منفصلتين منذ نهاية الحرب العالمية الثانية في عام 1945 وحتى نهاية الحرب الباردة في عام 1991. (المترجم)

المتهدل، وعرجه الشديد. لقد اشتدت هذه الإصابة منذ أن رآه آخر مرة قبل خمس سنوات.

استغرق سزابو الكثير من الوقت حتى صار أمام كورت، وانحنى مقتربًا منه قدر ما استطاع. وضع يده على ذقن الأمريكي وأدار رأسه يمينًا ويسارًا.

سأله: «أي منتج تريد؟».

ـ جواز سفر سليمًا، وليس مزيفًا، أحتاج إليه الآن. سأدفع ثمن أي متاعب إضافية.

أومأ لازلو برأسه. وسأله: «كيف حال نوريس؟».

ـ نوريس؟

ـ ابن السير دونالد فيتزروي بالطبع!

ـ تقصد فيليب.

ـ نعم. أما زال لدى السير دونالد مكان صيفي في برايتون؟

ـ لا أعرف هذا.

اعترف سزابو في خجل رافعًا كتفيه: «ولا أنا صراحة». قال كورت: «أتفهم حاجتك إلى إثبات حسن نيتي، لكنني في عجلة من أمري».

أومأ سزابو برأسه، ومشى وهو يعرج حتى وصل إلى مقعد صغير من بين عشرة في الغرفة وكل واحد أمام طاولة أو مكتب مختلف مغطى بأجهزة كمبيوتر، وميكروسكوبيات، وأوراق، وكاميرات، وغيرها من المعدات.

ـ فيتزروي لديه شبكته الخاصة. وسطاء خصوصيون للتوثيق. ما الذي أنزله للتعامل مع لازلو؟ـ أحتاج إلى شخص بارع، شخص سريع. الكل يعلم أنك الأفضل.

أومأ المجري برأسه.

وقال: «ربما هذا تملق فحسب، لكنك محق تمامًا. لازلو الأفضل».
استرخى سزابو ثم أردف: «سأنفذ عملًا رائعًا من أجلك، ربما يمكنك أن تخبر فيتزروي بهذه الخدمة. قل عن لازلو خيرًا.. أنت تفهم».
كان كورت يكره من يشيرون إلى أنفسهم بصيغة الغائب. لكنه معروف أيضًا بكونه مهذبًا إذ اقتضى الأمر؛ لذا قال: «أخرجني من هنا بأوراقٍ سليمة في أقل من ساعة، وسأفعل هذا بالضبط».
سُرَّ سزابو على ما يبدو، وأومأ برأسه وهو يقول: «حصلت مؤخرًا على شحنة من جوازات سفر بلجيكية. أرقام تسلسلية جديدة، لم يُبلغ عن سرقتها. شرعية تمامًا».
هز كورت رأسه بحزم وقال: «لا. ثلثا جوازات السفر المسروقة في السوق بلجيكية، إنها تخضع لفحص إضافي. أحتاج إلى شيء أقل وضوحًا».
قال: «عميل مطلع، أحترم هذا».
وقف لازلو متكئًا على عصاه، وشق طريقه إلى مكتب آخر. كان يضغط بأصابعه على دفتر صغير مليء بخربشة قلم رصاص، ثم رفع بصره وقال: «نعم. أفترض أنك يمكن أن تمر ككيوي[1]. كان لديّ القليل من جوازات السفر النيوزيلندية لفترة طويلة. معظم زبائني هذه الأيام أفارقة أو عرب.. لا يمكن الإمساك بكيوي، وبالطبع كما قلت، مر عليها وقت طويل، لكن لازلو يمكنه معالجة الرقم التسلسلي عندما أُدخل معلوماتك دون تشويه الصورة المجسمة، يستحيل تتبعه كونه جوازًا مفقودًا».
قال له: «لا بأس».

(1) بمعنى «نيوزلندي» مشتق من طائر الكيوي الذي لا يطير، وهو رمز وطني لنيوزيلندا.

جلس سزابو مرة أخرى وتنهد بعمق، ما أوحى لجينتري أن الحركة كانت متعبة وغير مريحة له.

أخبره: «خمسة آلاف يورو».

أومأ جينتري برأسه، وسحب المال من حقيبته وأظهره إلى لازلو، لكنه لم يسلمه له.

ـ ماذا عن مظهرك؟ يمكنني تصويرك كما أنت، أو يمكننا عمل شيء أكثر احترافية.

ـ أود أن أغتسل أولًا.

ـ لديّ حمام لتستحم وشفرة حلاقة ومعطف بذلة ورابطة عنق تناسبك. جهز أنت نفسك، بينما ينجز لازلو الأوراق.

مشى كورت في الردهة، وشق طريقه إلى الحمام الذي تفوح منه رائحة عفن بشري. كان الحمام مُجهَّزًا بالصابون وشفرات الحلاقة والمقص، كلها مصممة للعملاء والمهاجرين غير الشرعيين والمجرمين الذين يحتاجون إلى إخفاء قبحهم لبضع دقائق، من أجل التقاط صورة توحي لرجال الشرطة ووكلاء مراقبة الحدود أنهم اللورد الصغير فونتلروي[1].

لأول مرة منذ ثلاثة أشهر يحلق جينتري لحيته. لقد وضع مسدسه الفالتر على الرف الصغير بجوار الشامبو وشفرات الحلاقة، ومع انتهائه من الاستحمام كان المسدس قد غطته الرغوة. نظّف جينتري بقايا حلاقته، إذ رأى أن كل شعرة بنية دليل على حمضه النووي، لذلك أمضى وقتًا أطول في جمع لحيته أكثر مما أمضى وقتًا في حلاقتها.

(1) : رواية للكاتبة البريطانية فرانسيس هودجسون بورنيت. نُشرت في عام 1886. تمتعت بذلة فونتلروي التي أبرزتها رسومات الرواية بشعبية كبيرة في أمريكا بعد نشر الرواية، وكانت من الأزياء الرئيسة للأولاد حتى في القرن الحادي والعشرين.

نظر إلى نفسه في المرآة إذ يمشط شعره البني إلى اليمين فيجف بالتدريج. كان وجهه يشيخ، حُفرت في جلده تجاعيد من أثر الشمس والرياح والحياة نفسها. يمكنه أَن يميز ما فقده من وزن منذ بدأ عملية سوريا، ومن الفراغات الدكناء الرخوة أسفل عينيه.

ذات مرة عندما كان في السادسة والعشرين من عمره لم ينم لأربعة أيام، بينما يترصد عميلاً في موسكو، وتعقبه حتى منزله الريفي، وهناك تعطّلت سيارة كورت اللادا الحقيرة ذات البابين في الثلج، فاضطر الرجل الرمادي إلى مواصلة التحرك برًّا كي لا يتجمد حتى الموت.

الآن وهو في السادسة والثلاثين من عمره، يشعر أن حالته أصبحت أسوأ بعد أربعة أيام من العمل، عكس ما كان عليه حينها، عندما أخرجه فريق الإجلاء شبه متجمد ونقلوه إلى المروحية.

بعدما جفف نفسه، ارتدى سرواله المبلل بالمطر مرة أخرى، وكان حذرًا لئلا يغير مكان الضمادة المبللة على ساقه، أوثق ربط حزامه مرتديًا جوربيه وحذاءه العالي. ارتدى قميصًا أبيض تركه له لازلو، لكنه كان ضيقًا عند الرقبة، وعقد رابطة العنق الرخيصة بحذر عقدة كبيرة تغطي الياقة، وسترة زرقاء توحي أن ثمة كرتونًا محشورًا عند كتفيه. لم يسعَ إلى إغلاق أزرارها، أنزل كورت المسدس على ساقه، وألقى الطلقات الإضافية وسكينه السويسري في جيبه، ثم عاد إلى معمل لازلو.

جلس سزابو أمام طاولةٍ رسم على كرسيه المتحرك، وقد انحنى أمامٍ جواز سفر مفتوح ممسكا بشفرة، ثم رفع بصره لينظر إلى زبونه مطولًا وقال: «يا له من تحول!».

ـ أجل.

ـ من فضلك، اجلس لالتقاط الصورة.

كان هناك مقعد بلاستيكي صغير على حامل أمام خلفية زرقاء معلقة في السقف، وكاميرا رقمية على حامل ثلاثي، وقد اتصلت بجهاز كمبيوتر على مكتب قريب.

صعد كورت على الحامل الخشبي الأجوف، وجلس على المقعد متحسسًا سترته ورابطة عنقه، بينما سحب سزابو الكرسي المتحرك خلف الكاميرا قائلًا: «علينا أن نفكر في اسم جديد لجواز السفر، اسم كيوي جيد».

أجابه: «سأترك الأمر لك. أي اسم جيد».

ومضت الكاميرا، فشرع جينتري في النهوض.

قال له: «صورتان أخريان من فضلك».

عاود الجلوس.

ـ لديَّ اسم لك. لا أعرف إذا كان سيعجبك.

ـ أي شيء.

ـ إنه لامع، درامي وغامض.

ـ حسنًا، لا أعتقد أنني بحاجة إلى...

ـ لماذا لا نسميك الرجل الرمادي؟

حدق جينتري بهدوء إلى الكاميرا وهي تومض في وجهه. تبًّا!

حملق سزابو إلى وجهه. بدأ جينتري ينهض، شعر بحركة في مقعده، إذ ينقل وزنه إلى قدميه، لكن شعر أن كعبيه يسقطان، قبل أن يتمكن من الرد، طارت ذراعاه إلى جانبيه، وارتفعت سترته المستعارة على رقبته، ورأى ركبتيه مرفوعتين أمام عينيه.

كان يسقط إلى الوراء، وكان الكرسي البلاستيكي ينزلق معه. اختفى الضوء من حوله، وسقط في الظلام. في النهاية هبط على جانبه، وخفف من وقع سقطته شيء ناعم ورطب.

على الرغم من أن التأثير خففته بطانة ما، لكنه لا يزال ينتفض، وكرد فعل هبَّ واقفًا على قدميه، وسحب المسدس من ساقه، يدور في جميع الاتجاهات لمواجهة أي تهديدات وليحدد كل وجهاته.

كانت حفرة مبطنة بالطوب، خزانًا من نوع ما. نظر إلى الأعلى فاكتشف أنه سقط في عمق اثنتي عشرة قدمًا أو نحو ذلك، حيث انفتح الحامل لابتلاعه. وقبل أن يتمكن من الوصول إلى الكرسي، كان قد ارتفع في الهواء، إذ رُبطت ساقه بسلسلة رفيعة، وترنح مرة أخرى عائدًا إلى الحامل ثم اختفى.

أغلِق فوقه باب سحري من الزجاج البلاستيكي. وحُجِز في الحاوية الرطبة.

انحنى سزابو ببطء على الجانب، ونظر إلى أسيره بالأسفل عبر البلاستيك مبتسمًا. صاح جينتري في إحباط شديد: «أنت تمزح!».

قال له: «أعتقد أنك مسلح. عادة ما تكون الوحوش مثلك هكذا، فكر جيدًا قبل أن تطلق النار عندك».

استخدم سزابو طرف عصاه ليضغط على الغطاء الشفاف فوق الحفرة وقال: «بوصتان من زجاج شبكي مقوى. ستضطر إلى تفادي شظايا سلاحك». ثم نقر على جبهته بإصبع نحيلة قائلًا: »لا تكن أحمق«.

ـ ليس لديّ وقت لهذا يا سزابو!

ـ على العكس تمامًا، القليل من الوقت هو كل ما تبقى لديك.

ثم توارى سزابو عن ناظريه.

13

مزق جينتري السترة، ورابطة العنق والقميص، ونظر إلى الحفرة من حوله. كانت دائرة عرضها سبع أقدام، ويبدو أنها نوع من آبار الصرف الصحي القديمة. جدار أسطواني من الحجر شديد الانحدار واللزوجة بسبب العفن، بحيث يصعب تسلقه للغاية. وكانت رائحة المراتب التي سقط عليها كريهة ومتعفنة.

كانت هناك مشكلة في الصرف بلا شك. نظر تحت المراتب، واكتشف أنبوب ماء حديديًا قديمًا. لف يده حوله فوجده ساخنًا. الحمامات الحرارية في بودابست نقطة جذب سياحي. من المحتمل أن هذا الأنبوب يضخ مياه الينابيع الساخنة من مكان إلى آخر. يندفع الماء من خلاله، يقطر ويتبخر قليلا ثم يختفي في الحائط.

نظر كورت إلى أعلى وحوله. سيكون هذا مكانًا مروعًا للموت. بعد عشر دقائق، عاد سزابو، ووقف فوق كورت وابتسم. قال جينتري: «أيًّا كان ما تخطط لفعله...».

قاطعه سزابو: «أنا أتذكرك. هل حسبت أنني قد أنسى؟ 2004، وكالة الاستخبارات المركزية.. فريق الوكالة شديد الخصوصية».

كان كورت يعلم أن سزابو لم يرَ وجهه في العملية في عام 2004 ومع ذلك صاح: «هذا صحيح، وفريقي الميداني يعرف مكاني الآن».

ـ هذا مثير للشفقة. لم تعد مع الوكالة.

ـ أين سمعت هذا؟

اختفى المجري الستيني دقيقة ثم عاد فوق الحفرة، ووضع ورقة ووجهها إلى أسفل على الزجاج على ارتفاع ست أقدام فوق رأس السجين. نظر جينتري إلى وجهه، صورة قديمة التقطتها وكالة

الاستخبارات المركزية لبعض الوثائق. وفوق الصورة كانت عبارة «يطلبه الإنتربول للاستجواب». كانت صورة ووصفًا فحسب. لم يُذكر اسمه.

ـ تمترس رجال الحكومة الأمريكية في سيارة بالخارج في الشارع لمدة سبعة أيام أسبوعيًّا طوال عام كامل بعد أن، دعنا نَقُل، استقلت من منصبك في الوكالة. لقد اعتقدوا في الواقع أنك ستأتي إلى لازلو طلبًا للمساعدة. لقد أضر وجودهم بعملي أيها السيد الرمادي.

ـ سزابو، هذا أمر جاد. حسنًا أنا أعرفك جيدًا، وأعلم أنك ستسمح لي بأن أدفع ثمن خروجي. فقط حدد السعر. ويمكنني الاتصال برجل ليدبر المال...

ـ السير دونالد لا يقدر على ثمن إنقاذك. لا أريد ماله.

نظر جينتري إلى الرجل فوقه وقال بصوتٍ منخفض: «أكره أن أوذي شخصًا مشلولًا».

ـ أنتَ من أصابني بالشلل!

ـ عمَّ تتحدث؟

ـ لقد أطلقت النار على غرفتي المظلمة. ظننت أنني سأنسى؟

ـ أنا لم أطلق النار عليك.

ـ لا، كنت تطلق النار على الشيشاني، فأصبت حاوية من كبريتات الأمونيوم، وأوقعت المسحوق في حوض من الألومنيوم المذاب، فوقع الانفجار! الشيشاني يقطر من السقف، ولازلو الفقير العاجز يحترق، وتضررت أعصاب الجزء السفلي من جسده بسبب استنشاق الأبخرة السامة.

هز كورت كتفيه استهجانًا وقال: «هذا هراء. ذنب من هذا؟ كنتَ تساعد إرهابيًّا على دخول الغرب. كان يجب على وكالة الاستخبارات المركزية أن تعيدني للتخلص منك».

أجابه: «ربما كان ينبغي أن يفعلوا ذلك، لكنني منذ ذلك الحين أقمتُ صداقات مع رجال طيبين في وكالة الاستخبارات المركزية. بعد أن جاءني مكتب التحقيقات الفيدرالي للتحدث معي، جاءت الوكالة، كانوا هم من أخبروني أنك كنت قائد المجموعة التي فجرت مستودعي ودمرت ساقي. صدق أو لا تصدق، في هذه الأيام، علاقة العمل بين محطة الاستخبارات المركزية المحلية ولازلو جيدة نسبيًا».

ـ ولماذا لا أصدق هذا؟ لطالما لعبتَ على كل الحبال.

ـ أعتقد أن علاقتنا ستتحسن الآن بعد أن اتصلت بهم وأخبرتهم أنني قد أسرتك. إنهم في طريقهم إلى هنا لاصطحابك.

انتفضت عضلات وجه جينتري وقال: «قل لي إنك لم تفعل هذا».

ـ بل سأسلمك إلى الاستخبارات المركزية مقابل هدنة بسيطة. علاقتنا معقدة لدرجة أن تسليمي لهدفهم الأول لن يجعل حياة لازلو أسهل.

ـ كم تبقى من الوقت حتى يأتوا إلى هنا؟

ـ أقل من ساعتين. رئيس المحطة يجهز طائرة هليكوبتر مليئة بالفرق الثقيلة من فيينا لاعتقالك. قلت له إن سمعتك مبالغ فيها، في النهاية أمسك بك لازلو العجوز الضعيف بنفسه، لكن هذا لم يردعه. أنت بحاجة إلى عملية كبيرة فقط للإمساك بك. عليك فقط أن تسلي نفسك في هذه الأثناء إلى حين...

ـ لازلو، عليك أن تنصت إليَّ بحذر.

ـ ها! إنه يرتجف! انظروا إلى الرجل الرمادي يرتجف كالطفـ...

ـ إنهم لن يرسلوا فريقًا ليأخذني بعيدًا، بل سيرسلون فرقة من القتلة. هناك أمر صادر ضدي بإطلاق النار عليَّ فور رؤيتي. وعندما يأتون إلى هنا للقضاء عليَّ، لا تتوقع منهم أن يرحلوا تاركين وراءهم شاهدًا. هذا ليس أسلوبهم في العمل.

مال لازلو برأسه، وبدا أنه يفكر في الأمر ثم قال: «لن يؤذوني. وكالة الاستخبارات المركزية بحاجة إليَّ».

قال جينتري: «لقد احتاجوا إليك فقط حتى إجراء تلك المكالمة الهاتفية أيها الوغد!».

بدأت أعصاب سزابو تفلت، وصرخ: «كفى كلامًا! إذا كنت تعتقد أن ملك الموت في طريقه إليك، فربما يجب أن تقضي الدقائق القليلة القادمة في طلب المغفرة من الله عن خطاياك».

رد عليه قائلًا: «وأنت أيضًا».

اختفى وجه لازلو سزابو المتغضن والمرتبك من الزجاج فوق كورت.

***

رن هاتف السير دونالد فيتزروي في الساعة الثالثة. ضغط لويد على زر مكبر الصوت، على الرغم من أن المكالمة لم تأتِ من هاتف جينتري الذي يعمل بالأقمار الصناعية.

ـ أمن شلتنهام.

ـ مساء الخير، أيها السير دونالد. أنا أتصل بخصوص مسألة تجارية مهمة.

ـ هل أعرفك؟

ـ لا أعتقد أننا تصادفنا، يمكنك أن تدعوني إيجور.

كان فيتزروي مقتضبًا مع المتصل. فلديه ما يكفي ليمنعه بلا ذنب من التعامل بكياسة مع محام بلكنة أجنبية واضحة.

وقال: «ويمكنك أن تدعوني غير مهتم. أنا مشغول، إذا كان لديك عمل حقيقي، فيمكنك الاتصال بسكرتيرتي وتحديد موعد».

ـ نعم، حسنًا. يبدو أن الرجل الرمادي يعتقد أنه يمثل لك عملًا حقيقيًا. أخبرني أن أتصل بك، ويصر على أنك ستدفع جيدًا مقابل عودته الآمنة.

ـ الرجل الرمادي معك؟

ـ بالفعل.

ـ مع أي فريق أنت؟

ـأي فريق! أنا فريقي الخاص يا سيدي.

نظر فيتزروي ولويد أحدهما إلى الآخر. ضغط لويد على زر كتم الصوت وقال: «لا أعتقد أن هذا أحد صيادينا».

نقر السير دونالد على الزر للسماح للمتصل بسماعه وقال: «دعني أتحدث معه».

أجابه: «هذا ليس ممكنًا في الوقت الحالي».

ضغط لويد على زر كتم الصوت مرة أخرى. التفت إلى الفني وكومة أجهزة الكمبيوتر المعلقة على الحائط. قال الشاب: «جاءت المكالمة من بودابست، من بيست. لديه بعض برامج التوجيه المحرف، سأحاول تحديده».

نظر لويد إلى الخريطة الكبيرة على شاشة الحائط وقال: «ماذا يفعل جينتري في بودابست بحق الجحيم؟».

تجاهله فيتزروي وضغط على صندوق السماعات في منتصف الطاولة، وأطفأ زر كتم الصوت مرة أخرى.

وقال: «قد أكون مهتمًا للغاية بخدمتك، إيجور. أحتاج فقط التحقق من أن رجلي في رعايتك حقًا».

رد قائلًا: «لم تعد هناك ثقة في هذا العالم، تلك هي المشكلة. حسنًا يا دونالد، أعطني لحظة. أنا لا أتحرك بالسرعة التي اعتدت عليها».

كان هناك تشويش في مكبرات الصوت لمدة دقيقة تقريبًا. ثم أخيرًا: «تفضل سيد فيتزروي، يمكنك التحدث».

سأل فيتزروي: «يا فتى؟ هل هذا أنت؟».

جاء صوت جينتري بعيدًا أو مكتومًا بشيء ما وقال: «لقد اتصل بالوكالة. فرقة قتل ستكون هنا في أقل من تسعين دقيقة، يا دون! أنا في...».

كان هناك المزيد من التشويش، والأصوات المتضاربة عبر السماعات. ثم عاد الصوت ذو اللكنة الأجنبية على الخط: «لديك

ساعة واحدة يا سير دونالد. أرسل خمسمائة ألف يورو، وسأدع ابنك يهرب وفي وقت يكفي لتفادي عرض مضاد من منافس. ها هو رقم الحساب، ألديك قلم؟».

بعد دقيقة انقطع الاتصال. نظر كل من فيتزروي ولويد إلى الفني، هز الشاب البريطاني الشاب الذي يضع حلقًا في أنفه رأسَه وقال: «بودابست، المنطقة السادسة. هذا ما نعرفه. لكن لم أتمكن من تحديده عن قرب. يوجد ربع مليون هاتف في الحي السادس. يمكنه الاتصال من أي واحد منها».

انزعج لويد بشدة، لكنه كان متعجلًا لدرجة أنه لم يُظهِر ذلك. التفت إلى أسيره وقال: «من يعرف في بودابست؟».

فرك فيتزروي جبهته وهزّ كتفيه.

وأتبع لويد: «تبًّا لك! فكِر، من قد يذهب إليه جينتري هناك؟».

رفع السير دونالد رأسه بسرعة وقال: «سزابو! ليس في شبكتي، كما ترى هو مزور قديم، كان يعمل لمصلحة الشيوعيين في...».

قاطعه لويد قائلًا: «هل لديك عنوان؟».

ـ يمكنني الحصول عليه.

ـ أقرب فرقة قتل في فيينا، على بعد مائة ميل. بأي حال من الأحوال يمكننا أن نرسلها هناك في ذلك الإطار الزمني. سيتعين علينا أن ندفع لسزابو لإبقاء جينتري بعيدًا عن أيدي وكالة الاستخبارات المركزية.

هز فيتزروي رأسه وقال: «انسَ هذا. سزابو خبيث، إذا اتصل بالاستخبارات المركزية فذلك ليكسب ودهم. لقد اتصل بي للتو لأن جينتري أخبره أنني سأدفع مقابل إطلاق سراحه. سيأخذ سزابو أموالي ومع ذلك سيسلمه لوكالة الاستخبارات المركزية. سيخدعني قبل أن يخدعهم بلا شك».

ـ هل ستأخذ الاستخبارات المركزية جينتري أم ستقتله؟

ـ غير مهم. إذا قتلوه فلن يتركوا أي آثار وراءهم. لن تظهر الجثة لأسابيع، هذا إن حدث. أبو بكر لن يوقع إذا أخبرناه أن جينتري محاصر، ستقتل عائلتي كما لو كان جينتري قد نجا.

ـ إذًا أمامنا أقل من ساعة لإرسال القتلة إلى موقع سزابو قبل أن يصل شباب الاستخبارات المركزية إلى هناك.

***

كانت رقبة جينتري تؤلمه بسبب تحديقه المتواصل إلى السقف البلاستيكي فوقه، سمع ضجة عند الفتحة فصاح: «كيف ستخرجني من هنا قبل أن يصل عملاء الوكالة لقتلنا؟».

ظهر وجه سزابو المتغضن بالأعلى وقال: «فور حصولي على أموال السير دونالد. الشخص الوحيد الذي سيخرج من هنا هو أنا».

ـ سيقتلك فيتزروي لخداعك إياه.

ـ ما زال لديَّ أصدقاء في الشرق، كنت أبحث عن مخرجٍ آمنٍ، سيكفي نصف مليون يورو من أجل بداية جديدة.

ناشده كورت: «انظر، هناك خطر أكبر مما تعرفه، لقد تعرضت أسرة للخطف، وهناك فتاتان توأمان، عمرهما ثماني سنوات. ستتعرضان للقتل إن لم أصل إلى فرنسا في الوقت المناسب. أخرجني من هنا، وأقسم لك أن أعطيك أموالك، ستحصل على كل ما...».

ـ فتاتان صغيرتان؟

ـ نعم.

ـ قتل؟

ـ إلا إذا تمكنت من الوصول إلى...

ضحك لازلو ساخرًا:

وقال: «حتمًا التبس عليك الأمر، وحسبت أنني ذو مشاعر، لقد أزالها الروس جراحيًا قبل خمسة وثلاثين عامًا. في الحقيقة لا أعبأ بما تقول».

توارى لازلو عن نظر جينتري.

***

اتصل لويد بريجيل في مكتبه المكسو بألواح خشب الساج، أجاب الرجل الألماني قبل أن تنتهي الرنة الأولى. سأله الأمريكي: «هل لديك عملاء في بودابست؟».

ـ لديّ عملاء في كل مكان.

ـ قتلة من الدرجة الثالثة؟

ـ لا، فقط عدد قليل من فناني الأرصفة. يمكنني ترتيب بعض القتلة منخفضي الأجر، لكن لماذا؟ ألم أزودك بما يكفي من أكفأ القتلة في الاثنتي عشرة ساعة الماضية؟ حتمًا لم يأكلهم الرجل الرمادي كلهم بعد!

كانت هناك نبرة ساخرة في كلامه مع المحامي الشاب.

ـ لقد أرسلنا الفرق غربًا، لكن جينتري ذهب جنوبًا إلى المجر، على ما يبدو للحصول على جواز سفر لاستخدامه في الفرار من أوروبا بعد أن يصل إلى نورماندي.

ـ ذكي. متفائل لكن ذكي.

ـ نعم، لم يُوَفق تمامًا. خدعه المزور في بودابست. حبسه واتصل لتوه بالسير دونالد للمطالبة بفدية.

ـ دعني أخمن. لازلو سزابو؟

ـ كيف عرفت؟

ـ لا يمكنك أن تُذكر (بودابست) و(خداع) في الجملة نفسها دون أن يظهر اسم سزابو.

ـ هل يمكنك إرسال بعض الرجال إلى عنوانه في بيست؟

ـ بالطبع. هل لازلو وحده أم لديه أمن؟

ـ الأمر أكثر تعقيدًا من ذلك. لقد سلّم سزابو كورت إلى وكالة الاستخبارات المركزية. لديهم فريق يتسابق إلى موقعه الآن، يُفترض أنهم على بعد ساعة.

تنهد ريجيل وقد بدا الإحباط في صوته وهو يقول: «إذا وقع في أيدي وكالة الاستخبارات المركزية، فانسَ عقد لاجوس. إذا أخذوه، فلن نستطيع أن نثبت لأبي بكر ما إذا كان حيًّا أو ميتًا بحلول يوم الأحد.

ـ إذًا لا يمكننا أن ندع ذلك يحدث، صحيح؟

ـ تريد إرسال فريق ليتبادل إطلاق النار مع الاستخبارات الأمريكية؟ هل أنت مجنون؟

ـ ستعتقد الاستخبارات المركزية أنهم رجال يعملون لصالح جينتري أو يعملون لصالح الخاطف. إذا كان رجالك بارعين، فلن يظلوا في أماكنهم لشرح دوافعهم.

فكر ريجيل لحظة، وعندما تحدث أخيرًا، بدا للويد كما لو أن الألماني يرسم الخطة في أثناء خروج الكلمات من فمه: «فريق القتلة الإندونيسي في الجو الآن. إنهم في طريقهم إلى فرانكفورت، لكن من المفترض أن يكونوا فوق جنوب وسط أوروبا الآن. ربما يمكننا تحويلهم، وإنزالهم على الأرض وإدخالهم إلى المدينة في الساعة التالية، ستكون مجازفة، لكنها فرصتنا الوحيدة».

ـ هل هم أكفاء.

ـ نعم. إنهم من الكوباسوس[1]، المجموعة الرابعة. أفضل رماة يمكن لجاكرتا أن تقدمهم. دعني أمضِ إلى العمل.

---

(1) : فرقة القوات الخاصة التابعة للجيش الإندونيسي، تأسست عام 1952، وتقوم بعمليات خاصة للحكومة الإندونيسية، كالحرب غير الرسمية، ومكافحة التمرد والإرهاب وجمع المعلومات الاستخبارية والاستطلاع الخاص.

***

راح الكابتن برنارد كيلزر يفحص الارتفاع على مقياس التحليق اللاسلكي.

لقد كانت من طراز فولفسبورج، فلم تكن مألوفة تمامًا له، بل استؤجِرَت، ولم تكن طائرته المعتادة. كان يطير من الغرب إلى الشمال الغربي على ارتفاع 37000 قدم. بومبارديه تشالنجر 605 هي أحدث ما توصلت إليه تكنولوجيا الطيران السلكي. واجباته ومسؤولياته كونه طيارًا هائلة، ولكن في هذه المرحلة، بعد سبع ساعات من رحلته التي تستغرق تسع ساعات من نيودلهي إلى فرانكفورت، لم يكن أمامه ومساعده الكثير سوى البقاء مستيقظين، ومراقبة الأنظمة الموجودة على متن الطائرة، ورصد السماء بعد الظهيرة.

حلق الطياران لمدة ست عشرة ساعة دون توقف تقريبًا. مسارهما في جاكرتا بإندونيسيا الساعة الثانية صباحًا بالتوقيت المحلي. سافرا غربًا، وتوقفا للتزود بالوقود في نيودلهي، ثم عادا على الفور إلى السماء.

في العادة، كان الكابتن كيلزر ومساعده، الضابط الأول لِي، يطيران برؤساء الشركات في جميع أنحاء جنوب شرق آسيا. هما أيضا من نقلا علماء مجموعة لوران، وموظفي تكنولوجيا المعلومات ذوي الأهمية، وأي شخص في أي منشأة من خمس عشرة منشأة تابعة للشركة من الطرف الجنوبي لليابان إلى الحافة الشرقية للهند.

بالإضافة إلى رحلات العمل هذه، نقل كيلزر ولي أيضًا المديرين التنفيذيين وزوجاتهم في إجازات التنقل بين الجزر، أو إقامة حفلات فخمة في بروناي مع السلطان نفسه. حتى أنهما نقلا ذات مرة عملاء الشركة وعاملات الجنس الفلبينيات إلى جزيرة استوائية منعزلة يسكنها طهاة فرنسيون، ومدلكون سويديون ليستمتعوا لمدة أسبوع بالفجور والكسل.

نقل كيلزر جميع أطياف موظفي مجموعة لوران، لكنه لم ينقل مجموعة مثل تلك التي كان ينقلها الآن. خلفه في المقصورة كان ستة رجال. الإندونيسيون، بدوا كأنهم عساكر شبان، لكن في ملابس مدنية. كان عنبر الشحن في طائرة تشالنجر مليئًا بحقائب ظهر قماشية خضراء. التزم الرجال الصمت في معظم الأحيان. ألقى كيلزر نظرة على المقصورة التي يبلغ ارتفاعها ثماني وعشرين قدمًا في أثناء خروجه من قمرة القيادة إلى الحمام، فرأى الظلام مثقوبًا بالأقلام المضيئة، حيث انكب بعض الرجال فوق الخرائط بينما نام آخرون.

بدا أنهم مجموعة منضبطة، في طريقها إلى مهمة خطيرة، ولم يكن لدى كيلزر أدنى فكرة عن سبب تكليفه بنقلهم. مد الطيار الألماني الأصلع البالغ من العمر ثمانية وثلاثين عامًا يده وراءه ليُخرج صندوق غدائه. ومضت الشاشة متعددة الوظائف فقال مساعده: «لديك مكالمة أرض ـ جو من المكتب الرئيس على الرابط الآمن».

قال: «حسنًا». التفت كيلزر بعيدًا عن وجبته، وشغَّل وحدة التحكم المركزية لإرسال المكالمة المنتظرة إلى أذنيه وحده.

ـ نوفمبر. ديلتا. ثلاثة. صفر. ويسكي. حوِّل.

ـ ريجيل يتحدث، هل تسمعني؟

كان كيلزر يعلم أن ريجيل هو نائب رئيس العمليات في المجموعة بأسرها. عُرف عن ذلك الألماني أنه وغد وعنيف بشكل لا يُصدق. وفجأة تصور كيلزر مهمة أولئك الشباب الأقوياء في المقصورة خلفه على نحو أوضح.

ـ أسمعك بوضوح سيد ريجيل، كيف يمكنني مساعدتك؟

ـ ما مدى قربك من بودابست؟

ـ أعطني لحظة.

نظر كيلزر إلى مساعد الطيار، وهو آسيوي ذو لكنة بريطانية. قال: «إنه ريجيل. يريد أن يعرف إلى أي مدى نحن قريبون من بودابست».

فحص الضابط الأول لي موقع رحلته على نظام إدارة الملاحة. راح ينقر على لوحة المفاتيح على يساره وأجاب بعد بضع ثوانٍ: «نحن على بعد مائة وسبعة كيلومترات بين الجنوب والجنوبً الشرقي وارتفاع اثني عشر كيلومترًا».

نقل كيلزر المعلومات، فقال ريجيل: «لدينا تغيير في الخطط. أريدك أن تهبط هناك في أقرب وقت ممكن».

شعر كيلزر بقطرة عرقٍ تنساب حتى آخر رقبته. لم يشعر بالارتياح لتخييب أمل رئيس العمليات الأمنية.

ـآسف يا سيدي، هذا غير ممكن، لم نضع خطة طيران للمجر. سنواجه مشكلات جدية مع إدارة الهجرة والأمن.

ـ لا تقل لي ما هو ممكن. أنزِل الطائرة على الأرض، ووزع المعدات على الإندونيسيين، ثم اخرج من هناك.

لم يتراجع كابتن كيلزر على الفور وسأل: «كيف يفترض بنا أن نخرج من هناك؟ سنُلقى في السجن إذا هبطنا دون إذن، إذا...».

ـ أعلن حالة الطوارئ. بالتأكيد يمكنك أن تجد سببًا للهبوط بالطائرة أينما تريد. إذا احتجزوك لاستجوابك، فسأدفع ثمن خروجك، يمكننا تسوية الأمور مع المجريين بعد وقوع الحدث، هذا ليس شأنك. فقط تحقق من نزول الإندونيسيين من الطائرة قبل أن تبرح المدرج.

ـ هناك الكثير من الأمن في مطار بودابست. سيحاصرون الطائرة، وسنـــــ...».

ـ لا تهبط هناك إذًا، ابحث عن أي مطار إقليمي قريب، اهبط بالطائرة وأخرج من تنقلهم من الرجال، مفهوم؟

قلَّب الطيار بشكل محموم بين الصفحات على شاشته متعددة الوظائف. مر بين الخرائط الإلكترونية لجميع مطارات المنطقة. وقال: «توكول على بعد أربعين دقيقة بالسيارة من وسط المدينة. مدرجه طويل بما يكفي».

رد عليه: «بعيد للغاية! أحتاج إلى الإندونيسيين في وسط المدينة في أقل من ساعة!».

واصل كيلزر البحث، ثم قال: «هناك بودورس. الوصول إليها سيستغرق نصف الوقت، لكن المدرج غير مرصوف وقصير للغاية».

ـ إلى أي درجة؟

ـ هذه الطائرة بحمولة كهذه تحتاج إلى مدرج بمساحة ألف متر مرصوف على نحو مثالي، بودورس بالضبط ألف متر، لكنَّ هناك أمطارًا غزيرة، وكما قلت الطريق غير ممهد. سيكون مثل الطين!ـ إذًا يجب ألا تواجه مشكلات في الإبطاء قبل انتهاء المدرج. اهبِط بالطائرة!

ـ أنت تطالب بهبوط تحطم يا سيدي! لن يكون آمنًا على الإطلاق.

ـ إذا كنت تريد أن تكون في مأمن مني، أيها الكابتن، فستهبط بتلك الطائرة في بودروس. مفهوم؟

صرَّ كيلزر على أسنانه، فقال ريجيل: «سأرسل حافلة وسائقًا إلى هناك لاصطحابهم».

ـ سيدي، أريد أن أؤكد مرة أخرى، سيؤدي هذا إلى حادثة.

ـ سأتولى أنا هذا الأمر.

ـ عُلِم يا سيدي.

أنهى كيلزر المكالمة، وضغط بيديه على مقود التحكم في إحباط. سأله مساعد الطيار: «ماذا يحدث؟».

أجابه: «يبدو يا لي أننا على وشك أن نساعد إندونيسيا على غزو المجر».

شحب وجه الضابط الأول وقال: «ريجيل وغد!».

قال كيلزر: «هذا صحيح». ثم ضغط على بعض المفاتيح في وحدة التحكم المركزية الخاصة به، وأخرج الطائرة من نظام الطيار الآلي،

دافعًا مقود التحكم ببطء إلى الأمام. ثم تحدث في سماعة رأسه مناديًا: «النجدة. النجدة. النجدة. نوفمبر. دلتا. ثلاثة. صفر. ويسكي».

14

خلال تلك الساعة استخدم لازلو سزابو جهاز الكمبيوتر الخاص به كل خمس عشرة دقيقة، ليتفقد حسابه البنكي السويسري الذي أعطى رقمه لفيتزروي. وبين كل مرة وأخرى كان يحزم حقيبة مليئة بالأشياء الأساسية التي قد يحتاج إليها في رحلة برية دائمة. واتصل بخدمة سيارات محلية، حيث أمر سيارة ليموزين بالانتظار في الخارج عند الساعة الرابعة والنصف على أن تتجه إلى مطار بودابست. اشترى تذكرة سفر إلى موسكو من الدرجة الأولى، ثم اتصل بأحد معارفه في العاصمة الروسية لترتيب اصطحابه من المطار هناك.

وبالرغم من كل هذا النشاط، ظل يعرج كلما مضى إلى الحامل الخشبي لينظر من خلال الزجاج بين الحين والآخر، ليتحقق من وجود صيده.

جلس الرجل الرمادي نصف عارٍ على المرتبة في الحفرة الباردة، وحقيبته ملتصقة بالجدار اللزج، وعيناه مثبتتان إلى الأمام.

لم يشعر لازلو بالذنب مطلقًا لتركه الشاب يموت، ولا لأنه سيأخذ نصف مليون يورو من السير دونالد الثري ثم يتراجع عن الصفقة، ولا للتأكيد السخيف بأن حياة فتاتين لا ذنب لهما، معلقة في ميزان مخططه الذي ضبطه بسرعة. لم يولد مختلًا اجتماعيًا، لكنه اكتسب هذا بطريقته، ونفذ مبادئ هذا الاضطراب بدقة شديدة، وبنفس اهتمامه بالتفاصيل الذي يفعله عند تزوير جوازات السفر.

لم يكذب حين قال إن الروس أزالوا مشاعره بعملية جراحية. لقد عاش وقتًا طويلًا مخبرًا، وعمل مع المقاومة الشعبية لتهريب منشقين خارج البلاد، ثم أبلغ الروس عن مسارهم نحو الغرب. لسنواتٍ ظل

يعمل مع الجانبين حتى انعدم الصواب والخطأ في نظر لازلو، إن هي إلا طرق لتحقيق مصلحته وعقبات يسعى إلى تجاوزها.

بعد مرور ساعة بالضبط تفقد حسابه. لم تُحوَّل الأموال بعد. اتصل بفيتزروي فعلم أن هناك تأخيرًا في مصرفه. يحتاج إلى بضع دقائق فقط. كانت الأموال في طريقها. ارتاب لازلو، وأقسم أنه سيفرغ الرصاص في رأس الرجل الرمادي بنفسه إذا لم يأتِ المال قريبًا، ثم هدد السير دونالد بأن الاستخبارات المركزية ستنتزع كل تفاصيل عملية شركة شلتنهام الحقيقية من أفضل قاتل فيها بالدم، وسيكون رأس فيتزروي نفسه على المحك في غضون يوم أو يومين من تسليم سزابو للرجل القابع في حفرة إلى الأمريكيين.

أخيرًا منح لازلو الرجل الإنجليزي المقنع خمس عشرة دقيقة إضافية، وتفقد سجينه في الحفرة، ثم اتصل بالسائق المنتظر في الخارج وأخبره أنه سيتأخر، ولكن عليه أن يُبقي المحرك يعمل.

عاش سزابو على المحك طوال حياته. إذا وصل قتلة وكالة الاستخبارات المركزية قبل مغادرته، فمن المحتمل أن يُقتل. إذا لم يفعلوا ذلك، فستكون بدايته الجديدة في روسيا.

***

التفت الكابتن برنارد كيلزر ببطء إلى الضابط الأول لي. دفعت الحركة العرق على جبهته إلى عينيه. نظر لي إلى الوراء نحو قائده ونثر عرقه بعيدًا. كان وجها كلا الرجلين شاحبين كلون الطباشير.

وقفت طائرة بومبارديه تشالنجر ثابتة في الوحل. يمكن للطيارين رؤية العشب والسياج الذي تحجبه أمطار غزيرة خلف الزجاج الأمامي. لقد استخدما كل سنتيمتر من المدرج، ثم ثمانين مترًا إضافية من الحقول المفتوحة المبللة.

لم يكن هناك المزيد. خفق قلب كيلزر وغلى دمه. أجبرهما ريجيل على هذا الموقف، وهو الموقف الذي حدث في غضون ثلاث ثوانٍ

من زمن الطيران الذي انتهى بشكلٍ سيئ للغاية، وعلى الرغم من أنه لم ينتهِ إلى حريقٍ وتعويضات تأمينية تُدفع لزوجته، فإن الكابتن الألماني كانَ لديه حدس قوي بأنّه سيحل ضيفًا لبعض الوقت خاضعًا لنظام العقوبات المجري.

ومع ذلك فقد نجوا. كانت هذه الطائرة مُجهَّزة بمكابح كربونية مانعةً الانزلاق، وبنظام لتفادي الأجسام الغريبة، وهي حواجز موضوعة حول ترس الدراجة ثلاثية العجلاتٍ لمنع حطام المدرج من تدمير الطائرة عند الهبوط. ومع ذلك، عَلِم كلٌّ من كيلزر ولي أن تشالنجر المستأجرة لن تطير من المجر بقوتها، فبالطبع تضررت التروس والمحركات، وسيستغرق الأمر بضع معدات قطر هائلة لسحب هذه الطائرة التي تبلغ تكلفتها عشرين مليون دولار من حفرة الطين التي ترقد فيها الآن.

بعد بضع ثوانٍ أخرى للتعافي من إجهاد الهبوط وإرهاقه، أغلق كيلزر جميع الأنظمة، وهو إجراء روتيني عند نشوب حريق على متن الطائرة. الآن لم يعد هناك سوى صوت هطول الأمطار على جسم الطائرة ونوافذها.

في رسالة الاستغاثة إلى برج المراقبة في مطار بودورس، ادعى أنه اشتم رائحة الدخان في قمرة القيادة. ربما كان سيتوصل إلى خدعة أكثر إقناعًا لو تسنى له المزيد من الوقت. ولكن منذ أن تلقى مكالمة من ريجيل حتى هذه اللحظة، مرت خمس وثلاثون دقيقة فقط، في غضون ذلك كان ذكاؤه مشغولًا تمامًا، حيث أسقط طائرته من ارتفاع أربعمائة عقدة وسبعة أميال في الهواء إلى طريق مسدود، بعد حافة مدرج قصير للغاية، وغارق في المطر، وغير ممهد، في مطار لا يعرفه.

لقد أبلى بلاءً حسنًا، وكان يعرف ذلك. حتى أنه اعتقد ـ في أعلى لحظات التفاؤل الناتج عن ارتفاع الأدرينالين بعد الهبوط ـ أنه قد يتمكن من إقناعهم بالخروج من السجن إذا استمر في سلسلة انتصاراته لبضع دقائق أخرى. لكن هذا الحلم الكاذب تلاشى عندما أعادته إلى

الواقع حركةٌ خارج الزجاج الأمامي. اخترقت شاحنة سوداء السياج أمامه مباشرة. ظهر الإندونيسيون الستة حول ميمنة البومبارديه، يسحبون حقائب الظهر التي أخذوها من عنبر الشحن.

صعدوا بسرعة إلى السيارة. في حين جلس الكابتن كيلزر والضابط الأول لي في صمت يحدقان إلى الحركة أمام قمرة القيادة الخاصة بهما. كانت الشاحنة السوداء تسير في الوحل والعشب من حيث أتت، وانزلقت في مياه الأمطار في الجانب الآخر من الطريق، ثم انطلقت بسرعة عبر العاصفة.

كان كيلزر يعلم أن هذا الحدث الدرامي لن يمر دون أن يلاحظه أحد من برج المراقبة خلفه. وهذا الحدث الدرامي، على حد علم كيلزر، سيزج به هو ولي خلف القضبان حتى يتمكن هذا الأحمق ريجيل من إخراجهما.

وخطر ببال كيلزر وهو يضع قبعته على رأسه ويغادر الطائرة تحت المطر الذي انهمر على وجهه، ويصل إلى سمعه صوت صفارات الإنذار، أن السيد ريجيل سينشغل قطعًا بفوضى أخرى عليه أن يعتني بها قبل انتهاء اليوم؛ لذلك يجب أن يستعد هو ولي لنسيان أمرهما لبعض الوقت.

***

ظهر التحويل البنكي في حساب سزابو، بينما كان يُجري مكالمة ثالثة عنيفة مع فيتزروي. كان من المقرر أن تصل وكالة الاستخبارات المركزية في غضون عشر دقائق. بدا موقفه شديد الخطورة، ولكن الآن استلم الأموال، ويمكنه المغادرة. أغلق الهاتف في اللحظة التي أجاب فيها فيتزروي. بعد ذلك، عاد مرة أخيرة إلى الرجل الرمادي، ودَّعه وتمنى له حظًا سعيدًا، وانتهى من حزم حقيبته، ثم خرج من الاستوديو/ المختبر / ورشة العمل الخاصة به، مترنحًا في الردهة بسرعة بقدر ما يسمح جسده المشلول.

كان على وشك أن يبلغ الباب عندما رن جرس الهاتف. قرر أن يجيب معتقدًا أن رئيس محطة وكالة الاستخبارات المركزية سيقدم له تحديثًا بشأن تقدم العملاء في الطريق، كان عليهم أن يتصلوا لو كانوا على بعد لحظات. رفع الهاتف. قال فيتزروي: «لقد أوفيت بالجزء الخاص بي من الصفقة. لقد حان الوقت لكي تفي أنت بالجزء الخاص بك».

ـ أنا مندهش يا سير دونالد. هواتفي مشوشة، كيف فعلتَ...؟

ـ لدي طرقي، لازلو الآن حرِّر الرجل الرمادي قبل أن يأتوا إليه! العرق الذي كان يقطر بالفعل على ظهر المجري الستيني تحول إلى جليد بارد. كان فيتزروي يعرفه جيدًا. أدرك سزابو أن الرجل الإنجليزي الماكر سيظل يطارده لبقية حياته. فقال: «سأطلق سراح فَتَاكَ على الفور».

ـ لن تخدعني، أليس كذلك؟ تخادعني وتخادع وكالة المخابرات المركزية؟

ـ أعدك كرجل نبيل.

ـ حسنًا لازلو، استمتع بالمال.

وانقطع الخط.

فكر سزابو في اتخاذ خطوة أخيرة على الحامل، ألقى نظرة أخرى إلى الحفرة، لكنه قرر عدم فعل ذلك. وعاد مسرعًا عبر الرواق والحقيبة في يده.

انطلق نحو الباب الحديدي الصغير، لكنه طار عائدًا إلى الداخل عندما وصل إليه. إذ سطعت أضواء باهرة في عيني المجري، على الرغم من أن الجو في الخارج كان مظلمًا وممطرًا. قفز للخلف مصدومًا، وتعثرت ساقه المصابة ليسقط على ظهره. نظر إلى الأضواء بعيدًا، ورأى فريقًا من الرجال يرتدون ملابس سوداء وأقنعة، وستة مسلحين بأسلحة ذات ماسورة قصيرة مثبتة على مستوى العين. كان يبرز من كل

بندقية كشّاف إضاءة قوي. هبط أقرب رجل له على واقي ركبة أسود اللون، ورفع سزابو من رقبته.

تحدث بهدوء باللغة الإنجليزية: «أتنوي الذهاب إلى مكان ما؟». كانوا من الاستخبارات المركزية. بصعوبة رأى سزابو العينين اللتين خلف نظارة العميل.

ـ أنا.. كنت أنتظركم. كنت فقط سأضع الحقيبة في السيارة، كما ترى. سأخرج بعد أن تنتهوا يا رفاق.

ـ بالتأكيد. أين الطرد؟

ساعدوا سزابو على النهوض على قدميه. أبقى جميع الرجال في القاعة الضيقة أسلحتهم مشهرة أمامهم.

قال: «إنه في الغرفة الأمامية، في نهاية الردهة. اصعد على الحامل، وانظر إلى أسفل. إنه على عمق اثني عشر قدمًا في الصهريج، مغطى بطبقة سميكة من...».

قال له: «أرِنا».

أدرك سزابو من نبرة الرجل أنه ليس هناك تفاوض. استدار وعرج مرة أخرى في الردهة مع القوات الأمريكية شبه العسكرية.

***

داخل الغرفة منخفضة الإضاءة. وجَّه قائد وحدة الأنشطة الخاصة رجاله الخمسة ناحية الجدران وصعد ببطء إلى الحامل. حثه لازلو على ذلك، وأخبره أنه لا يوجد ما يخاف منه، وحرص على ذكر اسم رئيس المحطة ما لا يقل عن ثلاث مرات كطريقة لإعلام مسلحي وكالة الاستخبارات المركزية بأنه «واحد منهم». أخيرًا صعد القائد المسلح على الحامل وحدق بحذر إلى الزجاج.

قال لازلو الذي لم يكف عن استجداء ودهم: «من المحتمل أن يكونِ معه مسدس، لكنه لا يستطيع استخدامه عندما يكون الغطاء مغلقًا. يجب أن يكون راقصًا بارعًا لكي يتفادى الارتداد في تلك

المساحة الصغيرة. رئيسك في العمل وعد لازلو بأنه سيجري الاعتناء به. ربما يجب أن أتصل به ويمكنكم جميعًا التحدث حتى تروا كل ما فعله لازلو من أجلكم. لازلو المخلص، هكذا يناديني».

انحنى قائد فريق العمليات إلى أبعد من ذلك، ثم أبعد. ووضع ركبته فوق الزجاج، ثم استدار ببطء وعاد إلى سزابو وصاح: «ما هذا بحق الجحيم؟».

لم يفهم لازلو فسأله: «ماذا تقصد؟ إنه الرجل الرمادي ملفوف في ربطة لطيفة لأصدقائي في الاستخبارات المركزية».

سأل العميل الأمريكي الذي كان قد وقف في هذه اللحظة واستدار لمواجهة المجري: «هل قتلته؟».أجابه: «بالطبع لا. لماذا تسألني هذا السؤال؟». سرعان ما عرج السيد المزور على عصاه نحو الحامل ليرى ما الخطأ.

***

لم يكن كورت مكتوف اليدين طوال السبعين دقيقة الماضية كما افترض سزابو. ما إن تركه المجري وشأنه سحبِ قلادته من رأسه، ومزق الطبقة الخفيفة ليستخرج منها سلكا شائكا، استخدمه ليقطع أنبوب الماء المكشوف أسفل المراتب. كان يقطعه من طرفين بحيث يفتح السلك بضعة ممرات أخرى في الأنبوب ويملأ الخزان بمياه الينابيع الساخنة في غضون دقائق.

مع انتهاء ذلك، سحب جينتري مسدسه، وأخرج الطلقة من غرفة الإطلاق، وأخذ الطلقات الاحتياطية من سرواله.

استعان بحذائه المضاد للماء كصندوق تجميع، وبكمّاشة من أداته متعددة الاستخدامات، فكَّ كل خرطوشة، وصب البارود الذي يحتوي على نترات البوتاسيوم في الحذاء العالي. بعد أن جمع المسحوق من ثلاثين رصاصة كان يحملها، ففكك إحدى خزائن الرصاص وأزال الزنبرك، وأعاد لصق الصفيحة، وأحكم ملأها بالبارود من حذائه،

ثم وضع المشط في الجزء العلوي ليصنع ضغطًا يحفز التفجير بشكل أكثر إحكامًا في الخزينة المعدنية.

استخدم كورت زنبرك الخزينة لربط المشط بأمان في مكانه. تفقده لازلو من وقت لآخر. أحدث العجوز الكثير من الضوضاء في أثناء التسلق على الحامل الخشبي، ولم يكن أمام الرجل الرمادي سوى أن يحشر مشروعه الفني وأدواته أسفل المرتبة العفِنة في الوقت المناسب لتجنب اكتشافه.

نزع جينتري جوربًا وملأه بالخراطيش الفارغة، لأن المسحوق لن يشتعل دون مساعدة من الفتيل الذي تحتويه كل خرطوشة. حشر الخزينة المليئة بالمسحوق في الجورب وربط كل شيء معًا بإحكام مع حذائه.

في قبضة يده جورب كبير وثقيل يضاهي القنبلة اليدوية قوة تقريبًا. مزَّق جينتري بعض القطع من القماش من المرتبة، وربطها معًا ليصنع حبلًا رفيعًا يبلغ طوله عشر أقدام تقريبًا. أعاد حشو مسدسه الفالتر بالرصاصة المتبقية، وترك الخزينة فارغة.

ربط المسدس بمزيد من خيوط المرتبة، إذ وضع فوهة الماسورة التي يبلغ قطرها 3 بوصات ونصف في بقعة فارغة داخل الجورب المليء بالفتائل والمتفجرات. ثم ربط الخيط الطويل بزناد المسدس.

في النهاية خلع جينتري سرواله، وربط رجليه بإحكام عند الكعبين ثم مرة أخرى عند الجذع، وفر له هذا فقاعتين مملوءتين بالهواء. لن تصمدا في المياه لفترة طويلة لكن ما يكفي لاحتياجاته. ثم استخدم رباط الحذاء الأخير لربط القنبلة اليدوية بالسراويل.

جلس وبنطلونه ملفوف على رجليه حتى لا يلاحظ لازلو بسهولة أنه خلعه. أخيرًا، سحب حشوات من الإسفنج المبلل من المرتبة لاستخدامها كسدادات للأذن عندما يحين الوقت.

هكذا كان كورت مستعدًّا. انتظر، وسرعان ما انحنى سزابو مودعًا ثم اختفى.

كانت هذه إشارة الرجل الرمادي. قطع الأمريكي أنبوب الماء بحدة. في غضون دقيقة امتلأ منسوب الخزان، لأعلى من الركبة، بالماء الساخن مثل حوض الاستحمام. نهض كورت حاملًا القنبلة والمسدس مثبت عليها، والسروال الذي يحوي غرف الهواء، كل هذا في يديه.

وقف هناك بملابسه الداخلية وانتظر ارتفاع الماء. في غضون ثلاث دقائق طاف مع الماء والمراتب، وثب في مكانه. بعد ست دقائق، امتلأ الخزان حتى القمة تقريبًا. حارب الذعر. كان يعلم أنه لا يوجد ما يضمن أن جهازه الغريب سيعمل أو حتى لو نجح هل سيكون قويًّا بما يكفي لفتح الباب المسحور؟

عندما كان الماء على بعد ثلاث بوصات من السقف الزجاجي، أجبر كورت نفسه على التنفس السريع في المساحة الصغيرة. ملأ كل رئتيه، ثم انبطح أسفل السطح، ووضع القنبلة العائمة في إحدى المفصلات. دفع المرتبة بينه وبين قنبلته، ثم سبح إلى أسفل الخزان، بيد واحدة ممسكة بخط قماش الفراش الذي يؤدي إلى زناد المسدس، واليد الأخرى ملفوفة حول أنبوب الماء لتثبيته في العمق.

نظر إلى أعلى ليتيقن من أن كل شيء في مكانه، ورأى أن جهازه الغريب قد طاف بعيدًا عن المفصلة. صعد بسرعة إلى الأعلى مستنفدًا احتياطي الهواء. الآن لم يكن هناك هواء للتنفس. أزاح المرتبة على الجانب بصعوبة، وأعاد وضع القنبلة، ثم صارع للوصول مرة أخرى إلى القاع. كان جرحه الحديث في فخذه اليمنى يؤلمه بشدة مع انثناء عضلاته. بدا أن الهلع والجهد المحموم ونفاد الأكسجين ينافس بعضها بعضًا للضغط على قلبه وسحقه بقوة داخل جسده.

أخيرًا وصل إلى أنبوب الماء وتمسك به. نظر إلى الخلف ورأى أن جهازه في مكانه.

وقبل أن يسحب الحبل، رأى هيئة دكناء لشخص يخطو على الحامل ويجثو على ركبته، قبل أن يلتفت إلى الخلف مواجهًا شخصًا ما في الغرفة.

***

قال قائد الفريق: «لا بد أنه مات. هذه الفتحة مليئة بالـ....».

مع فرقعة صامتة، طار العميل الذي كان يرتدي ملابس سوداء في الهواء. انفجر السطح الزجاجي تحت قدميه، وانهمر الماء الأبيض في جميع الاتجاهات، ومزقت قطع من البلاستيك الحاد السقف أعلاه. سقط العميل على يسار الحامل، واندفعت موجة مد من الماء الدافئ فوقه.

هرع المسلحون الآخرون بحثًا عن مخبأ، بينما سقط سزابو على ظهره في منتصف الغرفة. كان القائد على قيد الحياة. جثا على ركبتيه واستعاد سلاحه على الحامل إلى يساره.

صرخ: «يا يسوع! كل العناصر، قف سريعًا!». بينما تصفر طبلة أذنه من الانفجار.

في ذلك الوقت، تدفق عبر الردهة رجال صغار البنية يرتدون ملابس مدنية ويرفعون بنادقهم عاليًا إلى الغرفة، واندلع إطلاق نار في كل مكان.

كان لازلو سزابو أول من مات.

15

حتى مع سدادات أذنيه البدائية صرخت أذنا كورت من ضغط الانفجار. دفع قدميه إلى قاع الخزان، وأطلق النار على السطح. لم تكن لديه فكرة عما ينتظره بالأعلى. وكالة الاستخبارات المركزية؟ هل عاد (لازلو) ليتفقده للمرة الأخيرة؟ في النهاية، لم يكن الأمر مهمًّا. كان بحاجة إلى الهواء.

دفع نفسه إلى أعلى، وعندما تخطى رأسه سِطح الماء، دفع الباب البلاستيكي ليفتحه. تحطم كلا المفصلين، وكسِر الحاجز الزجاجي. سحب نَفَسًا هائلًا من الهواء وتدافع إلى الجانبين، ليتدحرج من الحامل الخشبي إلى الأرض، محاطًا بموجة من الماء الدافئ.

وجد نفسه قبالة الجدار في الزاوية الخلفية للغرفة. دوى صوت إطلاق نار وصياح الرجال عن قرب في كل المكان، لكن كورت لم يرَ أحدًا حول حافة المنصة. جثا على ركبتيه وانحنى على الأرض، ثم انطلق نحو الردهة الخلفية، تضرب قدماه مشمع الأرضية من تحته. لم يُضِع وقتًا في النظر إلى الوراء.

أيًّا كان ما يحدث في هذه الغرفة، لم يكن لدى جينتري أي نية لخوضه دون سلاح ناري، ولم يكن يعرف هوية اللاعبين.

تناثر مقبض الباب المؤدي إلى الردهة بنيران مسدس رشاش على بعد خطوة من وجه جينتري. ركض نحوها مباشرة، عبر ضغط الذخيرة الأسرع من الصوت والشظايا المتطايرة، نزولًا إلى الردهة المظلمة وإلى الحمام حيث كان يحلق ذقنه قبل ذلك بساعة ونصف. اندفع بسرعة نحو حقيبته وألقاها على كتفه.

انطلق بسرعة إلى غرفة نوم صغيرة في نهاية القاعة، مرتديًا ملابسه الداخلية فقط وضمادة على فخذه. فوق السرير المزدوج المنخفض كانت توجد نافذة بها شبكة سلكية رفيعة. حطم الزجاج بطاولة ذات قوائم معدنية، ورفع المرتبة دافعًا إياها فوق حافة النافذة لتغطية أي شظايا متبقية، ثم زحف فوقها إلى فناء صغير. كان باب المبنى قد أُغلِق خلف لازلو، لذلك ركض كورت إلى أبعد زاوية في الفناء.

فوق نافذة في الطابق الأول استخدم قضبي الأمان الحديديين ليشق طريقه صعودًا إلى شرفة بالطابق الثاني، حيث حطم النافذة الزجاجية بعد أربع ركلات واهنة أو خمس من كعبه الأيسر.

استمر دوي الطلقات النارية تحته وخلفه. وحرص على تجنب الزجاج المكسور المتبقي في اللوح الزجاجي إذ يخطو عبر النافذة، لكن عندما صعد إلى الشقة، جرح كلتا قدميه وهو يطأ السجادة. صرخ من الألم، وسقط على ركبتيه، فجرحهما أيضًا.

مشى ببطء في غرفة النوم الصغيرة، وقف أخيرًا ليعرج نحو الحمام، وأخذ يفتش خزانة الأدوية.

بعد ثوانٍ جلس على كرسي الحمام وضمّد إصاباتِه الجديدة. كانت قدمه اليمنى بخير، وخزة صغيرة سكب عليها مُطَهّرًا ولفها بورق الحمام. لكن مشط قدمه اليسرى كان أسوأ حالًا؛ فكان به ثقب عميق نسبيًّا. غسله بسرعة وشد حوله منشفة يد لإيقاف النزيف. كان الجرح بحاجة إلى خياطة، لكن كورت علم أنه لن يحصل على هذا في أي وقت قريب.

على غرار قدميه، كانت ركبته اليسرى بخير، إلا أن إصابة الركبة اليمنى كانت بالغة. جفل بينما يسحب قطعة زجاج من جلده، علق نصل بائس بجسده في أثناء إزالته، فسالت دماؤه على الأرض.

«تبًّا!». تأوه وهو ينظف ويضمد جروحه قدر الإمكان، وبعد ثلاث دقائق، انتبه إلى أن إطلاق النار قد توقف في الفناء. سمع صفارات

الإنذار وصراخ طفل يبكي في الشقة المجاورة، أيقظته الحركة من غفوته.

في البدء ظن أن الشقة فارغة، وحين دخل غرفة المعيشة، كان لا يزال مرتديًا سرواله الداخلي الرطب، لكن بقدمين وركبتين مضمدتين. وجد سيدة مسنة تجلس بمفردها على الأريكة. نظرت إليه بعينين باسمتين وثابتتين وزرقاوين لا يملؤهما خوف. مد يده لتهدئتها، لكنه أنزلها ببطء.

قال: «لن أوذيكِ». لكنه لم يكن واثقًا ما إذا كانت تفهم. أشار بيده كأنه يشد بنطلونًا، فأشارت ببطء إلى غرفة في نهاية الردهة. هناك وجد ملابس رجالية. زوج ميت ربما؟ لا، ابن في عمل بعيد. وجد معاطف زرقاء وارتدى واحدًا، وأحذية ثقيلة ذوات طرف فولاذي. كانت كبيرة للغاية، لكنها ستناسبه مع زوجين من الجوارب البيضاء.

شكر جينتري السيدة بانحناءة وابتسامة، فبادلته إيماءة بطيئة. أخرج من حقيبته رزمة من اليورو ووضعها على المنضدة. قالت المرأة العجوز شيئًا لم يفهمه، انحنى مجددًا قبل أن يخرج من باب الردهة بالطابق الثاني.

خرج كورت جينتري في المطر المنهمر مصابًا، غير مسلح، ودون وسيلة النقل أو الوثائق التي قطع الطريق كاملًا إلى بودابست للحصول عليها. نظر في ساعته، كانت الخامسة بعد الظهر، ثماني ساعات ونصف الساعة منذ أن بدأ رحلته. والآن يشعر أنه أبعد مما كان عليه حين بدأ.

***

في مكتب مجموعة لوران في لندن، انتظر لويد وفيتزروي أخبار الإندونيسيين. جاءت الأنباء بعد الرابعة مساءً، لكن ليس من الفريق نفسه. رن هاتف السير دونالد.

كان جينتري.

ـ شلتنهام.

ـ هذا أنا.

كان على فيتزروي أن يستعيد هدوءه قبل التحدث، وأخيرًا قال: «الحمد لله! هل تخلصت من سزابو؟».

ـ نعم، منذ قليل.

ـ ماذا حدث؟

ـ لست واثقًا. يبدو أن فريقًا ميدانيًا من إدارة الأنشطة الخاصة قد ظهر، لا بد أن سزابو كان لديه بعض الأمن الشخصي، لقد تفجر الوضع.

تبادل لويد وفيتزروي التحديق.

ـ أوه.. حسنًا، مفهوم. كيف حالك؟

ـ على قيد الحياة.

ـ أين أنت الآن؟

ـ ما زلت في بودابست.

نظر كل من لويد وفيتزروي إلى الفني. انحنى رأسه فوق جهاز حاسوب، لكنه أومأ إلى أعلى وإلى أسفل، مؤكدًا مصداقية الهدف عبر تحديد البرج الخلوي الذي يستخدمه الهاتف.

سأل فيتزروي: «وماذا الآن؟». كان السؤال موجهًا إلى الأمريكي على يمينه بقدر ما كان موجهًا إلى الأمريكي على الطرف الآخر من الخط.

ـ أنا أتجه غربًا. كل شيء لا يزال على المسار الصحيح. هل لديك مزيد من المعلومات لي؟

ـ نعم. الرجال الذين قابلتهم هذا الصباح في براغ كانوا ألبانيين، مرتزقة بسطاء، استأجرتهم الاستخبارات النيجيرية.

ـ لقد تعاقدوا على الأرجح مع فريق جديد الآن. هل هناك أي فكرة عما ينتظرني؟

ـ يصعب القول يا بني. أنا أعمل على ذلك.
ـ ماذا تعرف عن هيكل قوة الأعداء الذين يحيطون بعائلتك؟
ـ أربعة أنواع أو خمسة من الشرطة السرية النيجيرية. ليسوا من مسلحي الدرجة الأولى بأي حال من الأحوال، لكنهم قطعًا يثيرون ذعر أسرتي.
ـ كلما اقتربت، سأحتاج إلى الموقع المحدد.
ـ نعم. ستكون هناك بحلول صباح الغد؟
ـ لا. عليَّ أن أتوقف أوَّلًا لإجراء أمر ما.
ـ آمل ألا يكون هناك منعطف خطير آخر.
ـ لا، هذا أمر سريع.
تردد فيتزروي ثم قال: «حسنًا. هل تحتاج مني إلى شيء آخر».
ـ أي شيء آخر؟ ماذا أعطيتني حتى الآن؟ انظر، أنت مديري، فلتُدر أي شيء. أحتاج إلى معرفة ما إذا كنت سأواجه المزيد من الحمقى فَي طريقي. أريد أن أعرف كيف اكتشف النيجيريون اسمي، وكيف عرفوا عنك. هناك شيء معقد للغاية هنا، وأحتاج إلى معرفة أكبر قدر ممكن منه قبل أن أصل إلى نورماندي.
ـ أتفهم. أنا أعمل على ذلك.
ـ هل كان لديك أي اتصال مع الخاطفين؟
ـ بشكل متقطع. يعتقدون أنني أفتش كل مكان بحثًا عنك. أنا أتصل بجميع من في شبكتي، فقط لتجميل الصورة كما تعلم.
ـ استمر في ذلك. سأبقى بعيدًا عن الشبكة. اتصل بي إذا علمت أي شيء.
وانقطع الخط.
في غضون دقيقتين حصل فيتزروي ولويد على شرح أوفى لما حدث. اتصل ريجيل، وتمكن الثلاثة من ربط بعض التفاصيل ببعض. قُضيَ على الإندونيسيين الستة بالكامل، كلهم موتى. كانت الاستخبارات المركزية قد أضرمت النيران في المبنى لتغطية آثارهم. ولم يعرف ما إذا

وقع ضحايا في صفوف الوكالة. مات سزابو، واستعان جينتري بحياة أخرى من حيواته التسع، لكنه فر طليقًا.

سأل ريجيل: «إذًا أين هو الآن؟».

ـ يتجه غربًا من بودابست.

ـ عبر قطار؟ سيارة؟ دراجة نارية؟.

ـ لا نعرف. اتصل بنا من هاتف محمول على الأغلب اختطفه من أحد المارة، وتركه بعد أن أغلق الخط مباشرة.

سأل كيرت ريجيل: «أي شيء آخر للإبلاغ عنه؟».صاح لويد في الهاتف غاضبًا: «أبلغني أنت يا ريجيل! ماذا حدث لفرقة الكوباسوس الإندونيسية؟ ظننتُ أنك قلت إن جينتري لن يقدر على مواجهتهم!».

أجاب ريجيل: «جينتري لم يقتلهم. القوات شبه العسكرية التابعة للاستخبارات المركزية هم من فعلوا ذلك. انظر يا لويد، كلنا نعلم أن الرجل الرمادي لديه قدرة على التحمل. كانت خطتي طوال الوقت هي أن يستطيع فريق أو فريقان إفساد توازنه، ودفعه إلى التفاعل بدلًا من أن يكون استباقيًا. بهذه الطريقة سيتعثر في الفريق التالي ويكون غير مستعد».

قال لويد: «لدينا عشر فرق أخرى تنتظره. أريده ميتًا قبل انقضاء الليل».

أجابه: «اتفقنا على شيء ما إذن».

أغلق ريجيل الخط.

حول لويد انتباهه إلى الإنجليزي. كان وجه الرجل الأكبر سنًا يتلوى ألمًا.

سأله: «ما الأمر؟».

كان ألم فيتزروي شديدًا.

ـ ماذا دهاك؟

ـ أعتقد أنه قال لي شيئًا. لم يكن يقصد إخباري، لكنني أدركت الأمر.

جلس لويد، واختفت مع حركته الثنيات القليلة في بدلته المخططة وسأله: «ماذا؟ ماذا أخبرك؟».

أجابه: «أنا أعرف إلى أين هو ذاهب».

اتسع وجه المحامي الأمريكي الشاب ببطء إلى ابتسامة.

وقال: «ممتاز!». ثم مد يده إلى هاتفه المحمول وأضاف: «أين؟».

ـ هناك مشكلة. هذا المكان الذي يذهب إليه، لم يعرف عنه سوى ثلاثة رجال فقط. أحد هؤلاء الرجال ميت، والآخر هو الرجل الرمادي، وأنا. سأخبرك أين، ولكن إذا لم تدمره مسابقة برنامجك الواقعي هذه هناك، فسيعلم أنني من أوقعت به. إن أخطأ فتيانك إصابته هذه المرة سينتهي الأمر.

ـ دعني أقلق بشأن ذلك. أخبرني إلى أين هو ذاهب.

ـ جراوبوندن.

ـ أين هذا بحق الجحيم؟

16

جلس سونج بارك كيم بلا حراك متأملًا في أثناء الطيران، لكن عينيه كانتا مفتوحتين، مستيقظتين ومنتبهتين عند الهبوط في مطار شارل ديجول. كان الراكب الوحيد في طائرة رجال الأعمال فالكون 50، استقرت يداه الصغيرتان الخشنتان على ركبتيه، واختبأت عيناه خلف النظارة الشمسية الأنيقة تناسب بذلته المخططة المفصَّلة بدقة بيئته تمامًا.

خُصصت المقصورة لسفر المسؤولين التنفيذيين، وبدا أنه مسؤول تنفيذي آسيوي شاب لكن ليس شديد الأهمية.

انزلقت الطائرة الفالكون على المدرج، ثم خرجت من الممر لتجاوز صفًّا طويلًا من الطائرات المتوقفة في هيئة واحدة. فتح باب لتبدو الطائرة كمستودع مفتوح، حيث تنتظر فيه سيارة ليموزين، لا تزال مبتلة من رذاذ الأمسية الغائمة، ويقف بجانبها سائق. وما إن توقفت الطائرة تمامًا وهدأ محركها، عاد مساعد الطيار إلى المقصورة ذات السبعة مقاعد حاملًا حقيبة رياضية من النايلون.

جلس أمام سونج بارك كيم، وأنزل الحقيبة على طاولة خشب الماهوجني بينهما. لم يقل كيم شيئًا.

قيل لي أن أعطيك هذا عند الهبوط، جرى التعامل مع الهجرة. لا مشكلات جمركية. هناك سيارة في انتظارك.

أومأ الرجل الكوري قصير الشعر بإيماءة مقتضبة على نحو فظ، تكاد تكون غير ملحوظة. قال مساعد الطيار: «استمتع بباريس يا سيدي». تراجع إلى قمرة القيادة، وأُغلِق الحاجز الصغير خلفه.

فتح سونج بارك الحقيبة، وسحب مسدسًا آليًا من طراز هيكلر وكوخ **(MP7A1)**. تجاهل الدبشك المثبت عليه منظار، وأمسك بالسلاح أمامه كأنه مسدس عادي، وهو ينظر من خلال وحدة الرؤية البسيطة. به خزينتان طويلتان ورفيعتان، كل واحدة مليئة بعشرين طلقة مجوفة من عيار **4.6x30** مم- خراطيش نقطية، رُبط بعضها بعض بحزام من النايلون.

أعاد السلاح إلى الحقيبة.

بعد ذلك أخرج هاتفًا محمولًا وسماعة أذن. وضع سماعة الأذن في مكانها على جانب رأسه وشغَّلها، وكذلك الهاتف الذي فتحه قبل وضعه في جيب معطفه. وفي الجيب الآخر وضع جهاز استقبال محمولًا لتحديد المواقع. بقي في الحقيبة المزيد من خزائن سلاح **(MP7)**، كاتم الصوت، وبعض الملابس في الحقيبة لم يمسسها أحد. وأخرج من الحقيبة سكينًا قابلًا للطي بمقبض أسود، ووضعه في جيبه.

بعد دقيقتين جلس في السيارة الليموزين. نظر السائق إلى الأمام مباشرة بينما يقول كيم: «وسط المدينة». تحركت الليموزين إلى الأمام نحو أبواب المستودع.

كان كيم كوريًّا جنوبيًّا قاتلًا يعمل في جهاز المخابرات الوطني. كان أفضل من لديهم. تولى خمس عمليات خطرة داخل كوريا الشمالية، معظمها دون دعم على الإطلاق، حوَّله هذا إلى أسطورة في وحدته، إلى جانب تنفيذ سبع عمليات أخرى في الصين تجاه منتهكي العقوبات الكورية الشمالية، واثنتين في روسيا ضد مسربي الأسرار النووية، وعدد قليل من الضربات ضد زملائه الكوريين الجنوبيين الذين يحتاجون إلى تعديلات دائمة في المواقف تجاه جيرانهم الشماليين العدوانيين.

كل هذا جعل سونج بارك كيم، ذا الاثنين والثلاثين عامًا، الخيار الواضح عندما طُلب من قادته تجهيز قاتل لاصطياد آخر في باريس مقابل مبلغ نقدي.

لم يصرح كيم بآرائه بشأن مهامه. إذ كان يعمل بمفرده، ولم يكن لديه من يصرح له. ولكن لو طلب رأيه، لقال إن هذه المهمة كانت مريبة حتى النخاع. عشرون مليون دولار لرأس الرجل الرمادي، وهو عميل سابق في وكالة الاستخبارات المركزية، وكما سمع من الإشاعات، لم يكن يستحق التخلي عنه كما فعل رؤساؤه.

عرضت شركة أوروبية العشرين مليون دولار. لم يشبه هذا العمليات القومية التي تولى أمرها كيم طوال حياته المهنية. ومع ذلك، كان كيم يعلم أنه أداة للسياسة الداخلية والخارجية لكوريا الجنوبية، لم يطلب أحد مشورته، وأولئك الذين تقرر تغليب حكمهم قرروا أن عليه أن يأتي هنا إلى باريس، ويستقر، وينتظر مكالمة تعطيه موقع الرجل الرمادي، ليفرغ الرصاص الساخن في ظهر ذلك الوغد البائس.

***

جراوبوندن هي مقاطعة في شرق سويسرا، تختبئ في مكان صغير بالقرب من الحدود الجنوبية الغربية للنمسا. تُعرف باسم مقاطعة المائة وخمسين واديًا، ويمتد أحد هذه الوديان من الشرق إلى الغرب في منطقة تسمى إنجادين السفلى.

هناك، تقع قرية جواردا الصغيرة فوق الحافة الحادة لتل شديد الانحدار أعلى الوادي، على بعد أميال فقط من الحدود النمساوية الإيطالية. لا يوجد سوى طريق واحد فقط ومتعرج يؤدي إلى القرية الصغيرة، ويربط المنازل نصف الخشبية بمحطة قطار غير ثابت التوقف ذات غرفة واحدة، وهي تستغرق أربعين دقيقة من المشي الشاق.

لا توجد في القرية سيارات تقريبًا، بل حقول يفوق عدد الحيوانات فيها عدد البشر المقيمين. تنتشر الطرق الضيقة المرصوفة بالحصى صعودًا بين المباني البيضاء، جنبًا إلى جنب مع أحواض المياه والحدائق المُسيَّجة. تنتهي المدينة فجأة، ويواصل التل انحداره

الشديد، وهو مرج يرتفع إلى غابة صنوبر كثيفة تفسح المجال أمام المنحدرات الصخرية التي تلوح في الأفق فوق المدينة، وتُشرف على قاع الوادي بالأسفل وكل من يمر أو يقترب.

يفهم القرويون اللغة الألمانية، ولكن فيما بينهم يتحدثون الرومانش، وهي لغة لا يكاد يتكلمها سوى واحد بالمائة من السبعة ملايين ونصف المليون سويسري، ولا يفهمها شخص آخر على وجه الأرض.

في الرابعة صباحًا، دارت بضع زوابع ثلجية حول الطريق الصغير من سفح الوادي إلى جواردا. يعرج على الطريق المتعرج شديد الانحدار رجل وحيد، يرتدي الجينز السميك، ومعطفًا ثقيلا، وقبعة قماشية سوداء، وقد علق حقيبة ظهر صغيرة على كتفيه.

قبل عشر ساعات، وبعد دقائق من التحدث مع دون فيتزروي من هاتف خلوي وردي كان قد اختطفه من الحقيبة المفتوحة لطالبة جامعية ثملة للغاية، تترنح بمفردها على الرصيف. وجد جينتري متجرًا للملابس في الهواء الطلق في بودابست، واشترى خزانة ملابس كاملة، جديدة تمامًا، بداية من حذاء جلدي وحتى الجزء العلوي من قبعته السوداء القماشية.

في غضون ساعة من مغادرته مبنى سزابو، استقل حافلة في محطة نيبليجت متجهًا إلى بلدة هيجشالوم عند الحدود المجرية.

نزل من الحافلة على بعد نصف ميل من الحدود، وسار شمالًا خارج القرية إلى أحد حقل، ثم استدار يسارًا. لم تكن الليلة مقمرة، كان لديه مصباح يدوي ميداني في حقيبته، لكنه لم يستخدمه. بدلًا من ذلك، مشى متعثرًا إلى الغرب، وسار مسافة ميل واحد على قدميه المصابتين، وشعر بالوخز والدم الدافئ في جواربه وبين أصابع قدميه الباردة.

أخيرًا، قبل الساعة الثامنة مساءً بقليل، عبر حقلًا مليئًا بطواحين الهواء الحديثة، ووجد نفسه في بلدة نيكلسدورف النمساوية الواقعة على الحدود.

لقد وصل إلى الاتحاد الأوروبي. كانت مسافة ميل آخر ـ ظل يعرج بجرح من طلق ناري في الفخذ والقدمين، وركبتين مصابتين ـ قبل أن يجد الطريق. مشى غربًا رافعًا إبهامه لبضع دقائق. أوقف سائق شاحنة، لكنه كان متجهًا إلى الشمال ولم يستطع مساعدته. سائق ثان ثم ثالث كانا يسيران في الاتجاه المقابل.

في التاسعة والربع، أقلّه رجل أعمال سويسري متجه إلى زيورخ. أخبره كورت أن اسمه جيم. أراد رجل الأعمال أن يمرّن إنجليزيته، فامتثل له كورت، تحدثا عن حياتهما وعائلتيهما في الرحلة عبر النمسا. اختلق كورت قصته بالكامل، لكنه كان محترفًا. ابتدع له حكاية عن طلاق مرهق في فيرجينيا، والرغبة الدائمة في زيارة أوروبا، وسطو كلفه ممتلكاته في بودابست، وحظه الطيب بأنه لم يفقد محفظته وأمواله وجواز سفره، وصديق في شرق سويسرا يمكنه مساعدته حتى يدبر السفر عائدًا إلى الوطن في الأسبوع التالي.

راحا يتحدثان في أثناء رحلتهما بالسيارة طوال الليل، أبقى كورت جزءًا من تركيزه على المرآة الجانبية ليتيقن من أن أحدًا لا يتبعه، حريصًا ألا يلاحظه السائق. وفي خضم قصص الهراء عن الأماكن التي لم يزرها من قبل والأشخاص الذين ابتكرهم من نسج الخيال، لم ينسَ مهمته الحالية، وحاول أن يركز في أحداث الثلاثين ساعة القادمة.

كانت ليلة الجمعة، حركة المرور على الطريق السريع (**A1**) مزدحمة، لكن سيارة أودي التي يقودها رجل الأعمال كانت انسيابية وسريعة. لقد تجنبا شمال سالزبورج، ثم عرض كورت عليه القيادة، فحصل رجل الأعمال السويسري على ساعتين من النوم.

انعطفت الأودي إلى شارع إنجادينير وعبرت الحدود الشمالية الشرقية لسويسرا في الساعة الثالثة صباحًا. لم تكن هناك رقابة جمركية على الحدود السويسرية، على الرغم من أن سويسرا لم تكن رسميًّا عضوًا

في الاتحاد الأوروبي. توقف السائق السويسري في استراحة مبيت، وأصر على أن يجرب جيم البيرة السويسرية، وأن يعبر عن رأيه بصدق.

فعل كورت هذا، وأثنى على الشكل واللون والملمس، محتفيًا ببعض السمات الأخرى التي سمعها عن المشروبات الألمانية ذات مرة في بيرجارتن في ميونيخ. وفتن هذا رجل الأعمال بأن يأخذ جيم مباشرة إلى وجهته بدلًا من إنزاله ما إن يفترق طريقاهما.

سلكا طريق 180 جنوبًا ثم 27 غربًا عبر الوادي، إلا أن مصابيح السيارة الأمامية لم تكشف لهما شيئًا في الليل الملبد بالغيوم. أخيرًا في برج لافين، اختار جينتري منزلًا نصف خشبي قبالة الطريق الرئيس، وادعى أنه وجهته.

في الواقع كانت مغادرة السيارة الأودي الدافئة تعني أن كورت أمامه مسافة ميلين من المشي في الثلج، لكنه قرر ألا يعاقَب هذا الرفيق اللطيف على عمله الصالح بأن يقحمه في أي مشكلة قد تنتظره عند بلوغه وجهته النهائية.

قال له: «شكرًا على التوصيل. إلى اللقاء[1]».

نزل كورت من السيارة وصافح الرجل عبر النافذة. وقف في الطريق ملوحًا ومتمنيًا له ليلة سعيدة.

وبينما تختفي المصابيح الخلفية للسيارة الأودي عند زاوية الطريق. استدار الرجل الرمادي في الاتجاه المعاكس وبدأ يمشي غربًا فوق الثلوج الخفيفة.

تعمد أن يحثَّ خطاه بالرغم من إرهاقه الشديد. دفعه الأدرينالين والانضباط إلى الأمام دون توقف على مدار العشرين ساعة الماضية، وكل ما تبقى هو الانضباط. كان بحاجة إلى الراحة، وأملَ في أن ينال بضع ساعات منها على الطريق المنحدر في جواردا.

---

(1) بالألمانية في الأصل.

بحلول الساعة الرابعة وعشر دقائق، زاد تساقط الثلوج. كان كورت الآن في القرية أعلى التل، لكنه لم يرَ أي إنسان، في حين انبعثت إضاءة خافتة من الفندق الصغير، وأطفأ القرويون أنوار منازلهم، ونام الرعاة والحدادون وأصحاب الفنادق والمتقاعدون لبضع ساعات أخرى.

واصل مسيرته صعودًا إلى القرية. اجتاز أحواض المياه الحجرية القديمة لقطعان الأغنام، التي مرت عبر شوارع القرية المخصصة للمشاة فقط، مرورًا بالحقول المسيجة بأسوار منخفضة أمام المنازل الصغيرة. حتى قطع الطريق إلى الطرف الآخر من المدينة، وتسلق التل شديد الانحدار عبر طريق ترابي. تراكمت ثلوج المساء مبكرًا، وغطت سفح التل تقريبًا، على الرغم من أنه حتى في الليل غير المقمر، كان بإمكان جينتري رؤية بقع من الظلام، بقع عارية بارزة لم يغطِها ضوء القمر.

بعد التسلق عبر المروج البيضاء لمسافة ثلاثمائة ياردة أعلى جواردا، نقر جينتري على كشاف الإضاءة التكتيكي الصغير.

امتدت خلفه المراعي الشاسعة، لكنه دخل إلى غابة صنوبر، وبالرغم من الأشجار والليل الدامس، أخفت دوامات الثلج معالم الطريق أمامه، لكن ساعده ضوء الكشّاف. جاهد في السير إلى الأمام مائة ياردة أخرى حتى عثر على وجهته في الغابة، كوخ صغير.

وقف على بعد ثلاثين ياردة من الطريق الذي استمر ارتقاؤه عبر المنازل المهجورة. لم يكن هناك سبب لمرور أي شخص آخر، وإذا فعل أحد، فلا يوجد ما يدعو لأن ينظر إلى يمينه عبر الغابة ليلاحظ هذا البناء البسيط.

ثمة قفل ضخم صدئ معلق على الباب الأمامي، وقد أغلِقت من الداخل النوافذ الثلاث حول الكوخ المكون من غرفة واحدة، ونمت شجيرات الصنوبر المحيطة بلا تشذيب حتى حواف المبنى تقريبًا.

سار جينتري عبر الأشجار وطاف حول المبنى بضوء كشافه. في الجزء الخلفي من الكوخ كان هناك مخزن أدوات أُحكِم إغلاقه كذلك. فحصه ووجده آمنًا. وواصل السير حول المبني، فحص الجدران والشرائح الخشبية على السطح، وأخيرًا الباب الأمامي. خلع قفازاته، وأدار أصابعه ببطء حول حافات الباب، وفي الزاوية اليمنى العليا عثر على ما يبحث عنه، عود أسنان خشبي مغروس في الإطار. في حال ما إذا فُتح هذا الباب، يسقط هذا المُنبّه على الأرض ليُعلِم الرجل الرمادي بأن كوخه مُعرّض للخطر من بعض الزوار.

أدار كورت ظهره إلى الباب الأمامي بعدما أمَّن المكان، وسار ثلاثين خطوة نحو أشجار الصنوبر، دافعًا الأغصان المدببة. بعد ثلاثين خطوة، تحرك خمس ياردات إلى يمينه، وجثا على ركبتيه.

كان المفتاح مدفونًا في علبة قهوة معدنية، على بعد ست بوصات أو نحو ذلك، تحت نشارة الصنوبر والأوساخ المجمدة. حفرها بحجر مسطح. وبعد أن حصل على المفتاح عاد إلى الكوخ وفتح القفل.

كان الهواء بالداخل جافًا وعفنًا وباردًا تمامًا كما هو الحال خارج الباب. يوجد فرن فحم بارتفاع الركبة في الزاوية، لكن جينتري تجاهله، وأشعل مصباحًا على طاولة صغيرة في وسط الغرفة، وكان توهجه الخافت هو أقصى دفء يمكن الحصول عليه.

ثمة رفٌّ معلق على الحائط به أغلفة المؤونة العسكرية والوجبات الجاهزة للأكل. مزق الأمريكي البالغ من العمر ستة وثلاثين عامًا أول وجبة يحصل عليها بعد خروجه من المرحاض الكيميائي. التهم البسكويت والمكسرات بنهم وهو يجلس وحيدًا إلى الطاولة الصغيرة.

أنهى وجبته في تسعين ثانية. بعد ذلك، نهض ليدفع فرن الفحم الصغير بعيدًا عن الزاوية، ورفع الألواح الأرضية المخلوعة تحته.

وضع كشاف الإضاءة العسكري في فمه، ونزل على سلم خشبي، كُشف بعد إزالة ألواح الأرضية، إلى قبو محاط بجدران ترابية بارتفاع

ست أقدام وعرض عشر أقدام. عندما التفت بعيدًا عن السلم، واجه ثلاثة أكوام من الحقائب السوداء بارتفاع الصدر، كل واحدة بحجم صندوق أدوات ضخم. شغل هذا ما يقرب من نصف الغرفة في القبو تحت الأرض، وملأت طاولة عمل معدنية المساحة على يمينه.

كان الصعود والنزول على السلم الضيق صعبًا إذ يحاول التحرك بما يسمح له أن يتحكم في الحقائب. رفع كورت أول حقيبة في المجموعة الأولى، وألقاها على المنضدة بقوة، وفتح المزلاج.

في وقت مبكر من صباح ذلك اليوم، عندما أخبر كورت فيتزروي أنه سينقذ عائلته، قرر على الفور الذهاب إلى جواردا في سويسرا، إلى مخبأ أسلحته الضخم المختبئ في الغابة. كان لديه ستة مخابئ أخرى في جميع أنحاء القارة، لكن لا شيء يضاهي مخبأه في جواردا.

كان مخبأ جواردا هي الوريد الرئيس والمعدن النفيس.

احتوت الحقيبة الأولى على مسدس رشاش سويسري أسود من طراز بروجر وتوميت MP9. أخرجه من مرقده الإسفنجي، وركّب خزينة محشوة في المتعدد بسرعة، ووضع القاذفة في كعبه، ورفعه فوق رأسه دافعًا به خارج الباب السري إلى الأرض فوقه.

احتوت حقيبة أخرى على ذخائر إضافية، وهي عبارة عن منصة من النايلون والقماش مليئة بخزائن محشوة بالسلاح الذي من شأنه أن يُربط بين فخذه وحزام أدواته. ألقى هذا عبر الفتحة الموجودة فوقه أيضًا.

في الدقائق الخمس التالية، نظر كورت في حقيبة تلو الأخرى. ودس جميع أنواع الأسلحة الصغيرة والمتفجرات داخل حقيبة قماشية. ووضع سترة سوداء ضد الرصاص في حقيبة صغيرة، وقناعًا ونظارة باليستية، وماسحًا ضوئيًّا صغيرًا للمراقبة يسمح له بالتقاط اتصال قصير المدى، وزوجًا من المناظير.

أخيرًا، قبل الساعة الخامسة صباحًا بقليل، قفز جينتري من الطابق السفلي، دافعًا الحقيبتين إلى الخارج أمامه. وترك مدخل مخبأ الطابق السفلي مفتوحًا.

شرب من زجاجة ماء نصف مجمدة، وابتلع اثنين من مسكنات الألم الخفيفة لتخفيف ألم فخذه، واستخدم المرحاض الكيميائي للمرة الثانية، ثم أخذ حقيبة النوم من الرف، وبسطها على الأرض. فتح قُفل الباب الأمامي، وتفقد الوسائل الدفاعية في الكوخ قليلًا، ثم دخل فراشه. ضبط منبه ساعته على السابعة والنصف. يجب أن تكفيه ساعتان من النوم ليقضي يومًا طويلًا آخر.

انطلقوا في إثره بعد الخامسة بقليل. انزلقت الشاحنة الصغيرة حتى توقفت عند سفح التل. بالنسبة للركاب، بدا الأمر كما لو أن السائق خرج عن السيطرة في الشوارع الملساء تقريبًا طوال ساعتين ونصف الساعة بالسيارة من زيورخ.

افتقار السائق إلى المهارة في مثل هذه الظروف أمر مفهوم. هناك جليد أسود على الطريق، وانعدمت الرؤية في بعض الأحيان. بالإضافة إلى أن هؤلاء الشرق ـ أوسطيين أُمِروا أن يصلوا إلى وجهتهم المحددة على (نظام تحديد الموقع العالمي) بأسرع ما يمكن، وكان الفني يتصل بهم عبر هاتف الأقمار الصناعية كل عشر دقائق للحصول على تحديث.

كان خمسة منهم ضباط أمن ليبيين، انشقوا عن جهاز أمن الجماهيرية، وطاقم رماة من أفضل رجال القذافي. جميعهم من فرق كوماندوز الجيش السابق، كل منهم يعرف مسدسه الرشاش من طراز سكوربيون Vz 61 كصديق موثوق به.

بلغ قائدهم من العمر واحدًا وأربعين عامًا، وجهه صارم وملتح، يرتدي ملابس سفاري مدنية مثل باقي أعضاء فريقه. جلس بجوار

السائق، وراح يوجه أوامر وتحذيرات بلا رحمة لفرد الكوماندوز الذي تولى القيادة. على الرغم من أن الكل يعرف أن السائق كان أكثر اعتيادًا على التعامل مع الكثبان الصحراوية في سيارة جيب مدرعة أكثر من اعتياده على الجبال الجليدية في شاحنة صغيرة.

ومع ذلك، وصلوا إلى جواردا في الوقت المناسب، وأوقفوا شاحنتهم في الساحة بجانب محطة القطار أسفل الوادي. رفع السائق غطاء المحرك، وأزال بسرعة عمود ناقل الحركة الموزع، وألقاه في حقيبته الرياضية، ما يجعل السيارة عديمة الفائدة ريثما يعود. بعد ذلك عثروا على الطريق الصغير إلى أعلى التل، وانتشروا فيه على أوسع نطاق ممكن، وهم يصعدون سيرًا على أقدامهم.

حمل كل رجل مسدسًا صغيرًا في حقيبة رياضية، وطووا كعوبها، ومسدسًا احتياطيًّا في جراب الكتف. وكذلك قنابل يدوية وعبوات اختراق. ارتدى جميعهم قبعات قماشية وسراويل قطنية ثقيلة، ونفس السترات السوداء عليها علامة تجارية باهظة الثمن اعتاد عليها الرياضيون المحترفون.

وكان في حقائبهم الرياضية أيضًا نظارات للرؤية الليلية لم تُستخدم حتى الآن.

تسلق الليبيون الخمسة الطريق المنحدر والمتعرج المؤدي إلى القرية في الظلام. تحركوا بسرعة وكفاءة. سيعرف أي عابر سبيل، من تجانسهم وتعبيرات وجوههم الجادة التي تتماوج صعودًا وهبوطا في بخار زفيرهم، أنهم أشرار. لكن لا يمشي أي من السكان المحليين على طريق التلال في الساعة الخامسة والنصف صباحًا في عاصفة ثلجية؛ لذا وصل الليبيون دون أن يكشفهم أحد في شوارع القرية السويسرية الصغيرة المرصوفة بالحصى.

لكل عميل راديو صغير محمول باليد متصل بحزامه وبسماعة أذن. تفرقوا بأمر واحد من قائدهم في الطرف الغربي من جواردا، وساروا فرادى إلى الشرق، كل واحد عبر ممر صغير مختلف.

يضمن هذا التكتيك ألا يرى أي شخص ينظر من نافذته إلا رجلًا واحدًا. إذا أُطلِق جرس الإنذار وبدأ القرويون يتحدثون عن الغرباء، فقد يحسب جميعهم أنهم رأوا نفس الشخص.

في الطرف البعيد من المدينة، أعادت فرقة القتل تشكيل صفوفها، كخلايا بيولوجية تلتحم تحت عدسة المجهر. نظر القائد إلى جهاز (الجي بي إس) الخاص به، واستدار يسارًا في طريق غير ممهد، يمتد من الحافة التي تقع عليها القرية الصغيرة، حتى أعلى التلال، وفي الغابة التي لا يمكن رؤيتها من مسافة بعيدة إلا بعد ارتدائهم أجهزة المراقبة الليلية الخاصة بهم.

زود القائد الفريق بإحداثيات من (الجي بي إس).

«أربعمائة متر».

تكوّم الثلج على نحو أكبر. وتحولت أشرطة الثلج الدوامة إلى صفائح سميكة من اللون الأبيض المتساقط. رأى الليبيون الثلج من قبل، في أثناء تدريبهم في لبنان أو في مهمات أخرى في أوروبا، لكن لم تكن أجسادهم معتادة على هذا البرد.

قبل ثمانٍ وأربعين ساعة، كان فريق العملاء هذا تحديدًا يجلس في شقة في طَرابلس، ليتواصل مع فرقة مراقبة إلكترونية، لتتبع مصدر البث الإذاعي المنبعث من المدينة، الذي أدلى بتعليقات تنتقد العقيد القذافي.

كانت درجة الحرارة في تلك الغرفة الضيقة تقارب المائة، لذلك صدم برد الوادي السويسري الشرقي وظائف أجسادهم حقًا.

كادوا يمرون بالكوخ دون ملاحظته. وحدها إحداثيات (الجي بي إس) التي وفرها لهم الفني هي ما اختصرت عليهم ساعات من التجول

في الغابة. والآن أخرجوا مسدساتهم الرشاشة من حقائبهم الرياضية وعلقوها على ظهورهم، وبسطوا كعوبها المطوية. رُفعت إلى وضع الاستعداد المنخفض، وضُغطت الكعوب على الأكتاف، بينما كانت الرؤية عبر نظارات الرؤية اللَيلية أقل من وضح النهار قليلًا.

اتخذ كل رجل موضعًا ثابتًا حول الكوخ، وأبلغوا عن مواقعهم الواحد تلو الآخر.

كان القائد أولًا.

ـ واحد في الموقع، عشرة أمتار من الباب الأمامي. دون حركة. النوافذ مغلقة.

ـ اثنان مع واحد.

ـ ثلاثة على الجانب الغربي. نافذة واحدة. مغلقة.

ـ أربعة في الجانب الشرقي. نافذة واحدة. مغلقة.

ـ خمسة في الخلف. لا توجد نوافذ، ولكن يوجد مخزن معدات بجانب المبنى الرئيس. قفل آمن من الخارج. لا شيء آخر هنا.

قال القائد: «خمسة، ابقَ في الخلف. ابحث عن الغطاء وكن جاهزًا.. ثلاثة وأربعة، تعاليا إلى الأمام. سندخل فريقًا واحدًا».

أجابوا: «عُلِم».

***

ينام جينتري بلا أحلام في حقيبة نومه، بجوار الفتحة تحت ألواح الأرضية المؤدية إلى الطابق السفلي الترابي. خففت المسكنات من آلام فخذه، ومنحته الراحة اللازمة للاسترخاء. فكان نومه عميقًا ومريحًا.

لكن موجزًا.

***

أخرج القائد قنبلة يدوية من حزامه. سحب الدبوس وتحرك ببطء إلى الباب الأمامي ويده على رافعة الأمان. في المقدمة يجهّز رقم اثنين

عبوة ناسفة عندما لاحظ أن الباب لم يكن مغلقًا تمامًا. التفت إلى زعيمه وأشار إلى شرخ في الباب.

أومأ القائد برأسه واستدار نحو الرجلين الواقفين وراءه وهمس: «إنه مفتوح. استعد».

دفع رقم اثنين الباب بسرعة، وجثا على ركبتيه حتى تُصوِّب الأسلحة الأخرى على أي هدف بالداخل. كان مظلمًا تمامًا في البداية، حتى معدات الرؤية الليلية عجزت عن كشف ملامح المكان بالداخل.

ألقى رقم واحد القنبلة في الغرفة. أسرع رقم اثنين وثلاثة وأربعة إلى أطراف الكوخ لتجنب الانفجار. تركت القنبلة يد القائد واختفت في الظلام، لكن دوى ارتطام القذيفة بسطح صلب قبل الأوان. وبينما يحاول القائد الابتعاد عن الباب، ظهرت القنبلة مرة أخرى في نظارات الرؤية الليلية الخاصة به، وارتدت من الكوخ لتسقط في الثلج أمام الباب.

لحسن حظ الليبيين، رأى الأربعة القنبلة اليدوية في الوقت المناسب، فحاولوا البحث عن غطاء، إما على الأرض الثلجية أو حول أركان الكوخ. غبّش الانفجار نظارات الرجال الثلاثة الذين نظروا باتجاه تصويب السلاح، وأصيب الرابع في مرفقه لتسقطه شظية صغيرة.

تمالك القائد نفسه بسرعة، ونزع نظارته التي لا فائدة منها الآن، وعاد إلى حافة الباب، ودخل يطلق النار في الظلام. تبعه رقم اثنين وثلاثة، ولكن في غضون ثانيتين، حث صراخ القائد الآخرين على التوقف في أماكنهم فجأة.

إنه فخ!

17

قبل لحظات من سقوط جينتري على حقيبة نومه مرهقًا طوال الليل، حرك الجدار الشبكي الصدئ الكبير نحو قدمين داخل الباب الأمامي. بلغ ارتفاع هذه الأداة الغريبة سبع أقدام، وتزن أكثر من مائتي رطل، وتنزلق بطول ثلاث أقدام على الأرضية. على طرفي السياج كانت هناك مفصلات ذات أقفال على جانبي الباب. أدى هذا إلى إنشاء حاجز قادر على إبطاء فريق الاختراق بفاعلية، والتضييق عليه في أخطر مرحلة من أي اختراق، وهي مرحلة الدخول.

كان الفخ هنا عندما ورث كورت هذا المخبأ المؤقت، لكنه لم يعتبره ذا أهمية كبيرة، إذ كان من السهل تدميره بالمتفجرات، أو ضربه بالمدقِ، أو حتى ببضع ركلات قوية من كعب الحذاء. ولكنه هب مستيقظًا من نومه بعد انفجار القنبلة اليدوية عند الباب الأمامي، وعرف على الفور أن الحاجز القديم الصدئ قد أنقذه بينما هو يغط في نوم عميق.

انتفض وركل حقيبتي العتاد عبر الحفرة إلى الطابق السفلي الصغير. أمسك بالمسدس الرشاش، وأطلق خزينة كاملة على الباب الأمامي بيدٍ واحدة قبل أن ينزلق إلى الحفرة. وفور وصوله القبو الذي يبلغ عمقه ست أقدام، رفع ذراعه إلى أعلى وسحب غطاء لوح الأرضية ليغلقه على نفسه.

***

في الجانب الأيسر من مدخل الكوخ جثا رقم ثلاثة فوق الثلج الملطخ بالدماء. أصابته شظية القنبلة مباشرة في مرفقه واخترقت لحمه وعظامه. لكنه كان جنديًا منضبطًا فلم يشتكِ كثيرًا، وسرعان ما اعترف

حفنة من الثلج ووضعها على جرحه، ولم يتأثر إلا بصدمة من البرد على الجلد، لأنه لم يستطع الشعور بالألم الذي عِلِم أنه وشيك.

تجاهل رقم واحد رجله المصابة عندما أمر رقم اثنين بإطلاق فتيل كل مخزونه من قنابل الاختراق وإلقائها في المدخل. بعد بضع ثوانٍ، ألقيت كتلة بحجم علبة مناديل من مادة السيمتكس المتفجرة علىً طرف سياج الفخ المعدني.

استدار الليبيون الثلاثة الذين لم يصابوا بأذى في مدخل الكوخ للركض، وأمسك كل من رقم اثنين وأربعة برقم ثلاثة من ذراعه ورفعاه عن الأرض، بينما كانوا يندفعون بحثًا عن ملجأ.

كانت الغابة السوداء هادئة لبضع ثوانٍ، ولم يكن هناك صوت إلا هسهسة رقاقات الثلج اللطيفة إذ تضربُ أوراق أشجار الصنوبر التي سقطت أرضًا. ولهاث فرقة القتل من طرابلس التي حوصرت خلف شجرة بلوط على الأرض.

تبدل الليل الأسود وهدوؤه بوميض أبيض وانفجار صم الآذان، حتى بدا صوت انفجار القنبلة اليدوية السابقة أشبه بصوت فرقعة سدادة الشمبانيا. وانفجر المدخل المؤدي إلى الكوخ، من الأرضية السفلية إلى ألواح السقف في الأعلى لتتحول إلى شظايا، وانفجرت أشجار الصنوبر والأخشاب اللينة، لتطير إلى الأمام، وتسقط على بعد مائة قدم من المبنى.

طفت قطع من الحطام المحترق مع تساقط الثلوج على أشجار الصنوبر، بينما يخترق رقم واحد واثنين وأربعة الكوخ المحطم. أطلق كل رجل دفعة أو اثنتين من الرصاص عندما دخلوا شق الجدار الأمامي. اتجه رقم واحد إلى اليمين، ورقم اثنين إلى اليسار، وانتقل رقم أربعة مباشرة عبر المبنى الصغير. استعانوا بضوء القماش المحترق والورق لتأمين موطئ أقدامهم فوق السياج المعدني المحطم، وخزانة كتب

وطاولة مهشمة، والعديد من الصناديق وأواني الطهي، وعدد ضخم من الأشياء التي لا يمكن التعرف إليها.

ما إن تيقن الثلاثة من عدم وجود أي شخص على قيد الحياة في الغرفة الرئيسة أو في الحمام الصغير، بدؤوا يركلون الحطام على الأرض، بحثًا عن الجثة المحترقة والممزقة التي حتمًا ترقد بين الأنقاض. سجَّل رقم خمسة الوصول للتحقق من أن كل شيء كان هادئًا في الجزء الخلفي من الكوخ، حيث بدأ الليبيون الثلاثة يشعرون بالقلق بالداخل. كان كوخًا صغيرًا، استغرق الأمر أقل من عشر ثوانٍ للتحقق من عدم وجود جثة بالرغم من قوة الحرائق.

نظر رقم واحد إلى السقف. في ثانية قرر أنه لا يوجد دور علوي ولا علية. نظر إلى قدميه ببطء. وقال: «ثمة باب سحري هنا. ابحث عنه».

عثر عليه رقم اثنين، بجوار الفرن المقلوب، بعد أن ركل بعض قوالب الفحم. أخذت النيران تخمد؛ لذا أشعل أحدهم مصباحًا كهربائيًّا سقط من أحد الأرفف لكن نجا بأعجوبة من الانفجار. وضعه على الأرض بجانب الباب المسحور.

وقال: «احذر. قد يحضر لنا مفاجأة. ما لم يكن هناك نفق عبر هذا الجبل، فهو محاصر».

أومأ رقم اثنين وأربعة، ازدادوا ثقة بعدما عرفوا أن الرجل الرمادي يختبئ مثل الفئران تحتهم. وقف رقم خمسة خلف خشب صنوبر سميك في الجزء الخلفي من المبنى. أمامه بنحو عشرين قدمًا مخزن الأدوات المغلق على ارتفاعٍ خمس أقدام بجانب الكوخ، لكن من الواضح أنه منفصل عنه. أكد الوصول مع الرجال بالداخل. كانوا على وشك رفع الباب المسحور بعمود معدني طويل، حتى يلقوا القنابل اليدوية، ويتبعوها بنيران البنادق، وأخيرًا يتسلقوا لقطع رأس هدفهم.

لم يلحق رقم خمسة بكل هذه الإثارة. سبَّ الثلج الذي حاوطه بصوتٍ عالٍ، بينما يمسك الرشاش على مستوى منخفض. فجأة سمع

صوت محرك ينبض بالحياة داخل الكوخ. لا ليس داخله، بل في مخزن المعدات. ما إن تحركت عيناه نحو أبواب مخزن الأدوات انطلق صوت عالٍ عبر الغابة، وانفجر القفل وفُتِحت الأبواب على مصاريعِها. كان رقْمٌ خمسة قد بدأ للتو برفع مسدسه الرشاش إلى عينه عندما صرخ ضجيج المحرك، وانطلق هيكل ضخم في الهواء من التجاويف المظلمة للمخزن الصغير.

لم يرَ الجندي الليبي الشاب عربة ثلجية من قبل. استقرت العربة على الأرض كالرصاصة، على بعد بضع أقدام أمامه، فقفز جانبًا، وسقط على الثلج ليرتطم ظهره بقوة ويرقد بجوار جذع شجرة. نظر إلى الأعلى في الوقت المناسب ليرى هيئة لبشري على ظهر العربة، يميل إلى الأمام بقناع على وجهه وحقيبة كبيرة على ظهره. كانت الصورة في نظارة الرؤية الليلية الخاصة به ضبابية، واختفى التشويش في ثانية واحدة.

صارع الليبي للإمساك برشاشه، لكنه فقده بين أوراق الصنوبر المتساقطة والثلج المتراكم. في الوقت الذي أمسك فيه سلاحه وصوبه إلى وجهه، اختفى ظل العربة الأسود على ارتفاع طفيف، ليمزق الثلج والشجيرات والشتلات الصغيرة ويقذف كل شيء في طريقه على يسار زلاجاته ويمينها.

سُمع الصياح من خلال سماعة الأذن: «خمسة! أجب!»ـ إنه هنا! لقد عاد إلى هنا! إنه يتجه إلي أعلى الجبل!ـ أطلق النار عليه!بدأ رقم خمسة يركض فوق التل قائلًا: «تعالوا لمساعدتي! إنه على دراجة نارية بزلاجات!».

***

اكتشف الرجل الرمادي أن عليه أن يدير عربة الثلج ويعود إلى الأسفل بعيدًا عن فرقة القتل. انتهت الغابة فجأة عند جدار صخري ضخم على قمة التل. ربما يمكنه أن يجد مكانًا للاختباء في الغابة لبعض الوقت،

لكنه يعلم أن كل سكان جواردا استيقظوا واتصلوا بالشرطة المحلية المتمركزة على بعد بضعة كيلومترات في خور[1].

سيستغرق الأمر منهم بعض الوقت للوصول إلى هناك، والكثير من الوقت للحصول على قوة حقيقية بطول الطريق من دافوس، لكن كورت لم يكن ينوي الانتظار لدقائق، فضلًا عن ساعات.

صرخ في الهواء المتجمد: «هراء!». لقد خلّف وراءه بالفعل حقيبتي عتاد. لم يتمكن من نقلهما من الطابق السفلي ذي الجدران الترابية عبر النفق المائل إلى أعلى من عمق ثلاث أقدام إلى مخزن الأدوات حيث احتفظ بعربة الثلج. لقد أخذ بندقية قصيرة من عيار 12 من المخزن لتفجير القفل من الداخل، والآن يستقر السلاح القوي أمامه على مقود عربة الثلج.

كان غاضبًا أيضًا لأنه يعلم أن شخصًا واحدًا فقط يعرف بوجود هذا المخبأ. دونالد فيتزروي الأحمق. عرض السير دون على كورت موقع المخبأ الثابت بعد وقت قصير من انضمام الرجل الرمادي إلى مجموعته. اعترف المدير الإنجليزي الموقر في ذلك الوقت أن هذا المخزن أصبح متاحًا لأن صاحبه الذي بناه واستخدمه كوخًا للاختباء لم يعد بحاجة إليه، إذ عُثر عليه مذبوحًا في قبر غير عميق خارج فلاديفوستوك.

لم يكن جينتري قلقًا بشأن الفأل السيئ، وقد قبل المخبأ هديةً من فيتزروي. أحب موقعه المركزي، وعزلة القرية والوادي، وحقيقة أن أي عربة تقترب منه سيسمعها على بعد ياردات، أو أميال إن كانت قوة مدعمة.

كان مخبأً جيدًا، وأيقن جينتري أنه سيظل كذلك لو لم يفصح دون فيتزروي عن موقعه لمن يسعون إلى قتله.

---

(1) مدينة في سويسرا.

بعد أربعين ثانية من صعوده الجبل بعيدًا عن القتلة اختفت الثلوج أمام عربة الثلج. دار جينتري بقوة لتجنب جدار الجرانيت الذي يبلغ ارتفاعه عشر أقدام، الذي يمتد يمينًا ويسارًا. استخدم قدميه ودواسة الوقود لتحويل اتجاه العربة إلى الخلف، مواجهًا الغابة والكوخ بالأسفل ثم القرية التي خلفها. حينئذٍ تحصن كورت بحافة تلّ. لم يرَ المسلحين بالبنادق والقنابل، ولم يتمكنوا هم من رؤيته. لكنهم بالتأكيد يشقون طريقهم في هذه اللحظة فوق الطريق الجليدي غير الممهد.

لم تكن لديه أي فكرة ما إذا كان هناك رجلان أم خمسة أم خمسة عشر أم خمسون. لقد ألقى نظرة خاطفة فقط على واحد منهم في الجزء الخلفي من الكوخ، لكي يعرف ما إذا كان سيصادف مزيدًا من الرجال في الغابة، وعلى أي حال، لقد حدث الجزء الأكبر من الإثارة عند الباب الأمامي.

تأمل كورت خياراته للحظة. نظر حوله إلى مأزقه وأيقن على الفور أنه محاصر. ربما أمكنه أن يقاتل عددًا قليلًا منهم، لكن المساحة الواسعة أمامه، والتي حتمًا سيصلون إليها، كانت ثغرة بالنسبة له. إذا انتشروا عبر المرج المتجمد واقتربوا في وقت واحد في خط عريض، فلن يتمكن من الاشتباك مع الأهداف على يساره ويمينه ووسطه قبل أن يطلقوا هم النار عليه.

كان يُفترض بالأرض المرتفعة أن تكون ميزة تكتيكية، لكن جينتري رأى أن هذه الأرض المرتفعة لا لزوم لها.

كان هناك طريق آخر أسفل التل على يمينه. درب أغنام، لا يزيد عرضه على أربع أقدام، وهو شديد الانحدار لدرجة مذهلة، إذ ينحدر في خط مستقيم عبر الغابة باتجاه المرج على الجانب الآخر. لكن الدرب ضيق للغاية بحيث لا يمكن لعربة الثلج أن تشق طريقها فيه. المحاولة ستكون إيذانًا بالانتحار.

الآن سمع كورت أصواتًا تحته. صيحات الرجال مسعورة وراء صيدهم. كانوا يتحركون في الطريق المؤدي إليه، ويقتربون من موقعه المحاصر.

صاح رقم واحد: «ليس لديه مهرب!». لم يكلف نفسه عناء استخدام جهاز الراديو الخاص به، إذ أضعف سمعه وباقي رجاله ضجيج الانفجار وطلقات الرصاص طوال الليل. لقد صاح لتوه في الرجال الثلاثة حوله وهم يركضون على الطريق الزلق. تُرك رقم ثلاثة في الكوخ يلف الضمادات على إصابته، وكان يقظًا وجاهزًا رغم كونه خارج القتال.

ألقى الليبيون الأربعة، الذين اقتربوا من القمة التي تعلوهم، خزائن أسلحتهم الرشاشة، وبحثوا عن ذخيرة كافية. عمليًّا، أعادوا تثبيت الدبابيس، وأعادوا النقر عليها في مكانها، ثم غطت نظارات الرؤية الليلية عيونهم.

تساقُط الثلج المتواصل أعاق الرؤية أمامهم. أبطؤوا عند اقترابهم من القمة، وانتشروا بهدوء عبر الطريق دون انتظار تعليمات لفعل ذلك.

وفجأة دوى ضجيج محرك عربة الثلج من جديد. وارتفع صوته وسرعته، ثم ظهر مصباح أمامي واحد أمام الليبيين الأربعة وفوقهم، متوهجًا مثل شبح أخضر في نظارات الرؤية الليلية الخاصة بهم وهو يتجه نحوهم.

صاح رقم واحد مزمجرًا: «أطلق النار!». جثا القتلة الأربعة على ركبهم، وأطلقوا الرصاص على العربة القادمة. أطلقت البنادق الأربع عشرين طلقة من الرصاص المجوف في الثانية. قفزت الطلقات في اتجاه مقوس، وارتطمت وارتدت في السماء مثل اليراعات التي تعمل بالطاقة الصاروخية.

على بعد ثلاثين مترًا حلَّقت العربة فوق الأرض على ارتفاع خمسة وعشرين مترًا ثم هبطت بقوة، وارتدت مرة أخرى في الهواء، لكن هبطت على جانبها. ظل الضوء يعمل، بينما انزلقت العربة أسفل التل متجاوزة الليبيين الأربعة وتوقفت خلفهم بعشرين مترًا.

هدأ المحرك، وانبعثت منه الغازات الساخنة لتشوش على نظارات الرجال. ركض رقم واحد إلى عربة الثلج بعد إعادة تعبئة سلاحه. انزلق على الجليد وسقط على ركبتيه. مر بجانبه رقم اثنين عندما عاد، فتأكدت شكوك الرجال الأربعة بعد رصد سريع للطريق:

«إنه ليس هنا!».

ظن كورت للحظة أنه ربما كان ينزلق بسرعة خمسين ميلًا في الساعة. بدا كل شيء أسرع على مستوى الأرض بالطبع، وقد دفعه الثلج والجليد والجذوع المفتتة والعشب الذي طار في وجهه لإدراك سرعته.

ولكن مهما تكن السرعة الفعلية، عرف جينتري أنه يهوي في درب الأغنام بسرعة كبيرة.

كان من الصعب عليه أن يتخلى عن حقيبة العتاد الثانية، لكنه لم يجد بديلًا. لقد ألقى الأسلحة والقنابل اليدوية والمناظير هناك على الجليد. وربط البندقية القصيرة بالمقود ليبقى مستقيمًا، ثم استخدم سلكًا طويلًا لإبقاء الضغط على دواسة الوقود.

شاهد العربة وهي تقفز فوق الحافة وتنزل إلى الطريق، ثم ركض بأقصى سرعته عبر الثلج بطول الجرف بمحاذاة جدار الجرانيت، حيث بدأ مسار الأغنام وانخفض بزاوية عشرين درجة عبر الغابة، مرورًا بالحقل الأدنى، ثم إلى القرية الصغيرة التي ما زال يغشاها الظلام، فلن يبزغ الفجر على جبال الشرق قبل ساعة.

قفز جينتري في الهواء بكامل سرعته، وهبط على قدميه المصابتين على الثلج، ممسكا بحقيبة الخيش الكبيرة خلف ظهره. كان الطريق

منحدرًا تمامًا في بدايته، لقد فقد السيطرة على الفور، لكنه عثر على موطئ لقدميه مرة أخرى عند امتداد أقل خطورة، لكن تبين أنه قصير للغاية.

سمع صوت الرصاص ورأى وميض الضوء عند التل المنحدر على يساره. لكنه لم يستغرق في التفكير لأبعد من مائة ياردة تقريبًا، كان راضيًا عن خطته. انزلق بسرعة خارج منطقة القتل. وفي الحقيقة، لم تكن خطة سيئة تمامًا، بل اتضح أن تنفيذها مقصود. عندما انزلق إلى الغابة، قطعت جذور شجرة صنوبر مسار الأغنام، فانزلق بسرعة كبيرة حتى لم يعد بوسعه التوقف.

طار في الهواء نحو بركة جليدية فوق عقدة من الجذور، وطُرح جسده بزاوية قائمة في الهواء. هبط عموديًا على جانبه في الاتجاه الذي كان يسير فيه، ودفعه هذا إلى الدوران والتدحرج مرارًا وتكرارًا. تحملت ركبتاه المضمدتان وزن جسده في ضربة خاطفة بينما كان يدور، وتكومت الثلوج حول قدميه، فطُوّح هذا جسده نحو تسعين درجة أخرى. لقد وجد نفسه مقلوبًا، فُقدت حقيبته المصنوعة من الخيش منذ فترة طويلة، وقد هوى من الغابة إلى بستان فوق قرية جواردا القديمة، ويداه أمامه مثل سوبرمان بلا سيطرة على اندفاعه.

استمر الانزلاق لما يزيد قليلًا على خمس وأربعين ثانية بدت لجينتري وكأنها دهر. وعندما انتهى، استلقى على ظهره في الثلج. استغرق بضع ثوانٍ للسيطرة على الدوار، جلس ليتحقق من أن وظائف جسده لم يصبها سوء، ثم وقف بثبات في الصباح الغائم ليتفحص جروحه. كان الجرح الذي أحدثته الرصاصة في فخذه اليمنى ينبض بشكل أكثر من المعتاد؛ كان على يقين من أنه أعاد فتح كل جرح كان قد التأم في اليومين الماضيين. ثمة وخز في ركبتيه، على الأرجح نزيف.

أصيب كعباه، لكن بدا أنهما جاهزان للعمل. شعر بألم في الجانب الأيمن من قفصه الصدري عندما أخذ نَفَسًا من هواء الجبل البارد. ظن أنه ربما كسرت إحدى ضلوعه، سيكون هذا مؤلمًا ولكن سيتحمله . بدا أن رسغه الأيسر قد أصيب بشيء ما أو بعدة إصابات، أو شيء ما على سفح الجبل، وقد تورمت منطقة العصب الزندي بشدة.

بعد تقييمه لكل ما سبق، أيقن الرجل الرمادي أنه محظوظ لكونه بخير، إذ لربما كان الانزلاق والتدحرج والقفز على منحدر التل الحاد في الظلام أسوأ بكثير، حتى دون تعرضه لإطلاق النار من مسلحين.

لكن حين فحص متعلقاته هبطت معنوياته من جديد. لقد فقد كل شيء ما عدا مسدس فالتر الصغير في جراب كعبه، محفظته مغلقة في جيبه الخلفي، وخنجر قابل للطي في جيبه الأمامي. لقد فقد كل شيء آخر: هاتفًا خلويًّا، معدات طبية، ذخيرة إضافية مسدسات، قنابل يدوية، مناظير.

استغرق الأمر عشرين دقيقة أخرى لكي يصل إلى سفح الوادي، هبوطًا على طريق واحد ومسار سكة حديد. ثم إلى محطة القطار المكونة من غرفة واحدة. كان الثلج قد تحول إلى جليد. ارتجف، ودفن يديه اللتين لا تغطيهما قفازات في جيبيه.

رأى حافلة صغيرة، السيارة الوحيدة التي تقف في ساحة الانتظار الصغيرة. ظن أنها عربة فرقة القتل. كسر النافذة الجانبية للسائق ودخلها بسرعة، ثم حطم عمود التوجيه بركلتين من كعب حذائه. في ثوانٍ أخرج أسطوانة التشغيل، وفي أقل من دقيقة أشعل أسلاك التشغيل. لكن محرك الشاحنة لم يعمل. راح يفتش حوله عن مفتاح تشغيل تحت لوحة القيادة، لكنه لم يجد شيئًا، قفز مرة أخرى من الشاحنة، أغلق الباب، وغرس خنجره في أحد الإطارات الأربعة.

كان يعلم أن التخريب سيكشف للمسلحين أنه نجح في الوصول إلى هذا الحد، وأنه حتمًا انطلق على الطريق الآن، لكنه قرر أن عليه

مغادرة جواردا فورًا، وستصل الشرطة في غضون دقائق. لن يتمكن فريق القتل من البحث عنه في الغابة طوال الصباح؛ لذلك ليس مجديًا أن يسعى إلى تضليلهم بأنه لا يزال على الجبل.

في أثناء وقوفه اعتقد أنهم لا يبعدون أكثر من عشر دقائق أو ربما عشرين، اعتمادًا على مدى قلقهم من أن يكشفهم القرويون أو مدى قلقهم من مقابلة أولى سيارات الشرطة التي كانت تصعد التل المنحدر.

حطم كورت زجاج نافذة صغيرةٍ في باب محطة القطار وفتح المزلاج. أولًا، فحص جدول مواعيد معلقًا على الحائط لجميع القطارات في البلاد. ثم سحب معطفًا بنيًّا ثقيلًا من حامل المعاطف. انزلق جينتري فيه. كان ضيقًا قليلًا عند الكتفين، لكن سيبقيه على قيد الحياة.

كانت هناك دراجة نسائية بإطارات سميكة مائلة على الحائط، أخذها جينتري، وأغلق الباب خلفه، وعبَس حين شعر بألم في قفصه الصدري عندما رفع إحدى ساقيه ليركب الدراجة. تخطت الساعة السادسة، وكان يعلم أن القطارات لن تبدأ بالعمل عبر الوادي حتى السابعة. عليه أن يصل إلى قرية أكبر ليأخذ أول قطار سريع في الصباح إلى زيورخ.

لذلك سار بالدراجة غربًا على طريق إنجادين بعيدًا عن أفق الفجر البرتقالي الخافت خلفه. آلمه كلٌّ من ظهره السفلي وفخذه اليمنى وركبته اليسرى كلما أدار البدَّال. لسع البرد وجهه فانحنى بينما يتساقط الثلج، كان متعبًا بشدة وجريحًا ومحبطًا. لقد أضاع يومًا كاملًا في ملاحقة الوثائق والأسلحة، ولم يحصد شيئًا سوى الإصابات. ومع ذلك، قليل من الرجال على وجه الأرض يمكنهم استدعاء العزيمة في مواجهة الشدائد؛ وهكذا كان الرجل المنهك الذي ينزف في معطفٍ على غير مقاسه راكبًا دراجة نسائية.

لم تكن لديه خطة، ولا معدات، ولا مساعدة، وهو الآن على يقين أنه لا أصدقاء لديه. لقد كذب عليه فيتزروي وأوقع به. علم كورت

أن له كل الحق في الاختفاء وترك دون لمن جعله يتخلى عن عميله الأول أيًّا كان ليطبق عليهلكن كورت قرر المواصلة غربًا، على الأقل في الوقت الحالي. كان يعلم أنه بحاجة إلى أن يفهم ما يحدث فهمًا أفضل، ولم يكن يعرف لهذا إلا سبيلًا واحدًا.

18

قبل الساعة السادسة صباحًا بقليل بتوقيت لندن، نظر السير دونالد فيتزروي من نافذة طائرة سيكورسكي إلى حقل أخضر.

عندما كانت المروحية تطير على ارتفاع منخفض، انحسر المنظر الطبيعي وظهرت أمواج البحر والمياه الدكناء على ارتفاع ألف قدم. ظهرت تحته منحدرات دوفر البيضاء ونهاية الجزر البريطانية وبداية القناة الإنجليزية. سافر هو ولويد والسيد فيليكس، ممثل الرئيس أبي بكر، جنبًا إلى جنب مع الفني وموظفي مجموعة لوران الأربعة جنوبًا نحو نورماندي. لم يكن الرجل الإنجليزي البالغ ثمانية وستين عامًا يعرف السبب. «حافز إضافي» هذا ما قاله لويد قبل ساعة.

قال: «إذا فشل الليبيون في المهمة في سويسرا وغيَّر كورت رأيه، وأخبرك أنه بالرغم من كل ما يهتم لأمره، يمكن لعائلتك أن تذهب إلى الجحيم، سيكون لديّ إغراء آخر سأستخدمه للإيقاع به».

قبل أن يتمكن فيتزروي من الاستفسار أكثر، كان لويد يتحدث عبر الهاتف. طلب إرسال مروحية تعمل بالوقود على الفور لرحلة عبر القناة إلى مهبط طائرات باترسي.

سافر السير دونالد إلى دول قارة أوروبا كثيرًا، أحيانًا بالطائرة من جاتويك أو هيثرو، وأحيانًا بواسطة قطار يوروستار فائق السرعة عبر القناة، لكنه فضل كثيرًا الطريق البري والبحري. القطار جنوبًا عبر شاتهام ثم إلى دوفر، على متن عبَّارة إلى كاليه في فرنسا أو أوستند أو زيبروجي في بلجيكا. كانت هذه هي الطريقة التقليدية، طريقة شبابه، ولا يمكن مقارنة خطوط الطيران السريعة والسهلة، ولا الوسائل العصرية كنفق يمر تحت بحر الشمال، بالفخر والحب اللذين شعر

بهما عندما عاد إلى إنجلترا على متن العبَّارة. وفي الضباب البعيد فوق الماء، استطاع أن يرى منحدرات دوفر البيضاء بكل جلالها.

هل من شيء يعجب الرجل الإنجليزي أكثر من هذا؟ وقد حلقت الطيور البيضاء، مرحبة بالمسافرين عبر القناة مثلما رحبت بعودة الطائرة التابعة لسلاح الجو الملكي قبل سبعين عامًا، كانت هياكل الطائرات الرفيعة مثقوبة ومليئة بالشباب الصغار الذين قتلوا وماتوا وخاطروا بكل شيء، من أجل صاحبة الجلالة في الحرب الجوية ضد الفاشية. الآن يحدِّق دونالد بحزن عبر النافذة الجانبية.

شاهد جمال دوفر يبتعد خلفه في الفجر المقمر، وأدرك أنه ـ على الأرجح ـ لن يرى هذا المنظر مرة أخرى.

كان لويد يتحدث عبر الخط الداخلي: «تلقيت للتو الخبر من ريجيل. لقد فشل الليبيون». وكان صوته يرن عبر سماعات الأذن التي تضغط على خصلات الشعر الأبيض على جانبي رأس السير دونالد.

نظر فيتزروي حوله في الطائرة ووجد لويد على الجانب الآخر مواجهًا له. التقت أعينهم في الوهج الأحمر الخافت لأضواء المقصورة. لاحظ فيتزروي أن بذلة الشاب الأمريكي قد تجعدت في الأربع وعشرين ساعة الماضية، وقد حل رباط عنقه ليتدلى من ياقة مفتوحة.

سأل الإنجليزي: «كم عدد الأرواح التي فقدت؟».

أجابه: «صفر، على نحو مدهش. أصيب رجل. يقولون إن الرجل الرمادي شبح».

قال فيتزروي في ميكروفونه: «المقارنة في غير محلها».

ـ «للأسف لا. ماتت الأشباح بالفعل».

أخذ لويد نفسًا عميقًا ثم قال: «سأرسل الليبيين إلى بايو لدعم التغطية هناك، في حال إذا كسب جينتري التحدي».

هز فيتزروي رأسه وقال: «انسَ ذلك. كنت الوحيد الذي يعرف عن المخبأ المؤقت في سويسرا. سيعرف أنني كنت من أبلغ القتلة. إذا علم أنني كنت أخدعه طوال الوقت، فلن يميل إلى إنقاذ عائلتي».

ابتسم لويد للتو: «لقد أعددتُ لهذا الأمر الطارئ».

ـ هل أنت أبله؟ لن يأتي لإنقاذي. ألا يمكنك فهم ذلك؟

ـ لم تعد هذه خطتي.

ثم التفت لويد بعيدًا، واستشار الفني.

أسرعت المروحية فوق القناة، بدا وميض ضوء القمر على الماء أدناها كصينية من الألماس السائب. في السابعة صباحًا عبرت الطائرة مباشرة فوق شاطئ أوماها، أكثر مواقع الإنزال دموية منذ نورماندي[1] ما يقرب من ثلاثة آلاف شاب أمريكي لقوا حتفهم في الماء وعلى الرمال وفي الجروف قبالة الشاطئ تحتها. لم ينظر لويد من النافذة. كان يتحدث إلى الفني عبر الراديو الداخلي للمروحية؛ استمع السير دونالد لكنه لم يقل شيئًا. صاح لويد بجدية مطلقًا أوامره، وراح ينسق تحركات خبراء المراقبة مثل البيادق على رقعة الشطرنج .

أمر الفني بإرسال جميع فرق القتل شرق جواردا إلى الغرب من جواردا: زيورخ، لوسيرن، برن، بازل. وإذ قصُرت المسافة بين نقطة انطلاق جينتري وهدفه، أصبحت المساحة محدودة أمام فرق القتلة العشر الذين ما زالوا يقاتلون على الأرض.

قال: «فلننقل الفنزويليين من فرانكفورت إلى زيورخ. وجِّه الأفارقة الجنوبيين إلى برن حال اتجه جنوبًا. من في ميونيخ؟ إذًا فقد اجتاز جينتري البوتسوانيين بالفعل. فلنعدهم إلى باريس. يمكنهم دعم السريلانكيين في الموقع هناك. الكازاخيون في ليون صحيح؟ ليون

---

(1) : ترمز إلى انتصار الحلفاء عند غزو نورماندي في عملية أوفرلورد خلال الحرب العالمية الثانية.

بعيدة للغاية في الجنوب، سنثبتهم هناك حتى نحصل على المزيد من المعلومات. تيقن من أنهم بالقرب من الطريق السريع وعلى استعداد للتوجه شمالًا. أرسل تفاصيل أخرى عن المراقبة إلى زيورخ وتحقق جيدًا من قائمة شركاء جينتري المعروفين. مَنْ أيضًا في باريس؟ حسنًا، لا يهمني كم هو بارع؛ رجل واحد لا يكفي. تاريخ جينتري هناك حافل، أريد ثلاث فرق في باريس بالإضافة إلى الكوري. الكوري لم يسجل وصولًا؟ لا تقلق. فقط استمر في إرسال التحديثات إليه. إنه عميل منفرد ولن يتصل ليشكو الوحدةَ».

***

جلست كلير في قلقٍ على حافة فراشها. كانت الساعة السابعة والنصف صباحًا، قبلِ نصف ساعة من اكتمال شروق الشمس.

نالت قسطًا من النوم فقط لأن والدتها جعلتها تتناول القليل من دواء السعال الأخضر الفظيع الليلة الماضية. عندما استيقظت، كان الظلام لا يزال مخيمًا. في البداية تساءلت عن مكانها، وبالتدريج تذكرت الأحداث المروعة التي وقعت في اليوم السابق، والتي بلغت ذروتها في رحلة قصيرة بالسيارة من فيلا العائلة في بايو إلى القصر القديم الكبير مع البوابة الضخمة والممر الطويل والعشب الأخضر. تذكرت الرجال الضخام ذوي المعاطف الجلدية، الذين يتحدثون لغة غريبة، ونظرات الخوف على وجهي أبيها وأمها على الرغم من تأكيدهما المستمر أن كل شيء على ما يرام.

تفقدت كلير أختها التي نامت بجوارها. كانت كيت هناك، تجرعت هي أيضًا دواء السعال. جلست كلير على حافة الفراش ونظرت من النافذة فلم تجد حركة إلا من الرجل الضخم الموجود بالأسفل في ساحة انتظار السيارات بجانب القلعة. علَّق مسدسًا كبيرًا حول رقبته، وكان يخرج من معطفه سيجارة تلو الأخرى ويدخن باستمرار.

بين الحين والآخر كان يتحدث في جهاز اتصال لا سلكي. تعرفت إليه كلير، وتذكرت جيم، الأمريكي الذي أقام مع عائلتها عندما كانت صغيرة. كان لديه جهاز راديو، وقد أوضح لها ولأختها كيفية الضغط على الزر والتحدث فيه مثل الهاتف، بينما ترد والدتها عبر الطرف الآخر من الحديقة الخلفية.

لم يشبه هؤلاء الرجال حولها الأمريكي جيم. على الرغم من أنها لا تتذكر كل شيء من الفترة التي أمضاها في منزلها، لكنها تذكر كم كان لطيفًا وودودًا، في حين كان لهؤلاء الرجال وجوه غاضبة عابسة.

الليلة الماضية قبل أن تجعل الأم الفتاتين تشربان دواء السعال، أرادت كيت أن تستكشف جميع أنحاء القلعة. ذهبت معها كلير، لكنها لم تكن تلعب مثل أختها السخيفة. تجاهلهما الرجال العابسون وهما تسيران في المطبخ. قرعت كيت على القدور والمقالي بالملعقة فتردد صداها بقوة في القصر الضخم. تجولتا على ممرات ذات أرضيات خشبية لا نهاية لها، ولم تكملا السير في بعضها، لأنها كانت مُخِيفة ومظلمة للغاية.

عثرتا على قبو مليء بزجاجات نبيذ متربة، ووجدتا مكتبة كبيرة مليئة بالمجلدات الضخمة، وغرفة بعد غرفة اصطفت على جدرانها رؤوس حيوانات كبيرة مخيفة، بالفراء والقرون والأسنان الضخمة. ركضت قطة برتقالية في القاعة، وتبعتاها نزولًا إلى الطابق السفلي، وشاهدتاها تفتح نافذة صغيرة عالية على جدار فوق رف، وتنطلق إلى الخارج في الحديقة الخلفية.

بعد ذلك اكتشفت الفتاتان سلمًا دائريًّا يُفضي إلى أعلى ثم أعلى ثم أعلى، فصعدتا إلى قمة برج. وهناك أشعلتا الضوء، ورأتا رجلا على طاولة يجلس على كرسي وينظر من إحدى النوافذ المفتوحة إلى الظلام. بجواره جهاز راديو وأمامه مسدس كبير. لقد صرخ في الفتاتين بلغة أجنبية غليظة، فضحكت كيت وركضت لتهبط الدرج.

تبعت كلير أختها، لكن قلبها خفق في صدرها. صاح الرجل في جهاز الراديو الخاص به، وسرعان ما جاء الرجال وأخذوا الفتاتين وجذبوهما من أذرعهما إلى غرفة والديهما. طلب أحد الرجال الضخام من والدهما باللغة الإنجليزية أن يضع فتاتيه في الفراش، وقد صاح الأب في وجه الرجل، وطلب منه إبعاد يديه، ثم اقتحم الشرفة، بينما أحضرت الأم كيت وكلير لتدخلا الحمام وتشربا الدواء.

لقد كان يومًا فظيعًا وليلة مروعة، والآن بعد أن استيقظت كلير، عرفت أنه لم يكن حلمًا سيئًا، ومن المحتمل أن يكون اليوم بنفس القدر من الرعب.

وبينما تجلس كلير مضطربة على حافة سريرها في الإضاءة الخافتة، ظنت أنها سمعت ضجيجًا غريبًا يأتي من بعيد. سرعان ما ارتفع صوته واقترب من القصر. امتلأت السماء فوق منزلها في لندن بطائرات الهليكوبتر، لذلك لم تستغرق وقتًا طويلًا لتتعرف على صوت المروحية المميز.

نهضت لتنظر عبر النافذة. حلَّقت المروحية فوق الغابة على الجانب البعيد من النافورة الكبيرة في الحديقة الخلفية الشاسعة. تدور دوّاراتها السوداء فوق جسمها الأبيض بينما تقترب من الحافة البعيدة لموقف السيارات المفروش بالحصى، ثم استدارت إلى الجانب وهبطت على عجلاتها واستقرت. انفتح الباب الجانبي ليخرج منه أربعة رجال يرتدون بدلات.

طار معطف أحد الرجال بفعل زوبعة الرياح التي أثارتها المروحية، وحتى من بعد ستين مترًا رأت كلير جراب المسدس ملتفًا حول قميص الرجل الأبيض. المزيد من الرجال المدججين بالسلاح.

وبينما كانت شفرات المروحية تدور فوقهم، خرج أربعة رجال آخرون. كان الرجل الأول أسود البشرة ويرتدي بذلة بنية. بينما حمل الرجل التالي الذي يربط شعره الطويل على هيئة ذيل حصان، حقيبتين

وركض نحو القصر. ثم جاء رجل يحمل حقيبة. كان نحيفًا ويرتدي بذلة سوداء فوقها معطف واقٍ من المطر. كان شعره الأسود اللامع قصيرًا أشعث من أثر الرياح، أدركت كلير حتى من بُعدٍ أنه شخص مهم. من تلفته حوله، واندفاعه إلى الأمام على باطن قدميه، وإشاراته لمن حوله.

الرجل التالي الذي خرج من المروحية كان أكبر وأصلع باستثناء الشعر الأبيض الطويل حول أذنيه، والذي تموَّج أسفل المراوح الدوَّارة. ضغطت كلير وجهها على الزجاج، تجاهد لإلقاء نظرة أفضل. ثم صرخت بصوت عالٍ، في البداية أيقظت كيت التي كانت قد تمكنت بطريقة ما من النوم حتى مع اقتراب المروحية وهبوطها.

«جدي!».

سُمح لفيتزروي بدقيقة واحدة مع ابنه وزوجة ابنه في مطبخ في الطابق الأرضي من القصر. كان فيليب وإليز مذعورين ومرتبكين، حتى أن خوفهما لم يفسح مجالًا للغضب. نُقِل فيتزروي إلى غرفة كبيرة بالطابق الثالث أقيمت على غرار غرفة الاجتماعات في فرع مجموعة لوران في لندن. كان له مقعد خاص، كرسي كبير بذراعين من طراز لويس الخامس عشر، وكان للويد كرسيه الخاص أيضًا، ذو تصميم عصري أنيق أسود اللون.

حضر الفني بالفعل، وجهَّز المعدات على مجموعة طويلة من الطاولات التي نُقِلت من غرف أخرى، وجُمِعت معًا لتناسب احتياجاته. كان الآن يضغط على مفاتيح أجهزة الكمبيوتر المحمولة وأجهزة الراديو، ناقلًا مركز العمليات الجديد عبر الإنترنت.

للغرفة ثلاثة أبواب، أحدها يؤدي إلى الحمام المجاور، والثاني إلى القاعة الرئيسة، والثالث كان مدخلًا لسلم دائري صغير يتجه حتمًا إلى البرج فوقهم، ويستمر نزولًا إلى الطوابق السفلية، أو هكذا لاحظ

فيتزروي حين جاء منه أحد أفراد الحراسة البيلاروسية وتحدث على انفراد مع لويد.

استقر الوافدون الجدد من لندن في أماكنهم حتى اهتز هاتف السير دونالد على المنضدة بجوار كرسيه. امتد منه سلك إلى صندوق مكبر صوت على المنضدة.

عندما ضغط لويد على الزر للرد، صاح الفني في الغرفة بأنه لم يكن مستعدًّا بعد لتتبع المكالمة.

قال السير دونالد بصوتٍ متعب ومبحوح: «أمن شلتنهام».

قال الرجل الرمادي: «هذا أنا».

سأله: «كيف حالك يا فتى؟».

كانت هناك وقفة طويلة، وأخيرًا قال: «أخبرتهم عن جواردا».

لم ينكر فيتزروي ذلك. قال بهدوء وملل: «نعم فعلت. أنا آسف حقًّا».

رد عليه: «لست آسفًا كما ستكون عندما تموت عائلتك. مع السلامة، أتمنى لك التوفيق، يا دون».

وقف لويد في منتصف الغرفة. مشى بسرعة إلى الطاولة وانحنى على الهاتف وتحدث: «صباح الخير، كورتلاند».

لم يكن هناك رد على الخط لفترة طويلة لدرجة أن لويد التقط الهاتف الصغير ونظر إليه ليرى ما إذا كانت المكالمة لا تزال قائمة.

ـ من هذا بحق الجحيم؟

ـ كورت، ربما يجب أن ترأف بالفارس النبيل هنا. أخشى أني وضعته في موقف لا يُحسد عليه إطلاقًا.

ـ من أنت؟

ـ أنت لا تعرف صوتي؟

ـ لا.

ـ كنا نعمل معًا. أنا لويد.
لم يكن هنالك رد.
تابع لويد: «من لانجلي، منذ أيام هالسيون أنت تعرف».
ـ لويد؟
ـ هذا صحيح. كيف حالك؟
ـ أنا لا أتذكر أي لويد.
ـ بربك يا سيد جينتري. لم يمضِ وقت طويل. لقد عملت لصالح هانلي، وساعدت في إدارتك وبعَض العملاء الآخرين في أصعب العمليات في فترة فرقة الأشقياء.
ـ أذكر هانلي لكن لا أتذكرك.
استطاع فيتزروي أن يرى أن لويد تعرض للإهانة حقًّا.
قال: «حسنًا، كونك بلطجيًّا فلم تكن معروفًا قط بذكائك الاجتماعي». نظر إلى السير دونالد، محرج ربما؟ لوح بيد رافضة. قائلًا: «لا يهم. المهم هو أنه بالرغم من رفضك المجيء إلى هنا إلى نورماندي لمساعدة قائدك المغوار، لكن ربما عليك أن تفكر في الحفاظ على خط سير رحلتك الحالي فأؤكد لك، ما زال هناك شيء تريده هنا».
ـ لست أرغب في شيء لدرجة أن أوقع نفسي في الفخ عمدًا. وداعًا يا فلويد.
ـ إنها لام مشددة، وليس فاء.. لويد، وربما من الأفضل لك أن تبقى على الخط لتسمع عرضي.
سأل جينتري: «هل كنت أنت من وجَّه إليَّ إنذار الحرق قبل أربع سنواتٍ؟». وبدا صوته هادئًا عبر الهاتف، لكن فيتزروي كان يعلم أن سؤالًا كهذا حتمًا ينطوي على مشاعر ثقيلة.
ـ لا، أنا لم أتخلص منك. لم أوافق على القرار آنذاك. اعتقدت أنه لا يزال من الممكن أن تكون مفيدًا لنا.

ـ إذن من حرقني؟ هانلي؟
ـ دع هذه المناقشة ليوم آخر. ربما سنتحدث عنها حين تأتي إلى هنا.
ـ إنه موعد إذًا. وداعًا.
ـ في الوقت الحالي عليك ألا تقلق كثيرًا بشأن من حرقك في 2006، وأن تقلق أكثر ممن سيحرقك غدًا إذا لم تأتِ في زيارة.

استنشق جينتري الهواء بصوتٍ عالٍ في الهاتف ثم قال: «لا يمكن حرقي مرتين».

ـ بالطبع يمكن. عندما غادرتُ الوكالة، حصلت على بوليصة تأمين. رأيت ما حدث لك ولبعض الرجال الآخرين. كنت أعرف مدى وحشية السياسيين الذين يديرون الهيئة إذا لم يدعموا عملية ما، مهما تكن ناجحة، مع الرجال والنساء الذين يتعين عليهم الإدلاء بشهاداتهم أمام الكونجرس. قلت لنفسي، لويد، أنت أذكى من أن تسقط مثل كورت جينتري العجوز الغبي والآخرين، لذلك فعلت ما كان عليَّ فعله لضمان بقائي ـ لقد سرقت الأسرار.
ـ كما قلت، أنا أنجو بنفسي.
ـ أنت خائن.
ـ سيان. لقد نسخت المستندات التي توضح بالتفصيل العمليات والمصادر والأساليب وملفات الموظفين.
ـ ملفات الموظفين؟
ـ نعم. بحوزتي الآن.
ـ هراء.
ـ لحظة واحدة.

شاهد فيتزروي لويد يقلّب بإصبعه بعض الأوراق في مجلد ذهبي على الطاولة. كانت هناك كومة من المجلدات المماثلة إلى جانب تلك التي التقطها الشاب الأمريكي. ويتلو: «جينتري، كورتلاند أ. ولد في

74/18/4 في جاكسونفيل، فلوريدا. الوالدان جيم وليلي جينتري. توفي أخ واحد. التحق بالمدرسة الثانوية في...».

ـ هذا يكفي.

ـ لديّ المزيد. لقد حصلت على كل شيء: تاريخ وكالتك مع قسم الأنشطة الخاصة وبرنامج تطوير العملاء المستقلين. بطولاتك في جولف سييرا. شركائك المعروفين. الصور وبصمات الأصابع وسجلات الأسنان، إلى آخره.

ـ ماذا تريد؟

ـ أريدك أن تأتي إلى نورماندي.

ـ لماذا؟

ـ سنناقش ذلك عندما تصل.

استمر التوقف لفترة طويلة بما يكفي لكي يسمع فيتزروي بعض ما يجري في الطابق الثاني تحته. كانت إليز تصيح في فيليب. السير دونالد كان يعلم أن زواجهما لم يكن مستقرًّا، وكان يعلم أن هذا الضغط هو آخر شيء يحتاجان إليه.

أخيرًا تحدث جينتري: «افعل ما شئت يا لويد. انشر المستندات الخاصة حتى، أنا لا أكترث. لقد انتهيت من هذا».

ـ ممتاز. سأنشر بياناتك على العالم. في غضون أسبوع، كل رجل عصابة أسأت إليه، وكل وكالة عدو واجهتها، وكل قاتل غاضب تغلبت عليه للحصول على عقد، سيلاحقونك جميعًا. سيجعل هذا الثماني والأربعين ساعة الماضية تبدو كأنها كانت عطلة نهارية في منتجع صحي.

ـ يمكنني تحمل الأمر.

ـ وفيتزروي سيموت. وكذلك عائلته. هل يمكنك تحمل هذا؟

قال بتردد طفيف: «ما كان يجب أن يخدعني».

قال لويد: «حسنًا. أنت رجل صلب يا كورت، فهمت. لكنَّ هناك شيئًا واحدًا آخر نسيت أن أذكره. لم تكن ملفاتك هي ملفات الموظفين الوحيدة التي جمعتها من الوكالة. إذا لم تأتِ إلى نورماندي، فسأوزع الأسماء والصور وملفات الشركاء المعروفين لجميع العملاء في قسم الأنشطة الخاصة، النشطين أو غير النشطين أو المتقاعدين أو المستبعدين بأي بطريقة. سيصبح كل قاتل مثلك تمامًا، محروقًا، مُطاردًا، معلقًا حتى يجف لأن خدماته أصبحت عديمة الفائدة، وأسماءَهم تظهر في كل محرك بحث على الإنترنت».

مر وقت طويل قبل أن يتكلم جينتري: «ما جدوى كل هذا بحق الجحيم؟ هل تفعل كل هذا فقط لتصل إليَّ؟».

أجابه: «لا يتعلق الأمر بك وحسب أيها الأحمق المتغطرس! أنت تافه بالنسبة للهدف الحقيقي. لكني أحتاج إليك هنا. أحتاج إليك هنا، أو سأحرق أفضل العملاء السريين الأمريكيين الموجودين على الأرض. سأحرص على أن ترى كل وحدة الأنشطة الخاصة وجميع شركائهم المعروفين أنهم كلاب مطاردة فحسب!».

لم يقل كورت جينتري شيئًا. اقترب فيتزروي برأسه، ظنًّا منه أنه يستطيع سماع إيقاع طقطقة قطار فوق القضبان في خلفية الاتصال.

بعد ذلك قال لويد: «بالطبع، سيستغرق الأمر بضعة أيام لأنشر جميع ملفات الموظفين الخاصة بك أنت وفتيان وحدة الأنشطة الخاصة على الإنترنت، إنها كثيرة للغاية بحق الجحيم، سأبدأ بشيء آخر. إذا لم تكن هنا في الصباح الباكر غدًا، فأول من يسجل المغادرة هم عائلة فيتزروي في الطابق السفلي. أعتقد أنني سأبدأ بالصغار. على مبدأ الوارد أولًا يصرف أولًا. تعرف ما أعنيه؟ سأقتل الطفلتين، وأقتل الوالدين، ثم سأقضي صباحي في قتل العجوز فيتزروي هنا».

تحدث جينتري في النهاية: «إذا لمست كلير أوكيت، فسأصل إليك، وسأعذبك ببطء شديد، حتى تكون أمنيتك الوحيدة هي أن تموت بسرعة».

صفق لويد بيديه وقال: «هذا ما أحب أن أسمع! المشاعر! عاطفة! حسنًا، من الأفضل أن تأتي إلى هنا في الوقت المناسب للحصول على البيض والبسكويت غدًا، لأن قطع عنقي هاتين الفتاتين الصغيرتين الجميلتين سيكون أول طلب بعد الإفطار!».

كان فيتزروي صامتًا، متجهمًا. لقد جلس منزويًا في أثناء المحادثة مثل كلب منسي. ولكن عندما قال لويد جملته الأخيرة، هبَّ السير دونالد من كرسي لويس الخامس عشر. واندفع نحو الأمريكي وأمسك بحنجرة الشاب. علقت الأسلاك التي جرى توصيلها حديثًا بأجهزة الكمبيوتر ومكبرات الصوت في أرجلهما، فانتُزعت المعدات من الطاولة. انقلب كرسي لويد الدوار إلى أعلى بينما يسقط الاثنان على الأرض. كسر السير دونالد نظارة لويد المعدنية الرفيعة. وضرب بقبضتيه وجنتي خصمه. استغرق الأمر ما يقرب من عشر ثوانٍ لدخول الحارسين الأيرلنديين الشماليين إلى الغرفة وإبعاد الرجل الإنجليزي الثقيل عن المحامي الأمريكي الشاب.

عندما جرى فصلهما أخيرًا، دُفع فيتزروي إلى كرسيه. هرع الحارسان الأسكتلنديان بعد ذلك وأمسكا برأسه وذراعيه. ترددت أصداء الصيحات والصراخ في جميع أنحاء الطابق الثالث عندما جاء أحد البيلاروسيين بسلاسل عثر عليها في المرأب بجانب بيت النباتات الزجاجي. قُيد فيتزروي تقريبًا في كرسيه، لكنه ظل يقاتلهم جميعًا بينما يربطون السلاسل على ذراعي وساقي كرسي لويس الخامس عشر، ويُحكمون ربطها حول ذراعي وساقي السير دونالد. غُلقت الحلقات الحديدية الباردة حول رقبته وجبهته. وصار كل شيء مؤمَّنًا بقفل ضخم.

ظل لويد طوال الوقت على الأرض. كان يجلس ويتنفس بصعوبة، ويسوي شعره، ويعيد عقد رابطة عنقه. وجد نظارته على الأرض، ثنى ذراعيه قليلًا ليعيدهما إلى وحالتهما الأصلية قدر الإمكان، ثم عاود ارتداءها. تعرض وجهه لخدوش طفيفة، وأصيب ذراعاه وذقنه ورقبته بكدمات، لكنه لم يصب بأذى.

أخيرًا جلس مرة أخرى على كرسيه ودفعه عائدًا إلى المكتب بالقرب من الهاتف.

قال: «عفوًا كورت هناك بعض الصعوبات الفنية. لقد عدنا إليك. هل ما زلت هنا؟».

لكن جينتري أغلق الخط.

نظر لويد إلى فيتزروي ونظر فيتزروي إلى لويد، إذ لم يستطع أن ينظر في أي مكان آخر ورأسه مشدود بالسلاسل.

ـ من الأفضل أن يظل على المسار الصحيح يا دون، من الأفضل أن يظل على المسار الصحيح، وإلا فستموت أنت وعائلتك موتًا بطيئًا وبائسًا! هل تظن أنني أحمق أو ساذج؟ هذا ما ظنته وكالة الاستخبارات المركزية. كنت أخلط الأوراق السياسية بينما يحصل المهاجمون على كل المجد. حسنًا، تبًّا لهم، وتبًّا لك! يمكنني اللعب بقذارة تفوق أفضل الحيل قذارةً. يمكنني، وسأفعل ما أحتاج إليه لأتيقن من توقيع أبي بكر على العقد، وسنكون جاهزين لعملية الغاز الطبيعي بحلول ظهر الغد. سأنسى أمرك أنت وعائلتك. حتى ذلك الحين يمكنك أن تعيش أو تموت، لا يمكنني أن أحدد على الإطلاق. هذا قرارك يا دوني الصغير. إن أسأت معاملتي مرة أخرى، فربما لا أمنحك فرصة ثالثة.

ـ سيبقى كورت على المسار الصحيح. سيأتي وسيقتلك.

ـلن يصل إلى هنا. ولكنٍ حتى لو فعل، فالرجل الرمادي الذي سيصل إلى هنا سيكون رجلًا مختلفًا تمامًا عن الرجل الذي تعرفه. سيكون جريحًا، استنفد وقته، ينقصه النوم والمعدات.

ـ معدات؟

ـ نعم. هذا النوع هالك دون معداته.

ضحك السير دونالد بغضب ثم قال: «ليس لديك فكرة عما تتحدث عنه. إن أغلى شيء بالنسبة لكورت في رأسه. السلاح الوحيد الذي يحتاج إليه هو عقله. كل شيء آخر: البنادق والسكاكين والقنابل.. مجرد كماليات».

ـ سخيف. لقد صدقت خرافات العملاء المتخصصين. لكنه في النهاية ما هو إلا بلطجي ذائع الصيت.

ـ إنها ليست خرافة، ولا مجد فيما يفعله. إنه موثوق به في العمل، وبارد ووحشي وكفء مثل جزار الحي. اعترض طريقه وسترى.

ـ أوه، أنوي اعتراض طريقه بكل ما أستطيع.

اكتسى وجه فيتزروي باللون الأحمر الفاتح والعرق بعد مصارعته خمسة رجال. لقد قُيِد مثل الوحش إلى الكرسي مع حلقات سميكة تغطي ثلث رأسه. مع ذلك، ظل مبتسمًا.

ثم قال: «لقد تعاملت مع من يثرثرون من قبل، أوغاد صغار يحركون أفواههم عندما يكونون في مأمن بجوار الحائط، حمقى يملكون السلطة. لقد رأيت الكثير من الرجال مثلك يأتون ويذهبون في شبابي. ستأتي فرصتك لكنها سرعان ما ستختفي. أنت لا تخيفني».

ارتجف وجه لويد وهو يميل بالقرب من فيتزروي ويقول: «حقًا. ما رأيك لو مشيت في الطابق السفلي ورحت أدندن إيني.. ميني.. مايني.. مو؟ ثم عدت هنا بجائزة صغيرة لها ضفائر؟ ماذا لو قتلتُ...».

أجابه فيتزروي: «أيها الأحمق الصغير. هل تخاف من الرجل المقيد بالسلاسل فتهدد طفلتين؟ كلما حاولت أن تُظهر لي مدى خطورتك،

طابقت انطباعي عنك عندما رأيتك للمرة الأولى. مخنث صغير ضعيف. أحمق مثير للشفقة. لا يمكنك التعامل مع رجل عجوز مقيد بكرسي، لذلك عليك أن تلاحق هدفًا أضعف. خائن جبان!».

ضاقت عينا لويد غضبًا، وكانت أنفاسه ثقيلة في وجه فيتزروي. جلس الأمريكي ببطء وابتسم قليلًا. رفع خصلة من شعره بعيدًا حيث تدلت فيه على جبهته، وضغطها مرة أخرى على فروة رأسه المخدوشة.

وقال: «سأريك ما يمكنني فعله. فقط أنا وأنت». مد يده خلفه، إلى أحد رجال الأمن من مينسك عند الباب. وأتبع: «فليعطِني أحدكم سكينًا».

19

استيقظ سونج بارك كيم عند الفجر في جناحه في فندق بلازا أثينا الفاخر.

أثار فيه الحي المحيط مشاعر الترف، لكنه لم ينم على الفراش، ولم يشرب من الثلاجة الصغيرة، ولم يشترك في خدمة الغرف. كان ينام في خزانة خلفية على الأرض بعد أن ثبَّت أسلاكًا وأجهزة تنبيه حوله في كل مكان.

غادر غرفته في الساعة السادسة صباحًا، وبدأ يمشي في شوارع باريس، متذكرًا الطرق المؤدية من الضفة اليمنى، فوق الجسور، إلى الضفة اليسرى، مقلدًا مظاهر الغربيين وسلوكياتهم، بينما يحفظ نقاط الاختناق لحركة مرور السيارات والمشاة.

لقد تلقى قائمة على جهاز (جي بي إس) تحوي أسماء وعناوين لزملاء معروفين للرجل الرمادي في باريس: زميل عمل سابق في وكالة الاستخبارات المركزية، ويرأس الآن شركة استخبارات خاصة في ناطحة سحاب بمنطقة لاديفونس. وفي غرب المدينة، مترجم أفغاني استخدمه قسم الأنشطة الخاصة في كابول في عام 2001، ويملك الآن مطعمًا شرق ـ أوسطيًا رائعًا في الناحية اليسرى في شارع سان جيرمان، مخبر في شبكة فيتزروي كان أيضًا موظفًا فيدراليًا للقلم في وزارة الداخلية في مكتب بالقرب من ساحة الكونكورد، طيار ذو مهارة مشهورة سافر في مأمورية لوحدة الأنشطة الخاصة في أوروبا ويقيم الآن إقامة شبه دائمة في الحي اللاتيني.

استخدم الكوري وسائل النقل العام لإلقاء نظرة سريعة على كل موقع، والتحقق منها جميعًا، الوصول إلى المباني، ومواقع وقوف السيارات

القريبة، وطرق النقل العام من وإلى كل منطقة. كان يعلم أن هناك مراقبين محليين وظفهم الأشخاص الذين طلبوا من حكومته إرساله، وفي الواقع رأى رجالًا ونساءً في كل موقع على قائمته، رجالًا ونساءً غير قادرين على البقاء دون أن يكتشفهم عامل مدرب تدريبًا جيدًا. لم يساوره شك أن الرجل الرمادي سيراهم أيضًا. عرف كيم أنه عليه استبدال دعمهم بمهاراته في التتبع.

بعد ذلك، أجرى كيم جولات في وسط المدينة، ولا يزال يدرس الخريطة. كان مستعدًا للانطلاق إلى أي من مواقع زملاء الرجل الرمادي المعروفة إذا شوهد، لكنه لم يتوقع أن يستخدم خصمه كمساعد في مهمته الحالية. أيقن كيم أنه ربما تجاوز باريس تمامًا. كانت منطقة مزدحمة للغاية، بها عدد كبير للغاية من رجال الشرطة والعديد من الكاميرات والكثير من المعارف القدامى الذين سيكونون دائمًا تحت المراقبة.

كيم يعرف أنه إذا أُجبر القاتل الأمريكي على الذهاب إلى المدينة لأي سبب، فسيبذل قصارى جهده للحصول على ما يحتاج إليه من مصادر أخرى غير أولئك الذين يمكن تتبعهم. أدرك كيم هذا لأنه هو نفسه كان قاتلًا منفردًا. وحيدًا. لقد كان هو نفسه مُطارَدًا مثل الكلب، وقد أُجبر على تجنب كل من يتوقع أن يساعدوه.

لكن كيم كان يعلم أيضًا أن العزلة والإرهاق والإصابة والضرورة واليأس أدت جميعها إلى أخطاء، وكان يعلم أنه إذا وصل هدفه بطريقة ما إلى باريس، واحتاج إلى شيء ما في المدينة، فسيكون الرجل الرمادي حيوانًا يائسًا حقًا، ولن يتوقع أحد تصرفه ورد فعله.

ربما كان هذا العميل بالفعل أخطر رجل في العالم، لكن تخليه عن الخوف الواضح وسباقه المحموم مع الزمن قد يوقعه في الخطأ. لكنه سيجعله أيضًا أكثر خطورة على من حوله. كيم يعرف أنه إذا جاءت

مكالمة تفيد بوجود الرجل الرمادي هنا، فسيتدفق الدم مثل النهر عبر شوارع مدينة الأضواء.

***

ركب جينتري دراجته المسروقة فجرًا في أثناء تساقط الثلوج، ثم توقف عند محطة القطار في قرية أرديز.

كان عدد قليل من السكان المحليين يستعدون للسفر، في انتظار القطارات الصباحية الأولى المتجهة غربًا إلى زيورخ أو شرقًا إلى الحدود الإيطالية أو النمساوية. استعار الأمريكي هاتفًا خلويًا من طفل ينتظر القطار المتجه شرقًا، ودفع للصبي المراهق ما يعادل أربعين دولارًا للاتصال بفيتزروي لمدة خمس دقائق حتى يواجه مديره بشأن تسليمه.

مشى عشرين ياردة أسفل المنصة الخرسانية ليحصل على بعض الخصوصية ووقف في الثلج بينما يمر قطار متجه إلى إنترلاكن. أغلق الهاتف أخيرًا عندما اندلع شجار على الطرف الآخر من الخط، ومسح الرقم الموجود في ذاكرة الهاتف، وأعاده إلى الطفل مع النقود.

بعد بضع دقائق، صعد كورت على متن القطار الأول في الصباح إلى زيورخ. كان يوم سبت، لذلك كان الراكب الوحيد في مقصورته لأغلب مدة السفر عبر الوادي الضيق، التي استغرقت ساعة وخمسًا وأربعين دقيقة. تهادى القطار الأحمر اللامع على محطات السكك الحديدية عبر القرى الواقعة على طول مساره.

في القطار استعد جينتري وفحص جروحه بعدما أنزل سرواله في العربة الخالية، ووخز بأطراف أصابعه القروح على ركبتيه، ومداخل الجروح اللاذعة ومخارجها في فخذه. خشي أن تُصاب جروح الرصاصة بعدوى. وبالتأكيد، لم تساعده السباحة في خزان سزابو.

بخلاف ذلك، كان بخير. لقد سار كثيرًا على قدميه المتهتكتين، فأخذتا تخفقان بوتيرة منتظمة، تمامًا مثل ضلعه المكسورة.

كان يعلم أنه عليه الاستمرار في طريق نورماندي، على الرغم من شعوره بتضاؤل فرص نجاحه مع كل ميل يجتازه نحو الفخ الذي ينتظره. فيتزروي حقير لخداعه كما فعل. لكن، كان على جينتري أن يعترف، لقد وضع لويد السير دونالد في موقف صعب. تساءل كورت إلى أي مدى كان سيذهب هو نفسه، ومن كان سيبيع. فكر لو كانت التوأمان من عائلته وتعرضت حياتهما للخطر من حفنة من القرود المسلحة الذين لا يندمون على قتل الأطفال الأبرياء.

التفكير في لويد جعل دم جينتري يغلي. إنه بصراحة لم يتذكر الرجل، لكن وكالة الاستخبارات المركزية لم تخلُ قط من الأوغاد التافهين الذين يجلسون خلف المكاتب في الجزء الخلفي من العمليات السرية، وقتما كان الرجل الرمادي وأمثاله على خط النار. لم يكن باستطاعة كورت أن يتخيل أي وجوه، ولكن بين الحين والآخر كان رؤساؤه يعرّفونه بأحد هؤلاء الموظفين المتأنقين في لانجلي. لا بد أن لويد هو أحد هؤلاء، قبل أن يأخذ سجلات موظفي وحدة الأنشطة الخاصة بالغة السرية تاركًا الوكالة للالتحاق بالقطاع الخاص.

يا له من وغد!

أراد كورت أن يتذكر لويد، وأن يعثر على شيء ما في بنوك ذاكرته يمكن أن يساعده بطريقة ما على الخروج من مأزقه الحالي، لكن إيقاع حركة القطار على القضبان شجعه على النوم. بالرغم من كل الجروح والكدمات والعضلات المشدودة والثقوب الإضافية، كان الاسترخاء واجبًا ثقيلًا، لكن يبدو أنه كان متعبًا للغاية حتى لم يعد يشعر بالألم. لقد نام قبل دقائق قليلة من وصوله إلى زيورخ، واستيقظ من النوم بسبب تباطؤ القطار والإعلان المسجل عن التوقف الوشيك. وبينما ينهض ليشق طريقه إلى المخرج، انتقد نفسه لقلة انضباطه، بسبب نعاسه في الوقت الذي يتربص به القتلة من كثب.

في محطة زيورخ المركزية، اشترى تذكرة سفر إلى جنيف. يعني ذلك ساعتين أخريين على القضبان، لذلك شق طريقه إلى منضدة النقانق واشترى شطيرة كبيرة وفنجانًا من القهوة. مزيج غريب، لكنه كان يأمل أن تُبقي جرعة الكافيين ونصف باوند من البروتين الصلب جسده في حالة تأهب.

نزل عبر المصعد إلى مركز تسوق كبير على مستويين أسفل المحطة، قبل عشرين دقيقة من مغادرة قطاره، ووجد حمامًا بأجرة، فدخل إحدى الكبائن. جلس بملابسه الكاملة على الخزف، وأرجع رأسه إلى الحائط البارد خلفه. سحب مسدسه وأمسكه واضعًا إياه على ساقه.

***

كانت محطات القطار مواقع يسهل فيها على أعدائه مطاردته. لم تعجبه ندرة طرق الهروب من كابينة المرحاض، ولكن مع ذلك، كان أفضل له أن يختبئ في المرحاض من أن يقف في محطته لمدة ربع ساعة فقط وكأنه يطلب من القوة المعارضة أن تتعرف إليه. لو عثر عليه بلطجية لويد هنا، فسيفرغ خزينتي سلاح في باب المرحاض أمامه ويشق طريقه إلى الخارج.

لم تكن خطة حكيمة، لكن اعترف كورت لنفسه بأن شروعه في هذه العملية من البداية يعتبر تنازلًا عن أي حكمة مزعومة. الآن كان كل ما عليه فعله هو أن يحاول تجاوز هذا الموقف العصيب، على أمل أن يعيش فقط حتى الساعة الثامنة صباح يوم الأحد.

قبل أقل من دقيقة من المغادرة، صعد جينتري إلى الرصيف المحاذي للمسار السابع عشر، وانسل بصمت إلى القطار المتجه إلى جنيف حينما بدأ يتحرك.

***

رن هاتف ريجيل في التاسعة وأربعين دقيقة صباحًا. كان في مكتبه، يقضي يوم سبت مزدحمًا، بعد أن ألغى ـ على مضض ـ رحلة صيد طيور في نهاية الأسبوع في أسكتلندا.

ـ ريجيل.

ـ سيدي. كروجر يتحدث.

كان كروجر رئيس الأمن السويسري لمقر مجموعة لوران في زيورخ. قال: «لديّ معلومات عن الهدف. تلقيت تعليمات بالاتصال بالسيد لويد، لكنني اعتقدت أن عليَّ أن أبلغك بذلك».

ـ حسنًا يا كروجر. سأمرر المعلومات. ماذا لديك؟

ـ إنه عندي يا سيدي. لقد استقل للتو قطار 9:40 المتجه إلى جنيف. حجز تذكرة درجة ثانية، دون حجز.

ـ جنيف؟ لماذا يذهب جنوبًا؟ يجب أن يتجه غربًا.

ـ ربما كان يهرب، أقصد أنه يستسلم.

ـ ربما. ربما لا. هذا مستبعد، لكن لديه معارف هناك.

ـ يمكنني أن أجهز المراقبة في جنيف لاعتراضه في المحطة.

ـ لا. سنرتِّب حفلة ترحيب مختلفة له هناك لو كانت هذه وجهته الفعلية. قد يكون هذا تمويهًا. قد ينزل في الطريق، ويستقل قطارًا آخر إلى فرنسا. أريدك أن تثبّت تغطيةً في كل محطة يتوقف فيها هذا القطار بين زيورخ وجنيف. تأكد أيضًا من أنه لن ينزل قبل مغادرة القطار.

ـ أنا في القطار بنفسي الآن. سأتولى أمره طوال الطريق وأطلعك على آخر المستجدات كلما اقتربنا.

ـ حسنًا[1]. أحسنت.

(1) بالألمانية في الأصل.

بعد ذلك اتصل ريجيل بالفني في قصر نورماندي: «وجِّه الفنزويليين جنوبًا لمتابعة قطار 9:40 من زيورخ إلى جنيف. الرجل الرمادي على متن القطار، لكنه قد يحاول النزول في الطريق. يجب أن يستعد الفنزويليون للإمساك به في أي لحظة».

مفهوم.

فحص ريجيل خريطة كبيرة لسويسرا على مكتبه وقال: «أحضِر الأفارقة الجنوبيين في بازل إلى جنيف. لو وصل جينتري إلى المحطة على قيد الحياة، يجب عليهم تتبعه والتخلص منه في الشارع. سيكون هناك الكثير من الكاميرات ورجال الشرطة في المحطة».

***

لم يستغرق كورت سوى خمس عشرة دقيقة. وجد مقعدًا بجانب النافذة في المستوى العلوي في نهاية عربات الدرجة الثانية. كان قد خلع معطفه ولفه على جسده. وثبّت تحته مسدسه في حجره، وأمسك بالمقبض.

ثم غرق في النوم.

أرني هويتك[1].

استيقظ ببطء ورأسه متكئ على النافذة. وبالرغم من رؤيته المشوشة بسبب احتقان عينيه بالدماء، لكنه شاهد هبات ثلجية تضرب النافذة المجاورة لوجهه. أراد أن يخرج لسانه ويتذوق ندف الثلج الثقيل على الزجاج. كان الريف قد اكتسى باللون الأبيض، تألقت الجبال الصخرية باللونين الرمادي والبني، حيث لم تثبت الثلوج على الجرف بسبب انحداره الشديد.

كانت السحب منخفضة ورمادية، ورأى أمامه قرية. كان صباحًا شتويًا جميلًا.

(1) بالألمانية في الأصل.

سمع صوتًا قريبًا من يمينه: «أرني هويتك![1]». استدار كورت ونظر بسرعة، واستطاع أن يميّز السلطة في أسلوب الأمر.

وقف أمامه في الممر أربعة ضباط شرطة سويسريين يرتدون الزي الرسمي. كانوا يرتدون سراويل رمادية وسترات ذات درجتين من الرمادي. كانوا من شرطة المدينة، وليسوا الفيدراليين المدربين تدريبًا عاليًا، وتدلت على أرجلهم مسدسات جلوك 17 كبيرة. بينما يمد أكبر شرطي سنًا ذراعه إلى الأمام.

سـأله: «أرني هويتك، من فضلك».

فهم كورت الألمانية بشكل سطحي، أراد رقيب الشرطة ذو الشعر الأبيض أن يرى بطاقة هوية وليس تذكرة قطار.

هذا ليس مبشرًا.

حرّك جينتري المسدس المخبأ تحت معطفه، وحشره بين الوسادة البلاستيكية وجدار عربة القطار وهو جالس. لم يكن بحوزة جينتري هوية، فقط تذكرة. ما إن أصبح السلاح بعيدًا عن الأنظار، اخترق معطفه وأخرج التذكرة وسلمها.

لم ينظر الشرطي حتى في الأمر. بل تحول إلى اللغة الإنجليزية. وقال: «أريد بطاقة هويتك من فضلك».

أجاب: «فقدتُ جواز سفري. أنا ذاهب إلى السفارة في جنيف للحصول على واحد آخر».

اتضح أن جميع رجال الشرطة الأربعة يفهمون اللغة الإنجليزية، لأن الأربعة نظروا إلى كورت كأنه يستخف بهم.

سأل الضابط الأكبر سنًّا: «أأنت أمريكي؟». أجابه: «كندي». علم كورت أنه في ورطة. قد يُلقي المسدس، لكن سيظل الجراب الجلدي ملصوقًا حول كعبه.

---

(1) بالألمانية في الأصل.

بدا هؤلاء الرجال على درجة من الحدة. سيفتشونه بلا شك. عندما وجدوا الجراب الفارغ في ساقه، راح رجال الشرطة يفحصون مقعده ويبحثون عن مسدسه.

ـ أين أمتعتك؟

ـ سُرِقت. لقد أخبرتك بهذا.

لا جدوى من تكوين صداقة معهم. عرف كورت أنه قد يضطر إلى العراك مع هؤلاء الرجال قبل أن ينتهي كل شيء.

لم يكن يشعر بالرضا حيال تحطيم رؤوس مجموعة من رجال الشرطة الأبرياء، لكنه لم يرَ أي وسيلة للتحايل على الأمر، على الرغم من أنها ستكون معركة بأربعة مقاتلين، فإن العميل الأمريكي أيقن أن المفاجأة والسرعة والتعامل بعنف هو ما سيضمن له السيطرة في مثل هذه المساحة الصغيرة في ممر القطار.

لقد فعلها من قبل.

عندها فقط، فُتح باب العربة، ودخل ثلاثة رجال شرطة آخرين. ظلوا عند الباب، بعيدًا عن بقية الحشود. تبًّا! سبعة على واحد، لم يخاطروا. لم يتخيل جينتري غير تعطيل أربعة رجال، ثم التقدم خمسًا وعشرين قدمًا وإسقاط ثلاثة آخرين، قبل أن يطلق النار باتجاههم.

قال الشرطي ذو الشعر الرمادي: «قف من فضلك».

ـ لماذا؟ ماذا فعلت؟

ـ قف من فضلك، سأشرح لك.

ـ أنا ذاهب إلى...

ـ لن أطلب مرة أخرى.

أرخى كورت كتفيه ونهض ثم تحرك خطوة واحدة في الممر. اقترب منه شرطي شاب وأداره. سرعان ما قُيدت يداه خلف ظهره. كان الركاب الآخرون في العربة ينظرون إلى ما يحدث بذهول. وظهرت الهواتف المزودة بكاميرات، وبذل جينتري قصارى جهده للابتعاد عنها.

فتشه الضابط الشاب، الذي سرعان ما اكتشف في جيبه السكين القابل للطي، وجراب كعبه في ساقه. راحوا يُفتشون مقعده، ورُفع المسدس عاليًا في الهواء مثل الكأس ليراه جميع من في العربة.

قال كورت: «أنا عميل فيدرالي للولايات المتحدة». قال هذا لأنه لم يكن لديه شيء آخر. لم يكن يتوقع أنٍ يسلموه مسدسه ويربتوا على مؤخرته، لكنه كان يأمل أن يسترخوا قليلًا فيمنحوه فرصة للهروب.

سأل الضابط المسؤول: «أأنت بلا هوية؟».أجابه: «لقد فقدتها».

سأله أحد رجال الشرطة: «لقد قلت هذا. هل كنت في جواردا هذا الصباح؟». لم يجبه الرجل الرمادي، الذي أحاطت به كاميرات الهواتف ونظرات التحديق الواسعة، فلم يشعر أنه رمادي بما يكفي. لم يرد. تحدث أحد رجال الشرطة الجدد عند المدخل عبر جهاز الاتصال اللاسلكي. بعد لحظة أبطأ القطار.

20

تلقي ريجيل المكالمة في الساعة الحادية عشرة وثمانٍ والثلاثين دقيقةً صباحًا.

ـ سيدي، كروجر مرة أخرى. لقد نُقِل جينتري من القطار في قرية صغيرة تسمى مارناند. ليست محطة توقف مجدولة.

ـ من استوقفه؟

ـ الشرطة. إنه مقيد بالأصفاد ويجلس على الرصيف محاطًا بالشرطة. سمعت أحد رجال الشرطة يطلب وسيلة نقل، ستُرسل عربة من لوزان. يجب ألا يستغرق الأمر أكثر من ثلاثين دقيقة.

ـ هل نزلت من القطار أيضًا؟

ـ لم يُسمح لأي ركاب آخرين بالخروج. سأنزل في لوزان وأذهب مباشرة إلى مركز الشرطة؛ أنتظر وصوله.

حدق ريجيل إلى خريطة على جهاز الكمبيوتر الخاص به، بينما أنهى المكالمة واتصل بلويد. وقال: «أخبر الفنزويليين أن جينتري في مارناند، على بعد ثلاثين كيلومترًا تقريبًا شمال لوزان، إنه في قبضة الشرطة».

رد الأمريكي على الفور: «لا يجب أن يحصلوا عليه! نحن بحاجة إليه!». نظر ريجيل عبر مكتبه، إلى رؤوس عشرات الحيوانات اللامعة، تذكارات صيده التي تبادله النظرات. قال: «أعرف ذلك. أخبروا الفنزويليين أن لهم مطلق الحرية في استخدام السلاح. يمكنهم تدمير كل من يعترض طريقهم».

ـ هذا هو المطلوب! هل هم بارعون؟

ـ إنهم من مكتب الاستخبارات العامة، الشرطة السرية لهوجو تشافيز. إنهم أفضل ما يمكن لكاراكاس أن تقدمه.

ـ حسنًا، هل هم بارعون؟

ـ سنعرف في أقرب وقت، أليس كذلك؟

***

جلس جينتري يرتجف على مقعد خشبي على الرصيف الوحيد بمحطة القطار الصغيرة. قُيدت يده اليسرى إلى ذراع المقعد الحديدي. وقف حوله خمسة من رجال الشرطة في البلدية وسط تساقط الثلوج الخفيف. وظل الباقون في القطار.

شعر أن أوصافه انتشرت بعد المشاجرة الصباحية في جواردا. وخمَّن أن الدراجة المسروقة قد شوهدت في محطة القطار في أرديز مما جعل الشرطة تُخضع فتاة التذاكر للاستجواب. لا بد أنها ستتذكر أجنبيًّا في أول قطار متجه إلى زيورخ في ذلك الصباح، فزيورخ مركز النقل الرئيس في الدولة الصغيرة، ولا يحتاج الأمر سوى تنبيه كل شرطي للتحقق من كل قطار وحافلة وطائرة من زيورخ بحثًا عن رجل ذي شعر بني، في الثلاثينيات من عمره، يسافر وحده.

دلَّت العلامة على الرصيف على مارناند. لم يكن لديه أي فكرة عن موقع هذه البلدة على الخريطة، لكنه شعر أنه ربما نام لمدة ساعتين، لذلك شك أنه لم يبتعد عن جنيف. كان عليه أن يجد طريقة للتخلص من هؤلاء الرجال والعودة إلى الطريق. أحسَّ أن هناك ساعة تدق بالعد التنازلي في عقله.

جلس بجواره قائد الشرطة، شعره أبيض مثل قمة جبل مغطاة بالثلوج، وتفوح منه رائحة مرطب ما بعد الحلاقة.

ـ ننتظر سيارة من لوزان. سيأخذونك إلى المحطة. يأتي المحققون ويتحدثون إليك بشأن القتال في جواردا والمسدس الذي معك في القطار.

ـ نعم، يا سيدي.

كان جينتري يحاول أن يتعامل بود الآن، وباستراتيجية مسالمة، لأنه لم يكن يعرف ماذا يفعل. لن يؤدي ذلك إلى إطلاق سراحه، ولكن قد يساعده على أن يحتوي غضب الشرطة، مما يجعلهم يقللون من حذرهم بما يكفيه لاستغلال الفرصة.

مع ذلك، كان حمل أحد مسدسًا في سرواله في سويسرا يعادل خطورة القتل الجماعي في أمريكا.

ـ هل يمكنني الذهاب إلى الحمام؟

ـ لا. احبس بولك.

ضحك رجال الشرطة الأصغر سنًّا.

تنهد كورت، كان الأمر يستحق المحاولة.

كان الطريق المتعرج إلى يساره، أسفل الرصيف، ذا حارتين، ويرتفع إلى أعلى، وكان رطبًا ونظيفًا وأسود مثل عرق السوس، ويشطره تساقط الثلوج البيضاء على التل. كانت هناك شاحنة ذات ألواح خضراء دكناء على ارتفاع أعلى التل، على بعد خمسين ياردة من حافة المحطة، ومائة ياردة أو نحو ذلك من حيث يجلس كورت ورجال الشرطة على رصيف المحطة الوحيد.

انفجرت أبخرة العادم من كاتم صوت السيارة وارتفعت في الهواء.

نظر كورت إلى يمينه، ما زال يحاول إيجاد فرصة قبل ظهور المزيد من رجال الشرطة. على يمينه كانت حافة القرية نفسها. وكانت هناك بيوت طينية تشبه عيش الزنجبيل متناثرة بين الأبنية الأكثر حداثة، وتصاعدت خيوط الدخان الناتجة عن احتراق الخشب في الهواء فوق البيوت، لتتلاشى في السماء الرمادية فوقها.

تهادت شاحنة خضراء قادمة من القرية، مماثلة لتلك التي على يمينه، ودخلت محطة وقود على بعد ثلاثين ياردة حيث يجلس كورت، ثم وقفت في ساحة انتظار السيارات بعيدًا عن المضخات.

توصل الرجل الرمادي في ثوانٍ إلى أنه تعرض للحصار. صاح مناديًا الشرطي المسؤول على الفور: »أيها الرقيب!». كان الرجل الأكبر سنًا يتحدث مع مرؤوسيه، لكنه سار باتجاه كورت على الرصيف.
قال جينتري: «أرجو أن تنصت إليَّ بعناية. لدينا مشكلة. على جانبينا شاحنتان خضراوان. في هاتين المركبتين أو بالقرب منهما هناك رجال قد أُرسِلوا لقتلي. لن يترددوا في قتلك وقتل رجالك للوصول إليَّ».
تلفّت الشرطي يمينًا ويسارًا باتجاه كلتا الشاحنتين ثم عاد إلى جينتري.
ـأي هراء تنطق به؟
ـسيكونون قتلة مدربين تدريبًا عاليًا. عليك أن تنقلنا جميعًا إلى الداخل، في المحطة. أسرع!
سحب الشرطي جهاز الاتصال اللاسلكي الخاص به من حزامه ببطء ووضعه أمام فمه. لم تبتعد عيناه عن جينتري. أمر رجاله بالألمانية أن يأتوا، ثم تحول إلى اللغة الإنجليزية: وقال: «توجد شاحنتان خضراوان. واحدة في الشمال والأخرى في الجنوب. هذا الرجل يقول لي إنهما تحملان رجالًا جاؤوا هنا لإنقاذه».
رد قائلًا: «لا، ليس إنقاذًا! بل قتلًا!».
نظر الخمسة جميعًا إلى أعلى الرصيف وأسفله صوب الشاحنتين اللتين لم يصدر عنهما أي تحرك. قال ضابط شاب أشقر بينما يفك صمام الأمان عن مسدسه: «إنها خدعة».
سأل رجل آخر: «من أنت؟». لم يجب كورت. بدلًا من ذلك قال: «علينا أن ندخل بسرعة».
قال الشرطي الرئيس لضباطه: «انتبهوا له. سأتحقق من هذا». واستدار ليمشي على الرصيف باتجاه الشاحنة في نهاية محطة الوقود.
صاح كورت: «أيها الرقيب! أنت حقًا لا تريد أن تفعل ذلك». لكن الشرطي ذا الشعر الفضي والمعطف الثقيل تجاهله، ونزل درج

الرصيف واتجه صوب محطة الوقود الصغيرة. كانت الشاحنة الخضراء ذات نوافذ مظللة، ثابتة مكانها، يتدفق الدخان من شكمانها، وينجرف بعيدًا في الهواء خلفه. عندما اقترب ضابط الشرطة من الشاحنة، تحدث جينتري إلى الرجال الأربعة المتبقين.

وقال: «سيموت. لا تفزعوا، سيتعين علينا جميعًا العمل معًا. إذا حاولتم الركض فسيطلقون عليكم النار. إن أردتم النجاة، فقط افعلوا ما أقوله».

قال أحدهم: «اخرس»، وكان الأربعة كلهم ينظرون إلى الرقيب وهو يقترب من النافذة الجانبية للسائق، واستخدم جهاز الاتصال اللاسلكي الخاص به لينقر على الزجاج الملون.

توسل كورت إلى الضباط الذين يرتدون الزي الرسمي ويراقبونه، قائلًا: «لا تنسوا أن هناك شاحنة أخرى!». كرر الشرطي: «اخرس». لاحظ جينتري قلقهم المتزايد حيث تلتفت رؤوسهم ذهابًا وإيابًا بين الشمال والجنوب.

نقر الرقيب بقوة على الزجاج، بينما راقب جينتري والآخرون الوضع. بدا أن الرجل ذا الشعر الفضي ينظر من كثب عبر الزجاج المعتم. لا بد أنه رأى شيئًا ما، بعض الحركة أو مؤشرًا آخر على الخطر، إذ سرعان ما تراجع رجل الشرطة السويسري ومد يده إلى المسدس المعلق في حزامه.

حطمت طلقات الرصاص النافذة الجانبية للسائق، تراجع الشرطي على الفور، وفُتح الباب حيث نزل رجل يرتدي بذلة سوداء وقناع تزلج من خلف عجلة القيادة إلى الرصيف، وفي يده مسدس آلي صغير. أطلق ثلاث طلقات أخرى على جسد الرقيب المترنح، وسقط الضابط السويسري على ظهره ميتًا.

سحب جميع رجال الشرطة السويسريين الأربعة حول كورت مسدساتهم على نحو مرتعش. سيكون من الصعب عليهم التصويب

بدقة من بعد ثلاثين ياردة، لكن الشباب أطلقوا الرصاص بينما يصرخون من الصدمة، وسقطوا بحثًا عن ملجأ.

صاح كورت وهو ينزل على الأرض الأسمنتية: «الشاحنة الأخرى! الشاحنة الأخرى!». استلقى على الرصيف البارد بجوار المقعد، وذراعه اليسرى فوقه مقيدة بذراع المسند.

نظر رجال الشرطة خلفهم، ورأوا أربعة رجال ملثمين يسيرون على الطريق الأسود باتجاه مواقعهم. يحملون جميعًا بنادق مماثلة لتلك التي كان يحملها الرجل في محطة الوقود، والذي انضم إليه الآن ثلاثة حلفاء. اقترب الثمانية جميعًا بثقة، كما لو كان لديهم متسع كبير من الوقت.

صرخ كورت: «فُكَّ قيدي! علينا أن نتوارى بالداخل!». لكن رجال الشرطة أُجبِروا على الاختباء بالأسفل في المنصة الأسمنتية، ما بين جلوس القرفصاء مختبئين خلف عربة دفع خشبية أو الاستلقاء في العراء، وأطلقوا رصاصًا لم يصب المسلحين، بينما اقترب ذوو الثياب السوداء مهدِّدين، عبر دوامات الثلج المتساقط، من اتجاهين متعاكسين.

صرخ شرطي شاب أصلع في الميكروفون المثبت على كتف سترته، إذ يجثم على بعد خمس عشرة قدمًا من جينتري، خلف عربة أمتعة وفرت له غطاءً واهنًا أمام الرجال على التل الشمالي، ولم توفر له أي غطاء من الرجال في محطة الوقود جنوبًا.

شاهد كورت رشقات نارية تصطدم بخرسانة رصيف القطار، وتتسابق نحو الشرطي الشاب إذ ينظر في الاتجاه الآخر ويصرخ في الميكروفون، لم يكن يدرك اقتراب كل انفجار من الأسمنت والغبار منه، حتى اخترقت طلقات المسدس الآلية الأسرع من الصوت ساقيه وظهره. استدار على جانبه وانتفض على الخرسانة، ثم توقفت آلام الموت بالسرعة التي بدأت بها.

صاح جينتري: «فليعطِني أحدكم مسدسًا!». تجاهله رجال الشرطة الثلاثة المتبقون. أطلقوا النار إطلاقًا غير دقيق، وأعادوا حشو الطلقات ببطء وأيدٍ مرتجفة.

التف كورت حول الخرسانة الباردة. وضع حذاءه على الأرجل الحديدية للمقعد وركل بأقوى ما يستطيع. حاول يائسًا كسر الطرف الحديدي الكبير الذي قُيِّد إليه، وأن يفصله عن بقية المقعد الخشبي الذي يبلغ طوله اثنتي عشرة قدمًا. قضم القيد المعدني معصمه الأيسر وهو يركل ويسحب. سرعان ما صار الأمر يحدث بشكل منتظم: يركل بقدميه، يُحدِث شقوقًا في الخشب القديم، يشعر بألم شديد في معصمه ويده.

أصاب وابل من نيران الأسلحة الآلية النافذة التي تعلوه، مما أدى إلى كسر الزجاج على المقعد وعلى الأرض في كل مكان. وبينما كان يركل نظر إلى الخلف إلى يمينه. وأصيب شرطي ثانٍ في كتفه ووركه. ألقى مسدسه وتلوى على الأسمنت في عذاب.

استغرق الأمر أكثر من ثلاثين ضربة متزامنة بكلتا قدميه لفصل الطرف الحديدي عن المقعد الخشبي. في آخر ركلة للأسفل بكعب حذائه جذب نفسه بذراعه. كان الألم في معصمه الأيسر شديدًا، لكن المقعد تحطم. زحف جينتري على ركبتيه، وجثا فوق زخارف معدنية ثقيلة ورفعها. ثلاثون رطلًا ما زالت مربوطة بمعصمه الذي تورم وجُرح بشدة. ثبَّت ذراعه المقيدة بالأصفاد فوق المشغولات المعدنية ورفعها من الرصيف. وأمام خط النار من كلا الاتجاهين، ركض نحو الشرطي المصاب وهو يتلوى ألمًا في منتصف الرصيف.

ألقى القطعة الحديدية أمامه على بعد عشر أقدام أسفل الرجل، وانزلق عليها. تشققت على الأسمنت بنفس قدر الضجيج الذي كانت تنبح به طلقات الرصاص في كل مكان. وتورم معصمه داخل الأصفاد المعدنية.

وصل إلى الرجل وانحنى على الضابط السويسري. صرخ الشرطي إلى منقذه: «فخذي! لقد أصبت بشدة في...».

قال كورت: «آسف». وسحب مفتاح الأصفاد من حزام الأدوات الخاص بالشرطي الذي تلطخ بدم الشاب.

ربض بالأسفل مواجهًا أنينًا أسرع من الصوت على بعد بوصات من أذنه اليمنى. دفع القاتل الأمريكي مسند الذراع الحديدي المزخرف أمامه باتجاه حافة المنصة، وراح يزحف، ثم دفعه مرة أخرى.

حاول الشرطي المصاب أن يمسك بساق كورت إذ يبتعد الأمريكي، وهي محاولة بائسة لطلب المساعدة من المنقذ واستعادة السيطرة على سجينه، كما لو أن ذلك لا يزال يمثل مشكلة. ركل جينتري يد الرجل المحتضر، وأخذ مسدس الشرطي من الرصيف، ثم واصل الزحف. طاردت كورت رشقات من رصاص الأسلحة شبه الآلية بطول الطريق المؤدي إلى حافة الرصيف ولم تصبه، بينما يتدحرج هو والمرساة الحديدية.

انخفض جينتري أربع أقدام على الأرض خلف حافة الرصيف التي استعملها غطاء حماية. شعر بالذعر ووصل الأدرينالين إلى دماغه عندما فقد المفتاح للحظة في الثلج، لكنه سرعان ما استخرجه. نهض على ركبتيه، وحافظ على ثبات أصابعه الحمراء المجمدة في أثناء فكِه الأصفاد من معصمه الأيسر.

من بين رجال الشرطة الخمسة الذين أنزلوه من القطار، ظل اثنان فقط يقاتلان. جثم كلاهما على الرصيف غير مستترين بدرجة كافية.

لم يشأ كورت وضع رأسه في مرمى البصر، أو أن يشاهده أحد وهو يسقط من الرصيف، فتحرك إلى أسفل على بعد بضع أقدام قبل أن يحدق مرة أخرى لأعلى. صاح في رجلي الشرطة، وطلب منهما كسر الغطاء والتقدم إليه. صاح أحدهما قائلًا إن ذخيرته نفدت، وأصيب

الآخر في يده اليمنى بينما يطلق النار على أصيص حجري بيده اليسرى، ما أكد لجينتري أن الرجل بارع في التصويب بيده اليمنى.

لفتت بعض الحركة في محطة القطار أنظار جينتري. كان المدنيون القلائل في المحطة قد هربوا منذ فترة طويلة أو انبطحوا أرضًا، لذلك عندما رأى رجلين يركضان نحو المنصة داخل المبنى، علم كورت أن بعض المهاجمين تمكنوا من تطويق موقعه.

فتح باب رصيف المحطة رجلان ملثمان بقناعين أسودين فوق الشرطي الذي أصيبت يده.

رفع كورت مسدس بيريت في يده اليمنى؛ كانت اليسرى عديمة الفائدة مع إصابته الجديدة. على مسافة اثنتي عشرة ياردة، أطلق جينتري النار في وجه الرجلين الملثمين. تسبب اندفاعهما إلى جانب تأثير الرصاص في تعثر أحدهما بالآخر، والسقوط من الباب معًا على الرصيف البارد.

لم يطلق مسدس بيريتا 92 الذي استعاره كورت الرصاصة الثانية.

فرغت ذخيرته.

قال: «أنت! مرر لي تلك البندقية!».

كانت هذه المرة الثالثة التي يطلب فيها سلاحًا. الاختلاف هذه المرة بالطبع هو أن أول مرتين كانتا قبل أن يرى الشرطيان الناجيان ما فعله. على الفور مرر الشرطي الشاب ذو اليد الملطخة بالدماء إحدى بنادق المسلحين السوداء الصغيرة عبر الرصيف إلى جينتري. أمسكها كورت وانبطح لأسفل.

كانت من طراز **(إم بي 5)** الأكثر انتشارًا في العالم. أمسكها الرجل الرمادي بأريحية. سحب الأمريكي الخزينة وكانت محشوة بثلاثين طلقة من عيار تسعة ملليمترات.

صاح قائلًا للشرطي المصاب أن يمرر البندقية الأخرى للرجل غير المصاب. وعندما حدث هذا قال كورت: «شغِّل الوضع شبه الآلي!

أطلق طلقة واحدة في كل مرة في كل اتجاه! افعل ذلك حتى يفرغ! هل تفهم؟».

صاح الشرطي: «نعم[1]!». ـ هيا!أسرع كورت منحنيًا بطول حافة الرصيف، ثم تحرك شمالًا، وطوى المسافة بينه وبين الأربعة الذين أتوا من الشاحنة على التل. اقترب قطار من الشمال. سمع كورت صفارات الإنذار من اتجاه القرية، فحاول أن يفرغ عقله من أي شيء وهو يزحف إلى الأمام بمحاذاة مسار القطار عبر الثلج. الآن سيحاصر الرجال الذين يعرفهم الرصيف بالقرب من الزاوية الأسمنتية في المقدمة.

خفق معصمه، شعر بوخز في ركبتيه من تمزقات زجاج النافذة التي تلقاها في أثناء هروبه من لَازلو سزابو في بودابست بعد الظهر في وقت سابق. كان ألم فخذه المتواصل، إثر إصابته في أثناء إطلاق النار يوم الخميس، أقل متاعبه في الوقت الحالي.

سمعهم على بعد عشر أقدام من زاوية الرصيف الأسمنتية؛ رجال يتحدثون الإسبانية. الإسبانية؟ هل يسعى كوكب الأرض بالكامل لقتله؟ لقد أخفتهم الدرجات حتى بلغوا الرصيف. وبالرغم من الرنين في أذني جينتري، فإنه استطاع تحديد أصوات النقر، وشدَّ الزنبرك، وسُمعت أصوات أحدثها تغيير خزينة مسدس **(إم بي 5)**

عندما نهض، واجه رجلين ملثمين يقفان أيضًا. أطلق جينتري بيد واحدة دفعة أوتوماتيكية كاملة، في مسافة أقل من عشر أقدام. سقط كلا المهاجمين، وأطلق دفعة قصيرة أخرى على كل جسم يرتجف. ألقى المسدس الرشاش من يديه، وأخذ مسدسًا جديدًا من مسلح ميت، ثم دار حوله وركض عائدًا إلى الرصيف.

---

(1) بالفرنسية.

لم يفكر قط في الهروب، بالرغم من أنه كانت لديه فرصة مثالية للهروب من فرقة القتل الناطقة بالإسبانية والشرطة السويسرية. ولكن كانت هناك معركة محتدمة، وقد تورط فيها كورت بالفعل، ولا يبدو فض الاشتباك في هذه المرحلة صائبًا.

ما زال اثنان من رجالِ الشرطة الأبرياء على قيد الحياة، لكن لن يصمدا بمفردهما طويلًا. مع اقتراب صفارات الإنذار، ضربت الأضواء الساطعة الألواح الزجاجية القليلة المتبقية في محطة القطار. ركض كورت جينتري إلى الوراء لمساعدة الشرطيين، ممسكًا بمسدس **(IIK)** بذراعه السليمة، باحثًا عن أهداف جديدة.

21

جلست كلير فيتزروي على سريرها ونظرت من النافذة إلى الحديقة ثم الغابة الكثيفة وراءها. كانت السماء باهتة ورمادية منذ وصلوا القصر بعد ظهر اليوم السابق، ولكن خلال الصباح تشتت الغطاء السحابي المنخفض، والآن يمكنها أن ترى أفقًا واسعًا.

كان غداؤها بجانبها لم يُمَس. وأختها في الطابق السفلي في المطبخ مع أمها وأبيها والرجال ذوي المعاطف الجلدية الذين يتبعون والدها أينما ذهب، ولكن كلير أُعفيت من الجلوس معهم على الطاولة. أخبرت والديها بآلام بطنها، واستأذنت أن تعود إلى غرفتها.

كانت آلام البطن حقيقية، وذلك بسبب القلق الذي انتابها بشدة لأكثر من يوم، والخروج العاجل من المدرسة، ووجهي والديها الوجلين، والشجار في الهاتف بين والدها وجدها، ووصول الرجال المسلحين، والرحلة في السيارات السوداء الكبيرة إلى القصر في الريف.

لفت انتباهها شيء في الخارج. انحنت بالقرب من نافذة غرفة النوم وحدقت، ثم وقفت بحماسة. يمكنها أن ترى الأبراج من مكانها. إنها تتذكر تلك الأبراج! إنها أبراج كاتدرائية نوتردام الضخمة في بايو، وكانت تعلم أن بايو لديها مركز شرطة، بالقرب من عجلة المياه الكبيرة التي أخذها والدها وأختها إليها. تذكرت رجال الشرطة بزيهم الرسمي وهم يبتسمون لها في الصيف الماضي.

ربما يمكنها أن تركض عبر الحديقة الخلفية الشاسعة وبستان التفاح إذا استطاعت أن تخرج من المنزل على الفور، وتشق طريقها عبر الغابة إلى بايو في هذا الجو البارد. ما إن تصل، ستعثر على مركز الشرطة وتخبرهم بما يحدث. يمكن أن يأتوا للمساعدة، ويجبروا الرجال ذوي

المعاطف الجلدية الذين يتحدثون لغة أجنبية قبيحة على أن يسمحوا برحيل عائلتها.

سيفرح والداها كثيرًا.

كانت مسافة بعيدة للغاية، لكنها على يقين أن بمقدورها تحقيق ذلك. كانت أسرع لاعبة جناح في فريق كرة القدم. يمكن أن تنزلق إلى القبو وتخرج من النافذة الصغيرة المفتوحة، التي هربت منها القطة التي طاردتها هي وأختها في الليلة السابقة.

حسمت كلير فيتزروي ذات الأعوام الثمانية أمرها. أغلقت أزرار معطفها، وسحبت قفازاتها، ثم فتحت باب غرفة النوم. ما إن دخلت الرواق الطويل ذا الإضاءة الخافتة، سمعت أصواتًا عند أسفل السلم، لكنها تأتي من الطابق العلوي. اندفعت بسرعة عبر الممر وصعدت إلى السلم. تحركت قدماها الصغيرتان برفق لتجنب إحداث ضوضاء، فخف وزنها مع كل خطوة.

سمعت صرخة مفاجئة فوقها. توقفت مكانها ونظرت إلى الأعلى. كانت هناك صيحة أخرى. جاءت من الطابق الثالث.

عاودت النزول مرة أخرى، لكنها نظرت مرة أخرى إلى مصدر الضوضاء، وسمعت صوتًا منخفضًا.

كان الجد دونالد، بدا كأنه يبكي. سرعان ما شقت طريقها إلى الطابق الأول متجاوزة المطبخ وقاعة الطعام بحذر، لأن والديها وأختها ما زالوا يتناولون الغداء، وسيغضب والدها لو رآها، وسيطلب منها العودة إلى غرفتها فورًا.

انحرفت عن القاعة إلى اليمين إلى درجات حجرية تؤدي إلى قبو النبيذ. تحركت كلير بسرعة، لكنها حرصت على تجنب أي ضجة قد تفضحها. استدارت وركضت إلى زاوية، وكادت تصطدم بحارس ضخم من الخلف.

توقفت كلير فجأة. كان الرجل يرتدي سترة طويلة العنق لونها بني، واستطاعت من الخلف أن ترى حزام البندقية الأسود يتدلى على صدره. بينما ثبت مسدسًا وجهاز راديو على حزامه. كان يتفقد القاعة بعيدًا عنها، صامتًا تمامًا في تحركاته.

لم تجرؤ كلير الصغيرة على العودة أو الاستدارة والهرب. لقد وقفت في صمت، في منتصف الردهة خلفه. مشى ببطء. على بعد خمس أقدام في البداية. ثم عشر، ثم عشرين. فتح الحارس بابًا على يساره، علمت كلير من استكشافاتها مع أختها في الليلة السابقة أن هذا هو الحمام الصغير.

دخل وأغلق الباب وراءه.

سمعت خلفها مزيدًا من الرجال يتحدث بعضهم مع بعض. أسرعت لتتجاوز باب الحمام حتى بلغت درجات القبو الحجري. بعد دقيقة واحدة صعدت إلى الرف، ودفعت جسدها الصغير عبر النافذة، وضغطت نفسها للخارج فسقطت على عشب الحديقة الخلفية.

نهضت بانحناءة والتفتت يمينًا ويسارًا. رأت من مسافة رجلًا يصطحب كلبًا كبيرًا بحبل. كان يتحرك في الاتجاه المعاكس تمامًا كالرجل في الردهة. نظرت كلير إلى ما وراء النافورة الحجرية البيضاء، متجاوزة أشجار التفاح عبر الأفق.

إنها الأبراج؛ أبراج كاتدرائية بايو.

نظرت مرة أخرى حولها ثم غادرت. نهضت وركضت بسرعة قدر ما استطاعت ساقاها الصغيرتان. كان الجو باردًا، وتقطّعت أنفاسها وهي تتخطى النافورة حتى وصلت إلى الجانب الآخر، ثم ركضت كأنها تركض للمرة الأولى في حياتها.

منذ بضعة أسابيع سجلت هدفًا في مباراة ضد مدرسة وولنت تري ووك الابتدائية. كانت على الجهة اليسرى عندما استحوذت على الكرة بعد تشتيت سيئ من الدفاع. استعادت الكرة باتجاه المرمى بأقصى

سرعة، وراوغت بالقرب منه، وركلت على مسافة منخفضة، وكان هذا هدفها الأول هذا الموسم.

كان والدها سعيدًا للغاية حتى أنه اصطحب الفتاتين لتناول البيتزا في طريقهم إلى المنزل. ظل يذكر هذا كل يوم منذ ذلك الحين.

ركضت كلير عبر العشب الأخضر المشذب كما لو كانت تركض بالكرة أمام المرمى. كان عليها فقط أن تتجاهل الهواء البارد الذي يلدغ صدرها، ووخز الألم الخفيف في ساقيها. عليها فقط أن تصل إلى البستان، حيث لا يستطيع الأشرار القبض عليها. عليها فقط أن تصل إلى أبراج الكنيسة حتى تعثر على مركز الشرطة. عليها فقط أن تخبر شخصًا ما بما يحدث في القصر. عليها أن تنقذ عائلتها وحسب.

كانت على بعد بضع ياردات فقط من بداية البستان، يمكنها أن تشم بالفعل رائحة التفاح الحلو، وحينها طقطق انفجار البندقية الذي يصم الآذان عبر العشب الواسع خلفها، وتردد صداه ممتدًا لأبعد من خط الأشجار أمامها. تعثرت وسقطت بين الشجيرات المنخفضة عند حافة البستان.

***

صرخ لويد مذهولًا: «ما هذا بحق الجحيم؟»، رغم أنه يعرف رصاصة البندقية إذ سمعها. أخرج رأسه من مركز القيادة. من الواضح أن الحارس في نهاية القاعة في الطابق الثالث كان جاهلًا مثل السائل.

اندفع لويد بعيدًا عنه على الدرج. لم يكن الشاب الأمريكي يرتدي معطفه، وقد حل رابطة عنقه حول رقبته، وياقته مفتوحة. شمر كميه بينما غطى العرق إبطه ووجهه وشعره. كان مزيجًا من العرق والدم الذي لطخ قميصه، حيث نظف مؤخرًا جرحًا حديثًا.

عندما هبط إلى الطابق الثاني كاد يصطدم بأحد البيلاروسيين كان قادمًا من أجله.

سأل لويد: «ماذا يحدث؟ من يطلق النار؟».أجابه: «تعالَ، من فضلك أسرع!».

اندفع لويد وراء الرجل ونزل إلى الطابق الأول. كان هناك صراخ من منطقة المعيشة، صوت إليز فيتزروي قادمًا من المطبخ. يبادلها رجال مينسك الصياح. ظهر السيد فيليكس وسأل لويد عما حدث، لكنه أوصِيَ بشدة بالعودة إلى المكتبة وإغلاق الباب. همَّ لويد بالدخول إلى المطبخ، لكن الحارس الذي سار أمامه أمسكه من ذراعه وقال شيئًا لكن لغته الإنجليزية كانت ضعيفة. أبعد لويد يد الرجل عنه، لكنه تبعه خارج الباب الخلفي. في البداية لم يرَ المحامي الأمريكي سوى النافورة الحجرية البيضاء، والعشب الأخضر، وبستان التفاح البعيد، والسماء الزرقاء الصافية.

تبع الحارس حول النافورة، ووجد ثلاثة بيلاروسيين وكلبًا يقف فوق جسم ما على العشب.

جينتري؟

لم يصدق لويد، كيف نجح في ذلك بهذه السرعة، تنحى الرجل وكلبه جانبًا، مما أعطى لويد رؤية واضحة للجسد ووجهه المستلقي على العشب. تشنج فك لويد. وقال: تبًّا! تبًّا! هذا آخر شيء أحتاج إليه اليوم!».

بعد ذلك ظهر رجل أمن آخر من البستان، على بعد مائة وخمسين ياردة أخرى. كان يمسك بحبل كلب صيد أسود كبير في يده اليمنى، وعلى صدره بندقية، بينما أحكم قبضة يده اليسرى حول معصم فتاة صغيرة ذات شعر بني، إحدى التوأمين. لم يستغرق لويد الوقت الكافي لمعرفة اسميهما، فضلًا عن التمييز بينهما.

سحب لويد الراديو من ساق البيلاروسي الذي قاده إلى الفناء. ضغط على زر الإرسال. وقال: «أنت. اصحبها إلى المدخل الأمامي. لسنا بحاجة إلى طفلة هستيرية بيننا».

قال الرجل البعيد عبر جهاز الاتصال اللاسلكي الخاص به: «حسنًا يا سيدي». جذب الفتاة بقوة، وسحبها بطول حافة البستان، بعيدًا عن جسد والدها الذي انكفأ على وجهه وسط العشب الكثيف، وفي مؤخرة رأسه ثقب امتد ليحفر حفرة في وجهه.

***

تراجع جينترى إلى الطريق السريع واتجه جنوبًا إلى لوزان، ثم تجاوز الطريق ليدور حول بحيرة جنيف غربًا. كانت شاحنته الخضراء تحتوي على عدد قليل من الثقوب التي يبلغ قطرها تسعة ملليمترات، لكن مؤشرات الزيت والوقود ظلت ثابتة. في محطة القطار وراءه مات ما لا يقل عن أربعة من الأمريكيين الجنوبيين في الثلج. أما البقية فقد حاصرهم ثمانية رجال نزلوا من عربات الشرطة الأربع التي وصلت لتوها إلى مكان الحادثة. كان كورت قد عبر القضبان لحظة مرور القطار الكبير بين المدن. ثم عاد من أعلى التل، وصعد إلى الشاحنة الخضراء التي وجد بداخلها المفاتيح وأدار المحرك، والآن كان يفر مبتعدًا.

قبل خمس عشرة دقيقة كان أحد أهم المطلوبين في سويسرا، وعلى الرغم من أن الجنود اللاتينيين الذين أطلقوا النار عليه في محطة القطار قد احتلوا المركز الأول الآن، فإن كورت أدرك أنه ما زال في المركز الثاني، وسرعان ما ستعلن السلطات المحلية أن رجلًا مطلوبًا بشدة، يقود شاحنة خضراء مثقوبة بطلقات الرصاص.

22

لم يبلغ أحد البيلاروسيين في قصر لوران عن المروحية. ونتيجة لذلك، حدث هرج ومرج عندما ظهرت مروحية سيكورسكي **(76S)** أعلى الغابة في الجنوب، وانحرفت بقوة لتهبط عند مهبط طائرات الهليكوبتر بجوار موقف السيارات المفروش بالحصى.

لويد وحده هو من أُبلغ بوصول الطائرة المروحية من باريس. جلس في غرفة التحكم، واستمع إلى صوت دوران مراوح الطائرة بجوار النافذة الزجاجية. لقد أرسل الفني إلى الطابق السفلي لقضاء استراحة غداء، ودفع كرسي فيتزروي الذي قيد به السير دونالد إلى الحمام المجاور.

جلس لويد وحده وحدق إلى الجدار الحجري أمامه. بعد ثلاث دقائق، فُتح الباب خلفه. لم يلتفت لويد على الفور.

لويد؟ لويد؟

أدار المحامي الأمريكي كرسيه الدوار ببطء لمواجهة أحدث ضيف في القصر. كان ريجيل رجلًا ضخمًا، يبلغ طوله مائة وخمسة وتسعين سنتيمترًا على الأقل. كان شعره أشقر مموجًا، وحاجباه الكثيفان بهما بقع شقراء ورمادية.

كان يرتدي سروالًا سميكًا بلونٍ كاكي ومعطفًا رياضيًّا من جلد الغزال، وقد فتح ياقة قميصه. كانٍ يكبر لويد بنحو عشرين عامًا أو أكثر، لكنه لم يترك جسده يترهل، وقد علم لويد بالفعل أن صوته القوي وملامحه الحادة سيجعلان الظهيرة صعبة ومرهقة.

لم ينهض لويد. وقال: «سيد ريجيل. أهلًا بك في قصر لوران». كان ريجيل غاضبًا. وقال: «ألم يخطر ببالك أن تذكر للحراس أنني سأصل؟ أخبرني ثلاثة بيلاروسيين أنهم كادوا يطلقون النار على طائرتي».

أجابه: «لو حدث هذا لكان أمرًا مؤسفًا».

بدا ريجيل كأنه سيواصل الجدل، لكنه تراجع عن ذلك.

ـ أين ممثل أبي بكر؟ـ السيد فيليكس في الطابق السفلي. لقد وضعناه في غرفة مجاورة للمكتبة. أخبرته أنني سأتصل إذا كان لديّ أخبار.

ـ سمعت أن جينتري نجا من حبل المشنقة مرة أخرى.

ـ سمعت.

ـ رغم ذلك جنيف تحت سيطرتنا، إذا ظهر هناك فسنمسك به.

ـ هذا ما تواصل قوله.

ـ ربما لم نرده قتيلًا في الشارع برصاصة واحدة، لكننا نضربه ضربات متقطعة، سرعان ما ستنفد أسلحته وذخيرته وطرق هروبه ووقته ودمه.

ـ أتمنى أن تكون على حق. يكاد رهائني ينفدون.

جلس ريجيل على كرسي الفني وقال: «كما أخبرتك عبر الهاتف في الطريق، أمرني مارك لوران بأن أقدم خدماتي على أرض الواقع. لا تنظر إليَّ هكذا؛ أنا لا أريد أن أكون هنا مثلما لا تريد أنت هذا. هذه الفوضى التي خلقتها وضاعفتها لن تساعد حياتي المهنية، بغض النظر عن النتيجة. أنا فقط أنظف، أنا الرجل الذي يمنع تحول الوضع المأساوي إلى ما هو أسوأ. عندما سمع لوران عن إطلاق أحد الحراس النار على الرهينة. حسنًا، قال على الفور: كيرت، اذهب هناك. افعل ما ينبغي لك فعله».

كان رد لويد مشوبًا بالسخرية والإرهاق: «لا داعي للقلق يا سيد لوران. أشك أنه سيحدث مرة أخرى. لا مزيد من الآباء هنا ليموتوا».

ـ أين عائلة فيتزروي الآن؟.

ـ محتجزون في غرفة بالأسفل في الطابق الثاني.
ـ هل يعرفون عن إطلاق النار؟
ـ الطفلتان لا تعرفان، الأم تعرف.
ـ كيف تجاوبَتْ؟
ـ حقنها أحد حراسي المقربين بما يكفي من المسكنات لتسهل السيطرة عليها لبعض الوقت.
أومأ ريجيل. وسأل: «وأين السير دونالد؟».
أشار لويد إلى باب عبر الغرفة وقال: «هناك».
سأله: «ما الذي أدى إلى إطلاق النار؟».
هز لويد كتفيه، وبدا للحظات غير مهتم بالعملية برمتها ثم قال: «إحدى القاذورات الصغيرات هربت. رآها قناص على السطح، وأطلق عليها النار. كنت مشغولًا في ذلك الوقت، وأغلقت الراديو الخاص بي. عندما طاردها الحراس جُنَّ فيل، وظن أنهم سيؤذونها على ما أعتقد. اندفع بلا أمل في وجه الفتيان المسلحين من مينسك في الردهة، وانطلق من الباب الخلفي لإحضار ابنته».
ـ ثم؟ ـ ثم أطلق القناص النار عليه.
نظر ريجيل من النافذة إلى الحديقة الخلفية وقال: «كان الوغد البائس يحاول فقط حماية أسرته. كان سيعيدها، لن يتخلى عن الآخرين. لا يتخلى أب عن عائلته».
ـ لا أعتقد أن قناصنا رجل عائلة.
ـ هل يعلم السير دونالد؟
ـ نعم، أخبرته.
ـ كيف استقبل الأمر؟
ـ بلا عاطفة على الإطلاق. فقط ظل جالسًا في مكانه.
ـ حسنًا. سأتحدث إليه وأحاول أن أوضح أن هذه كانت حادثة.

ـ حظًّا سعيدًا.

ـ لماذا لا تأخذ استراحة يا لويد؟ تبدو في حالة بشعة.

نهض لويد. رأى ريجيل الدم على قميصه، لكنه لم يقل شيئًا.

قال لويد: «ما زلتُ المسؤول».

هز كيرت ريجيل رأسه استخفافًا: «لا مشكلة لديّ. لا أريد أن أتحمل المسؤولية عن هذه الكارثة أكثر من هذا. أنا هنا فقط للمشورة. ربما أقدم اقتراحات مفيدة من قبيل ألا تفقد أثر فتيات يبلغن من العمر ثماني سنوات، وألا تطلق النار على الرهائن الذين لا يشكلون أي خطر أو تهديد بالفرار، وألا تنسى أن تخبر حراسك بأن مروحية صديقة ستهبط بينهم. اقتراحات من هذا النوع».

وقف لويد وتوجه صوب السلم المؤدي إلى المطبخ دون أن ينطق بكلمة.

عبر ريجيل الغرفة وفتح الباب الذي قال لويد إنه سيجد السير دونالد خلفه. فوجئ الألماني عندما نظر إلى حمام كبير مزين بالبلاط. كان فيتزروي جالسًا على كرسي في منتصف الغرفة المضاءة بالشموع. نظر إلى ريجيل وقد اغرورقت عيناه بالدموع، واحتقنت بالدماء. كان رأسه ويداه وكعباه مثبتة إلى الكرسي بسلاسل حديدية سميكة، وقد تمزق قميصه الملقى على الأرض بجانبه، ليجلس في قميص داخلي ملطخ بالعرق والدماء. تلقى وجهه ضربات، وامتلأ سرواله الصوف الممزق ببقع سميكة من الدم ظن كيرت ريجيل أنها ثقوب.

قال ريجيل: «تبًّا!». خرج من الغرفة، وانعطف ليخرج إلى الردهة، ونادى الحارسين الأسكتلنديين بالقرب من الدرج قائلًا: «أريد إزالة قيود السجين. أريد تنظيفه. ضمدوا ساقيه، وليجد أحدكما ملابس جديدة! تبًّا يا رجل! تحرك!».

بعد خمس عشرة دقيقة، جلس ريجيل على كرسي بجانب حافة فراش مغطى في مهجع بالطابق الثاني. استلقى السير دونالد على

الفراش وحدق إليه. أُطلِقت يدا الرجل الإنجليزي واغتسل، ثم ارتدى ملابس جديدة. وُضعت ضمادة مبللة على صدغه الأيسر حيث أصابته ضربة ضعيفة. ولم تكن الكدمات على ذقنه وعينيه خطيرة.

لم يتحدث أيٌّ من الرجلين في البداية، على الرغم من أن فيتزروي رفض القهوة بهز رأسه. ظلت نظراته واهنة وناقمة.

أخيرًا عثر ريجيل على نقطة لبدء الحديث: «سيد دونالد. اسمي هير ريجيل. أولاً اسمح لي أن أعتذر ـ بصدق ـ عن المعاملة التي تعرضت لها. لم يكن لديّ أي فكرة أن لويد سيـ...حسنًا، لا أعذار. أنا أتحمل المسؤولية عن هذا. سأصحح الأمور».

لم ينطق فيتزروي بكلمة، على الرغم من أن نظرته لم تحمل أي تقدير.

وأكمل ريجيل: «لقد أمرت بإحضار الطعام والماء إليك. ربما شيء أثقل؟ براندي ربما؟ أنتم الإنجليز غالبًا ما تستمتعون برشفة بعد الظهر، صحيح؟».

واصل السجين المسن صمته.

ثم أتبع: «علاوة على ذلك. خالص التعازي في وفاة ابنك. لا يمكنني قول أو فعل أي شيء...».

قال فيتزروي: «إذًا لا تزعج نفسك بحق الله». كان صوته جافًا كورق الصنفرة والحصى.

قال ريجيل: «مفهوم. أنا فقط أريدك أن تعرف.. لم ينوِ أحدٌ حدوث هذا. أؤكد مرة أخرى لا أعذار. كان يجب أن أكون هنا في الموقع طوال الوقت. ما إن سمعت عن الحادثة جئت على الفور. فعل ابنك ما كان سيفعله أي أب. ما كان يجب إطلاق النار عليه». ثم قال مرة أخرى: «لقد فعل فقط ما كان سيفعله أي أب في مثل هذه الظروف».

بدا أن فيتزروي يفكر في هذا، لكنه لم يرد.

ـ من الآن فصاعدًا، سأشرف على رعايتك ورعاية أسرتك. سيتولى السيد لويد تنسيق عملية للعثور على الرجل الرمادي وهزيمته. سأكون أيضًا مسؤولًا عن الدفاعات هنا، لتجهيز الأمور حال تمكن السيد جينتري من تجاوز قتلتنا في الميدان، وإن كنت أستبعد هذا.

ـ سيكون هنا قريبًا يا فريتز[1].

ابتسم ريجيل قليلًا وجلس قائلًا: «لقد هزم ـ أو تسبب في هزيمة ـ الألبان، والإندونيسيين، والفنزويليين، وفقد الليبيون ضحية غير مقصودة في أثناء هروبه منهم. بمعنى أنه تسبب في تدمير ثلاث فرق قتل بالكامل واستنزاف القوة البشرية لفرقة رابعة. ومع ذلك، تفصل بيننا وبينه تسع فرق. أربعون رجلًا أو نحو ذلك. بالإضافة إلى مائة فنان رصيف يبحثون عنه، وأربعة عشر فرد أمن يطوقون هذا القصر. هذا بخلاف الفني هنا الذي يراقب هواتف وأجهزة الكمبيوتر الخاصة بجميع شركاء جينتري المعروفين بطول طريقه المحتمل. وهناك كلام أنه مصاب. من المؤكد أنه مرهق وموارده تتقلص».

قالها فيتزروي بلهجة واثقة: «سيكون هنا». ابتسم الألماني من باب اللطف. وقال: «سنرى» ثم ضاقت عيناه وأتبع: «أيها السير دونالد، أنت محترف. بالتأكيد أنت تعي وضعك. لا أرغب في الاستهانة بذكائك وأخبرك أننا سنطلق سراحك عندما ينتهي الأمر مع الرجل الرمادي، كما تعلم مثلما أعلم، لا يمكننا فقط أن نفتح البوابات ونسمح لك بالخروج. لا أريد أن أكون دراميًا، لكن كما يقولون في الأفلام، أنت تعرف الكثير. لا، بغض النظر عن النتيجة مع عقد جينتري ولاجوس، لن تنجو من قصر لوران، آه أنت تعرف ذلك؛ أنا سعيد لرؤية هذا في عينيك.

(1) جندي ألماني.

لكنني سأقطع لك وعدًا بين اثنين محترفين؛ لن تتعرض التوأمان وزوجة ابنك للأذى. لقد مررن بما يكفي. أحتاج فقط إلى الاحتفاظ بهن هنا حتى يصل السيد جينتري وبعدها هن أحرار. ما لم يطلب الرجل مساعدة آخرين، أو يجلب الشرطة أو الجيش إلى قصرنا الصغير هذا، فلن يكون هناك خطر على المرأة والطفلتين، سواء وقّع الرئيس أبو بكر العقد أم لا.

.. أعدك أيضًا بأنك لن تعاني بعد الآن إهانات السيد لويد».

أومأ فيتزروي برأسه ورفع ذقنه ثم قال: «أريد تكريم جثة ابني».

أجابه ريجيل: «هذا أمر مفروغ منه. سأضمن إحضار النعش المناسب، وسننقل فيليب إلى بريطانيا بطائرة هليكوبتر إلى المكان الذي تختاره زوجته ما إن تعود إلى الوطن».

أومأ فيتزروي ببطء وقال: «افعل هذا، أوجد طريقة لإبعاد الفتاتين عن خط النار عندما يظهر الرجل الرمادي اللَيلة، وسأكون مدينًا لك، ولن أكون عائقًا لمهمتك».

عندما يظهر الرجل الرمادي الليلة. حاول ريجيل أن يمنع ابتسامة صغيرة وتمكن من ذلك. وقال: «أعدك بهذا بكل شرف. هل من شيء آخر يمكنني فعله، لأريحك أكثر حتى معركة القلعة؟».

لم يستطع أن يمنع القليل من السخرية.

ـ أود بشدة أن أتحدث مع كلير إذا استطعت. إنها نوعًا ما كثيرة القلق، يرهقني أن أتكهن بما يدور في رأسها الآن. مجرد دردشة قصيرة بين الجد وحفيدته على انفراد.

ـ كلير واحدة من التوأمين؟ بالتأكيد يمكنني تدبير ذلك.

ـ سيكون هذا رائعًا، شكرًا لك.

***

بعد عشر دقائق، وقف ريجيل مواجهًا لويد في المطبخ. شربا القهوة وتجاهلا السندويتشات على طبق فوق طاولة مطبخ حجرية كبيرة.

ـ لماذا عذبت فيتزروي؟

ـ لم يأخذ الوضع على محمل الجد.

ـ أنت مجنون يا لويد. أظن أن هذا الجنون كان رسميًا، جرى تشخيص حالتك، ربما في طفولتك، وتمكنت من إخفاء تفاصيل تخصك عن وكالة الاستخبارات المركزية ومارك لوران.

ـ العصي والحجارة يا ريجيل.

ـ دع فيتزروي وشأنه.

ـ لديك مشكلة أكبر مني يا كيرت، نحتاج إلى عملاء في سويسرا لتنظيف الفوضى التي أحدثها جينتري.

ـ بمعنى؟

ـ تلقى الفني للتو خبرًا من مراقب في لوزان. يخبرنا أن السويسريين اختطفوا عميلين فنزويليين على قيد الحياة. نحتاج إلى تأكيدات بأنهما لن يتحدثا.

ـ إذًا تريدهما قتيلين؟

ـ كيف يمكننا التيقن من صمتهما بغير ذلك؟

هز ريجيل كتفيه وقال: «دون مجموعة لوران، يتوقف النفط الفنزويلي عن التدفق. دون مجموعة لوران، لن يُصدِّر نفطهم عبر البحر إلى المصافي. يحتاج شافيز إلينا بقدر ما نحتاج إليه. إن اثنين من الرماة اللذين لم يوفقا في مهمتهما أو ماتا في أثناء ذلك، لن يعرضا العلاقة الجيدة التي نتمتع بها مع هذا المجنون للخطر. سأتصل بمدير مكتب المخابرات العامة في كاراكاس، أخبره بذلك على الرغم من فشلهما في مهمتهما، سأرسل له جائزة تُرضيه إذا حرص على ألا يفصح عميلاه عن أي معلومات. عندما يسمح السويسريون لمسؤولين من السفارة الفنزويلية بمقابلة باقي العملاء الذين ظلوا على قيد الحياة في السجن، لا أشك في أن الرسالة التي سيتلقاها هؤلاء الأوغاد ستصف بدقة ما سيحدث لعائلاتهم في الوطن إذا لم يتحملوا عبء العملية.

فإن ألمحوا للشرطة فقط بتجنيد شركة متعددة الجنسيات لعدة فرق اغتيال تابعة لوكالات استخبارات العالم الثالث من أجل قتل رجل كان يجتاز أوروبا، فستُلقى زوجات هؤلاء الرجال وأطفالهم وأولياء أمورهم وجيرانهم في النسخة الفنزويلية من معسكرات العمل».

انبهر لويد وقال: «هذا أحد أسباب عدم استخدامك للمرتزقة، أليس كذلك؟».

أجاب ريجيل: «ليس لدى المرتزقة من يردون عليه إلا أنفسهم. أفضِّل استخدام الرجال الذين يخضعون لسبل أخرى للتأثير يمكنني التلاعب بها».

أومأ لويد برأسه وقال: «لذا علينا الآن أن نعثر فقط على جينتري».

قال ريجيل: «عملاء مجموعة لوران في كل نقطة مفصلية في جنيف، وفي موقع كل شركائه المعروفين، وفي كل مستشفى. الفني هنا يراقب هواتف وأجهزة راديو للشرطة. لدينا الأفارقة الجنوبيون في وسط المدينة، جاهزون للانتشار. إذا رأى أحد مراقبيّ الرجل الرمادي، فسيكون لدينا فرق قتل في غضون خمس عشرة دقيقة».

***

لم يأكل فيتزروي، على الرغم من أنه تجرع زجاجتين من البراندي وبعض المياه المعدنية. كانت المعاملة التي تلقاها من لويد قد تركته في حالٍ أسوأ، لكنه لم ينكسر. ضربات السكين على الفخذ، وضربات الكف المفتوح على الرأس. كانت تصرفات رجل يائس لا أكثر.

عندما كان ضابط مخابرات شابًّا يعمل في أولستر[1] في السبعينيات، اختطفتْ دون سيارة أجرة بجانب سيارة مليئة بمقنعين من الجيش

(1) مقاطعة في أيرلندا الشمالية.

الجمهوري الأيرلندي المؤقت. اقتادوه إلى أحد المخازن، وأمضوا تسعين دقيقة في ضربه بأنابيب طويلة.

بحلول الوقت الذي انزلقت فيه قوات التدخل السريع التابعة للقوة الجوية الخاصة من المروحية، وقُتِل ثلاثة من رجال الجيش الجمهوري الأيرلندي الخمسة في المعركة التي تلت ذلك، وأُعدِم الاثنان الآخران عند جدار المستودع، أصيب الجاسوس البالغ من العمر ستة وعشرين عامًا بكسور في ست عظام، وضعف دائم في الرؤية في عينه اليسرى.

لم يشبه الضرب الذي ناله من لويد مثل ذلك.

كان الأمريكي متحمسًا لكنه ليس بارعًا في توجيه الألم. بالإضافة إلى أنه لم يكن لديه سبب أو قضية كبرى، بل جزء منه خلل عقلي، والجزء الأكبر قلق ناجم عن اليأس من مأزقه.

في هذه العملية برمتها، قرر فيتزروي أن الشاب لويد ربما يكون مُعرَّضًا للخطر قدر كورت جينتري. افترض فيتزروي أن لوران قد يأمر ريجيل هذا بقتل المحامي الأمريكي إذا لم يوقع يوليوس أبو بكر العقد صباح الغد في الثامنة صباحًا.

أما السير دونالد فقد تعرض للضرب لكنه قطعًا لم ينهر. كانت لديه خطة من نوع ما، وينوي استخدام ذكائه ومهاراته وخبرة حياته في التلاعب بمن حوله لتحقيق ما لا يستطيع تحقيقه بمفرده. على الرغم من تقييده بالفراش، خطط السير دونالد فيتزروي للانتقام القاسي من هؤلاء الذين تجرؤوا عليه هو وعائلته وكبير قاتليه.

فُتح باب غرفة النوم الرئيسة ببطء. جرع فيتزروي آخر ما تبقى من البراندي، ووضع الكأس بسرعة على طاولة بجانب الفراش. دخلت كلير بحذر. إذ لم تكن واثقة. ثم رأته وركضت عبر الغرفة إلى جدها. عانقته بشدة والتفت ذراعاها حول رقبته السميكة.

ـ مرحبًا، عزيزتي. كيف حالكن؟

ـ أنا بخير، جدي دونالد. لقد تأذيتَ!

ـ سقطة صغيرة على الدرج، حبيبتي. لا تقلقي. كيف حال أختك؟
ـ كيت بخير. إنها تحب المكان هنا.
ـ ألا يعجبك أنت؟
ـ لا، أنا خائفة.
ـ خائفة من ماذا؟
ـ من كل الرجال. إنهم يسيئون معاملتنا، ومعاملة أمي وأبي.
ـ هل أحسنتِ التصرف؟
ـ نعم، يا جدي دونالد.
ـ فتاة مطيعة.

نظر فيتزروي عبر النافذة للحظة، ثم قال: «كلير، عزيزتي، أود أن ألعب لعبة صغيرة معك. أتودين هذا؟».

ـ لعبة؟

ـ نعم. أحد الرجال هنا.. يراقبنا. لقد جاء معي في الهليكوبتر هذا الصباح. لقد سمعت أن زملاءه ينادونه باسم ليري. أيرلندي. هل تعرفين أي واحد أتحدث عنه؟

ـ ذو الشعر الأحمر؟
ـ هذه هي فتاتي!
ـ نعم يا جدي. يجلس على كرسي في أسفل الدرج.

ـ حقًّا؟ حسنًا، كلير، لقد لاحظت أن السيد ليري لديه هاتف مثبت في جيب سترته الزرقاء الكبيرة. لا أعتقد أنه يرتدي سترته في المنزل. من المحتمل أنها في خزانة، أو على الأرض، أو ربما ملقاة على أريكة في الطابق السفلي. كنت أفكر أنه ربما يمكننا أن نلعب قليلًا مع السيد ذي الشعر الأحمر، ويمكنك التسلل مثل قطة صغيرة وإخراج الهاتف من سترته. هل يمكنك فعل ذلك؟

ـ رأيت سترته على معطفه. رأيت الهاتف. عندما يذهب إلى المطبخ لتناول الشاي، ربما يمكنني أن آخذه.
ـ فتاة طيبة! أرجوكِ افعلي هذا من أجل الجد دونالد. وبعد أن تحصلي عليه، أريدكَ أن تخفيه في جيبك أو في سترتك، ثم أخبري الحراس أنك تريدين أن تأتي لرؤيتي.
ـ ماذا لو لم يسمحوا لي؟
ـ يمكنك أن تخبريهم أنك كيت. هل يمكنك التظاهر بأنك كيت؟ أخبريهم أن أختك يجب أن تأتي لرؤيتي؛ لذا فهذا عادل.
ـ أنا لا أبدو مثل كيت، يا جدي.
ـ صدقيني يا عزيزتي، بالنسبة لهؤلاء الرجال أنتما متشابهتان تمامًا. ما عليك سوى تغيير ملابسك، وأخبريهم أنك كيت، وترغبين في التحدث مع جدك العجوز العزيز.
ـ حسنًا. سأحاول سرقة الهاتف من أجلك وأدخله لك خلسة.
ـ إنها ليست سرقة. إنها فقط لعبة يا حبيبتي.
ـ لا، ليست كذلك. إنها ليست لعبة. لستُ طفلة صغيرة. أنا أعرف ما يجري.
ـ نعم، بالطبع يمكنك أن تستوعبي كل هذا. هكذا اعتقدتُ. من فضلك لا تقلقي. سيصير كل شيء على ما يرام.
سألته: «أين أبي؟».
توقف فيتزروي للحظة، وجهه غير منزعج. كان السير دونالد يكذب على عملائه لما يقرب من نصف قرن. لم يجد بُدًّا من الكذب على أقاربه. فأجابها: «إنه في لندن، يا حبيبتي. ستعودين إلى المنزل قريبًا أيضًا. اركضي الآن، وكوني حذرة».

23

أوقف كورت الشاحنة عند محطة القطار الرئيسة في جنيف جار دي كورنافين، الواقعة على الجانب الشمالي من المدينة. كان وقوف السيارات في محطات القطار عبارة عن خدعة تقليدية بسيطة. عندما عُثِر على السيارة في أسرع وقتٍ كما ظن كورت، كان على أتباعه أن يفكروا في احتمالية أنه قفز للتوِّ في أول عربة إلى خارج المدينة، مما يستنزف وقتهم وجهدهم البشري للتحقق من وجهته.

لم يكن الأمر مهمًّا، ولكن وقوف السيارات في محطة القطار أقل فداحة من أن يأخذ سيارته المسروقة إلى الباب الأمامي لهدفه الحقيقي.

كان الطقس باردًا، لكن الشمس مشرقة، وتطايرت آخر أوراق الخريف في شوارع المدينة الواسعة. سار جنوبًا من المحطة، متجاوزًا بائعات الهوى في الشوارع ومحلات الجنس في منطقة ريدلايت، اجتاز الجسر الذي يعبر القناة إلى بحيرة جنيف الضخمة، مرورا بمصرفيين ودبلوماسيين في منتصف العمر متجهين نحو كل شوارع بائعات الهوى ومتاجر الجنس وراءه.

على بعد خمس دقائق جنوب الجسر، أفسحت الشوارع الواسعة والحديثة المجال لممرات غير مستوية مرصوفة بالحصى، وتحولت المتاجر الأنيقة التي تصطف على جانبي الطرق فجأة إلى جدران حجرية من العصور الوسطى، حيث ارتفع بعيدًا عن المدنية الحديثة تل شديد الانحدار، نحو المباني العتيقة الخلابة في البلدة القديمة.

استرشد جينتري بخريطة سياحية معلقة على جدار بهو الفندق، وأخفى معصمه الأيسر المخدوش والمتورم عن الزوجين اليابانيين

بجواره، ثم عاد إلى الشارع البارد بعد دقيقة أو دقيقتين من ارتقاء زقاق أوصله إلى الساحة أمام كاتدرائية سانت بيير.

هناك بعد ظهر يوم السبت، وقف السياح مولين رؤوسهم وعيونهم وكاميراتهم جميعًا إلى الواجهة الرائعة للكاتدرائية التي يعود تاريخها إلى ألف عام. سار كورت خلف أكثر من عشرين متفرجًا، ثم اختفى في شارع جانبي يمتد بطول الجانب الجنوبي من الكنيسة. على يساره جدار أبيض بارتفاع ست أقدام وبوابة حديدية كبيرة في المنتصف. وبينما كان يمشي عبر البوابة، نظر إلى الداخل. كان هناك منزل أبيض له حديقة أمامية صغيرة، وشجرة كستناء كبيرة على جانبي ممر ضيق يؤدي إلى الباب الأمامي.

كانت كاتدرائية سانت بيير شاهقة الارتفاع حتى أنها حجبت الضوء عن الأشجار. سار كورت في ممر مرصوف بالحصى يمتد من الشارع الصغير ذي الحارة الواحدة، وتتبع ممر المشاة المتعرج عبر نفق ضيق أنزله إلى الجزء الخلفي من البيت الأبيض.

هناك كان الجدار بارتفاع طابقين. بجانبه مبانٍ حديثة؛ مبنى سكني به صالون عناية بالأظفار في جانب، ومدرسة وحضانة في الجانب الآخر. تجول عدد قليل من السياح في اتجاه شارع تسوق ضيق يمتد نزولًا إلى التل الخلفي.

لمح جينتري المخبر على الفور. امرأة جذابة ذات شعر أشقر طويل ومضفر، جلست على طاولة في ساحة صغيرة بجانب شارع السوق. كان كورت يبعد عنها خمسًا وعشرين ياردة، لكن عينيها كانتا على البيت الأبيض على يمينه.

استدار جينتري، وسار عائدًا عبر نفق المشاة لأعلى، ثم دار حوله باتجاه جدار البيت الأبيض. هناك سور حديدي مدمج في الجدار لمساعدة المشاة على اجتياز الممر شديد الانحدار. تشبث به كورت، وسحب نفسه إلى أعلى الجدار بذراعه اليمنى غير المصابة. رفع إحدى

ساقيه ثم الأخرى قبل أن ينزل إلى الأسفل، امتصت ساقه اليسرى غير المصابة أغلب الصدمة، ومع ذلك فقد آلمه التسلق بيد واحدة والسقوط بشدة.

رأى جينتري كاميرات المراقبة داخل الحديقة الصغيرة عبر الزجاج. كان يعرف كيف يتحايل على جميع أنواع الإجراءات المضادة، لكن هذا بدا معقدًا للغاية بالنسبة له. سيحتاج إلى مخططات وأدوات ووقت.

تحرك كورت أسفل النافذة، ثم ارتفع مرة أخرى عند باب جانبي. سحب مسدس بيريتا التقطه من رصيف القطار قبل فترة وجيزة من الفرار من موقع الحادثة، وتركه هناك رجل شرطة سويسري ميت. أخفاه بجانبه وهو يجرب بابًا جانبيًّا، لم يكن مغلقًا.

دخل رواقًا ثم مطبخًا مجهزًا على أكمل وجه. كانت الأنوار مطفأة، استطاع أن يميز بسهولة أصوات التلفزيون من الغرفة المجاورة. انعكس وهج الشاشة على مرآة في الردهة على الجانب الآخر من المطبخ، واستخدم كورت الضوء الوامض ليشق طريقه.

رأى مسدسًا على منضدة المطبخ. كاليبر **1911** عيار **45**، سلاح أمريكي.

عبر جينتري المطبخ الطويل بحذر. أحكم قبضته على السلاح وثبته في سرواله من الخلف. رد معصمه المتورم الحركة بتيار كهربائي امتد حتى مرفقه. انتقل جينتري إلى الردهة، ونهض بثقة الآن ليدخل غرفة جلوس واسعة.

عُلِّقت شاشة بلازما فوق مدفأة كبيرة تفرقع بها جذوع شجر الصنوبر.

جلس رجل وحيد على أريكة جلدية، ظهره إلى كورت وعيناه تحدقان إلى التلفاز الذي انطلقت منه لغة فرنسية، لكن الصور كانت مألوفة بما يكفي لجينتري. قبل أقل من ساعتين، وقف على رصيف القطار ذاته، وتحدث إلى ذلك الشرطي الشاب الذي يرقد الآن ميتًا

مُنكبًّا على وجهه فوق الأسمنت الثلجي، تعرض صور الفيديو اللحظة التي وُضعت فيها قطعة قماش صفراء فوق جسده الساكن.

وضع كورت مسدسه في جرابه. لم يكن هناك أي شخص آخر بالجوار.

قال: «مرحبا، موريس».

نهض الرجل واستدار. كان شاحبًا متغضن الوجه، بملامح سبعينية واضحة ومظهر يفتقر للصحة. لو كان ظهور جينتري في شقته مفاجأة للرجل العجوز، لأظهر ما ينم عن ذلك، لكنه وقف على ساقين هزيلتين.

وأجاب: «مرحبًا، كورت». قالها بإنجليزية ذات لكنة أمريكية.

قال جينتري: «لا تضيع وقتك في البحث حولك. لديَّ مسدسك».

ابتسم موريس. وقال: «لا. معك أحد مسدساتي». سحب الرجل العجوز مسدسًا صغيرًا من تحت قميصه وصوبه نحو صدر جينتري. قائلًا: «لكن ليس لديك هذا».

ـ لم أظن أنك من النوع المصاب بجنون العظمة. لم تكن بهذا الحرص في الأيام الخوالي.

ـ مع ذلك، كان عليك أن تُشهر سلاحك نحوي حتى تتيقن من كوني أعزل.

ـ على ما يبدو.

تردد الرجل العجوز عدة ثوانٍ، لكن المسدس لم يتردد. وقال: «تبًّا يا ولد! لقد علَّمتك أن تفعل أفضل من هذا».

قال جينتري بخجل: «هذا صحيح، أنا آسف، سيدي». ـ تبدو في حالة يرثى لها.

ـ مررت ببضعة أيام صعبة.

ـ سبق أن رأيتك بعد أيام عصيبة. لم تكن بهذا السوء من قبل.

هز كورت كتفيه وقال: «أنا لست طفلًا بعد الآن».

نظر الرجل العجوز إلى جينتري نظرة طويلة ثم قال: «لم تكن قط».

أدار موريس مسدسه في يده، وقذفه عبر الغرفة إلى الشاب الأمريكي. أمسكه كورت ونظر إليه.

ـ مسدس سميك، من عيار ثمانية وثلاثين من الشرطة الخاصة، والآخر **1911**. أنت تعرف يا موريس أنه لا قانون يلزمك أن تكون أسلحتك في مثل عمرك.

ـ كفاك هراءً. هل تريد بيرة؟ألقى جينتري المسدس على الأريكة الجلدية.

وأجابه: «أكثر من أي شيء آخر في العالم».

بعد دقيقتين جلس كورت على طاولة المطبخ. كان قد أحاط معصمه الأيسر بكيس منتفخ من التوت الأزرق المتجمد، شعر بلسعة البرودة القارسة على جلده، لكنها قللت من التورم. لا يزال بإمكانه تحريك أصابعه، لذا كان يستطيع استخدام يده، ولو استخدامًا طفيفًا.

كان يعرف أن مُضيفه هو موريس، موريس فقط. لم يكن كورت يعرف اسمه الحقيقي، لكنه يعلم يقينًا أن اسمه ليس موريس. كان من أقدم رجال الوكالة، مدرب جينتري الأساسي في مركز تدريب برنامج تطوير العملاء المستقل، والتابع لقسم الأنشطة الخاصة في هارفي بوينت بولاية نورث كارولينا. عرف كورت حكايات عن الرجل وتاريخه. كان يعلم أنه فقد أسنانه في فيتنام، ونفذ عمليات استهداف في برنامج فينيكس، ثم أمضى السنوات العشرين التي تلت ذلك في الحرب الباردة في موسكو وبرلين.

لقد سُرِّح من الجيش لسنوات، فكان مدربًا لوكالة الاستخبارات المركزية حين أُحضِر قاتل عشريني مُدان إلى فصله الدراسي المصنوع من الألومنيوم، الذي يطل على المحيط الأطلسي. كان جينتري مغرورًا وهادئًا، فجًّا لأقصى درجة، لكنه تمتع بالذكاء والانضباط والنخوة.

أنهى موريس تدريبه في أقل من عامين، وأعلن لقيادة العملية أن هذا الفتى أفضل من خرَّجهم وأقواهم على الإطلاق.

كان ذلك قبل أربعة عشر عامًا، ونادرًا ما تقاطعت طرقهما منذ ذلك الحين. أُغري موريس بالعودة إلى ممارسة نشاطه بعد 11 سبتمبر، كما كان الحال بالنسبة لمعظم العملاء المتقاعدين ذوي المستوى الرفيع ممن بقوا على قيد الحياة. ونظرًا لسنه وصحته غير المستقرة، أُرسِل إلى جنيف للعمل في قسم الشؤون المالية بمديرية الخدمات السرية التابعة لوكالة الاستخبارات المركزية. خبرته بالمصارف والمصرفيين السويسريين التي تراكمت خلال أربعين عامًا من استخدام الحسابات المرقمة لشركات صورية تابعة لوكالة الاستخبارات المركزية في عملياته قد أهَّلته ليصبح مسؤول رواتب فعَّالًا للعملاء والعمليات في جميع أنحاء العالم.

كان عملًا سهلًا ونظيفًا، مقارنة ببعض الوظائف التي شغلها في شبابه. لكن لم يخلُ هذا من الخطر أو الجدل. بعد فترة وجيزة من طرد كورت من الوكالة، استطاعت مراكز القوى أن تعزل موريس. شيء يتعلق باختلاس أموال، على الرغم من أن كورت لم يصدق القصة الرسمية على الإطلاق.

جاء الأمر من لانجلي أن يتقاعد موريس تمامًا تاركًا وكالة الاستخبارات المركزية. بالطبع لم يكن كورت يعلم ذلك، ولم يكن واثقًا بنسبة مائة بالمائة أن موريس لن ينقلب عليه، الأمر الذي أوضح شكوك التلميذ الأولى بشأن معلمه.

***

أعطى موريس جينتري زجاجة من الجعة الفرنسية، لذلك احتضن الشاب كيس التوت المجمد في حجره وترك معصمه يرتكز عليه. خدرت البرودة اللاذعة الألم ببطء. سأل الرجل العجوز: «هل تأذيت بشدة؟».

ـ ليس تمامًا.

ـ لطالما كنت وغدًا قاسيًا.

ـ تعلمت من أفضلهم ألا أتذمر. لم تقبل بذلك يومًا.
ـ لم أرك منذ ست سنوات. قبرص، أليس كذلك؟
ـ نعم يا سيدي.
ـ هل رأيت المراقب في الخارج؟
ـ نعم. الفتاة ذات الضفائر.
ـ فتى بارع. إنها جميلة، تتنكر في هيئة سائح. نستقبل الكثير من السياح هنا في البلدة القديمة. أنا أكره السياح.
ـ وجوه انتقالية.
ـ هذا صحيح. أسد لنفسك معروفًا يا كورت. إذا وصلت إلى التقاعد، فانتقل إلى مكان لاَ يطؤه أي سائح.
ـ سأفعل.
سعل موريس وتنحنح: «تدور أخبار في الأرجاء، غير مترابطة بعد، تنتقل في الهواء وحسب، في انتظار أن يتصل بعض النقاط ببعض. براغ، بودابست، ثم هذا الصباح بالقرب من الحدود النمساوية. كنت أعرف أن شيئًا ما يحدث، ولم أدرك أني أعرف أيًّا من اللاعبين حتى بدأت مراقبة منزلي في نحو الساعة 11:30. بعد نحو ساعة من ظهورها، بدأت جميع المحطات المحلية تبث أخبار تبادل إطلاق النار شمال لوزان، في تلك المرحلة، علمت أنك تسير في هذا الاتجاه».
ـ كيف عرفت أنه أنا؟
ـ ربطتُ بعض الخيوط ببعض. رجل مطارد ظل على قيد الحياة مخلفًا وراءه الموت والدمار. عندما اقتربت الجثث، قلت لنفسي: ها هو كورت يقترب.
أكد جينتري، وهو ينظر إلى الزجاجة في يده: «هأنذا».
ـ أخبرني أنك لم تطلق النار على رجال الشرطة المساكين.
ـ أنت تعرفني. لن أقتل شرطيًّا.
ـ كنت أعرفك. الناس يتغيرون.

ـ أنا لم أتغير. احتجزتني الشرطة عندما ظهر فريق من القتلة. حاولت إقناعهم أنني لم أعد أكبر مشكلاتهم، لكنهم لم ينصتوا.

ـ كثيرون يريدونك ميتًا يا كورت.

ـ أنت نفسك لست من المفضلين. لقد تخلصت منك وكالة الاستخبارات المركزية أيضًا.

ـ لا توجد تعليمات بإطلاق النار عليَّ عند رؤيتي. أنت من دمروه حقًّا.

ـ ومع ذلك كان تلفيق التهم ضدك خاطئًا يا موريس. كنت من المخلصين. كان يجب أن يتركوا سمعتك نظيفة كما هي.

لم يقل موريس شيئًا.

سأل كورت: «ماذا تفعل هذه الأيام؟». أجاب موريس: «تمويل، القطاع الخاص. انتهيت من الأعمال المريبة».

جال كورت بعينيه متفحصًا العقارات باهظة الثمن من حوله، وهو يقول: «يبدو أنك بخير».

قال موريس: «العمل في قطاع المال مربح للغاية، ألم تعرف ذلك؟».

استشعر كورت القليل من الحذر في حديثه. كان يشرب الجعة، ويدير ذراعه ليخفف من تورم معصمه. قال: «هل تذكر رجلًا في لانجلي اسمه لويد؟».

ـ بالتأكيد. مخنث أنيق صغير، شهادة في القانون من لندن. كلية كينجز على ما أعتقد. لقد أعاق عملية مالية اشتغلت بها في جزر كايمان قبل فترة وجيزة من عزلي. ولدٌ ذكي لكنه وغد.

ـ إنه الرأس المدبر لكل هذه الأشياء التي تحدث لي الآن.

ـ لا تمزح؟ كان يبلغ من العمر ثمانية وعشرين عامًا في ذلك الوقت. لا بُدَّ أنه في الثانية والثلاثين أو نحو ذلك الآن. سمعت أنه غادر لانجلي قبل نحو عام.

سأل كورت بطريقة بلاغية: «ماذا حدث لجميع الأخيار؟». أجاب كورت: «قبل 11 سبتمبر كنا سلة بها عدد قليل من التفاح الفاسد. بعد ذلك، أصبحنا بستانًا. يوجد الآن ما يكفي من التفاح الفاسد لملء السلال. نفس الهراء، لكن بمقاييس مختلفة. لا عجب».

احتسى كلاهما الجعة لمدة دقيقة في صمت، مسترخيين في صحبة بعضهما بعضًا، كما لو أنهما يقضيان ظهيرة كل يوم سبت معًا.

أصاب موريس سعال جاف متقطع بشدة، وعندما انتهى سأله جينتري: «ما خطبك؟».

نظر موريس بعيدًا للحظة، وأجاب بلا عاطفة: «الرئتان والكبد، اختر ما شئت».

ـ الوضع سيئ؟

ـ الخبر السارِ هو أنني قد لا أموت من سرطانِ الرئة لأن مرض الكبد قد يصيبني أولًا. على العكس من ذلك، قد أُدفَن مع كبد جيدة إذا مُت من سرطان الرئة. شرب الكحوليات والتدخين لأكثر من خمسين عامًا.

ـ آسف.

ـ لا عليك. إذا اضطررتُ لإعادة ما سبق، فلن أغير أي شيء.

ضحك وتحول هذا إلى نوبة سعال جافة أيضًا.

ـ كم من الوقت لديك؟

ـ يقول الطبيب العجوز هيني يونج مان إن أمامي ستة أشهر للعيش. قلت له: لا أستطيع دفع فاتورتك. فمنحني ستة أشهر أخرى.

تحولت ضحكة موريس إلى أزيز ثم سعال جاف عنيف.

ـ ستة أشهر إذًا؟

ـ هذا ما قالوه. قبل سبعة أشهر.

سخر كورت قائلًا: «لا تدفع لهم». لقد كانت من المضحكات المبكيات، إلا أن جينتري لم يعجبه المزاح مع معلمه حول موت وشيك.

ـ دعنا نعُد إليك. ما الذي تورطتَ فيه؟

ـ إنه متعلق بمهمة خضتها الأسبوع الماضي. أعتقد أنني أغضبت شخصًا ما.

ـ الرجل الملون الذي قُتل في سوريا. علي بابا أو أيًا كان اسمه. كان هذا أنت، أليس كذلك؟

صحح له كورت: «أبو بكر»، لكنه لم يؤكد أو ينفي تورطه.

هز موريس كتفيه وقال: «كان يجب التخلص منه. لقد تابعت مسيرتك المهنية كونك قاتلًا خاصًا. عملياتك دائمًا تغلِّب الخير على الشر. ليس أداءً جيدًا وحسب، ولكن أيضًا أخلاقي وعادل».

ـ قل ذلك للويد.

ـ كثير من الناس يقولون إن هذا الشيء في كييف يخصك.

ـ هذا ما يقولونه.

ـ و...؟رن هاتف موريس. مد الرجل العجوز يدًا رفيعة كالقصبة ليمسك بسماعة الهاتف على الحائط ورد على المكالمة. اتسعت عيناه الرماديتان قليلًا عندما نظر إلى ضيفه الشاب.

وقال: «هذا لك».

24

«تبًّا!». أمسك جينتري السماعة وقال: «أجل».

ـ كورت؟ أنا دون.

ـ ماذا تريد؟

ـ إنهم لا يعرفون أنني أتصل. لقد جعلت كلير تنشل هاتفًا من أحد الحراس الذين يحرسون القصر. هذا الشبل من ذاك الأسد، أليس كذلك؟

جز جينتري على أسنانه. أعطاه موريس زجاجة جديدة من الجعة الباردة. وقال: «ما خطبك يا دون؟ كلير ليست مخبرة من بلفاست! لا يمكنك تشغيلها مثل أحد عملائك! إنها فتاة صغيرة! إنها عائلتك!».

ـ إجراءات يائسة للأوقات اليائسة يا صديقي. كانت رائعة.

ـ أنا لا أحب ذلك.

ـ هل تريد المعلومات التي أملكها أم لا؟

ـ كيف يمكنني الاستعانة بأي شيء لديك؟ كيف لي أن أعرف أنك ما زلت لا...

ـ قتلوا فيليب يا كورت. ركضت كلير. أطلق الأوغاد النار على ابني عندما ذهب لحماية طفلته.

ـ يا إلهي!

ـ لا يسعنا إلا أن نأمل.

ـ أنا آسف.

توقف كورت مؤقتًا. ثم سأل: «كيف عرفت أنني هنا؟».

ـ لويد يعلم أنك في جنيف.

ـ لقد اعتقدت أن تبادل إطلاق النار في الطريق من زيورخ سيجذب انتباهه.

ـ تمامًا، لقد أرهقت بالي فيما كنت تفعله هناك. علمت أنك أذكى من أن تقترب من شخص ما في شبكتي. ثم تذكرت أن هناك مصرفي وكالة قديمًا في جنيف، في إدارة الأنشطة السرية، أجرى تدريبًا صعبًا للعملاء. اعتقدت أنك قد تعاملت معه في حياتك السابقة. اتصلت ببعض المعارف وحصلت على الرقم.

ـ كيف يمكنك إجراء مكالمات هاتفية دون علمهم بذلك؟

ـ يعتقدون أنني استسلمت. أنا ملقًى على سرير بجروح وأسنان مكسورة بفعل ذلك المخنث لويد. لقد حاول تعنيفي لكنه فشل. لا يمكنه أن يعذب رجلًا بطريقة غير لائقة. ألقوني على سرير في الطابق العلوي، كأني عجوز معتوه وخانع مصدوم، وربطوني في السرير كحزمة ذابلة من الخضراوات. لكنني لم أستسلم يا كورت. عندما اعتقدت أن الأمل الوحيد لعائلتي هو موتك، كانت هذه هي نيتي. سأعترف لك بذلك. الآن أعرف جيدًا أن الأمل الوحيد لعائلتي هو أن أحضرك إلى هنا. لمساعدتك بأي طريقة يمكنك أن تصل بها إلى هذا المكان بأقصى ما تستطيع وبكل ما لديك.

ـ فقط أبعد الفتاتين عن الأمر من الآن فصاعدًا. هل تستطيع فعل ذلك؟ إنهما طفلتان فحسب.

ـ أعدك.

ـ هل لدى لويد بالفعل الوثائق التي يدّعي امتلاكها؟

ـ لديه ملف موظفي وكالة الاستخبارات المركزية الخاص بك، بضع عشرات آخرين أيضًا. أوراق وأقراص كمبيوتر. لقد أتى بنا من لندن لإضافة إغراء آخر، للتيقن من قدومك.

ـ لماذا يفعل هذا؟

أخبر فيتزروي كورت بكل شيء عن مجموعة لوران. بمطالب أبي بكر. وأخبره عن ريجيل وقوات حراسة مينسك وفناني الأرصفة. وعن التحدي المتمثل في عشرات فرق الاغتيال، من اثنتي عشرة وكالة استخبارات في اثنتي عشرة دولة من العالم الثالث، ارسلت جميعًا وراءه للحصول على مكافأة قدرها عشرون مليون دولار.

بينما ينقل السير دونالد جميع المعلومات التي كانت بحوزته عن العملية إلى جينتري، سحب موريس صندوقًا أزرق من الخزانة وأحضره إلى طاولة المطبخ حيث كان يجلس كورت. راح الممول المسن والمدير السابق للخدمات السرية ينظف الجروح على معصم ربيبه الشاب بمطهر، ثم ضغط أكياسًا من الهلام البارد لإحداث تفاعل كيميائي، ممًا أدى إلى تحول الكمادات إلى اللون الأبيض الفاتر في ثوانٍ. لفها حول معصم جينتري الأيسر المتورم، متبوعًا بضمادة ضاغطة لتثبيت كل شيء في مكانه ومنع المزيد من التورم. كانت عملية مُحكمة وسليمة نفذها شخص من الواضح أنه تدرب على رعاية الجرحى.

عندما أنهى فيتزروي تقريره، قال جينتري: «لا أصدق أنهم سيخوضون كل هذا من أجل العقد فقط. لقد فهمت، عشرة مليارات دولار مبلغ كبير، ولكن لكي يقدم أبو بكر بكل ثقة طلبًا مثل هذا، يجب أن أعتقد أن هناك دافعًا آخر وراء الأمر هنا».

قال فيتزروي: «أنا موافق. تبادل إطلاق النار مع رجال الشرطة السويسريين؛ هذه مخاطرة لا تصدق من شركة مثل مجموعة لوران، حتى لو فعلوا ذلك بالوكالة مع القتلة الفنزويليين».

قال جينتري: «إن الأمر أكبر من كونه عقدًا على المحك. فلتتبين هذا الأمر، حسنًا يا دون؟».

ـ سأتحدث إلى ريجيل. إنه أكثر وضوحًا من لويد.

ـ حسنًا. احتفظ بهذا الهاتف معك. واكتم رنينه.

ـ كيف يمكنني الاتصال بك في أثناء تنقلك؟

نظر جينتري إلى موريس: «ألديك هاتف محمول يعمل بالقمر الصناعي يمكنني شراؤه منك؟». ضحك الرجل الأكبر سنًّا، واختفى في ممر طويل. دفعته نوبة سعال جديدة للانبطاح تقريبًا في مرحلة ما. عاد بعد لحظات بهاتف قمر صناعي. لقد كان موتورولا إيريديوم عالي التقنية، وهو نموذج يعرفه جينتري جيدًا. استخدمه الجواسيس والجنود والمغامرون المعرضون لمخاطر عالية، ولم يكن أكبر بكثير من الهاتف الخلوي العادي. وضعه في علبة بلاستيكية شفافة مقاومة للصدمات، ومقاومة للماء، ومقاومة للقنابل عمليًّا. أومأ كورت برأسه تقديرًا عندما أخذه. كُتِب الرقم على شريط في ظهره، وقرأه كورت على دونالد قبل أن يضع الجهاز في جيبه الأمامي.

بعد أن أعاد قراءة الرقم، توقف فيتزروي للحظة، ثم قال: «كورت يا ولدي، أمر أخير. عندما ينتهي كل هذا، عندما تقتل آخر شيء حي يمثل تهديدًا لك، سأتصل بك وأعطيك عنوانًا. سيكون صغيرًا للغاية، مكان يسهل عليك الدخول إليه والخروج منه دون قلق. ستجد كوخًا صغيرًا من غرفة واحدة، وسأكون فيه، جالسًا على كرسي، مُجَرَّدًا من قميصي الداخلي ويداي مبسوطتان على طاولة. سأنتظرك، وسأكون أعزل تمامًا. فما ورطتك فيه، وما فعلته من أجلي، سأرده لك بحياتي، سيمنحك القليل من الراحة وحسب، لكن ربما يساعدك. أنا آسف لما فعلته بك في الثماني وأربعين ساعة الماضية، لقد كنت يائسًا. لم أفعل ذلك من أجلي، لقد فعلت ذلك من أجل عائلتي. أنقذهم، وسأمضي لحتفي لأعطيك قدرًا من السلام.

كورت؟ هل ما زلت هنا؟».

أجابه كورت: «حافظ على سلامة الفتاتين يا دون. افعل هذا الشيء من أجلي وسنسوي باقي الأمور عندما ينتهي هذا».

أغلق جينتري الخط.

***

بعد أن أعاد كورت الهاتف إلى موريس، أنهى قارورة الجعة الثانية. مسح بصمات أصابعه عنها بخرقة على المنضدة، ومشى إلى الجزء الخلفي من المنزل لينظر من خلال الستائر الطويلة.

ـ عندما أغادر، هل يمكنك التعامل مع المراقبة؟

ـ إنها تجلس هناك وحسب. أعتقد أنني أستطيع تولي ذلك. لم أمت بعد.

ـ ستعيش أكثر منا جميعًا.

ـ لا يريحني أن أسمع هذا الكلام منك تحديدًا.

كانت لهجته قد تغيرت فصارت أكثر أبوة، سأله: «كيف يمكنني مساعدتك؟».

ـ يجب أن أفعل «شيئًا» في شمال فرنسا. يجب أن أنهض وأنطلق صباح الغد.

ـ حالتك لا تسمح لـ...

ـ لا يهم. يجب عليَّ أن أذهب.

ـ هل تحتاج إلى بعض المال؟

ـ قليلًا، إذا كان في مقدورك.

ـ بالطبع، يمكنني منحك بعض النقود. ماذا تريد أيضًا؟

ـ سآخذ مسدسًا من طار خمسة وأربعين، وإذا كان لديك بعض الرصاص.

ضحك موريس وانتابه سعال جاف. بدا أن المرض في رئتيه ينمو مع المحادثة. وقال: «من المحتمل أن تؤذي نفسك بسلاح رجولي كبير كهذا، لقد كفوا عن تصنيعه. أنت ابني، سأوفر لك شيئًا أكثر عصرية».

ـ كنت أتمنى أن يكون لديك حقيبة طوارئ تحتفظ بها ليوم ممطر. ليس لديَّ شيء؛ لذا فأي معدات يمكنك توفيرها ستكون محل تقدير كبير.

ـ لديَّ مخبأ طوارئ على بعد شارعين من هنا، حال وقعت أي مصيبة. مما تخبرني إياه، أعتقد أنك قد تحتاج إليه.
ـ أنا أقدر هذا حقًّا.
ـ أي شيء لأفضل تلاميذي.
اختفى موريس في الردهة الخلفية. عاد بعد دقيقة ومعه حزمة من اليورو في ظرف ومفتاح في سلسلة. كتب عنوانًا على الظرف وسلمه إلى تلميذه. وقال: «أظن أنك ستفرح بالمعدات».
وضع كورت الأشياء في جيبه.
ـ بيرة أخرى؟
ـ كنت أود هذا، لكن من الأفضل أن أتحرك.
ـ مفهوم.
سكب موريس في يد جينتري العديد من الأقراص المضادة للالتهابات من زجاجة في الخزانة. بلعها كورت بآخر جرعة من زجاجته. ثم سارا معًا نحو الباب الخلفي.
قال كورت: «أتمنى أن أقول إنني سأراك مرة أخرى. إذا نجحت في ذلك غدًا، فسأضطر إلى الاختفاء لبعض الوقت. ربما إذا لم تدفع فاتورة طبيبك، فيمكننا الحصول على بيرة أخرى يومًا ما».
ابتسم موريس، لكنه لم يضحك هذه المرة. وقال: «أنا أحتضر يا كورت، لا داعي لتجميل الأمر. لا يمكنني أن أجعله أجمل مما هو عليه».
ـ هل هناك أي شيء يمكنني فعله من أجلك؟ أي شخص تريدني أن أراه أو أرعاه بعد رحيلك؟
ـ لا يوجد أحد. لا عائلة. لا أصدقاء. لم يكن لديَّ سوى الوكالة.
قال كورت: «أعرف هذا الشعور».
كان قضاء الوقت مع معلمه أمر جيد، فمن النادر أن يجد جينتري فرصة للتحدث إلى شخص مر بنفس الأمور التي مر بها في الحياة.

لكن الأمركان محبطًا كذلك. إذ رأى كورت قدرًا من نفسه في عيني الرجل المرهقتين المتشائمتين اللتين واجهتاه في غرفة المعيشة. وعلم أنه بالرغم من أن أحدًا لا يحب التقدم في السن، لكن في مهنة جينتري، فإن البقاء على قيد الحياة هو أفضل ما يمكن للمرء أن يأمل فيه.

وهل حدث ذلك حقًّا؟

ابتسم موريس وهو يتحدث: «يمكنك أن تفعل شيئًا واحدًا من أجلي. عندما تتخلص من هذه الفوضى التي تعيشها، أريدك أن تهرب إلى جزيرة استوائية في مكان ما. عندما تقرأ في الجريدة عن مصرفي أمريكي أكبر سنًّا من الأرض يموت في سويسرا، أريدك أن تذهب إلى أفضل بار تعرفه، وتلتقي فتاة جميلة، وتشرب معها طوال الليل. أنا جاد. تجاوز هذا واخرج من هذه الحياة. لا تزال هناك أجزاء من العالم لا يهتم فيها أحد بما فعلته. فلتذهب هناك. التقِ شخصًا ما. عش إنسانًا. افعل ذلك من أجلي يا فتى».

ـ سأحاول.

ـ يومًا ما ستتعلم. كل الأشياء التي فعلتها، كل الأشياء في الماضي التي كنت تعتقد أنها ماتت ودفنت واعتقدتَ أنك تركتها وراءك لم تتركك. لقد خزَّنتها بعيدًا. خَزَّنتها للوقت الذي لا يوجد فيه غيرك وغرفة هادئة وذكرياتك والشياطين الذين قتلتهم.

ـ يجب أن أذهب، موريس.

ـ أعلم أنني لا أستطيع منعك من فعل ما يتعين عليك فعله، لكن فكر فيما أقوله. كل الهراء الذي علمتك إياه في هارفي بوينت. كلما نسيت ما علمتك إياه واستمعت إلى ما أقوله لك الآن، أسرعت في التصالح مع القتل والموت، انتهت الخطبة يا فتى.

تصافحا.

ظهر وجه كورت الجاد مرة أخرى في ومضة. حشر رزمة النقود في جيب بنطلونه، وهاتفه في سترته وتوجه إلى الباب الخلفي. أطل من خلال الستائر من النافذة الأمامية إلى ممر من القرون الوسطى. وسرعان ما شعر أن شيئًا ما لم يكن على ما يرام.

سأل موريس: «ما الأمر؟». وقد راعه عدم ارتياح تلميذه.

قال كورت: «تحقق من الخلف. انظر إذا كانت الفتاة لا تزال هناك».

سار موريس في القاعة إلى غرفة المعيشة الخلفية ونادى كورت: «لقد ذهبَت».

ـ سحبوها.

ـ من؟

ـ القتلة.

ـ لأنهم يريدونها أن تبتعد عن الطريق عندما تحدث ضجة.

ـ بالضبط.

سأل موريس إذ يعود إلى صف جينتري: «هل هم هنا؟». أجاب الرجل الرمادي: «ليسوا هنا لكنهم قريبون. يمكنني أن أشم رائحتهم بحق الله!». ضاقت عينا جينتري وأكمل: «قل إنك لم توقع بي يا موريس».

أجاب موريس: «لم يحدث لمرة واحدة في حياتك يا كورت».

مرت لحظة صامتة. ثم قال: «أصدقك، أنا آسف».

سأل موريس: «من هناك؟ ألديك أي فكرة؟».

راح كورت وموريس يحصنان الباب مستخدمين دولابًا وخزانة كتب. وأجابه: «يعلم الله أن الكل كان يسعى إلى قتلي في الأيام الثلاثة الماضية. لا ينقصني سوى الصياد المريخي[1]».

---

(1) :إحدى شخصيات دي سي كوميكس.

قال موريس: «لا بُدَّ أن هؤلاء صيادون مريخيون إذًا. سمعت أنهم أوغاد حقيقيون. يمكنك أن تخرج من السقف. هناك ألواح في السندرة تميل على فتحة التهوية. ادفع فتحة التهوية إلى الخارج، يفترض أن تسعك. ستنقلك هذه إلى علية الحضانة خلف منزلي. إنها مغلقة أيام السبت. لديهم قبو يؤدي إلى صالون تقليم الأظفار المجاور. يبدو أنك قد تحتاج إلى عمل مانيكير، ولكن حاول أن تقاوم رغبتك في ذلك. انزلق من بابهم الأمامي إلى شارع بورجاتوار، ثم أسفل الزقاق الصغير إلى شارع إنفير، سيخرجك هذا بأمان».

ـ ماذا عن رجال الشرطة؟

ـ أقرب محطة لهم في قصر العدل، لكننا لا نتحدث عن جنود في الخطوط الأمامية. من الأفضل ألا ننبههم على الإطلاق لئلا يندلع صراع دام.

وقف جِينتري بلا حراك وحدق إلى موريس. ضحك الرجل المسن بحرارة وهو يجاهد ضيق أنفاسه ثم قال: «لقد أعددت طريق الهروب منذ فترة طويلة. في أيام إدارتي، كان لدي صبي من الحي يختبر السندرة، حتى بضعة أشهر مضت فما من مشكلة. امضِ في طريقك إذًا».

ـ تعالَ معي.

ـ لن أستطيع المرور من تلك السندرة. لا أحد يطاردني، اذهب الآن.

ـ موريس، في غضون ثوانٍ سيأتي فريق محترف عبر تلك الأبواب. سيعرفون أنك ساعدتني. سيفعلون كل ما يلزم ليحصلوا منك على معلومات.

ابتسم موريس متجاهلًا وقال: «لم أخشَ الموت قط يا كورت. الموت عبثًا هو ما يخيفني حقًّا. لو كنتُ تلقيت رصاصة في فيتنام مثل كل صديق لي هناك، لكانٍ لهذا قيمة. إذا توفيت في أثناء العمل مع المؤسسة فسيكون هذا مشرفًا. أعني، اعتمادًا على ما كنا نفعله في ذلك

الوقت، فأنت تعلم ما أقوله. لكن أجلس هنا في منزلي في جنيف، أقلب قنوات التلفزيون، وأنتظر اللحظة التي تسعل فيها رئتي أو تتبول كليتي. ليس هناك نبل في هذا».

ـ ماذا تقول؟

ـ أنا أقول إنني سأموت من أجلك، يا فتى. لقد نفذت عمليات ناجحة أكثر من الوكالة بأكملها في السنوات الأربع الماضية. أنت تستحق أن يساعدك شخص ما إذا وقعت.

لم يدرِ جينتري ماذا يقول، لذلك لم يقل شيئًا.

ـ لا تفسد الأمر يا فتى. اخرج من هنا. سأبطئهم، ربما واحد أو اثنان في هذه العملية. لا توجد وعود، لكنني سأحاول تقليل عددهم بعض الشيء.

ـ لن أنساك أبدًا.

ابتسم موريس وأشار إلى الأعلى. وقال: «إذا تجاوزت الأمن ووصلت إلى الجنة، سأنتظرك هناك، فلنرَ ما إذا كنت ستلحق بي في الآخرة أيضًا».

تعانق الرجلان في حرج، كان كلاهما متوترًا ومشغول الذهن بسبب التحرك الوشيك. قال موريس: «شيء آخر. أتمنى أن تتذكرني بشكل إيجابي. لا تظن بي سوءًا إذا... إذا علمت أنني ارتكبت خطأً أو اثنين في الطريق».

ـ أنت بطلي. هذا لن يتغير أبدًا.

ـ شكرًا يا فتى.

كان هناك صوت فرامل شاحنة من الخارج. قال موريس: «اذهب!».

أومأ جينتري. ضغط الرجل الضعيف على كتفه وقفز إلى العارضة دون أن ينطق بكلمة. سرعان ما سحب نفسه إلى العلية، بينما تئن ضلعه المكسورة ومعصمه المتورّم ألمًا. كان قد أزال البلاط لتوه عندما

وقع اصطدام في الباب الأمامي تسبب في سقوط الدولاب لمسافة قدم في الغرفة.

دار موريس وانتقل إلى المطبخ بأقصى سرعة بساقيه الهزيلتين ورئتيه المشوهتين. حدث اصطدام آخر حطم الباب خلفه. أمسك بالموقد الضخم، وسحب جهاز الغاز القديم إلى الخلف بضع بوصات مرتعشًا.

جاهد للوصول وراء المدفأة، ومد جسده المسن إلى أقصى حد، لكنه لم يستطع الإمساك بهدفه. نظر في جميع أنحاء الغرفة بحثًا عن شيء يوسع به نطاقه.

***

كان الأفارقة الجنوبيون فرقة كوماندوز من وكالة المخابرات الوطنية في بلادهم. وقف قائد الفرقة المكونة من ستة أفراد في الفناء الأمامي للبيت الأبيض، وعلى كتفه بندقيته من طراز بينيلي. دخل باقي أعضاء فريقه أخيرًا من الباب المحصن. انتقلوا بمهارة هجومية عالية التدريب في جميع أنحاء المبنى ذي الطابقين. في منتصف الغرفة الأولى انقسموا إلى وحدتين، اتجه أحد الفريقين إلى المطبخ ووجد رجلًا عجوزًا جالسًا على طاولة، يداه فوق رأسه وأصابعه متشابكة، يواجه الحائط البعيد، صورة الاستسلام. سحبه أول رجل في الفرقة إلى الأرض بعنف وفتشه في ركن الإفطار الضيق.

وجد مسدسًا في حزام خصر الرجل العجوز وألقاه إلى أعلى في الحوض.

قال أكبر الرجال سنًّا: «هذه المسدس قديم أيها الأحمق!». بينما راح اثنان من الأفارقة الجنوبيين يدفعانه بقوة علي كرسيه إلى الغرفة الرئيسة، وانتظرا حتى أعلن الأعضاء الأربعة الآخرون في الوحدة إخلاء المنزل.

عندما عاود الفريق بأكمله الالتفاف حول السجين، نظر الأمريكي العجوز إلى جميع الوجوه، ومن الواضح أنه سمع لهجاتهم إذ قال: «أفارقة جنوبيون».

سأل القائد: «أين الرجل الرمادي؟».

تجاهل موريس سؤال القائد.

وقال: «انظروا يا رفاق. ثلاثة سود، ثلاثة بيض. عاج وأبنوس. في سالف الأيام كنتم أيها البيض تضربون هؤلاء السود، أليس كذلك؟».

لم يكن هناك رد.

«أنتم أيها الأولاد البيض لا بُدَّ أنكم تفتقدون أيام الفصل العنصري تلك، أليس كذلك؟».

كرر القائد سؤاله: «أين الرجل الرمادي؟».

قال موريس: «آه، لكن رئيس العملية أبيض. أنتم يا أولاد ما زلتم ضمن القائمة هكذا؟ وضع أصحاب المزارع العبيد في الرئاسة، لكنهم ما زالوا يصدرون الأوامر. ألست على حق؟».

فك أحد العملاء السود عقدة الرشاش الخاصة به من جهاز العدة على صدره، ورفعه ليحطم بعقبه فك موريس. قائلًا: «توقف!».

صاح الزعيم: «إنه فقط يحاول إبطاء سرعتنا حتى يتمكن ابنه الحبيب من الفرار. لن يحدث أيها الرجل العجوز. الآن، أين الرجل الرمادي؟».

ابتسم موريس: «هذا هو الجزء الذي أقول فيه: من هذا؟».

قطب القائد جبينه، وتحدث بلهجة إفريقية ثقيلة، وقال: «وهذا هو الجزء الذي يضربك فيه رجلي على وجهك لإساءتك التصرف بدلًا من تقديم إجابة». أومأ برأسه إلى العميل الأسود الذي كان لا يزال واقفًا فوقه. صدمت مؤخرة الرشاش فك الأمريكي العجوز، ودفعت رأسه إلى الوراء.

وكرر سؤاله: «الآن أيها الأحمق، لنجرب مرة أخرى، إلى أين ذهب؟».

بصق موريس الدماء وجزءًا من شفته السفلى على الأرض أمام، ثم قال: «لا أتذكر. لقد وصلت إلى سن متقدمة حيث تبدأ الذاكرة في التعثر. كثير النسيان، أنت تفهم. التقدم في العمر سيئ».

بعد عدة ثوانٍ من الانتظار، صرخ القائد في وجه الرجل: «لن أسأل مرة أخرى. كانَ الرجل الرمادي هنا. أين هو الآن؟».

أجاب موريس: «آسف أيها الشاب، أنا مريض. هل تمانعون إذا استخدمتُ دورة المياه؟».

نظر زعيم القتلة إلى مرؤوسه وقال: «اضرب هذا الأحمق مرة أخرى».

قال موريس على الفور: «لقد رحل ولن تجده».

سخر الإفريقي الجنوبي من الرجل النحيل قائلًا: «سأجده. سأجده وسأقتله. سمعة الرجل الرمادي ليست سوى هراء».

ضحك موريس وسعل وهو يقول: «هل لديك أي فكرة عن عدد الرجال الذين قالوا هذا الشيء تحديدًا والآن يتعفنون إلى الأبد في صندوق من الصنوبر؟».

أجاب: «هذا لن يكون مصيري يا صديقي».

أومأ موريس برأسه تقديرًا: «سأضطر إلى الاعتراف لك بهذه. لن يتبقى منك ما يكفي لصندوق الصنوبر. لكن لا داعي للقلق، فأنا أسمع أن شركات الدفن هنا في جنيف مجتهدة للغاية. بقليل من الحظ قد يجدون نصف رفاتك لملء نصف جرة ووضعها على رف والدتك».

مال الإفريقي الجنوبي برأسه وقال: «ما الذي تتحدث عنه بحق الجحيم، أيها المفكك؟».

أجابه موريس: «أنا فقط أقول، مستقبلك يبدو قاتمًا يا صديقي، لكنْ ثمة أخبار سارة».

نظر الإفريقي الجنوبي إلى رجاله. من الواضح أنه كان يتحدث إلى عجوز مجنون؛ لذا قال: «سأجاريك يا رئيس. ما البشارة؟».

قال موريس: «مستقبلك الكئيب سيكون قصير الأجل».

ثم ابتسم، وبدأ يصلي في هدوء استغفارًا لخطاياه. عندها فقط جاء صوت الفني عبر الراديو. وضع الرجال الستة أيديهم على سماعات الأذن الخاصة بهم ليصغوا جيدًا.

أخبرهم الفني: «مراقب رقم ثلاثة وأربعين أفاد أن الهدف خرج للتو من صالون الأظفار خلف مبنى سكني خلف المنزل. إنه يسير على قدميه متجهًا غربًا».

أومأ الزعيم الإفريقي الجنوبي برأسه، وأعاد انتباهه إلى موريس.

وقال: «أخبار سارة في كل مكان يا جدي. لن نضطر إلى تعذيبك لنعرف أين ذهب».

لم تنحرف نظرات موريس عن صلاته. هز قائد الفريق الإفريقي الجنوبي كتفيه، وأنزل بندقيته على صدر الرجل الجالس، وأطلق النار بيد واحدة.

عندما غادرت الرصاصة الماسورة متجهة نحو هدفها، انطلق الرجل الإفريقي الجنوبي في الهواء، وارتد إلى المطبخ. كُسِرت رقبته، واحترق جلد وجهه ويديه. عاني الخمسة الآخرون المصير نفسه، رغم أن مساحة غرفة المعيشة كانت أقل من أن تسع طيران هؤلاء الرجال.

توفي موريس على الفور من انفجار رصاصة من عيار اثني عشر في صدره من مسافة قريبة.

بعد دقائق عرف رجال الإطفاء في موقع الحادثة أن الدمار نتج عن تسرب غاز هائل، ربما من الوصلة بين الجدار وفرن المصانع الكبير. كان هذا أمرًا نادر الحدوث، لكنه شائع للغاية في المنازل القديمة كهذا المنزل، ولم تكن مفاجأة. بعد ساعات فقط، أطفئت النار، وانخفضت مستويات الماء والرغوة إلى حيث يمكن فحص الجثث، لكن احتار المحققون، ولم يستدلوا على شيء من الجثث السبع المبللة والمحترقة التي لا يمكن التعرف إليها، لكنهم لاحظوا الكم الهائل من الأسلحة النارية المحيطة بجميع الضحايا باستثناء واحد، وهو حدث غير مألوف إلى حد كبير في جنيف المعروفة بالهدوء.

25

بعد خمس دقائق من خروجه من صالون الأظفار، سار الرجل الرمادي غربًا في شارع دو مارشيه، باحثًا عن العنوان المدون على بطاقة الملاحظات في يده. تساقطت أمطار خفيفة، مما أعاق رؤيته للأرقام على المباني. كان قد انعطف للتو شمالًا في شارع رو دي كوميرس عندما وقع خلفه انفجار.

توقف عن المشي كما توقف المشاة من حوله على الرصيف. ومع ذلك لم يستدر جينتري كما فعلوا هم.

بعد بضع ثوانٍ من الوقوف بلا حراك تحت المطر، تقدم خطوة إلى الأمام. عادَ النشاط إلى جسده، واستمر في ذلك، وأخفض رأسه وكتفيه قليلًا. اكتشف مراقبًا، فراوغ هاربًا عبر شارع رو دو رون، إلى ممر صغير مختبئ، حيث فقد أثره في حركة السير بالقرب من مطعم ماكدونالدز.

بعد دقائق، وجد مرأبًا لسيارة واحدة في الجزء الخلفي من ساحة انتظار تحت الأرض في شارع الكونفدرالية. كان ذلك بعد ظهر يوم السبت، فلم يكن هناك أحد، فتح الباب المنزلق بالمفتاح الذي أعطاه إياه موريس فأصدر صريرًا، واختلط الغبار من داخل المساحة في أنفه برائحة زيت المحرك.

تحسس الجدران بحثًا عن إضاءة لمدة نصف دقيقة قبل أن يصطدم بجسم كبير في منتصف الأرض. وفوقه كان هناك سلك متصل بمصباح كهربائي معلق في منتصف الغرفة. انبهر جينتري بتألق اللمبة الوحيدة، وسرعان ما سحب باب المرأب ليغلق على نفسه الغرفة، ثم استدار

ليجد أن الشيء الموجود في وسط المرأب كان سيارة مغطاة بقطعة قماش كبيرة.

لم يقل موريس شيئًا عن إعارته سيارة. ظن كورت لثانية أنه دخل إلى مكان خاطئ.

نزع القماش وتركه يسقط على الرصيف، فكانت سيارة مرسيدس سيدان سوداء كبيرة، من الفئة (إس) بأربعة أبواب مصممة داخليًّا بالكامل من الجلد الأسود.

فكر كورت أن السيارة لا بُدَّ أنها تكلف أكثر من مائة ألف دولار.

تمتم قائلًا: «شكرًا يا موريس».

فتح باب السائق غير المؤمَّن، رأى الرجل الرمادي أن المفاتيح كانت في مكان التشغيل. نظر إلى لوحة القيادة ولاحظ أن السيارة تحركت أقل من أربعة آلاف ميل. لقد كانت جميلة، ومن المؤكد أنها ستجعل قيادة الساعات الثمانية إلى نورماندي أسرع وأكثر راحة، ولكن كانت هناك طرق أخرى للسفر. لا، ما كان يحتاج إليه حقًّا هو أسلحة. في أوروبا، كان الحصول عليها أكثر صعوبة من وسائل النقل الفعالة.

فتح صندوق المرسيدس بشغف، ومشى إلى الخلف. كانت هناك أربع علب كبيرة من الألومنيوم بعضها بجانب بعض. سحب كورت الأولى فوق الأخرى وقلبها ليفتحها.

انتفضت زوايا فمه لأعلى.

معدن ثقيل.

قال: «بطلي يا موريس».

مسدس **(MP5)** جرى تزييته جيدًا، وخُزِّن في غلاف من الإسفنج. أربع خزائن، حُشيت بالفعل بثلاثين رصاصة من عيار تسعة ملليمترات، وُضع بعضها بجوار بعض في الإسفنج، وقنبلتان يدويتان بجوار مسدس **(MP5)**.

عبأ المسدس الرشاش، وجهّزه لإطلاق النار، ثم ألقاه في المقعد الأمامي للسيارة المرسيدس مع باقي الخزائن الاحتياطية. أما العلبة الثانية، فقد احتوت على قنبلتين يدويتين، وقنبلتين صاعقتين، واثنتين من عبوات اختراق المداخل، ومكعب صغير من مادة سيمتكس البلاستيكية المتفجرة مع جهاز تفجير عن بعد. ترك هذه المعدات في صندوق الأمتعة في الوقت الحالي.

احتوت العلبة المصنوعة من الألومنيوم المصقول على وحدة (GPS) محمولة وجهازي اتصال لا سلكي متطابقين، وجهاز كمبيوتر محمول. ذهبت كل هذه العدة إلى المقعد الخلفي للسيارة. في العلبة الأخيرة، عثر كورت على مسدسين من طراز جلوك 19 عيار 9 ملم وأربع خزائن معبأة بالرصاص.

أيضًا في هذه الحاوية وجد كورت حزام أدوات للخصر، وحزام معدات للفخذ. كان أحدهما لحمل مسدس جلوك على وركه اليمنى، والآخر يُعلَّق على ساقه اليسرى ويحمل خزائن للمسدس الرشاش ومسدس جلوك.

حثّه حدسه على رفع فرش أرضية صندوق المرسيدس. هناك اكتشف سلاحًا آخر، بندقية هجومية من طراز **(AR-15)** ، وبجانب الإطار الاحتياطي، كانت هناك علبة بلاستيكية بها ثلاث خزائن محملة بذخيرة من عيار 223 ومجموعها تسعون طلقة.

أمضى كورت بضع دقائق في تشغيل هاتف الأقمار الصناعية والتعرف إلى نظام تحديد المواقع العالمي **(GPS)**. في الوقت نفسه استمر عويل إنذار الشرطة والمطافئ وسيارات الإسعاف على بعد ربع ميل من منزل موريس.

أنبأ مخبأ الأسلحة الضخم هذا جينتري بشيئين عن معلمه السابق. الأول أنه رغم تركه وكالة الاستخبارات المركزية، فإن ثمة ما دفعه للاعتقاد بأنه قد يحتاج إلى الهروب من وضع صعب ذات يوم.

وثانيًا، من مظهر السيارة المتميز، وهذا الكم المتنوع والهائل من المعدات، اتضح لجينتري صحة الشائعات حول معلمه. من المحتمل أنه اختلس من الحسابات التي كان يحتفظ بها لوكالة الاستخبارات المركزية.

موريس كان يعرف بالتأكيد أن جينتري سيصل إلى هذا الاستنتاج، لكنه بالرغم من هذا عرض مخبأه على تلميذه الشاب. كانت آخر أمنية للرجل المحتضر أن يستخدم هذا الكنز للفرار والنجاح في مهمته، وليس أن يحكم عليه بقسوة شديدة بسبب ذلك.

عندما انسحب جينتري من المرأب، ونظر إلى الأمام مباشرة من خلال النوافذ الدكناء، ومر بالمزيد من المتفاعلين الأوائل مع الانفجار، في طريقهم إلى مسرح الجريمة في شارع رو دو ليفيش، كانت مشاعره متضاربة.

لم يختلس كورت سنتًا واحدًا في حياته. لم يسبق له أن طلب رسومًا في العمليات والمهام المشبوهة لرجال العصابات وتجار المخدرات. لا، لقد كان قاتلًا، لكنه لم يكن لصًّا. كانت سرقة موريس من الشركة أمرًا مخيبًا للآمال، لكن في النهاية خطط كورت لاستغلال جزء كبير من تلك الأموال المسروقة على النحو الصائب. كورت مثالي وواقعي في آن واحد. كانت سرقة موريس خاطئة، لكنه قال لنفسه إنه لن يقسو في حكمه على مدربه القديم. وبدلًا من ذلك، سيسترد شرف الرجل العجوز، ويستخدم كل رصاصة ومسدس لإنقاذ الأبرياء الثلاثة في نورماندي واستعادة سجلات عملاء قسم الأنشطة الخاصة.

***

وقف ريجيل وراء الفني، ووقف لويد إلى يساره. جلس الشاب ذو ذيل الحصان على مكتبه أمام شاشات الكمبيوتر، ضاغطا سماعات الرأس على أذنيه.

من تعبيرات وجه الشاب البريطاني، يمكن للرجلين المسؤولين عن العملية أن يفهما أن الأخبار لم تكن سارة.

قال الفني: «لدينا تأكيد من مصادرنا المحلية بأن جميع الأفارقة الجنوبيين ماتوا. كان هناك انفجار كبير في الموقع المستهدف. كان تسرب غاز على ما يبدو. ولا شك أنه نَجَم عن إطلاق النار أو أي استخدام آخر للذخائر. لا تزال إدارة الإطفاء تعمل على إطفاء الحريق. ليس لديهم حصر لعدد الجثث حتى الآن، لكنهم يؤكدون فقط عدم وجود ناجين، بل عدد من الوفيات».

قال لويد: «جينتري؟».

هز الفني رأسه وقال: «شوهد وهو يغادر المبنى قبل دقائق من الانفجار».

ـ من شاهده؟

ـ مراقب فقده وسط الحشد.

صرخ لويد: «بربك! هل يجب أن أقتله بنفسي؟».

سحب ريجيل هاتفه من جيبه وأجرى مكالمة، انتظر لحظة قبل أن يقول: «نعم هذا أنا. أحتاج إلى طائرة هليكوبتر. التقط الأدوات التالية، ولتصل هنا قبل حلول الظلام. اكتب كل هذا: وحدات تصوير حراري وكاشفات حركة وأجهزة استشعار عن بعد وشاشات وكابلات. هل دونت كل هذا؟ اعثر أيضًا على سيرج وألان وضعهما على متن تلك المروحية. أخبرهما أن يأخذا أي شيء آخر يلزمهما لوضع جدار إلكتروني ثلاثمائة وستين درجة حول قصر لوران».

أنهى ريجيل المكالمة. حدق إليه لويد، وسأله: «ما كل هذا؟».

ـ معدات المراقبة الإلكترونية، ورجال لتثبيتها ومراقبتها.

ـ من أجل ماذا؟

ـ من أجل جينتري. من أجل الليلة.

ـ لا يزال هناك ثلاثمائة ميل وخمسة وثلاثون قاتلًا بينه وبيننا. تعتقد حقًا أنه سيبلغ القصر، أليس كذلك؟

ـ إنها مسؤوليتي أن أتيقن من وفاته. وسواء مات في جنيف، أو على طريق في جبال الألب الفرنسية، أو هنا في الحديقة، فإن وظيفتي هي إنقاذ عمليتك. سأستخدم كل أداة وكل ميزة تقنية وكل جسد حي وكل بندقية يمكنني وضعها بين موقعه الحالي ووجهته.

نظر الفني إلى الرجلين خلفه. لأول مرة، تظهر عاطفة ما على الشاب الإنجليزي؛ الخوف. وقال: «لم يذكر أحد شيئًا عن قدومه إلى هنا بالفعل. أنا لست رجلًا ميدانيًا بحق المسيح».

نظر ريجيل إليه بحزم وقال: «فلتعتبر أنك حصلت على ترقية».

عاد الفني إلى محطته.

بعد ذلك، استدعى ريجيل رجال البرج، وانضم إليهم القناص البيلاروسي ولويد في الحديقة الخلفية. قابلهم القناص بالقرب من النافورة، وكانت بندقيته الكبيرة دراجونوف معلقة على صدره.

ساروا معًا ببطء فوق العشب الملطخ بالدماء، باتجاه بستان التفاح الذي بدأ في نهاية الفناء الخلفي، واستمروا لمسافة عدة مئات من الأمتار إلى الجدار الحجري المرتفع الذي يحيط بالمبنى كله. استنشق ريجيل والقناص الهواء، ثم جثوا على العشب ووضعا أيديهما فيه. نظرا إلى كل شيء حولهما بعناية. بدا أن لويد يشعر بالملل والانزعاج.

تحدث ريجيل إلى القناص باللغة الروسية. حدق لويد باتجاه البستان. وسأله: «هل تفهم قواعد الاشتباك؟».

ـ إذا تحرك الهدف نحو القصر، فأطلق عليه النار.

ـ هذا صحيح.

ـ بسيط للغاية.

ضغط حذاء ريجيل العالي على العشب المشذب بعناية. استنشق الهواء مرة أخرى ثم قال: «هل كان هناك ضباب هذا الصباح؟».

ـ نعم. الرؤية لا تزيد على مائتي ياردة. لم أستطع الرؤية لأبعد من أشجار التفاح حتى الساعة العاشرة صباحًا تقريبًا.
ـ لا ينبغي أن تكون مشكلة. إذا وصل هنا من الأساس، فسيكون ذلك قبل شروق الشمس.
أومأ البيلاروسي برأسه وهو يتفحص البستان من خلال منظاره. قال ريجيل: «ما كان يجب أن تطلق النار على الأب».
هز القناص كتفيه وهو يتفحص المسافة القريبة ثم قال: «لو كنتَ في موقع الحادثة لما فعلتُ ذلك. حقيقة الوضع أنني لم يكن لديّ قيادة. لقد اتخذت قرار إطلاق النار. هذا ما أفعله ما لم أُكلَّف بخلاف ذلك».
أومأ ريجيل برأسه. نظر إلى قناصه للحظة ثم قال: «رأيت الجثة، الجرح الخارجي. وسواء أكان القرار صائبًا أم لا، لقد كانت ضربة موفقة».
أنزل البيلاروسي عينيه عن سلاح الدراجونوف، لكنه واصل تفحص البستان، وقال بلا ذرة عاطفة: «نعم. كانت كذلك».
سَئِم لويد تجاهله وقال: «انظر يا ريجيل. أنت تضيع الوقت. حتى لو نجح جينتري في الوصول إلى هنا، وهو ما لن يفعله، هل تعتقد حقًّا أنه سيأتي راكضًا في منتصف الفناء؟».
ـ ربما. سيفعل كل ما يرى أنه خياره الأفضل.
ـ هذا جنون. لن يقتحم القلعة بنفسه.
ـ يجب أن أستعد كما لو كان سيفعل. ستكون خياراته محدودة.
ـ حسنًا، لماذا لا تملأ الحديقة بالألغام الأرضية؟
قوبلت سخرية لويد باستخفاف تام.
أطال ريجيل النظر فيه للحظة قبل أن يقول: «هل تعرف أين يمكنني الحصول على بعض الألغام الأرضية؟».
في هذه اللحظة بالضبط، رن هاتف لويد في جيبه.

ـ نعم؟

ـ معك الفني. جينتري يتصل على هاتف السير دونالد. يمكنني إعادة توجيه المكالمة إليك.

ضغط لويد على مكبر الصوت في وحدته. وقال: «افعل هذا».

ـ مرحبًا يا لويد.

كان صوت جينتري متعبًا.

ـ إذًا فقد انزلق حبل المشنقة مرة أخرى. كنت أتمنى أن أقف فوق رفاتك المتفحمة في وقت ما هذا المساء.

ـ لا. بدلًا من ذلك، قتل المرتزقة المستأجرون بطلًا أمريكيًّا يبلغ من العمر خمسة وسبعين عامًا.

ـ نعم. جاسوس على وشك الموت جرى تسريحه. اسمح لي أن أمسح الدموع من عينيّ.

ـ تبًّا لك يا لويد!

ـ هل أنت في جنيف؟

ـ أنت تعلم أنني هنا.

ـ هل تريدني أن أرسل إليك خريطة بالفاكس؟ يقع شمال فرنسا في شمال فرنسا، وليس جنوب سويسرا. لا أعرف لماذا ذهبت لرؤية موريس. مال، وثائق، أسلحة، مسلح آخر، أيًّا كان. لن يصنع أي من هذا الهراء فارقًا كبيرًا على المدى الطويل. الشيء الوحيد الذي يجب أن تقلق بشأنه الآن هو الوقت، لأنه في صباح الغد عندما يشير عقرب الساعة الصغير إلى الثامنة ويشير العقرب الكبير إلى الثانية عشرة، ستواجه الفتاتان البريطانيتان الصغيرتان وقتًا عصيبًا هنا!

ـ لا تقلق يا لويد. سأكون هناك قريبًا.

ـ لماذا تتصل؟

ـ كنت أجلس هنا قلقًا من أن تبدأ في الاسترخاء اعتقادًا منك أنني مت في الانفجار. إن احتمال قضائك فترة ظهيرة مريحة كان حقًا يثير غضبي، لذلك قررت أن أهاتفك، وأن أخبرك أن تنتظر قدومي الليلة.

تنفس لويدٍ بغضب في الهاتف وقال: «أردتَ فقط أن تتيقن من أنني لم أتخلَّ عن المهمة، ولم أذهب إلى الطابق السفلي وأقتل عائلة فيتزروي لأنني لم أعد بحاجة إليهم».

ـ وهذا أيضًا. لا أعرف عدد فرق القتل بينك وبيني، لكن كل الحمقى على وجه الأرض لن يمنعوني من الإمساك بحلقك في غضون ساعات قليلة.

ركض الفني إلى الرجال الثلاثة في الحديقة الخلفية لاهثًا، رفع ورقة كتب عليها كلمات على عجل: «هاتف قمر صناعي، غير قابل للتتبع».

عبس لويد وقال: «كورت، إن موتك حتمي. لماذا لا توفر علينا بعض الوقت، وتجعل الأمور أسهل على الجميع وتقتل نفسك، ثم ضع رأسك في صندوق ثلج واشحنه لي».

ـ سأعقد معك صفقة. سأجلب لك الرأس. وأنت احصل على صندوق الثلج. بعد فترة وجيزة، سأمنحك الفرصة لوضع الاثنين معًا.

ـ تبدو كأنها خطة، يا صديقي.

ـ صباح الغد، سيتعين على يوليوس أبو بكر أن يعثر لنفسه على عاهرة جديدة ليساوم بها، فعندما تفشل، وسوف تفشل، فإما أن أقتلك وإما سيقتلك شخص آخر.

ارتجف وجه لويد في حالة من الغضب وقال: «أنا لست عاهرة أحد، أيها الوغد الأحمق. لقد رأيت الكثير من المستغلين المتعجرفين يأتون ويرحلون طوال حياتي، أنت لست مختلفًا. عليك أن تتذكر أنه حتى مع سمعتك ولقبك المخيف، فأنت بلطجي ممجد فحسب، ستموت في غضون ساعات قليلة، وسأنسى أمرك قبل أن يقضي عليك الدود».

كانت هناك وقفة قصيرة.

ـ اسمح لي أن أخمن يا لويد. كان والدك شخصًا مهمًّا.
ـ في الحقيقة، والدي شخص مهم.
ـ ليس غريبًا. أراك قريبًا.
أغلق جينتري الهاتف.

أخفى ريجيل ابتسامته عن لويد. لا يزال الفني يقف ويداه على ركبتيه، لاهثًا من الركض. قال: «يبدو أن جينتري يعتقد حقًّا أنه سيصل إلى هنا». كان هناك رعب واضح في صوته بين شهقاته من أجل الهواء.

صرخ لويد في وجهه: «عد إلى العمل. أريد طائرات هليكوبتر في الهواء، أريد رجالًا في القطارات، وأريده ميتًا قبل أن يصل إلى باريس!».

***

بعد ساعة، وقف ريجيل على سور مسطح يحاذي الجزء الخلفي من سقف القصر. نظر إلى الخارج من خلال الأسوار المزخرفة في الظهيرة رغم سطوع الشمس، سارت ثلاث فرق من البيلاروسيين في تقاطعات، تتألف كل فرقة من رجلين يحملان بنادق هجومية وأجهزة راديو. كان القناص ومراقبه على يسار ريجيل، في البرج العالي مع رؤية شبه مثالية تبلغ 360 درجة للحديقة الخلفية والحديقة الأمامية. أبلغت المروحية المزودة بمعدات التصوير الحراري للتو عبر اللاسلكي أنها في طريق عودتها من باريس، ومعها جميع المعدات وفريق من مهندسيْن اثنيْن يمكنهما إعدادها في أقل من ساعة.

وضع الفني فريقًا ناجحًا على متن القطار فائق السرعة من جنيف إلى باريس. لم يبلغوا عن مشاهدة جينتري. اتخذت ثلاث فرق أخرى ومعظم المراقبين المتاحين مواقع على الطرق السريعة عبر جبال الألب الفرنسية التي كان على الرجل الرمادي اجتيازها إذا كان مسافرًا بالسيارة أو الدراجة النارية، وفي باريس كانت هناك ثلاث فرق قتل أخرى. لقد

كانت منطقة تجمع مألوفة، ومدينة مليئة بأعوانه المعروفين، مدينة قد يتوقف فيها للحصول على الإمدادات أو الدعم.

***

لم يكن أمام كيرت ريجيل الكثير ليفعله في الوقت الحالي سوى الانتظار.

ومع ذلك، أزعجه أمر ما.

بدأ الأمر كصداع شديد في الجزء الخلفي من عقله، وزاد مع مرور الوقت وهو يتصالح مع حقيقة أنه رتب كل نهايات العملية قدر إمكانه في الوقت الحالي، لكن هذا تم بعدما لم تعد هناك أي استعدادات أخرى يمكنه اتخاذها.

أخيرًا، اقترب من سبب ضيقه؛ أمر قاله الرجل الرمادي للويد. بالتأكيد، اكتشف جينتري أن هذا الهجوم ضده له علاقة باغتياله إسحاق أبو بكر. ولكن ماذا عني بقوله إن لويد عاهرة أبي بكر؟ كيف عرف جينتري أن لويد لم يكن موظفًا عند أبي بكر وحسب، أو في وكالة الاستخبارات المركزية، يؤدي عملًا ما؟ بل أدى عمله لسبب آخر، صفقة من نوع ما.

قرأ ريجيل نص محادثة هاتفية سابقة بين جينتري ولويد كتبها الفني بخط اليد قبل أن يأتي ريجيل للموقع. أيٌّ من لويد أو فيتزروي لم يذكر مجموعة لوران أو الأسباب الحقيقية وراء هذه العملية. لماذا بحق السماء يفترض الرجل الرمادي أن هذه العملية تضمنت نوعًا من الصفقة بين الأطراف، التي من الواضح أن المقصود بها ضمنيًا مساومة؟ لماذا بحق السماء يفترض الرجل الرمادي أن حياة لويد سيحدد مصيرها نجاحه؟

مرت دقيقة أخرى كاملة من التكهنات، وعندما جاءته الإجابة كانت كالعلامة كما لو كان يصطاد فريسة في رحلة سفاري. عند تتبع حيوان ما، يمكن للصياد الماهر أن يجد مؤشرًا على مسارات الحيوان،

وإشارات إلى أنه يعرف أن أحدًا يسعى وراءه. لقد اشتمَّ رائحة، أو لمح حركة. تتغير المشية عندما تشعر الفريسة بالمتاعب، ولا يتمكن سوى صياد ماهر مهارة فريدة من التقاط هذا التغيير الدقيق في المسارات الواقعة في محيط بصره.

كيرت ريجيل كان صيادًا حقيقيًا.

لدى جينتري أكثر من رائحة تشير للعملية الحقيقية ضده. كانت لديه تفاصيل محددة لم يكن ليحصل عليها إلا بطريقة واحدة. دار كيرت ريجيل حول الأسوار ودخل القصر. مرَّ على لويد الذي كان يخرج من الحمام، واستمر في النزول إلى الممر كأنه جندي غاضب.

رأى لويد تصميم الصياد. وسأل: «ما هذا؟ ماذا دهاك؟».

لم يقل ريجيل شيئًا. سار في القاعة وهبط الدرج الواسع المغطى بالسجاد المؤدي إلى الطابق الثاني. اقتحم

هذا المدخل إلى الشمعدانات واللوحات، بعد باب غرفة إليز فيتزروي، ثم عبر غرفة النوم حيث حُبست الطفلتان. وفور وصول لويد، اجتاز ليري أحد المجرمين الأيرلنديين الشماليين الذين أحضرهم لويد من مجموعة لوران.

صدم الألماني البالغ من العمر 52 عامًا بكتفه الباب الثقيل الذي كان يحرسه ليري، وفتحه. في الغرفة الكبيرة خلفها، استلقى سير دونالد فيتزروي على ظهره في فراش من الكتان الأبيض مواجهًا الباب، وحدق مرة أخرى إلى موكب الرجال الذين دخلوا الغرفة.

قطع ريجيل الغرفة إلى فراش السير دونالد. لم يُظهر أيًّا من المجاملات التي أظهرها في اجتماعهما السابق. كانٍ وجهه وجه رجل مخدوع متعطش لدماء ترد اعتباره. سأل ريجيل سؤالًا من كلمة واحدة بصوت خافت يتعارض مع سلوكه: «أين؟».

وقف لويد وليري في وسط الغرفة. نظرا إلى بعضهما بعضًا، يحاولان فهم ما كان يحدث.

سأل دونالد: «عم تتحدث؟».

سحب ريجيل مسدسه من طراز ستير، وضغط بقوة على جبهة رأسه الأصلع وقال: «فرصتك الأخيرة». كان صوته لا يزال همسًا. ثم سأله: «أين هو؟».

بعد وقفة وجيزة، تحركت ذراعا السيد دونالد فيتزروي ببطء تحت الأغطية. سرعان ما ظهر هاتف محمول. سلمه إلى الألماني الكبير. ريجيل لم ينظر إليه. فقط أدخله في جيبه، وقال: «من؟» الآن يسأل بصوت خافت وغاضب.

لم يقل السير دونالد شيئًا.

«سيستغرق الأمر مني ثواني لتحديد مالك هذا الهاتف. يمكنك أن توفر على نفسك قدرًا من البؤس بأن تعطيني الإجابة بنفسك».

نظر السير دونالد بعيدًا عن ريجيل، عبر الغرفة إلى لويد، ثم انحرفت عيناه إلى الحارس الأيرلندي الشمالي.

قال دونالد: «عمل بادريك ليري عندي في الأيام الخوالي، في بلفاست. لقد كنت واحدًا من أفضل مخبريَّ يا بادي». عاد ينظر إلى كيرت ريجيل. وأكمل: «ومع ذلك، أخذ مني الوغد مبلغًا كبيرًا لإجراء بضع مكالمات فاشلة».

عندما تحول غضب ريجيل من الرجل الإنجليزي إلى الأيرلندي، صرخ فيتزروي للحارس المذهول: «آسف أيها الشاب. لا أعتقد أنه يمكنني الحصول على عشرة آلاف جنيه استرليني في النهاية، سيكون عليك فقط الاكتفاء بعزاء أنك ستظل خادمًا مخلصًا لأحد النبلاء في التاج البريطاني».

نظر ليري إلى ريجيل وصاح: «كذبة مفتراة! إنه شخص بريطاني يكذب عليك! إنه يكذب كذبًا فجًّا! منذ يومين لم أنظر قط إلى اللقيط العجوز الوغد!».

أخرجه ريجيل من جيبه وأمسك به وسأله: «هل هذا هاتفك؟». ثم نظر إليه ليري لعدة ثوانٍ، ثم بدأ في السير نحو فيتزروي في فراشه.

وسأله: «كيف بحق الله وصلت بيديك الضعيفتين الباليتين إلى...».

دوى طلق ناري في الغرفة الصغيرة. انطلق رأس ليري إلى الأمام، وسقط منكبًا على وجهه عند قدمي ريجيل. سقط الألماني على ركبته فجأة ورفع سلاحه في ومضة وهو يجثو.

وقف لويد في منتصف الغرفة وذراعه ممدودة تمسك بمسدس فضي صغير. كان لا يزال يصوب إلى حيث كان الجزء الخلفي من رأس الأيرلندي مكانه قبل أن تدفعها الرصاصة المجوفة من عيار 0.380 للتأرجح إلى الأمام.

صرخ ريجيل في صيحة جرمانية: «لا!». بينما كان لويد يتحدث، لوح بالمسدس في جميع أنحاء الغرفة، واستخدمه ليشير به في كل الاتجاهات مع إيماءاته اللاإرادية. وقال: «لدينا ما يكفي من المشكلات.. لسنا بحاجة إلى القلق من أعداء بيننا». ثم أشار إلى ريجيل الذي كان لا يزال على ركبتيه، وعيناه على المسدس الذي يتراقص في الغرفة في نهاية ذراع لويد. وأكمل: «أردت أن تعامل دوني الصبي مثل رجل نبيل، وهذه هي الطريقة التي يكافئك بها. كنت متساهلًا للغاية، وقد استخدم ذلك ضدك. لقد كان يتلاعب بالناس من قبل ولادتي. هذا ما يفعله! فلتعرف بمن اتصل وماذا قال له. افعل هذا الآن، أو سأتصل بمارك لوران وأخبره أنك تعوق مهمتي!».

أنزل لويد المسدس واستدار ليغادر الغرفة. بعد بضع ثوانٍ أخرى جثا على ركبته ومسدسه مرفوع لا يزال يبحث عن هدف، وضع ريجيل سلاحه في جرابه ونظر إلى فيتزروي قائلًا: «أشعر بخيبة أمل».

كان ثبات صوت فيتزروي يثير الدهشة. وقال: «أرى اليأس يا ريجيل. أراه في عينيك وكذلك في صوت لويد. لا يتعلق الأمر فقط بعقد شفط الغاز الطبيعي وشحنه. لدى أبي بكر شيء آخر يمتلكه في

مجموعة لوران. بعض الأوساخ عن ماضيك، ممارساتك. شيء ما إذا عُرِف فستنهار مؤسستك».

نظر ريجيل في مرآة معلقة فوق دولاب كبير. صفف شعره الأشقر الشائب بأطراف أصابعه، وقال: «نعم أيها السير دونالد. لقد سمحنا لأنفسنا بأن نقع في مأزق لا نحسد عليه. اعتاد والدي أن يقول: إذا استلقيت مع الكلاب فستستيقظ مع البراغيث. لقد استلقينا مع العديد والعديد من الكلاب لسنوات عديدة. أبو بكر من أسوئهم وهو يعرف جيدًا ما يمكن أن يفعله مارك لوران من أجل المال والسلطة. منذ إنهاء الاستعمار في إفريقيا، أصبحت موارد القارة جاهزة للاستغلال من أي شخص مستعد للرقص مع طاغية. أبو بكر في جيبنا الخلفي منذ سنوات، والآن صرنا نحن في جيبه الخلفي. إنه يهدد بفضح المدة التي قضاها مارك لوران في استنزاف موارد إفريقيا. ليست قصة جميلة. نفضل أن يكتم الرئيس المنتهية ولايته فمه».

بعد ذلك، اتجه ريجيل نحو الباب. دون أن ينظر إلى الوراء، وقال لسجينه: «سأرسل شخصًا لتنظيف آثار الجثة».

ـ لا تزعج نفسك. عندما يصل كورت إلى هنا، سيمتلئ المنزل بالجثث.

26

حلّق خمسة جنود من المخابرات العامة السعودية، أو رئاسة الاستخبارات العامة، غربًا فوق جبال الألب بطائرة يوروكوبتر **EC145** مسروقة. كانت المروحية تابعة لمالك محلي حقق أرباحًا جيدة من نقل المتزلجين على الجليد إلى قمم يتعذر الوصول إليها في مون بلان[1] والجبال الأخرى في المنطقة.

الآن قُتل مالك يوروكوبتر الأسود الأنيق في قمرة طائراته، وهو رائد سابق في الجيش الفرنسي، نال رصاصة واحدة في القلب بمسدس كاتم للصوت، وحلّق السعوديون بمركبته شمالًا على الطريق السريع.

كان الطريق متعرجًا فارتفع بهم وهبط، وتقاطع واختفى في أنفاق جبال الألب، متجاوزًا الغابات الخضراء الباهرة والبحيرات التي لم تضاهِ زرقتها الساطعة السماء المشرقة.

الطيار السعودي وحسب هو من يتحدث الإنجليزية. ظل على اتصال متقطع بالفني، وهو اتصال مفتوح ثنائي الاتجاه بين سماعة رأسه ومركز القيادة، وقد تقطع مع القمم الحادة التي حاوطت الطائرة. في الوقت نفسه أدار الفني فرقًا أخرى ناجحة في المنطقة، ونقلوا تقارير من المراقبين في محطات الحافلات ومواقف سيارات الأجرة. لم يُبلغ عن أي علامة على الرجل الرمادي منذ اجتاز مراقبيه بعد مغادرة منزل الخبير المالي في جنيف.

يعد الطريق السريع **A40** هو الاختيار الأسهل لأي مسافر من جنيف سويسرا، عبر جنوب غرب فرنسا، إلى قلب فرنسا.

هناك في مدينة فيريات، يمكن للمرء أن يبقى على الطريق **A40** إلى **A6**، أو يمكن للمرء أن يتجه إلى الشمال الشرقي على الطريق **A39**

(1) الجبل الأبيض على الحدود الإيطالية الفرنسية.

إلى ديجون. في كلتا الحالتين، تستغرق الرحلة نحو خمس ساعات بالسيارة إلى باريس، مقارنة بست ساعات أو أكثر إذا جرى تجنب هذه الطرق.

يعرف السعوديون في المروحية أين يبحثون عن هدفهم إذا جاء عبر هذه الطرق، فسوف يمر أسفلهم على الطريق **A40**.

لم يعرفوا نوع السيارة التي كانوا يبحثون عنها. تمركز ثلاثون مراقبًا على الجسور العلوية، وتوقفوا للاستراحة بطول حارات الطوارئ على الطريق السريع بعد أن غطوا سياراتهم. وقاد آخرون عبر حركة المرور. راقب كل فنانٍ رصيف الطريق، ورصدوا ركاب أكبر عدد ممكن من السيارات بحثًا عن مواصفات أساسية محددة.

كانت العملية أكبر من أن تجهلها الشرطة، ولهذا السبب وغيره، كان ريجيل ضد المشروع تمامًا. عندما أصبح واضحًا أن جينتري لم يستقل القطار أو الحافلة، أراد ريجيل سحب جميع المراقبين وجميع فرق القتل وجميع العملاء إلى باريس. كان على يقين من أن الرجل الرمادي لن يتجاوز باريس. افترض ريجيل ـ ولم يعارضه لويد ـ أن المسؤول المالي في الاستخبارات المركزية، الذي التقاه كورت في جنيف ربما زوده ببعض المعدات والأسلحة وعربة ورعاية طبية ونقود على الأرجح.

افترض ريجيل أيضًا أنه إذا كان لدى الرجل الرمادي الوقت الكافي لانتظار مكالمة من سير دونالد فيتزروي، فلا بُدَّ أن لديه الوقت للتواصل مع أطراف أخرى من معارف المصرفي النافذ، والعميل السابق بوكالة الاستخبارات المركزية. إذا كان كورت قد اتخذ الترتيبات اللازمة لالتقاط الرجال أو المعدات، فلن يكون لديه الوقت للذهاب إلى أي مكان آخر غير المواقع الموجودة بالفعل في طريقه.

باريس هي آخر مدينة كبرى في طريقه، وكانت مكتظة بالقتلة ومزوري الوثائق، وتجار السلاح في السوق السوداء، وعملاء سابقين في وكالة الاستخبارات المركزية، وطيارين، وجميع أنواع الأعمال الطائشة الأخرى التي يمكن أن يستغلها الرجل الرمادي، لمساعدته

على إنقاذ عائلة فيتزروي، واستعادة ملفات الموظفين التي سرقها لويد من الاستخبارات الأمريكية.

أراد ريجيل أن تنصب جميع موارد العملية على باريس، لكن لويد طالب بنصب كمين أخير عند نقطة اختناق الطريق السريع الرئيسي إلى الشمال، لإيقاف جينتري قبل أن يقترب من القصر.

***

لكن جينتري لم يسلك الطريق A40 إلى A6 أو A39، كانت أكثر الطرق عملية بلا جدال، لكن حسبما رأى كورت، كانت عملية فقط لأولئك المسافرين غير المستهدفين من عشرات القتلة بطول هذه الطرق.

لا، قرر كورت أن العملية ضده سبب كاف لإثقال جسده المرهق والمتألم بساعتين أو أكثر من القيادة. سيكون أمرًا مزعجًا، سبع ساعات كاملة خلف عجلة القيادة فقط للوصول إلى باريس، لكنه لم ير بديلًا. لم يكن خيار الحافلات والقطارات واردًا مع كل المعدات الموجودة في صندوق السيارة، والتي كان عليه أن ينقلها. لا بُدَّ أن يقود. على الأقل كان يقود أحدث طراز. كانت سيارة مرسيدس **S550** أنيقة وصلبة، وقد ملأ الفرش الداخلي الجديد أنفه برائحة الجلد الفاخر. محركها بقوة **382** حصانًا يخفق بسرعة خمسة وثمانين ميلًا في الساعة، وسماعات تعمل بالأقمار الصناعية آنَسَت كورت.

فمن وقت لآخر شغل الراديو المحلي، وجاهد لالتقاط المعلومات باللغة الفرنسية حول المعارك بالأسلحة النارية في بودابست وجواردا ولوزان، وشيء عن انفجار منزل في المدينة القديمة في جنيف.

بحلول الخامسة بعد الظهر، هدد إرهاق جينتري بطرده من الطريق، فتوقف للاستراحة قبل بلدة سانت ديزييه. تزود بالوقود واشترى شطيرة لحم وجبنًا فرنسيًا في خبز فرنسي كبير. شرب اثنين من المشروبات الغازية واشترى زجاجة ماء ضخمة بعد زيارة الحمام. بعد خمس عشرة دقيقة عاد إلى الطريق. أخبره GPS المثبت على لوحة القيادة أنه لن يصل إلى باريس قبل الساعة التاسعة مساءً.

قدَّر جينتري كل ما يتعيَّن عليه فعله قبل التوجه إلى نورماندي، وخلُص إلى أنه سيصل إلى القصر الساعة الثانية والنصف صباحًا تقريبًا. واعترف لنفسه أن هذا مرهون بعدم وقوع متاعب في باريس.

***

قال ريجيل: «حان الوقت لإعادة الجميع إلى العاصمة». وقف خلف لويد والفني، إذ عاد لتوه إلى مركز القيادة بعد العمل لمدة ساعتين مع مهندسي الأمن الفرنسيين على الطوق الإلكتروني حول القصر.

أومأ لويد وكرر كلمات الألماني للفني الجالس بجانبه. ثم عاد إلى نائب رئيس إدارة المخاطر الأمنية.

ـ أين هو بحق الجحيم؟

ـ كنا نعلم أنه من المحتمل أن يسلك طريقًا آخر. بوسعه استخدام مئات الطرق. رحلته عبر الريف ستؤخر وصوله إلى باريس، لكنها ستوصله إلى هناك.

ـ هذا في حال ذهب إلى باريس.

ـ نفترض أنه لن يهاجم بنفسه حصنًا محميًا مليئًا بالمسلحين والرهائن. سيتعين عليه الحصول على بعض المساعدة قبل أن يأتي إلى هنا، ولديه شركاء معروفون في باريس أكثر من أي مكان آخر. إذا توقف لأي ظرف، فسوف يتوقف في باريس. جميع شركائه خاضعون للمراقبة. ولأنه مُصاب فلديَّ رجال في كل مستشفيات باريس لمراقبته.

ـ لن يذهب إلى المستشفى.

ـ على الأغلب لا. لن يفضح نفسه على هذا النحو.

ـ طبيب في شبكة فيتزروي، ربما؟

ـ ربما. لكن فناني الأرصفة موجودون في كل مكان، ويراقبون في كل جهة اتصال معروفة.

ـ لا أريده أن يخرج حيًا من باريس.

ـ لقد حشدتُ ما يكفي يا لويد.

27

اقتحم جينتري الحافة الشرقية لباريس بعد الساعة التاسعة من مساء يوم السبت. أنساه التعب الشديد آلام قدميه وركبتيه وفخذيه ورسغه وأضلاعه، لكن لم يثنه عن تقدمه إلى المدينة، وعثر على موقف سيارات باهظ الثمن في مرأب تحت الأرض بجوار محطة قطار سان لازار. وضع كل الأسلحة في المقعد الخلفي، وأغلق السيارة وتوجه إلى الشارع.

كان لديه متسع من الوقت لوضع خطة عمله في باريس في أثناء القيادة واستخدم الـ GPS للعثور على متجرين في المنطقة. بعد بضع دقائق سيرًا على قدميه خلال المساء البارد الضبابي، عثر على مطعم ماكدونالدز، وتقدم عبر حشد من الأطفال من جميع الجنسيات، وشق طريقه إلى الحمام. أمضى دقيقة ونصف الدقيقة في غسل وجهه المرهق، وصفف شعره الأشعث، واستخدم المرحاض، ومسح ملابسه بسائل صغير من معطر الجو.

كانت محاولة تنظيف بائسة، لكنها كانت أفضل من لا شيء.

بعد خمس دقائق، دخل متجر ملابس رجالي في شارع روما بينما يوشك البائع أن يدير لافتة «مغلق» عند الباب. التقط كورت بذلة سوداء مقلمة باهظة الثمن، وقميصًا أبيض، ورابطة عنق زرقاء مصمتة، وحزامًا وحذاءً، دفع ثمنها عند طاولة المشتريات. ثم اتجه عبر الشارع إلى متجر للسلع الرياضية، إذ يضع البذلة على كتفه. وهناك اشترى خزانة ملابس كاملة من الملابس الخارجية السميكة ذات اللون البني الخافت.

عاد إلى الشارع في الوقت الذي أغلقت فيه آخر متاجر الملابس التي تعمل ليلًا أبوابها، ووجد صيدلية على الجانب الآخر من المحطة فاشترى ماكينة حلاقة كهربائية وشفرة حلاقة، ومقصًا، وكريم حلاقة، وبعض الحلوى. أخذ من الرف نظارة ذات إطارين أسودين وجربها، وقرر أنها تناسب احتياجاته. ما إن اتجه إلى طاولة المدفوعات، رأى مظلة سوداء طويلة مميزة تتدلى من الرف، بمقبض معقوف جيد الصنع.

جذب المنتج انتباهه. تحسس بضاعته الجديدة وحقائبه الأخرى، ثم انتزع المظلة ودفع للآسيوي الملول على طاولة المدفوعات.

بعد العاشرة بقليل، نقل جينتري كل بضاعته إلى محطة القطار، وبقي قريبًا من الجدران، وأخفض رأسه بعيدًا عن الكاميرات الأمنية المنتشرة في القاعة الطويلة المفتوحة. تجاهل عشرات النساء البوسنيات اللاتي يتوسلن من أجل فكة، ودخل حمامًا فارغًا أسفل الردهة من رصيف كان يستقبل آخر قطار في المساء. وضع كل حقائبه في المرحاض واستعد للعمل.

سرعان ما تجرد من ملابسه الخارجية وقص شعره. حاول أن يُسقط أكبر قدر في المرحاض، لكنه وضع أيضًا الأكياس البلاستيكية التي حوت ما اشتراه من ملابس على الأرض لتجمع الباقي.

بعد ذلك، استخدم ماكينة الحلاقة الكهربائية ليحلق رأسه حتى يصل إلى الدرجة الخفيفة. أنهى كريم الحلاقة والشفرة المستقيمة المهمة. خرج من المرحاض مرتين للتحقق من عمله في المرآة، لكنه كان يتراجع إلى مساحته الخاصة بسرعة لتجنب إثارة الشك إذا دخل أحدٌ.

عندما انتهى، رمى أكياس قصاصات شعره بعناية في سلة المهملات، ثم غسل المرحاض من الشعر. بعد أن حلق رأسه تمامًا اغتسل مرة أخرى في الحوض، وسرعان ما ارتدى البذلة والقميص وربطة العنق

والحذاء. وضع نظارته على وجهه بسلاسة، وثبَّت مظلته المميزة، ثم حمل باقي حقائبه.

بعد ثماني عشرة دقيقة من دخول جينتري إلى الحمام، خرج رجلًا مختلفًا.

تغير شعره وملابسه بالطبع، لكن مشيته أيضًا كانت أسرع، ووقفته أكثر انتصابًا. قاوم كورت رغبته في أن يعرج على ساقه اليمنى. نزل النبيل الذي يرتدي بذلة على الدرج عائدًا إلى مرأب السيارات وترك حقائبه في السيارة. أخذ مسدس جلوك ثم عاد إلى الشارع. ها هو رجل باريسي يرتدي ملابس أنيقة يمشي بمفرده في طريقه إلى المنزل من مطعم جميل. تتأرجح بجواره مظلته، إذ ينتقل مع المارة في ضباب نوفمبر. استقل سيارة أجرة في شارع سان لازار في الساعة 11:30، وأمر السائق بفرنسية متعثرة أن ينقله إلى حي سان جيرمان دي بري في الضفة اليسرى.

***

رصد سونج بارك كيم الكازاخيين بجوار كاتدرائية نوتردام. تيقن من كونهم قتلة يسعون وراء الهدف نفسه الذي كان يسعى إليه. كان من الصعب أن يفلتوا من مراقبته الحادة، ولم يكن لدى الكوري شك في أن الرجل الرمادي سيتعرف إليهم بالسهولة نفسها. كما أنه اجتاز ثلاثة -أو أربعة- عناصر مراقبة ثابتة، واستطاع أن يرصدهم رغم زحام مساء السبت، لكنه مع ذلك أقر أنهم على قدرٍ كافٍ من المهارة.

فهم كيم هدفه. لو تعين على الرجل الرمادي التوقف في باريس، لكان وصل الآن. احتدت حواسه الفائقة بالفعل أكثر قليلًا كلما ألقى الفني على سمعه تقريرًا غير مبشر. سار الكوري من شارع إلى شارع، وبدا غير مبالٍ، لكنه ظل على مسافة متساوية من المواقع المتداخلة والمعروفة.

سار كيم في صمت تام في الشارع الخالي. حانة أيرلندية وحسب أضاءت الأحجار المرصوفة أمامه؛ وبخلاف ذلك كان الظلام حالكًا، واستغل الكوري الليل باعتباره صديقه الصدوق. يتحرك بسرعة وبطريقة مريحة مثل صياد ليلي. عند تقاطع شارع سانت ميشيل وشارع سوميرارد، توغل في زقاق، ووجد مخرج طوارئ رآه في وقت سابق عندما تجول ليوم كامل في المدينة، وقفز عاليًا للانفراد به. تأرجحت حقيبة الظهر علىً ظهرهً، ومالت حقيبته الخضراء الزيتونية إلى الأسفل بسبب المسدس الآلي من طراز إتش كي والخزائن الإضافية، بينما يصعد القاتل الكوري الدرج.

ارتقى السلالم المعدنية في صمت حتى بلغ الطابق السادس. رفع ذراعيه القويتين مرة أخرى فأصبح فوق القمة، على السطح. من هنا كان يرى برج إيفل على بعد أكثر من ميل أمامه، ونهر السين على يمينه، والحي اللاتيني يمتد إلى يساره. استمرتٍ أسطح المنازل بطول شارع سان ميشيل، ولامس بعضها بعضًا، فشكلت طريقًا أعلى من الشوارع أدناها.

ستكون هذه نقطة انطلاق كيم في المساء. إذا غامر جينتري في أي مكان على الضفة اليسرى، يمكن لكيم التحرك بسرعة وهدوء فوق هذا الصف من المباني أو غيرها من المباني المماثلة. إذا ظهر الرجل الرمادي على الضفة اليمنى، يمكن لكيم أن يصل هناك في غضون دقائق من خلال النزول والركض عبر أي من الجسور، لمسافة بضعة مبانٍ إلى الشمال، التي تمتد عبر النهر البارد الجاري الذي تتلألأ صفحة مياهه، إذ يتدفق عبر أضواء المدينة.

***

قفز كورت جينتري من سيارته الأجرة إلى مقهى إنترنت في شارع سان جيرمان. طلب ساعة لاستخدام الإنترنت وكوب إسبريسو مزدوجًا من البار. دفع حسابه ثم شق طريقه بأدب عبر حشود الطلاب باتجاه

جهاز كمبيوتر مفتوح في الخلف. أنزل نظارته على أنفه، وأمسك بالكوب والصحن، وعلّق مظلته الفاخرة على ذراعه.

ما إن اتصل بالإنترنت، فتح محرك بحث وكتب: «أملاك مجموعة لوران في فرنسا». نقر فوق أحد مواقع الويب التي تعرض عقارات الشركة الضخمة: المواني والمكاتب والمزارع الصغيرة وصفحة الويب الخاصة بأماكن الاستجمام التابعة للشركة. هنا وجد قصر لوران، منزل عائلي تستخدمه الشركة شمال شرق قرية ميزون الصغيرة في نورماندي.

فور حصوله على الاسم بحث على الويب للحصول على مزيد من المعلومات حول العقار، وعثر على موقع يعرض قصورًا خاصة في أوروبا، وألقى نظرة على اللقطات الساحرة لمنزل العزبة من القرن السابع عشر. احتفظ في ذاكرته بالعديد من المعلومات، وتجاهل حقائق أخرى لا تبدو شديدة الأهمية، مثل حقيقة أن ميتران أطلق النار على الأرانب على الأرض، أو أن بعض كبار ضباط روميل قد ضربوا زوجاتهم هناك في أثناء وجودهم في المدينة لاتخاذ الاستعدادات النهائية لجدار الأطلسي.

كتب العنوان بقلم استعاره من صبي أسمر يجلس بجانبه، ثم تصفح موقع ويب شركة لوران. استغرق الأمر منه بضع دقائق حتى عثر على العنوان ضمن ممتلكات الشركة، كان القصر مُدرجًا كونه مكتبًا فرعيًّا وحسب، وليس موقع استجمام تابعًا للشركة، قاد هذا كورت للعثور على رقم الهاتف المدرج للمبنى. كتب هذا على ساعده بينما ضحك الطفل الصغير الذي أقرضه القلم إذ يقدم له ورقة، لكن جينتري رفضها.

بعد ذلك استغرق الأمريكي بضع دقائق لإلقاء نظرة على خريطة القمر الصناعي للمنطقة المحيطة بالقلعة. رسم يوضح الغابة، وجداول المياه التي تجري بالقرب منها، والبساتين خلف المبنى الحجري

الذي يبلغ عمره 300 عام، والطرق الريفية المرصوفة بالحصى خارج الجدار المحيط.

ألقى نظرة أخرى على الصور التي التقطت للمبنى. كان البرج الكبير هو أعلى نقاطه. عرف كورت أن القناص حتمًا سيختبئ هناك.

كان يعلم أيضًا أن هناك 200 ياردة من المساحة المفتوحة بين قصر لوران وبستان التفاح الخلفي. وأمام المبنى مسافة أقصر، لكن هناك جدارًا حجريًا أعلى، وإضاءة أقوى. تخيل أنه سيكون هناك رجال يجرون دوريات بصحبة كلاب، ومخبرون في القرية، وربما حتى مروحية في الهواء.

من الواضح أن لويد كان لديه كل الموارد المتاحة لحماية القصر من مهاجم خائب يعرج.

لم يكن التحصين منيعًا؛ قليل من الأماكن وحسب يصعب على جينتري اختراقها. لكنه لو غادر باريس في هذه الدقيقة تحديدًا، فلن يصل إلى بايو قبل الساعة الثانية صباحًا، وكان أمامه حتى الثامنة لإنقاذ فيتزروي قبل موعد لويد النهائي.

لكن لم تكن هذه سوى راحة خادعة، لقد أدرك أن أي فرصة لنجاح خطوته يجب أن تكون في جوف الليل، عندما تترنح قوة الحراسة، ويتأخر رد فعلها.

لذلك بالرغم من وجود طرق مؤكدة، أدرك كورت أن اختراق قصر لوران صعب دون انتظار ساعات وساعات حتى يألف الإجراءات الأمنية.

لكن لم تكن أمامه ساعات وساعات، بل ساعة على الأكثر قبل حلول ضوء النهار.

ومرة أخرى، كان هذا مرهونًا فقط بمغادرته باريس الآن، ولم تكن هذه خطته.

***

في الواحدة صباحًا، جلس جينتري في مقهى لوكسمبورج وشرب ثاني إسبريسو مزدوج له في المساء بين الفتيات الجميلات في شارع سوفلوت. ظلت شطيرة لحم الخنزير الصغيرة على طبق أمامه دون أن يمسها. كانت القهوة مُرَّة، لكنه يدرك أن الكافيين سيساعده خلال الساعات القليلة القادمة، هذا إلى جانب شرب الماء، لذلك استهلك زجاجة المياه المعدنية الثانية بخمسة يورو، بينما كان يتظاهر بقراءة نسخة أمس من جريدة لوموند، شردت عيناه لكنهما ظلتا تعودان إلى المبنى المقابل لشارع 23.

في الحقيقة أراد كورت فقط أن ينهض ويمضي خارج المدينة دون السعي وراء هدفه في باريس. كان يعلم أنه سيخوض مخاطرة هائلة لزيارة الرجل في المبنى السكني المقابل للشارع الصغير، لكنه احتاج إلى المساعدة، ليس فقط لنفسه ولكن أيضًا إلى وسيلة لإطلاق سراح عائلة فيتزروي.

يُدعى الرجل الساكن في المبنى فان زان، هولندي، ربان مركب سابق متعاقد مع وكالة الاستخبارات المركزية، وطيار بارع للمروحيات الصغيرة. خطط كورت ليجري زيارة مفاجئة له، ولإغرائه ببعض النقود، وهو ما يشكِل خطرًا أقل من الذهاب في رحلة في الخامسة صباحًا إلى بايو لالتقاط عائلة مكونة من أربعة أفراد وكورت نفسه، ثم نقلهم على ارتفاع منخفض فوق قناة إلى المملكة المتحدة.

كان فان زان شريكًا معروفًا، لذلك كان لويد يتنصت على هاتفه في غضون دقائق من بدء هذه العملية ووضع مخبره خارج بابه. أدرك كورت أن الاتصال بفان زان غير وارد، لكن ظن أن بمقدوره اجتياز مخبر أو اثنين ويزوره شخصيًا.

نعم، لقد كانت خطة جيدة، قال كورت لنفسه وهو يبتلع إسبريسو مريرًا ويوجه عينيه الشاردتين إلى الصحيفة أمام وجهه.

لكنه أدرك ببطء أن هذا لن يحدث.

علِم كورت بلا شك أنه بمقدوره الإفلات من اثنين من المخبرين الأشَقياء وأن يمضي للقاء فان زان.

اثنان، نعم.

لكن ليس العشرات.

في أثناء احتسائه قهوة الإسبريسو، كشف خمسة مخبرين مؤكدين، وشخصًا آخر غير مؤكد في الزحام.

تبًّا! فكر كورت. ليس لأنه تيقن من عدم وجود سبيل إلى فان زانٍ ليقدم له عرضه، ولكنه بدأ يشعر بالضيق الشديد والضعف، محاطا بعشرات المراقبين النسور.

تسكع زوجان شابان في كوالتي برجر في الجهة المقابلة من الشارع. راحا يفحصان كل ذكر أبيض من المارة، ثم رفعا رأسيهما نحو مدخل الفتحة المؤدية إلى منزل فان زان. ثم كان هناك رجل وحيد في سيارته المتوقفة. شرق ـ أوسطي ينقر بأصابعه على لوحة القيادة كما لو كان يستمع إلى الموسيقى، ويراقب جموع المارة.

وقف رقم أربعة عند محطة الحافلات أمام حدائق لوكسمبورج، كما لو كان ينتظر الحافلة، لكنه لم يُلقِ نظرة حتى على واجهة أي من الحافلات التي توقفت ليعرف اتجاهها.

وقف رقم خمسة على شرفة بالطابق الثاني، يحمل كاميرا بعدسة بحجم الخبز الفرنسي، وتظاهر بالتقاط صور لتقاطع الشوارع المزدحمة، لكن كورت لم يصدق الأمر ولو لثانية. لم تبعد «صوره» التي يلتقطها عن الرصيف تحته، ولا عن المدخل الواقع في الجهة المقابلة من الشارع، لم يلتفت لمقبرة العظماء عالية الإضاءة في الطريق إلى يساره، ولا أكشاك المنتجات الفرنسية النموذجية والسياج الحديدي الجميل حول حدائق لوكسمبورج.

رقم ستة كان امرأة بمفردها في المقهى، على بعد بضع طاولات فقط من جينتري. تعمد أن يحصل على طاولة في الخلف ولكن بالقرب

من النافذة الممتدة بطول المطعم. من هنا استطاع أن يراقب كل من في الغرفة معه في أثناء تغطية وجهه بالصحيفة، ومع ذلك لا يزال ينظر إلى يمينه حيث مبنى فان زان وما حوله. لقد فعلت الشيء نفسه في أثناء جلوسها أمامه.

رقم ستة كانت ماكرة. أمضت 80% من وقتها في النظر إلى قهوتها الموكا الرغوية الكبيرة، ولم تقفز نظراتها إلى النافذة بين الحين والآخر. لكن خطأها كان لباسها وسلوكها. كانت فرنسية ـ عَرف هذا من الملابس والوجهـ لكنها كانت وحيدة ولا يبدو أنها تعرف أي شخص في المقهى. فتاة فرنسية جميلة في العشرينيات من عمرها، قضت ليلة السبت بمفردها، بعيدًا عن الأصدقاء، لكنها ما زالت في الحشد، في مقهى غير مألوف لها، في جزء من البلدة لم تكن تعرفه.

لا، قرر كورت أنها فنانة رصيف، ومخبرة ومترصدة، استُؤجِرت للجلوس هناك وإبقاء عينيها الكبيرتين مفتوحتين.

بعد أن أكل شطيرة صغيرة وانتهى من قهوته، وبعد تخليه عن خطته الرائعة لرسم طريق هروب مضمون بعد إنقاذ عائلة فيتزروي، قرر أنه بحاجة إلى الهرب خارج المدينة، وأن يمضي إلى بايو لتدبير أمر ما. هبطت معنوياته إلى أدنى مستوياتها منذ صباح أمس، كان أكثر حزنًا مما كان في الحفرة المتعفنة بمعمل لازلو.

لكن جينتري عرف أن أسوأ شيء يمكن أن يفعله الآن هو أن يجلس مغتمًا. فألقى رزمة من أوراق اليورو على طاولته، وانزلق من القاعة الخلفية إلى الحمام. بعد أن أراح نفسه، واصل النزول إلى القاعة، واقتحم المطبخ كما لو كان يعمل به، وسار مباشرة إلى الباب الخلفي ثم اجتازه إلى شارع مسيو لو برينس. لم يلتفت أحد في المطبخ إلى الرجل الذي يرتدي البذلة السوداء.

كان لدى الرجل الرمادي تلك القدرة.

***

بعد خمس دقائق، وقف ريجيل مرة أخرى على الممشى أعلى السطح وحدق إلى جدران الحدائق المقمرة. امتزجت رائحة بستان التفاح من بعيد بالظلام البارد. كان ريجيل يأمل في تصفية ذهنه قليلًا، والابتعاد عن لويد والفني والبيلاروسيين والتقارير الإذاعية المستمرة من المراقبين في باريس الذين لم يرصدوا أي شخص بعد، وفرق القتل التي لم تقتل أي شخص بعد.

رن هاتفه في جيبه. في البداية أراد أن يتجاهل المكالمة. ربما كان أحد زعماء المخابرات الأجنبية يتساءل: لماذا لم يسجل فريقهم الوصول؟ وكيف قُضي عليهم جميعًا في أثناء العمل في وظيفة تجارية؟

عرف ريجيل أنه سيقضي شهورًا أو سنوات في التخفيف من خسائر هذه الكارثة، وذلك في حال تم توقيع عقد لاجوس بحلول الساعة الثامنة صباحًا، لم يشأ ريجيل حتى أن يفكر في الأمر، ولكن إذا لم يحدث ذلك، فمن المحتمل أن يفقد وظيفته أو على الأقل منصبه. كان لوران يأمل في كثير من المكاسب من وراء هذه العملية ولم يبخل عليها بأي جهد ممكن.

شعر ريجيل أنه في خطر مثل لويد. ليس تمامًا، إذ أيقن ريجيل أن لوران سيأمره في النهاية بقتل لويد إذا فشلت العملية. لن يموت ريجيل بسبب هذا الفشل الذريع مثل الشاب الأمريكي، ولكن مع ذلك، ستدمر حياته المهنية إذا كشف عن تجاوزات شركته في إفريقيا الوغد يوليوس أبو بكر.

رن الهاتف مرة أخرى. سحب الهاتف من جيبه بتنهيدة تنفث بخار الليل.

ـ ريجيل.

ـ سيدي، الفني معك. هناك مكالمة لك على الخط الأرضي. يمكنني إرسالها إلى هاتفك المحمول.

ـ الخط الأرضي؟ هل تقصد هاتف القصر؟

ـ نعم، يا سيدي. لا أعرف من كان، إنه يتحدث الإنجليزية.
ـ شكرًا.
نقرة، ثم سأل ريجيل: «من يتكلم من فضلك؟».
أجاب المتصل: «أنا الرجل الذي يبدو أنك لا تستطيع قتله».
سرت قشعريرة في عمود كيرت ريجيل الفقري. لم يكن يعلم أن فيتزروي أعطى اسمه للرجل الرمادي.
بعد لحظة استجمع فيها شتات نفسه قال: «سيد جينتري، إنه لشرف لي أن أتحدث معك. لقد تابعت مسيرتك وأعتبرك خصمًا له كل التقدير».
ـ الإطراء لن ينفعك.
ـ كنت أقرأ ملفك.
ـ مثير للاهتمام؟
ـ كثيرًا.
ـ حسنًا، اقرأ يا كيرت، لأنني أنوي سحب ملفي من يديك الباردتين الميتتين.
ضحك كيرت ريجيل بصوت عالٍ قبل أن يقول: «ماذا يمكنني أن أفعل من أجلك؟».
ـ أردت فقط إجراء مكالمة ودية.
ـ لقد اصطدت كل أنواع الفرائس في حياتي، كبيرها وصغيرها، بما في ذلك عدد غير قليل من البشر. هذه هي المرة الأولى التي أجري فيها محادثة ودية مع فريستي قبل وقت قصير من قتلها.
ـ وأنا كذلك.
كانت هناك وقفة قصيرة، ثم ضحك ريجيل. انتشرت ضحكاته عبر الامتداد المظلم للحديقة الخلفية للقصر. قال: «أوه، أنا فريستك الآن؟».

ـ أنت تعلم أنني قادم من أجلك.

ـ لن تنجح، وإذا تمكنت بطريقة ما من الوصول إلى نورماندي، فقطعًا لن تصل إليَّ.

ـ سنرى.

ـ نعلم أنك في باريس.

ـ باريس؟ عم تتحدث؟ أنا أقف خلفك مباشرة.

قال ريجيل بضحكة خافتة: «أنت رجل مضحك، وهذا يفاجئني». لكنه لم يستطع منع نفسه من النظر إلى الخلف بطرف عينه وإلى الممر الفارغ حول سطح القصر. وأكمل: «عشرات المخبرين يراقبون جميع شركائك المعروفين».

ـ حقًّا؟ لم أكن أعرف.

ـ نعم. لا بُدَّ أنك تنتقل من صديق قديم إلى آخر. أنت ترصد فرق المراقبة الخاصة بي لأنك بارع، لكنك لست بارعًا بما يكفي لتتلاشى. لذلك يجب عليك الابتعاد عن مصدر المساعدة المحتمل. الماء، الماء في كل مكان، لكن لا توجد قطرة واحدة تصلح للشرب.

ـ فخور بنفسك، أليس كذلك؟

ـ ما إن نراك، سننقض على الأرض. لديّ عدد من الأسلحة في باريس يقارب عدد ما لديّ من مراقبين.

ـ محظوظ أنني لست في باريس.

توقف ريجيل مؤقتًا، وتغيرت لهجته عندما عاود الحديث: «أريدك أن تعرف، موت فيليب فيتزروي كان حادثة مؤسفة. كنت بعيدًا في ذلك الوقت. لم يكن ينبغي أن تحدث».

ـ لا ترهق نفسك وتسعى إلى إغوائي باحترافيتك، فهذا لن ينقذك عندما آتي. أنت ولويد كلاكما ميت.

ـ هذا ما تواصل قوله. يجب أن تعلم، لقد استعدت الهاتف الذي أخذه السير دونالد من الحارس. لقد قضينا على مصدر استخباراتك داخل القصر.

لم يقل كورت شيئًا.

ـ يبدو وضعك محبطًا يا صديقي.

ـ صحيح، ربما سأغادر وحسب.. أستسلم.

فكر ريجيل في هذا وقال: «لا أعتقد ذلك. عندما اتجهتَ جنوبًا إلى جنيف، اعتقدتُ أنك ربما تترك المطاردة. لكن لا، أنت صياد مثلي، يجري الأمر في دمك، أليس كذلك؟ لا يمكنك الابتعاد. لديك فريستك.. هدفك، سبب وجودك. دون استهداف رجال مثل لويد وأنا، ستكون روحًا حزينة، حقًا. لن تمشي في الصباح. ستأتي من أجلنا، وستموت في الطريق، يجب أن تعرف هذا. لكنك تفضل أن تقتل على يد فريستك بدلًا من التخلي عن المطاردة».

قال جينتري: «ربما يمكننا إجراء اتفاق بديل».

ابتسم ريجيل وقال: «آه. الآن وصلنا إلى سبب مكالمتك. إذن، ليست مكالمة ودية في النهاية. أنا أنصت يا سيد جينتري».

ـ ستخسر العقد. عندما أكون على قيد الحياة في غضون سبع ساعات، سيعطي أبو بكر صفقة الغاز الطبيعي الخاصة بك لمنافسك، وسيستخدم ضدك كل ما لديه على مجموعة لوران. لا يمكنك تجنب ذلك. لكن إذا سمحت للفتاتين وأمهما بالرحيل، اصْحَبْهُنَّ فقط إلى مكان آمن، عندما آتي غدًا بعد الموعد النهائي، سأقتل لويد، وأتولى عمل عملك نيابة عنك وأعفو عنك.

ـ تعفو عني؟

ـ أعدك.

ـ لطالما تصورتك مفترسًا محدود الفكر، مسلحًا ليس أكثر. لكنك في الحقيقة زميل ذكي، أنا وأنت يمكن أن نكون صديقين في ظروف أخرى.

ـ هل تتودد إليَّ؟

ـ تدفعني إلى الابتسام يا جينتري، لكنك ستجعلني أبتسم أكثر عندما أقف فوق جثتك، تذكار آخر لصندوقي.

ـ يجب أن تفكر في عرضي حقًا.

ـ أنت تبالغ في تقدير نفوذك التفاوضي يا سيدي. سنتواصل معك في غضون ساعة.

كان هناك لحظة صمت. ثم قال جينتري: «فلتتمنَّ ذلك، نم جيدًا سيد ريجيل».

ـ قد أبقى مستيقظًا بعض الوقت. أتوقع بعض الأخبار الجيدة من زملائي في باريس. عمت مساء[1] يا كورت.

ـ إلى اللقاء[2] يا كيرت، أراك قريبًا.

ـ أمر واحد فقط يا سيد جينتري. ثمِّة فضول مهني، لكن لم يكن أنت من كان بكييف، أليس كذلك؟انقطع الخط، وارتعش ريجيل في البردِ الذي بدا وكأنه قد وصل من الساحل، على بعد أربعة كيلو مترات شمالًا.

---

(1) بالفرنسية في الأصل

(2) بالفرنسية في الأصل.

28

كان المراقب يشعر بالملل، لكنه اعتاد عليه. لقد أمضى اثنتي عشرة ساعة في زاوية الشارع نفسها، واحتسى قهوة الإسبريسو في ثلاثة مقاهٍ مختلفة، أول اثنين على طاولات بالخارج في الصباح المشرق وفي أوقات الظهيرة الباردة الغائمة، ثم أخيرًا في الداخل على طاولة بجوار نافذة، حين عبأ البخار الهواء، وفقد الشارع والرصيف دفأَهما.

في التاسعة انتقل إلى سيارته، سيارة سيتروين صغيرة تقف عند عداد بالساعة ظل يطعمه طوال اليوم مثل حيوان أليف جائع.

كان المراقب ماهرًا. ولم يؤثر ملله في مهنته. أدار المحرك من أجل الدفء لكنه لم يُشغِّل الراديو، إذ ربما تلتقط أذناه أي تلميح من طريدته مثلما تفعل عيناه. كان الراديو يسرق من صوابه الحدة اللازمة لالتقاط رجل لم يره من قبل من بين حشد يضم الآلاف.

لم يعرف الصورة الأكبر لهذه المهمة، عرف دوره وحسب. كانت مراقبته ثابتة. وخلافًا لباقي المراقبين الآخرين في تلك المهمة، لم يُثبَّت في مكان معروف، بل حددت حراسته عند نقطة اختناق مزدحمة. كان لديه صورة لرجل، وعليه أن يقضي اليوم في محاولة مطابقة الصورة ثنائية الأبعاد، التي مضى عليها خمسة أو سبعة أعوام، مع هدف حي يتنفس ويتحرك. ومن المحتمل أن الهدف خضع لتدريبات على المراقبة المضادة، ولا شك أنه سيختلط بحشدٍ من شأنه أن يعوق رؤية المراقب.

لكن المراقب ظل متفائلًا. لم تكن هناك طريقة أخرى للعمل، كان يعلم أنه إذا شك أنه سيرى الرجل، فسينتقص هذا من حدة حواسه التي يحتاج إليها في مهمته الصغيرة.

لم يكن المراقب قاتلًا، بل كان فقط عينين مدربتين تدريبًا جيدًا. منذ فترة طويلة كان شرطيًّا في نيس، ثم عمل لفترة في مكافحة التجسس الفرنسي فنان رصيف، تابعًا للروس أو أي شخص حوله في فرق المراقبة النوعية، أدنى درجات سلم التجسس. عمل في الآونة الأخيرة محققًا خاصًا في ليون، لكنه أصبح الآن رجل المهام الغريبة بالدرجة الأولى، ويعمل لدى ريجيل في باريس.

دائمًا ما تكون هناك حاجة لمراقبة شخص ما في القارة، وعادة ما كان هذا المراقب أحد أفراد الفريق. على الرغم من أنه كان أكبر سنًّا من معظم البقية، لكنه لم يكن قائدًا. كان أفضل من البقية عندما يكون يقظًا، إذ كان سكيرًا دائمًا، فلم يكن الاعتماد عليه لفترة طويلة أمرًا ممكنًا. بالرغم من أنه توقف الليلة عن الشرب في أثناء المهمة.

نظر المراقب إلى الصورة التي في يده مرة أخرى، للمرة الألف. لم يشغله ما اقترفه صاحب الوجه أو المصير الذي ينتظره. لم يكن الوجه رجلًا، بل كان مجرد هدف. لم يكن الوجه حيًّا، لم يتنفس أو يفكر أو يشعر أو يؤذِ أو يحتاج أو يحب. كان الوجه هدفًا فحسب، وليس إنسانًا.

إن التعرف إلى الهدف في الميدان له مكافأة من ريجيل، فلم يجلب ذرة من الأسف أو الذنب للمراقب.

بعد الواحدة والنصف بقليل، تبول المراقب في زجاجة بلاستيكية دون أن يفوت أي قطرة، وأيضًا دون أن يرمش رمشًا على حماقة تصرفاته بين الأشخاص ذوي الهيئة الحسنة الذين يمرون فجأة على بعد أقدام منه في بوليفارد سان جيرمان. أحكم غلق الغطاء وألقى الزجاجة الدافئة على أرضية السيارة، ونظر إلى أعلى حين ظهر رجل في ضوء مصباح الشارع الخافت. سار مع مجموعة أخرى من المارة، لكنه جذب انتباه المراقب بطريقة ما.

كان أصغر سنًّا من الآخرين، ولم يكن مقترنًا بأحد كما كانوا، تعارضت بذلته قليلًا مع ملابسهم الأقل رسمية. كان على بعد خمسة وعشرين مترًا عندما لاحظه الجالس في السيارة السيتروين.

كلما اقترب اتضحت صورته، النظارة والرأس الحليق وملامح وجهه العامة.

لم يحرك المراقب أي عضلة، بل نظر فقط إلى الصورة وقد طُويت وتغضنت وأصبحت رطبة في يده، ثم عاد إلى الهيئة ثلاثية الأبعاد التي تقترب منه في ضباب المساء.

ربما. على بعد خمسة عشر مترًا، حدَّق المراقب، ظنَّ أنه لاحظ عرجًا خفيفًا في الخطوة. نعم، هذا الرجل كان يفضل ساقه اليمنى. سبق أن قال البريطاني الذي يتحدث الفرنسية ويرسل التحديثات طوال اليوم، إن الهدف قد يكون مصابًا في إحدى فخذيه.

نعم. عندما انتقل الهدف إلى أقرب نقطة له من السيارة السيتروين، التي لا تبعد أكثر من خمسة أمتار، لاحظ المراقب أمرين في وجه الرجل، مما أكسبه يقينًا بأن اختياره لنقطة المراقبة المزدحمة هذه، ووقوفه الذي استمر اثنتي عشرة ساعة قد أتيا بثمارهما. كان خد الرجل يجفل مع كلِ خطوة، بل كلما لامست قدمه اليمنى الأرض.

وهناك أيضًا عيناه؛ كان المراقب ماهرًا ومدربًا، حيث رأى نظرات الشاب المندفعة وهو يمشي. وفي الوقت الذي صورت لغة جسده رجلًا يتجول عبر الضفة اليسرى دون اكتراث بالعالم، لم تكف عيناه عن الحركة.

هذا الرجل يراقب المراقبين، وما إن لاحظ فنان الرصيف في السيتروين، قطع المراقبة، ونظر إلى يديه حتى يجتاز الرجل تمامًا.

انتظر عدة ثوانٍ ثم نظر عبر مرآة الرؤية الخلفية وقلبه ينبض بشدة، لم يلتفت أو يرفعْ كتفيه أو حتى يثنِ رقبته لفعل ذلك. فقط رفع عينيه

والتقط الرجل الذي يرتدي البذلة في أثناء تقدمه غربًا في شارع سان جيرمان.

أدار المراقب سيارته إذ يضغط على زر في سماعة أذنه. بعد صوت تنبيه يشير إلى إجراء مكالمة سمع: «هنا الفني، تفضل».

كان المراقب مدربًا وبارعًا، لكنه لم يستطع إخفاء الحماسة في صوته، فهذا ما عاش من أجله، أكثر حتى من الأموال التي اكتسبها من باقي المهام.

قال: «أيها الفني، هنا ثلاثة وستون». سكت سكتة موجزة للغاية وأتبع: «إنه هنا. يتحرك شرقًا سيرًا على قدميه».

لا يحتاج إلى قول المزيد. سيحدد الفني موقعه على **(GPS)**.

أثارت مثل هذه اللحظات المراقب، وأبعدته عن الشراب حتى اكتمال مهمته. لقد أبلى بلاءً حسنًا، وكان يعرف هذا. والآن سيعود إلى المنزل ويحتفل مع دورق نبيذ. كان يحتفل بالطريقة نفسها التي يعمل بها وحيدًا.

***

كانت المكالمة تبث عبر شبكة يشترك في الاستماع إليها جميع فرق القتل الخمسة في باريس في وقت واحد. كان هذا خطأً من جانب الفني، إذ رسخ الخصومة بين المتنافسين، ولم يسمح بوجود فرقٍ احتياطية أو تغطية لطرق الهروب. لكن الشاب البريطاني لم يستطع مقاومة ذلك، لقد مر نصف يوم دون رؤية مؤكدة للهدف، وكان ذهابه إلى باريس على الإطلاق تنبُّؤًا فحسب، لذلك عندما تم حُددت الهوية، أرسل كل رجل يحمل مسدسًا صوب موقعه.

منذ اختفاء الهدف في جنيف يجاهد الفني لئلا يفتضح ذعره الشديد أمام لويد أو ريجيل. لقد كان يدير عمليات، وعمليات قذرة، وعمليات مشبوهة، وأشرف على إمدادات العملاء الخطرين، ولكن لم يكن يعرض نفسه لأي خطر. إنها المرة الأولى التي يُعد فيها رؤساؤه

خطة يكون الرجل المطارد فيها قاتلًا خارقًا، يعرف جيدًا أين مركز العمليات البغيض وكيفية الوصول إليه. لقد مُنح الرجل الشرير دعوة ذهبية للحضور إلى الموقع الفعلي للفني، وكان ذلك محض غباء. ومع ذلك، تحتم على الرجل ذي ذيل الحصان الجالس أمام طاولة الأجهزة الضخمة أن يعترف، أن هذا الخوف دفعه للتركيز الشديد في المسألة المطروحة أمامه.

تحفز الفني تحفزًّا شخصيًا للإمساك بهذا الوغد قبل وصوله إلى القصر، ولهذا السبب كان يبث الإحداثيات الحالية للهدف بمجرد وصول التأكيد.

فجأة ظهر لويد خلفه، في الوقت الذي يعترف لنفسه بأنه اتخذ خطوة غبية. كاد يقفز في مكانه حين اقترب منه رئيسه، تصيبه العملية كلها بالتوتر.

ـ سمع ريجيل عبر الراديو! هل حصلنا عليه؟

ـ رصده أحد المراقبين في شارع سان جيرمان، وهو محارب قديم من الدرجة الأولى، في نقطة الاختناق. كان احتمالًا ضعيفًا في الحقيقة، لا أستطيع أن أقول من قائمة شركائه المعروفين إلى أين سيذهب بحق الجحيم.

ـ لن نفقده، أليس كذلك؟

ـ سأرسل المزيد من المراقبين إلى المنطقة. ليس الكثير، من المؤكد أن الرجل الرمادي سيرصد أي شخص غير محترف.

ـ مفهوم. أي فريق قتل سترسله لملاحقته؟

تردد الفني محرجًا. بالتأكيد سيغضب لويد حين يعلم أنهم جميعًا في طريقهم. ولكن قبل أن يتمكن الفني من الإجابة، قال لويد: «تبًّا!، يجب أن ينتهي الأمر الآن. أرسل كل سلاح لديك وراء هذا اللقيط. من يعبأ بحق السماء إذا ساءت الأوضاع، يجب أن نمسك به هناك».

تنفس الفني الصعداء مما أدى إلى تفريغ رئتيه وقال على الفور: «أجل يا سيدي».

***

كان البوتسوانيون والكازاخيون هم الأقرب؛ ركضوا من أطراف مختلفة في الحي اللاتيني، وقد أنزلوا أذرعهم إلى الأسفل بجانبهم لكيلا تنفتح معاطفهم في أثناء الركض فتُكشف أسلحتهم. ثبتوا أعينهم على العقبة التالية أمامهم وهم ينصتون بتركيز لسماعات الراديو التي في آذانهم.

أرسل الفني آخر مكان معروف للهدف. لقد أصبح خارج مجال رؤية المراقب الأول الآن، لكن فناني الأرصفة كانوا يقتربون، وستُنقل معلوماتهم.

كان البوتسوانيون خمسة رجال، يحملون أسلحة نارية من عيار 32، وهي رصاصة ضعيفة نسبيًا، لكنهم عززوا قوتهم النارية المحدودة بأساليبهم القتالية. لقد تدرب هؤلاء الرجال على تنفيذ ثلاث جولات من الرصاص مرة واحدة تسمى مثقاب موزمبيق: زوج من الطلقات السريعة على الصدر ثم الثالثة رصاصة الرحمة في الجبهة. جاء المصطلح والتكتيك من القتال في موزمبيق، عندما اكتشف جندي روديسي أن مسدسه من طراز كاليبر الصغير لا يكفي لقتل شخص إفريقي بطلقات في صدره وحسب، لذلك أضاف تسديدة في الرأس لإضفاء المزيد من التأثير.

علّق الكازاخيون الأربعة تحت معاطفهم الشتوية مسدسات من طراز إنجرام آلية صغيرة، بكعوب معدنية قابلة للطي. وأثار ركضهم انتباه أحد الشرطيين فناداهم إذ يركضون عبر الشارع، لكنه حسبهم سياحًا أجانب وأشار لهم أن يبطئوا.

حمل أحد أعضاء كل فرقة قتل أيضًا كاميرا فيديو رقمية متصلة عبر البلوتوث بهواتفهم المحمولة، هكذا يثبتون لمن في مركز القيادة

أنهم الوحدة المسؤولة عن إنهاء الهدف والفريق الذي يستحق الجائزة الكبرى.

في النهاية ما زال الأمر مسابقة.

علم كل فريق من سماعات الأذن الخاصة بهم أن الفريق الآخر يقترب من آخر مكان معروف للهدف في الاتجاه المعاكس. كان هذا يدفعهم للإسراع من أجل محاصرة الهدف قبل أن يختفي. كانت أكثر من مطاردة، لقد كانت منافسة، وبالنسبة لهذه الفرق، لا يقل الفخر المهني قدرًا عن الربح المادي.

«كل العناصر، الفني معكم. لدينا مراقبان على بعد ثلاث بنايات شرقًا. لم يبلغ أي من المراقبين عن أي علامات على الهدف. ربما دخل إلى فندق أو مقهى في الشارع، أو اتجه جنوبًا إلى الحي اللاتيني، أو شمالًا باتجاه كوبري 9 لعبور النهر».

أبطأ الفريقان اللذان اقتربا من اتجاهين متعاكسين، وتشاورا فيما بينهما بعد ورود آخر معلومات من الفني. ثم واصل كلاهما الركض في شارع سان جيرمان حيث اتجه البوتسوانيون شرقًا والكازاخيون غربًا. انتشرا ليغطيا جانبي الشارع في مجموعات من شخصين أو ثلاثة، يبحث كل فريق صغير من القتلة في المداخل والأزقة والمقاهي والفنادق بطول الطريق.

***

ركض سونج بارك كيم على أسطح المباني، واجتاز آخر موقع شوهدت فيه فريسته، ثم عادت الحياة إلى سماعة أذنه. عرف الكوري من أصوات التنبيه المميزة أن الإرسال لم يكن مفتوحًا لباقي الفرق والمراقبين الآخرين. كان هو الوحيد الذي يتلقى الرسالة.

ـ من الفني إلى بانشي1 هل تسمعني؟

ـ أسمعك.

ـ اذهب إلى الشارع وسأرشدك إليه. سيكشف باقي الفرق الأخرى والمراقبين ويحاول الابتعاد. سيجبرونه على الفرار ولن يتوقع قاتلًا واحدًا. سأضعك في موقع يسمح لك بإيقافه.

ـ نعم.

صعد كيم إلى حافة سطح مبنى سكني من ستة طوابق، وهبط بسلاسة على حافة النافذة. أنزل جسده ووصل إلى ماسورة الصرف، وقفز فوقها، كان الأنبوب ملتصقًا بشكل سيئ بالجدار، لذلك استخدمه فقط ليشق طريقه كمخرج طوارئ، وتبعه لأسفل، وقفز الأقدام القليلة المتبقية على الأرض، ستة طوابق من الهبوط في أقل من دقيقة.

ـ بانشي 1 في الشارع أيها الفني، أرشدني إلى الهدف.

ـ هناك فريقان أقرب منك يا بانشي 1. نعتقد أنه انعطف إلى شارع بوسي، ليحتمي بالحشود. يمكنك أن تتحرك مسافة بنايتين إلى الشمال، وحينها ستقطع طريقه إذا لم يكشفك.

قال كيم: «حسنًا». لكنه لم ينوِ اتباع هذا الاتجاه.

شعر الكوري أنه يستطيع قراءة أفكار الرجل الرمادي. تعرض كيم للمطاردة عدة مرات، ومن خبرته شعر أن بوسعه التنبؤ بكل يخطوها هذا الرجل المطارد. كيم سيلاحظ إذا كانت فرق العملاء الأجانب تلاحقه عبر وسط باريس ليلة السبت، وكذلك الرجل الرمادي. إذا ثُبِّت عشرات المراقبين في طريقه، فسيعلم كيم ذلك على الفور، وكذلك الرجل الرمادي. قد لا يتعرف إلى كل خصم، لكن الفني ألقى العديد من الجثث في العملية، عميل بارع كالرجل الرمادي لا بُدَّ أن يدرك أنه يواجه عملية قتل صريحة وكاملة، وأن عليه أن يودع كل محطات وقوفه، وقواعد الاشتباك العادية وضبط النفس.

لن يكون بمأمن وسط حشد من الناس، فحتمًا سينتهز المسلحون الذين رآهم الرجل الرمادي أول فرصة لتدمير هدفهم، وستكون الأضواء الساطعة والمارة عائقًا للرجل المطارد أكثر من كونهم ساترًا.

نعم، كان كيم يشعر بما يشعر به الرجل الرمادي الآن، وقد سمح لهذا التعاطف أن يوجهه بدلًا من توجيهات الفني. هذا الاندماج العقلي بين كيم الصياد والرجل الرمادي المطارد قاد القاتل الكوري عبر الليل الضبابي، على بعد ثلاث بنايات شرقًا، إلى زقاق مظلم يبعد مسافة نصف بناية من الضوضاء والأضواء وأسراب رواد المطاعم والمحتفلين. كان يعلم أن نهر السين يقع على بعد مائة متر فقط إلى الشمال، ما يعني أنه إذا اكتشف الرجل الرمادي المراقبة الشديدة، فسيضطر إلى الالتفاف جنوبًا ليذوب في الليل؛ لن يوفر له الشمال سوى جسر أو اثنين، نقاط الاختناق الطبيعية التي سيتجنبها بأي ثمن.

وجد سونج بارك كيم أظلم بقعة في الزقاق الصغير، على بعد خمسة وعشرين مترًا شمال شارع سان جيرمان، وعشرين مترًا جنوب شارع دي بوسي. يمكنه أن يتحرك في أي من الاتجاهين في ثوانٍ إذا رصد المراقبون الهدف في مكان قريب. لكن كيم شعر أن هذا الزقاق الصغير سيكون موقع مواجهته الأخيرة مع خصمه.

على بعد أمتار قليلة من موقع اختبائه المظلم ثمة مطاعم ونوادٍ ليلية تعج بالرواد. بالإضافة إلى فرق قتل متنافسة في مكان قريب. لم يرغب في لفت الانتباه إلى ما يفعله باستخدام سلاح ناري، لذلك ترك رشاش (MP7) في حقيبة الظهر على كتفيه وسحب سكينه القابل للطي من جيبه الأمامي، وفتح الشفرة السوداء غير اللامعة، واختبأ في الظلام منتظرًا فريسته.

***

شعر كورت جينتري أن بذلته السوداء تتبلل من العرق الذي تدفق على ظهره بينما يمشي شرقًا في شارع دي بوسي. تتأرجح في يده اليمنى مظلته مع كل خطوة، وقد قاوم رغبته في استخدامها كعصا لأن قدمه كانت تؤلمه من التمزقات التي أصيب بها في بودابست قبل يومٍ.

لكن لم يكن المشي هو ما جعله يتعرق، بل كانت عيناه اللتان ترصدان الشارع أمامه. على بعد ثلاثين ياردة، رأى زوجين شابين تكوما على مقعد واندمجا في الحديث، لكنهما يراقبان الرجال من المارة. رأى كورت شخصًا أصلع في مثل سنه فقرر أن يتبعه؛ أبقى عينيه على الرجل ليتبين ما إذا كان مظهره مثيرًا للاهتمام، فيتضح حينها لجينتري هل رصدته فرق المراقبة الأخرى في المنطقة وتعرفت إليه عبر الراديو.

فور تحديق العاشقين الصغيرين إلى الرجل الأصلع لبضع ثوان، بدا أن أحدهما يتحدث مع الآخر عنه، ثم تحركت أعينهما، راضيين أنه لم يكن هدف مراقبتهما.

علم كورت على الفور أنه كُشِف. لقد رأى ما لا يقل عن عشرة مراقبين حتى الآن وكان واثقًا إلى حد ما بأنه أفلت منهم جميعًا، لكن لا بُدَّ أن هناك شخصًا واحدًا لم يتجاوزه، أو بعض العملاء الثابتين في نافذة مظلمة أو سيارة في الشارع أو في مكان ما لم يتمكن جينتري من تحديده، وقد أرسل هذا العميل صورة كورت لكل مراقب وقاتل في المدينة.

وبسرعة، ألقى كورت نظرة خاطفة إلى الوراء. تحرك بسرعة ثلاثة رجال ذوو بشرة داكنة وراحوا ينظرون عبر نافذة متجر لا يبعد أكثر من عشرين مترًا خلفه. في الناحية الأخرى من الشارع كان هناك اثنان آخران. كلهم ضمن مجموعة واحدة، وكانوا يفحصون الجانب الشمالي من الشارع، وينظرون إلى طاولات مليئة بالرواد أمام أحد المقاهي.

تبًّا!

استدار كورت إلى اليسار ليهبط ممرًا صغيرًا قبالة شارع لانسايان كوميدي وتتبعه في الظلام. انبعث من نهايته ضوء خافت في ممر هادئ على بعد عشرين ياردة.

سيتشتت المراقبون في الطريق الرئيسي للضفة اليسرى ما داموا لم يعرفوا أنه كشف مراقبتهم. سار كورت في الظلام، وعيناه على الضوء أمامه، يخدش طرف مظلته الأحجار المبللة، تردد صدى الضوضاء في الممر الأسود المستتر.

احتاج كورت أن يستقل سيارة أجرة إلى سان لازار ليأخذ سيارته المرسيدس ويتجه إلى بايو. لم يختلف توقفه في باريس عن توقفه في بودابست بعد ظهر أمس، وكذلك في جواردا الليلة الماضية، كلها محطات غير مجدية. على الأقل هذه المرة ابتعد دون أن يصاب بأذى، وكان هذا مهمًا، مع أنه يحتاج بالفعل إلى مزيد من المساعدة قبل...

ثمة وميض من الحركة في الظلام القريب، سرعان ما ظهرت هيئة شخص على يساره. وقبل أي رد فعل خاطف من كورت، شعر بمزيدٍ من الحركة، ذراع تتأرجح نحوه. حرك جينتري ذراعه اليمنى لتفاديها، لكنه كان بطيئًا للغاية.

ولم يكن قط بطيئًا للغاية.

شعر كورت جينتري بطعنة السكين في بطنه إذ تجزّ اللحم الناعم فوق عظم الفخذ الأيسر.

29

في الثانية صباحًا، تدفق الضوء في غرفة النوم القاتمة بالطابق الثاني حيث استلقى السير دونالد مستيقظًا. كان باقي أفراد الأسرة قد انتقلوا إلى غرفته لكي يكتفي حارس واحد فقط بمراقبتهم. نامت كلير نومًا متقطعًا على يسار جدها، بينما غطت كيت في نوم عميق على يمينه. كانت إليز مخدرة لدرجة لم يتضح معها إذا كانت هنا أم لا، إذ استلقت على كرسي ومتكأ في الجانب الآخر من الغرفة.

رأى دونالد ظل الحارس الأسكتلندي الذي يدعى ماكسبادن. لقد اعتقد أنه جاء ليضربه سرًا، تساءل: هل بإمكانه تحمل المزيد؟ مشى ماكسبادن إلى الفراش وتجاهل الفتاتين الصغيرتين، وهمس لفيتزروي: «سأعقد معك صفقة، أيها الرجل العجوز. هذا هاتف، أخذته من إحدى حقائب مجموعة إيفان. كلهم في مراكز القتال الآن. أنا الوحيد في الطابق».

قال فيتزروي: «اغرب عن وجهي. أحاول النوم».

ـ لديك متسع من الوقت لهذا لو متَّ صباحًا».

ـ ألا تعتقد أن بإمكاني أن أشم رائحة فخ؟ لماذا قد يعطيني وغد مثلك هاتفًا ملطخًا بالدماء؟

ـ لأن.. لأنني أريد بعض التقدير.. عندما ينتهي كل هذا.

أدار فيتزروي رأسه الضخم وضغط به على الوسادة ليستمع جيدًا إلى الرجل الذي يقف فوقه. وسأله: «أي نوع من التقدير؟».

فأجابه الأسكتلندي: «الرجل الرمادي، سمعت أنه من نفذ عملية كييف. إذا نفذها، ونفذ نصف العمليات الأخرى التي يقولون إنه نفذها، ولو كان تخلص من الفريق في براغ وبودابست والفرق في سويسرا، فيا للجحيم، لو فقط وصل هنا وكرر ما فعله، سأرمي سلاحي،

سأهرب، لن أحارب ذلك اللقيط بارد القلب. لديّ بضعة أمور أعيش من أجلها، حقًا، هل تفهمني؟ أجل، إذا جاء سأهرب، ولا أريد أن يطاردني دونالد فيتزروي المجروح أو كلب حراسته المجنون، هل تفهمني؟».

أعطى الأسكتلندي الهاتف لفيتزروي فأخذه.

سأل فيتزروي: «هل أنت صادق؟».

ـ قد تموت في الصباح سيد دونالد. أنا لا أخاطر بنفسي كثيرًا، ولكن إذا نجحت، فتذكر أن إيوان ماكسبادن هو من ساعدك.

ـ سأفعل ذلك يا إيوان.

ـ اتصل بكلبك، وأخبره إذا نجح، فأنا الرجل ذو القميص الأخضر والسروال الأسود. سأتخلى عن سلاحي. لا داعي للقلق بشأن ذلك.

ـ أيها الفتى الطيب، ماكسبادن.

تراجع الأسكتلندي إلى الظلام. وظهر عمود الضوء من جديد ثم ضاق وانطفأ خلفه.

***

غُرز السكين أعمق في معدة جينتري. كان الألم مروعًا.

ثمة ضعف في الركبة، وارتخاء في الأمعاء. هناك خطب ما لم يفهمه جينتري، لذلك نظر إلى الأسفل، ورأى أنه أمسك معصم المهاجم بخطاف المظلة. سُحب جينتري إلى أسفل وبعيدًا على عمود المظلة، لكن لم يقوَ على سحب السكين من جسده، إلا أن جهده على الأقل منع النصل من الغوص أكثر من بضع بوصات. مؤلم، مؤلم بشكل رهيب، لكنه أفضل بكثير من حفر السكين حتى المقبض أو ما هو أسوأ: تقطيع أمعائه كشرائح السمك.

أنزل كورت يده اليمنى بكل قوته على المظلة. ومد يسراه نحو المهاجم. لكمه في صدره بضعف، لقلة القوة الاحتياطية بعد مجهود

ذراعه اليمنى والألم العميق في بطنه. بادله القاتل اللكمات، وحاول أن يضربه برأسه، لكن ابتعد عنه كورت في الوقت المناسب.

وصل كورت إلى حزام خصره، وأمسك بمسدس جلوك بيده اليسرى الضعيفة، لكنه سحبه على أي حال من حزامه، ضربه القاتل. رن صوت السلاح المصنوع من الفولاذ والبوليمر بالحصى، واختفى مجلجلًا في الظلام.

تعارك الاثنان بأيديهما، وتصدى المهاجم في الظلام لمحاولة اقتلاع عينه، بينما شتت جينتري انتباهه بضربة في حلقه من شأنها أن تقتله حتمًا على الرغم من أنه ما زال مطعونًا بالعمود المعدني الصلب.

تخلى المهاجم عن محاولته سحب السكين إلى عظمة الصدر أو دفعها إلى عمقٍ؛ منعه خطاف المظلة على ذراعه من إنجاز أي من المهمتين. وبدلًا من ذلك، شق النصل لأسفل حتى استقر على عظم الورك، وظل يحفر فيه.

خنق جينتري صرخته، كان على وشك أن يفقد عقله من الألم.

لكنه يعرف أن المزيد من القتلة كانوا على بعد ياردات. قد تختفي أقل فرصة للنجاة من السكين المحشور فيه والرجل الذي يتلاعب بها، إذا سمع صرخاته المزيد من الرجال العازمين على قتله.

غير كورت خطته بنفسه. دفع ساقيه إلى الأمام، ودفع صدره بالرجل الآسيوي الأصغر الذي أصبح يراه بوضوح الآن. لقد صدمه في الحائط، ما أدى إلى وخز السكين بداخله لنحو بوصة أعمق.

أعقب كورت ذلك بضربة رأس صدمت جبهتي الرجلين معًا بصوت فرقعة أعلى من أي صوت آخر في الزقاق منذ بدء القتال. ما زالت المظلة تقيد يد الآسيوي اليمنى. دفع كورت مرة أخرى بجسده، وتعثر الآسيوي إلى الوراء بطول الطريق عبر الزقاق واصطدم بالجدار الآخر. كان نصل السكين ما زال محشورًا في كورت، لذلك تحرك مع مهاجمه. الضوء أفضل هنا، وبالرغم من الألم الذي هدد بتغييب عقله،

رأى كورت أربطة حقيبة الظهر فأدرك أن الرجل يحاول الآن السيطرة على شيء ما خلفه في الحقيبة بيده الحرة.

أمسك كورت معصم الكوري بيده فقط، ودفعه مرة أخرى ليصطدم بجدار من الطوب.

سأله كورت بصوت يرتعش من الألم والإرهاق: «ماذا لديك؟ ماذا يوجد في الحقيبة؟». كان هناك ما يكفي من الضوء ليتبادل الاثنان النظر على جانب الزقاق المستتر. لم ينقطع التواصل البصري على الرغم من ارتعاش جفوني الرجلين مع بذل الجهد. اندفع أحدهما إلى الأمام بينما عاد الآخر إلى الخلف. وكرر: «ماذا يوجد في الحقيبة؟».

انتزع جينتري المظلة فأفقد الآسيوي توازنه بسرعة، واستغل ذلك ليصل خلف الرجل إلى الحقيبة المضغوطة على الحائط. كان على الأمريكي أن يشد بطنه لفعل

ذلك، فتحشرج صوته وهو يئن من الألم.

أدار الآسيوي السكين. أدى الالتواء لفتح الجرح بعمق بوصتين، وشعر جينتري بالدم يجري بسلاسة بين فخذيه، وإلى الأسفل حتى باطن الساقين.

آه!.

كانت أقل من صرخة، لكنها رغم ذلك ترددت في الزقاق. سيطر كورت على الحقيبة الآن ووضع يده على السحَّاب. ضرب كيم يده بجانب رأسه، لكن فوجئ القاتل بضربة رأس أخرى من جينتري، وسرعان ما فتح كورت الجزء العلوي من حقيبة الظهر ومد يده اليسرى إلى الداخل.

سأل عندما بدأت الدموع تنهمر على وجهه: «ما هذا؟ ما هذا؟». ليقطعها تناثر اللعاب من فمه، إذ ينشج وهو يتكلم. تطاير اللعاب في وجه مهاجمه، إذ يقول: «هذا ما تريد؟ هذا ما تبحث عنه حقًا؟».

سحب كورت من الحقيبة كعب مسدس آلي أسود صغير، وحدق إلى الخوف الجديد في عيني خصمه. حاول كيم العودة إلى الوراء، ومد يده ليمسك بكاتم صوت المسدس، ثم ضغط بقوة على مقبض السكين، وحاول كورت التراجع عن النصل، لكنه لم يستطع، فغُرِز ملليمترًا آخر في أحشائه.

أنزل كورت إصبعه على الزناد وأطلق النار من الرشاش **(MP7)** . ترك كيم مفتاح محدد إطلاق النار في وضع شبه تلقائي، تمامًا كما يفعل جينتري، صوب فوهته نحو جدار من الطوب خلف كيم، واخترق الرصاص البناء، فتناثر الحطام حولهما. سحب جينتري الزناد بأقصى سرعة. تسبب اشتعال كل خرطوشة في الفجوة إلى ارتدادها، مما جعل جسد كورت يرتعش، وأدى ذلك إلى نهش السكين لبقعة جديدة من اللحم والعظام في أمعائه.

ثلاث رصاصات، خمس رصاصات، عشر رصاصات، عشرون رصاصة. صرخ كيم في معاناة حتى ترك كاتم صوت السلاح الذي تفحمت فوهته تقريبًا من حرارة إطلاق النار. لف يده الملسوعة حول اليد التي كانت تحمل السكين، يحاول بكلتا قبضتيه وبكل قوته دفع النصل دفعة أخيرة سريعة وهائلة حتى العمود الفقري للرجل الرمادي.

تدفق دم الأمريكي على أصابعه المحروقة.

أمسك جينتري الرشاش الفارغ بحركة سريعة، وضرب وجه كيم بفوهته الساخنة فكسر أنفه.

سقط كلا الرجلين على الحصى، وانقطعت علاقتهما أخيرًا.

استلقى كيم على ظهره، ورأسه على الجدار المليء بالثقوب، وتدفق الدم من أنفه، ويده المحترقة في حضنه، وصدره يئن من الإجهاد. استلقى جينتري على جانبه في وسط الزقاق، وصدره يئن أيضًا، بينما يبرز المقبض الأسود للسكين السوداء بشكل فاضح من أسفل بطنه.

حاول كورت سحب السكين، وصرخ في أثناء ذلك. نهض الآسيوي على ركبتيه بعدما أنهكه الارتجاج وصدمه، وزحف محمومًا عبر الحجارة الباردة ليهجم عليه. قفز في الهواء على ارتفاع خمس أقدام في محاولة يائسة لوضع يده على السكين قبل أن يخرجها الرجل الرمادي من بطنه.

قبل لحظة من هبوطه على هدفه، ظهر الطول الكامل لنصل السكين السوداء في الضوء الخافت، زلِق ومبلل بالدم. شق به كورت حلق الآسيوي ذي العينين الواسعتين، فتدفق الدم من أحد شرايينه.

انسحق سونج بارك كيم في الزقاق ومات في ثوانٍ، واستقر جذعه السفلي فوق جسد الرجل الرمادي.

ألقى جينتري السكين على الحصى، ودفع عنه ساقي الرجل الميت اللتين لا تزالان تتشنجان. تدحرجت الجثة بشكل مهين على ظهرها حتى توقفت حركتها. حل كورت ربطة عنقه بيد واحدة ولفها على هيئة كرة. أخذ نفسًا عميقًا ليثبّت نفسه، ثم ضغط الكرة إلى أسفل في الثقب الموجود في بطنه. نزل الدم على قميصه الأبيض على الرصيف.

صرخ: «يا إلهي!». بينما اختفى وجهه الملتوي ألمًا خلف الدموع والبصق والمخاط. شعر بالغثيان من شدة الألم، لكنه أخمده بالتركيز على عمله.

في العادة كان حريصًا على عدم ترك أثر لحمضه النووي، لكنه الآن لم ينشغل بالأمر.

سيحتاج هذا إلى مغطس من مادة التبييض، وطاقم تنظيف مكون من خمسة أفراد، ويوم كامل لتطهير هذا المشهد، ولم يكن لدى كورت أي شيء من هذا.

قلل ضغط رابطة العنق المحشوّة من شعوره بالألم عندما ثنى عضلاته، لولاها ما استطاع الوقوف. لكنه نهض وتعثر، واستقر على حائط الزقاق، وراح يمشي. سمع خلفه أصواتًا. انتبه المارة لضجيج

المشاجرة. سيحضر كلٌّ من الشرطة والقتلة هنا في ثوانٍ؛ لذا تعثر عند الزاوية متجهًا إلى ممر التسوق.

كانت المتاجر مغلقة طوال الليل، ولم يكن هناك متسوقون أمام الواجهات. ترنح بجسده المتهدل ووجهه الشاحب بعيدًا عن عربدة الدم خلفه. انتقل شمالًا في الليل البارد، ودمه يسيل من ساقه ويقطر على حجارة الرصف عند قدميه.

***

بعد ثلاثين ثانية، شق أحد البوتسوانيين طريقه وسط الحشد المذعور ووجد جثة الكوري في الزقاق المظلم، بدا كأنه عرض رعب دام، في شعاع الضوء المنبعث من كشاف إضاءة القاتل الإفريقي، الذي اتصل بالفني:

أخبره: «يوجد رجل ميت هنا. إنه آسيوي. لقد نُحِر تقريبًا». وقف لويد وريجيل وراء الفني بينما يستمعان لحديث القاتل البوتسواني بإنجليزية ذات لكنة مميزة عبر مكبرات الصوت. دخل السيد فيليكس الغرفة ووقف في الظل يراقب باهتمام.

أدار الفني مفتاحًا في صفوف الإلكترونيات الخاص به أمامه وقال: «بانشي 1 هل تسمعني؟ بانشي 1، هل تسمعني؟».

اختلطت الأصوات في السماعة، فبدا الأمل على لويد وريجيل.

قال صوت إفريقي ساخر: «لا يمكنه الوصول إلى الهاتف الآن، لا تكلف نفسك عناء ترك رسالة». من الواضح أن البوتسواني قد سحب الراديو من الكوري الميت وتحدث من خلاله.

قال ريجيل: «كان الكوري أفضل رجل لدينا في هذه المهمة. ستغضب منظمته لفقدانه في هذه العملية».

انفجر لويد قائلًا: «تبًّا لهم! كان عليهم أن يرسلوا إلينا شخصًا يمكنه إكمال المهمة. عندما قدموا لنا رجلًا واحدًا، عرفت أنهم لم يشاركوا في المهمة بإخلاص».

ـأنت أحمق يا لويد. هل لديك أي فكرة عما فعله ذلك القاتل في حياته المهنية؟ـبالتأكيد. لقد ترك بقعة دهنية في أحد أزقة باريس. الباقي لا يهمني.

عندها فقط عاد القاتل البوتسواني عبر مكبرات الصوت. وقال:

«هناك مسار دم يقود إلى الشمال. سنتبعه. سنعثر عليه».

قال ريجيل: «كما ترى لقد أدى بانشي 1 مهمته».

بعد ثلاث دقائق، جاء أحد المراقبين عبر الشبكة. قال: «أربعة وخمسون للفني».

ـتحدث يا أربعة وخمسون.

ـأنا في الطابق الرابع بالقرب من ميدان سان ميشيل، أعتقد أنني رصدت الهدف على الكاميرا. يمكنني إرسالها إليك للتحقق.

استغرق الأمر عشر ثوان لإجراء الاتصال. عندما دبت الحياة في شاشة البلازما في غرفة التحكم، سطعت أضواء باريس مما أدى إلى ظهور صورة ظلية لكاتدرائية نوتردام. كان نهر السين شريطًا لامعًا يشطر المدينة. لا يبدو أن الكاميرا التقطت وجهًا محددًا.

صاح ريجيل بحس الصياد: «أين هو؟». وقد أصابته المطاردة بالتوحش الآن، باحثًا بشكل محموم عن طريدته. وأكمل: «أربعة وخمسون، قرّب الصورة على الهدف!».

قال: «حسنًا، سيدي[1]». كُبرت الصورة عند الكوبري التاسع الذي يعبر النهر إلى الكاتدرائية. شخص وحيد يرتدي بذلة دكناء يتعثر ويعرج ويتوقف وينحني في منتصف الجسر. من الواضح أن الرجل أصيب، وهو يفر، يحاول العبور من الضفة اليسرى إلى إيل دو سيتي، الجزيرة الصغيرة في وسط نهر السين التي تستقر عليها كاتدرائية نوتردام.

صاح لويد بحماسة: «انظر إليه لقد فقد قوته! من قريب منه؟».

---

(1) بالفرنسية في الأصل.

أجاب الفني قبل أن ينتهي لويد من طرح السؤال: «الكازاخيون على بعد ثلاثين ثانية. ستراهم الآن يقتربون من الجسر من الجنوب. البوتسوانيون قريبون من ورائهم، والبوليفيون شمال نهر السين. لا يزال السريلانكيون على بعد عشر دقائق غربًا».

اتسعت صورة الفيديو بما يكفي لرؤية المباني على جانبي «كواي دي سان أوجوستين»، طريق الضفة اليسرى الذي يطل على نهر السين.

انطلق عدة رجال بطول الطريق، وانعطفوا يمينًا نحو الجسر.

انزلق أحدهم على الأحجار المبللة وسقط، لكن الآخرين ثبّتوا أقدامهم وتسابقوا نحو الجسر التاسع.

أعلن ريجيل منتصرًا: «انتهى الأمر! قل لهم أن يقضوا عليه، وأن يضعوا الجثة في السيارة ويرجعوا إلى مهبط طائرات الهليكوبتر. سننقلها إلى هنا حتى يراها السيد فيليكس عن قرب».

قال فيليكس وهو يقف مثل تمثال خلف الرجال المتحركين أمام أجهزة المراقبة: «سيكون ذلك كافيًا يا سيد ريجيل، شكرًا لك».

ثُبّتت كاميرا المراقب مرة أخرى على جينتري. لقد استدار وأصبح يواجه الكازاخيين الذين اجتازوا الأربعين ياردة الآن. وقف الأمريكي المصاب منتصبًا، رغم أن ذلك آلمه. نظر إلى الخلف بطرف عينيه إلى الناحية الأخرى من الجسر.

قال لويد: «لن تنجح يا كورت. لا يمكنك الهرب بعد الآن. لقد انتهى أمرك تمامًا». كان هناك بهجة في صوته.

لكن ريجيل تمتم: «تبًا!».

سأل لويد: «ماذا دهاك؟». كرر ريجيل بالألمانية: «تبًّا![1]».

كرر لويد سؤاله: «ما مشكلتك؟ لقد أمسكنا به!».

---

(1) بالألمانية في الأصل.

بعد ذلك مباشرة، صعد الرجل الرمادي إلى السياج الأسمنتي. نظر إلى الخلف إلى الرجال الذين اقتربوا منه، على بعد خمس وعشرين ياردة.

قال لويد، متفهمًا قلق ريجيل: .»لا! لا! لا! لا! لا!».

جذب كيرت ريجيل الميكروفون من طاولة الفني، وضغط الزر إلى أسفل، وصرخ: «أطلق عليه النار فورًا[1] !». وجد نفسه يتحدث الألمانية في حماسته. صرخ: «أطلق عليه الآن!».

ولكن بعد فوات الأوان. انقلب كورت جينتري بنفسه فوق السور، وسقط على مسافة ثلاثين قدمًا في المياه المتلألئة، فانفجرت صفحتها البلورية عندما اصطدم جسده بها، واختفت هيئته الدكناء مع إعادة تشكيل التيار إلى مرآة تتدفق بسرعة.

استدار لويد مبتعدًا عن الشاشة. وضع يديه على رأسه في حالة صدمة. ثم التفت إلى فيليكس الذي بقي صامتًا وراءه.

ـ هل رأيت ذلك! هل رأيته! إنه ميت!

ـ الوقوع في الماء لا يقتل رجلًا يا صديقي. أنا آسف. أحتاج إلى تأكيد لرئيسي.

عاد لويد إلى الفني وصرخ بما يكفي ليُسمع صوته في جميع أنحاء القصر: «يا إلهي! قل لهم أن يلقوا أنفسهم في الماء! نحن بحاجة إلى جثته!».

وأظهرت الصورة على شاشة البلازما أن الكازاخيين يقتربون من الجسر التاسع الذي أخلاه الهدف قبل خمس ثوانٍ فقط. نظروا جميعًا إلى الجانب. كان خمسة من الرجال على الجسر. قفز اثنان من فوق السور وسقطا في الماء الأسود البارد، بينما ركض ثلاثة عائدين إلى الضفة اليسرى.

---

(1) بالألمانية في الأصل.

صاح ريجيل بتعليماته إلى الفني: «لقد أصيب بجروح بالغة، وهذا السقوط لن يساعده. قل للبوتسواني أن يذهب هناك، انقل البوليفيين والسريلانكيين أيضًا. ضع شخصًا ما في قارب في حالة لم تظهر جثته على الفور. كلِّف الجميع بالبحث في كلتا الضفتين. انقل كل المراقبين في اتجاه مجرى النهر للبحث عن المكان الذي قد يظهر فيه. نحن بحاجة إلى جثته، نحتاج إليها الآن!».

30

في الثانية والنصف بدأ هطول مطر خفيف. كان الظلام في حديقة تينو روسي حالكًا، على بعد خمسمائة ياردة من الشرق إلى الجنوب الشرقي من كاتدرائية نوتردام، على الضفة اليسرى من نهر السين. وبعد خمسين قدمًا من الرصيف المرصوف بالحصى، يمتد جسر عشبي بجوار جدار حجري منخفض. هناك، بين الشجرة والحائط، استلقى شخص على ظهره، وركبتاه مرفوعتان قليلًا وذراعاه معوجان. سيتضح لأي شخص يمشي نحو الجسد المشبع بالمياه أنه جاء من النهر. ربما سمحت هزة أخيرة من القوة لذراعيه الواهنتين بالزحف بعيدًا عن حافة النهر إلى العشب الناعم الرطب؛ ربما وجدت قدماه موطئًا للحظة، ولكن لا بد أن الذراعين والساقين قد تعطلت بالكامل، وانهار الجسد على الأرض الباردة.

لم يُبدِ الجسد أي حركة، ولم يكن هناك صوت أيضًا، حتى بدأ ضجيج إلكتروني يزقزق، مكتومًا بملابس مبللة.

لم يستطع تحريك جسده مرة واحدة. أخيرًا شد كتفيه، رفع رأسه قليلًا ليتعرف إلى محيطه الجديد. بعد أن تدحرج مرة أخرى مد ذراعه ببطء إلى جيب المعطف، وجذب علبة بلاستيكية، وتحسسها بيد واحدة. فتح الهاتف، وسقط هاتف القمر الصناعي على العشب وظل موجهًا إلى السماء.

بعد أن قفز من فوق الجسر، اصطدم جينتري بالماء بقوة. سلب البرد ما تبقى من هواء في رئتيه بعد الاصطدام. لقد غرق بعمق، وعندما بلغ السطح، كان تيار النهر قد سحبه بعيدًا، تحت الجسر التاسع باتجاه

الغرب. امتص الهواء والماء، بينما كان يتمايل لقرابة الدقيقة، حتى رأى عبّارة منزلية صغيرة تتجه نحوه.

بالرغم من ضعف كورت لدرجة أنه كان على وشك أن يفقد وعيه، فقد ربط ذراعًا حول الدرجة السفلية من السلم الذي تدلى من جانب الزورق الأسود في أثناء مروره ببطء. أمسك بإحدى يديه، وأبقى رأسه منخفضًا في زبد الماء الذي خلفته حركة القارب، وسحبه مرة أخرى تحت الجسر الذي سقط منه لتوه.

سمع صراخ رجال في الماء من حوله وهم يغوصون في الأسفل بحثًا عن جثة أو يوجهون مصابيحهم الكهربائية حول امتداد الجسر.

بعد عشر دقائق، لم يعد كورت مهددًا بالكشف الفوري. حاول تسلق السلم للصعود على متن القارب بآخر ما لديه من قوة، لكنه سقط. لم تساعده ساقاه الضعيفتان، ولا الألم في أمعائه، ولا حذاؤه المبلل، والبرد المخدِّر، وعاد إلى التيار المتجمد. مد يده إلى الزورق، فلم يمسك شيئًا سوى ماء النهر، بينما كانت السفينة السوداء تبتعد إلى أعلى النهر.

لحسن حظ جينتري، لم يكن بعيدًا عن حافة المياه. وصل إلى الضفة اليسرى، وصارع على الرصيف، وصعد على قدميه. لكنه سقط مرة أخرى على العشب الرطب بجوار شجرة في حديقة تينو روسي. وهنا رقد لمدة عشرين دقيقة، عيناه مفتوحتان لكنهما زائغتان، إذ تتساقط قطرات المطر الناعمة لتصطدم وتنفجر في حدقتي عينيه.

رن الهاتف مرة أخرى، فرفعه عن العشب، وعيناه لا تزالان تراقبان سحب المطر المنخفضة بشدة التي أضاءتها أنوار المدينة من حوله.

كان صوته ضعيفًا وبعيدًا.

ـ أجل؟

ـ مساء الخير، هذه كلير فيتزروي. هل يمكنني التحدث مع السيد جيم من فضلك؟

تراجع جينتري بعيدًا عن المطر. وبدلًا من ذلك امتلأت عيناه بالدموع. كان يتحكم في صوته بأقصى ما يمكنه، وفعل ما في وسعه، لإخفاء الألم والإرهاق واليأس والشعور المطلق بالفشل. وقال: «لقد فات موعد نومك».

ـ نعم سيدي. لكن الجد دونالد قال إنه يمكنني الاتصال بك.

ـ هل تتذكرينني؟

ـ أوه، نعم سيدي. أتذكر كيف قدت بنا إلى المدرسة، نمت على سرير الأطفال الصغير في الردهة، لكن أمي قالت إنك لم تنم حقًا، لقد انتظرتنا طوال الليل. شربت القهوة، وأعجبك البيض الذي تصنعه ماما.

ـ هذا صحيح، كثير من الجبن.

كان كورت قد تعرض للطعن في عظمة الحوض، فثقب جدار بطنه. لم يكن يعتقد أن السكين غُرزت عميقًا بما يكفي لتقطيع أمعائه، لكن الألم الذي يحترق في مركز كيانه لا يوصف. افترض أنه لا يزال ينزف، لكنه لم يفعل شيئًا لإيقاف النزيف منذ أن سقط في النهر قبل ساعة تقريبًا.

مرت صفارات إنذار سيارات الطوارئ على يمين جينتري، لكنه استتر عن أنظارهم بالجدار الحجري والظلام.

قالت كلير: «سيد جيم، قال الجد دونالد إنك قادم لإنقاذنا».

انهمرت الدموع على وجه الأمريكي. لم يكن ميتًا، لكن هذا جعله يشعر أقرب ما يكون إلى الموت. كان يعلم أنه لا يستطيع الوصول إلى بايو، وحتى لو استطاع بطريقة ما، ما الذي يمكنه فعله إلا أن ينزف حتى الموت على عتبة القلعة؟

ـ أين جدك؟

ـإنه في غرفة النوم. لا يستطيع المشي الآن. قال إنه سقط على الدرج، لكن هذا ليس صحيحًا. الرجال هنا يؤذونه. أعطاني الهاتف وقال لي أن أذهب إلى الحمام وأتصل بك.

توقفت. ثم قالت: «لهذا السبب عليَّ أن أهمس. أنت قادم، صحيح؟ من فضلك قل لي إنك قادم. إذا لم تأتِ، أنت فرصتنا الوحيدة، منذ أن ذهب أبي إلى لندن. سيد جيم. هل أنتَ هنا؟».

أمر متوقع من فيتزروي. لو كان السير دونالد هو من أجرى هذه المكالمة بنفسه، لأخبره كورت بأن كل شيء قد ضاع. لكن الوغد القذر كان يعلم أن جينتري سيكون في حالة يرثى لها الآن، فمن سيغريه لمواصلة القتال أكثر من التوأمين؟

قال جينتري: «سأفعل ما بوسعي».

سألته كلير: «هل تعدني؟».

استلقى كورت هناك في الظلام، وبذلته المتجمدة المبللة غير مستوية على جسده، وقد التصق الطين البارد بنهاية رقبته وحلقه. قال ببطء وبصوت واهن: «سأكون هناك في أقرب ما يكون».

كررت كلير: «هل تعدني؟».

نظر كورت إلى الجرح في بطنه وضغط عليه بشدة ثم قال: «أعدك». وبدا أنه يستجمع القليل من القوة في صوته. وأتبع: «وعندما أصل إلى هناك، أريدك أن تعديني بأن تفعلي شيئًا من أجلي».

ـنعم، يا سيدي؟

ـعندما تسمعين الكثير من الضوضاء، أريدك أن تذهبي إلى غرفتك، وتزحفي تحت فراشك وتبقي هناك. هل يمكنك أن تفعلي ذلك من أجلي؟

ـضوضاء؟ أي نوع من الضوضاء؟ هل تقصد مسدسات؟ـأعني المسدسات.

ـحسنًا.

ـ ابقي هناك حتى آتي لأخذك. فلتفعل أختك الشيء ذاته، حسنًا؟
ـ شكرًا لك يا جيم. كنت واثقة أنك ستأتي.
قال: «كلير».
ثمة ذرة جديدة من القوة في صوت جينتري الآن.
ـ أريدك أن تعطي الهاتف لجدك خلسة. يجب أن أطرح عليه سؤالًا شديد الأهمية.
ـ حسنًا يا جيم.
ـ كلير، شكرًا لاتصالك. كان من الجيد أن أسمع صوتك.

***

بعد ست عشرة دقيقة، ترنح جينتري بطول شارع دي كاردينال ليموان. تساقط المطر، ولحسن حظ الرجل الرمادي لم يكن هناك أحد في الجوار. سار وكلتا يديه على الجانب الأيسر من بطنه، وتيبست ساقه اليسرى بينما يركلها إلى الأمام. توقف كل خمس وعشرين ياردة أو نحو ذلك، متكئًا على حائط أو سيارة أو عمود إنارة، انحنى إلى الأمام من الألم. بعد عدة ثوانٍ استعاد عافيته لكي يبتعد ويختبئ مسافة بضع خطوات أخرى، قبل أن يلتمس من جديد ملجأً من الإجهاد الناتج عن نزيفه.

عثر على العنوان الذي أعطاه إياه فيتزروي. كان الباب مغلقًا بالقفل كما توقع. وجد بالأسفل فجوة مظلمة بعد عدة مداخل فاندس فيها، ثم جلس على قطعة من الورق المقوى كالمشرد، واتكأ برأسه ليستريح على المنحدر.

دوت صافرات الإنذار الرتيبة التابعة للشرطة من بعيد، ربما صارت على بعد ميل واحد. من المؤكد أن رجال الشرطة والقتلة والمراقبين بطول نهر السين يبحثون عنه، وعلى الرغم من ذلك، من مصلحته أنهم كثفوا بحثهم في الأسفل وليس المنبع، ومن مصلحته أيضًا أن يعوق بعضهم بعضًا.

كان على وشك النعاس بينما يضغط بقبضته على بطنه الملطخ بالدماء، عندما سمع ضجيجًا من العنوان الذي أعطاه إياه فيتزروي. أطل من الكوة ورأى الباب المغلق يُفتح ببطء.

توقع أن يأتي شخص ما بالسيارة، لكن يبدو أن أيًا من كان يعمل في الموقع يعيش في شقة بالأعلى في المبنى نفسه. ظهرت امرأة على الرصيف، بصعوبة يمكن رؤيتها في ضوء مصباح الشارع الذي يبعد عشرين مترًا. نهض كورت واقفا على قدميه وترنح إلى الأمام.

همست منفعلةً: «هيا! أسرِع»[1].

تجاوزها وهو لا يزال مذهولًا، ووجد نفسه في ردهة طويلة.

ثبّت جسده الواهن الذي تأرجح بين جدران الممر، ورأى على الفور أنه كان يلطخ الجدران بيديه وهو يمشي. ثبتته المرأة بسرعة ولفت ذراعه حول رقبتها. كانت طويلة ونحيفة لكنها قوية. بعد كل خطوة شعر أنه يستسلم لها أكثر فأكثر.

دلفا مدخلًا إلى غرفة مظلمة قبل أن تتمكن من إشعال الضوء، مثقلة بالرجل البالغ وزنه 170 رطلًا. ذُهل كورت حين نبح كلب قريب. ثم آخر، ثم عشرة كلاب أو أكثر تنبح في وقت واحد، كلها حوله.

عندما أُنير الضوء فوق رأسه أدرك على الفور أن عيادة الطوارئ التي أرسله دونالد إليها كانت في الواقع مكتب طبيب بيطري. انزلقت ركبتاه وهبط وزنه على الفتاة بجانبه. دفعته إلى الأمام ثم إلى أسفل على كرسي صغير.

سألته بينما تنظر إليه من أعلى: «هل تتحدث الفرنسية؟»[2]. نظر إلى أعلى فرأى دون سبب أنها كانت جميلة إلى حد ما.

---

(1) بالفرنسية.

(2) بالفرنسية.

ـ هل تتحدثين الإنجليزية؟[1]

ـ نعم قليلًا. أنت إنجليزي؟

كذب قائلًا: «نعم». لكنه لم يكن ينوي محاولة تزييف اللكنة.

ـ سيدي. حاولت إخبار السيد فيتزروي أن الدكتور قد سافر، لكنني اتصلت به، إنه الآن في طريقه إلى هنا. سيصل في غضون ساعات قليلة. معذرة لم أكن أعرف مدى الضرر الذي أصابك. لا أستطيع مساعدتك. سأتصل بسيارة إسعاف. أنت بحاجة إلى مستشفى[2].

ـ لا. أنت في شبكة فيتزروي. لديك على الأقل دواء ودم وضمادات.

ـ لا يوجد هنا، أنا آسفة. يمكن للدكتور ليبين أن يدخل أي عيادة قريبة، لكنني لا أستطيع ذلك. أنا أعمل هنا فقط مع الحيوانات. أنت بحاجة إلى مستشفى. أنت بحاجة إلى مساعدة طارئة. يا إلهي! أنت بارد. سأجد لك بطانية.

التفتت بعيدًا عنه وغادرت الغرفة، عادت ببطانية من الصوف السميك تفوح منها رائحة براز القطط. ولفتها على كتفيه.

سألها كورت بأضعف طبقات صوته الآن: «ما اسمك؟». ـ جوستين.

ـ انظري جوستين. أنت طبيبة بيطرية. هذا قريب بما فيه الكفاية. أنا فقط بحاجة إلى بعض الدم و...

ـ أنا مساعدة بيطري.

ـ حسنًا، هذا أيضًا قريب بما يكفي. يمكننا إتمام الأمر. ساعديني من فضلك.

ـ أنا أُحَمِّم! أنا أحمل الكلاب من أجل الطبيب، لا أستطيع مساعدتك. الطبيب في طريقه، لكن لا يمكنك انتظاره. أنت شاحب تمامًا.. أنت بحاجة إلى الدم، وإلى السوائل.

---

(1) بالفرنسية.

(2) تتحدث بإنجليزية ركيكة.

ـ ليس لديّ وقت للانتظار. انظري، أنا أعرف طب المعارك. يمكنني أن أصف لك ما أحتاج إليه. سأحتاج إلى بعض الدم، فقط بضع وحدات من فصيلة O موجبة، وبعض مضادات حيوية، ويديك. عندما يكون الضعف والألم أكثر من اللازم، لن أكون قادرًا على فعل ما يجب فعله.

ـ طب المعارك؟ هذه ليست ساحة معركة. هذه باريس!

قال كورت ساخرًا: «قولي هذا للرجل الذي فعل ذلك». فتح البطانية وسحب يده من جرح سكينه. كان ضغط دمه قليلًا بما يكفي الآن ليتوقف تدفقه من خصره، لكنه كان ينزف ويتلألأ دمه في الضوء العالي لغرفة العلاج.

شهقت جوستين وقالت: «يبدو هذا سيئًا».

ـ يمكن أن يكون أسوأ. لقد اخترق العضلات بحق الله، لكنني سأكون بخير إذا تمكنت من الحصول على بعض دماء من فصيلة O موجبة. إذا كان بوسعك مساعدتي، فسأنطلق في طريقي. سيدفع لك فيتزروي أنت وطبيبك مقابل هذا الإزعاج.

ـ سيدي، ألا تسمعني؟ أنا أعمل مع الكلاب!

أغمض عينيه، وبدا وكأنه يفقد وعيه قليلًا، لكنه قال: «فقط تخيليني مكسوًّا بالفراء».

ـ كيف يمكنك المزاح؟ أنت تنزف حتى الموت.

ـ لأننا نتجادل وحسب. أين هذه العيادة؟ يمكننا أن نذهب هناك وأحصل على ما أحتاجه. لا أستطيع الذهاب إلى المستشفى. لا توجد طريقة أخرى.

أطلقت تنهيدة طويلة، أومأت برأسها، وربطت شعرها البني على هيئة ذيل حصان خلف رأسها.

وقالت: «دعني أضع ضمادة على هذا حتى لا تفقد المزيد من الدم».

وهدأ نباح الكلاب.

***

كان المركز الجراحي الصغير في عيادة الطبيب البيطري قذرًا. لم يُنظَّف جيدًا بعد انتهاء العمل يوم الجمعة.

«أنا آسفة يا سيدي. إذا علمت أنك قادم...».

قال: «لا بأس». جَرَّ كورت نفسه صوب الحامل المعدني في منتصف الغرفة، لكن جوستين أوقفته، وأمسكت بزجاجة رذاذ، ورطبت بشكل روتيني، ثم مسحت سطح الألومنيوم المصقول بينما اتكأ مريضها على رف من الضمادات. ركضت عبر الباب وعادت ومعها وسادة من الأريكة في غرفة الانتظار.

ـ يجب أن تدع ساقيك تتدليان من الجانب. إنه ليس مخصصًا للأشخاص.

ـ حسنًا.

لقد استخدم آخر ما تبقى لديه من عزم لفتح قميصه. طارت الأزرار وارتدت فوق بلاط أرضية الغرفة . سحبت جوستين حذاءه المنقوع بمياه المطر، واستخدمت مقصًا لتقطع سرواله فبقي بلباسه الداخلي. قالت: «أنا لا خبرة لي مع البشر».قال جينتري: «أنت تؤدين عملا رائعًا».

لقد قاومت خجلها ونظرت إلى جينتري من الرأس إلى أخمص قدميه.

ـ ماذا حدث لك؟

ـ لقد أصبت في ساقي قبل يومين.

ـ بمسدس؟

نظرت إلى الجرح المفتوح في فخذه، الذي مرَّ عليه ثلاثة أيام، ثم عادت إلى وركه النازفة. ارتدت على الفور قفازات مطاطية في يديها الصغيرتين وهي تقول: «يا إلهي!»[1].

قال جينتري: «وبعد ذلك جرح الزجاج المكسور ساقي وقدمي».

ـ أرى ذلك.

ـ ثم كسرتُ ضلعًا في أثناء تدحرجي هبوطًا من جبل في سويسرا.

ـ جبل؟

ـ نعم. ثم خلعت بعض الأصفاد من معصمي.

كانت جوستين صامتة. وقد فغرت فاها بعض الشيء.

ـ ومعدتك؟

ـ جرح سكين.

ـ أين؟

ـ هنا في باريس. منذ نحو ساعة، على ما أعتقد. ثم سقطت في نهر السين.

هزت رأسها. وقالت: «سيدي، أنا لا أعرف ماذا تعمل، ولا أريد أن أعرف. ولكن مهما يكن الأمر، أعتقد أنه يجب عليك العثور على وظيفة جديدة».

ضحك كورت قليلًا، فاشتعل ألم جرح الطعنة. وقال: «مهاراتي لا تنفع في الأعمال الصالحة».

ـ آسفة. أنا لا أفهم هذه الكلمات.

ـ لا تهتمي يا جوستين، يمكننا إيقاف جرح السكين بهذه الضمادة، بطريقة أو بأخرى، ولكن إذا لم أدخل بعض الدم إلى عروقي فسأفقد الوعي.

---

(1) بالفرنسية في الأصل.

ـ العيادة قريبة لكنها مغلقة.

قال كورت: «سنفتحها. دعينا نذهب، يجب أن أنطلق في أقل من ساعة».

لفت جوستين ضمادة ضاغطة بإحكام حول خصر كورت لتثبيت مربع الشاش السميك الذي وضعته فوق جرح السكين. وقالت: «تنطلق؟ لست بحاجة إلى التحرك على الإطلاق! لأيام. ألا تفهم مدى خطورة إصابتك؟».

قال جينتري: «أنت لا تفهمين. لديّ مكان يجب أن أكون فيه! أنا فقط بحاجة إلى الراحة حتى أتمكن من المغادرة!».

ضغطت على أسنانها واتسعت عيناها وهي تقول: «سيدي، أنا لست طبيبة، لكن يمكنني أن أعدك بأنه لا يوجد مكان تحتاج إليه الآن بخلاف الرعاية الطبية. قد تموت في غضون ساعة».

قال لها: «سأكون بخير، يجب أن أكون بخير».

انحنت جوستين وفتحت خزانة قريبة، وبدأت في سحب المعدات منها. وقالت: «هذا مستحيل! إذا نقلنا الدم إليك، فسيتسرب من معدتك إذا تحركت. أنت بحاجة إلى خياطة جرحك. وإذا تحركت فستنقطع غُرز الخياطة».

فكر كورت في الأمر أكثر. نظر إلى ساعة يده ليجد أنها الساعة الثالثة صباحًا. قال: «أنا.. يجب أن أصل إلى بايو في نورماندي».

ـ الليلة؟ هل أنت مجنون؟

ـ إنها حياة أو موت، جوستين.

ـ نعم، موتك يا سيدي.

سحب كورت ظرف موريس النقدي من جيبه. كان مبللًا، لكنها معجزة أنه نجا من النهر، وكذلك مفاتيح سيارته. سلم الظرف الممتلئ إلى جوستين. سألها بينما هي تحدق إليه: «كم سيكلفني؟». ثم عادت نظراتها إلى عينيه وقالت: «الكثير».

ـ كله لك. فقط ساعديني في الوصول إلى بايو قبل الثامنة صباحًا.
ـ إذا كنت لا تستطيع قيادة السيارة، فماذا تتوقع أن تفعل عندما تصل إلى هناك؟
ـ يمكنني قيادة السيارة، لكني أريدك أن تخيطي جرحي وتضمديه في أثناء القيادة. يمكننا إجراء عملية نقل الدم في الطريق.
نهضت ببطء وقالت كل كلمة على حِدَة: «الخياطة؟ في... الـ... سيارة؟».
أومأ كورت.
ـ بينما تقود الـ.. سيارة؟
ـ أجل.
تمتمت بشيء باللغة الفرنسية لم يفهمه كورت. لكنه التقط كلمة أقرب لـ «كلاب»، وظن أنها كانت تقول إنه بسبب لحظات كهذه، فضلت أن يكون مرضاها من النوع ذي الأرجل الأربع.
ربطت الضمادات حول خصره وساعدته على إعادة قميصه المبلل فوق كتفيه. لم ترفع نظرها عن عملها في أثناء حديثها.
ـ ما الذي يحدث في بايو في وقت مبكر من صباح أحد أيام الأحد ولا يمكنك أن تفوته مطلقًا؟ ـ هل ستصدقينني إذا أخبرتك أنني أغني في جوقة الكنيسة؟هزت رأسها دون أن تبتسم وقالت: «لا».
قال جينتري: «حسنًا. سأخبرك إذن».
أخبرها ما حدث، وما يجب عليه فعله بحلول الساعة الثامنة صباحًا لكن بحبكة فجوتها تسمح بمرور طائرات جامبو. حكى لها عن الفتاتين المخطوفتين والأب الذي مات وهو يحاول حمايتهما. أخبرها عن فرق العملاء الأجانب التي تطارده، ولأن فقدان الدم والإرهاق عبثا بصوابه أخبرها مرة أخرى عن المكالمة الهاتفية من كلير ومرة أخرى عن الطفلتين الصغيرتين اللتين كان عليه حمايتهما.

ارتعدت عندما تحدث عن القتلة والقتل، خطر الموت الذي يحدق بفتاتين صغيرتين من أجل سمعة بعض الشركات البلطجية. نعم، تعمل جوستين لدى طبيب بيطري بمواعيد سرية أحيانًا وبعض المرضى المشبوهين للغاية. أخبرها الطبيب عن فيتزروي والشبكة لئلا تطرح المزيد من الأسئلة. لكنها لم تتخيل قط ولو بعد مليون عام أن ثمة متوحشين وقساة مثل أولئك الذين يحكي عنهم هذا الغريب.

سأل كورت: «إذن.. ما رأيك؟».ـ لماذا تثق بي؟ـ اليأس. لقد كنت ميتًا على ضفة النهر قبل 45 دقيقة. منذ تلك اللحظة، أصبحت أملي الوحيد. إن غدرتِ بي، فلن يكون حالي أسوأ مما كان في أثناء استلقائي هناك.

ـ ماذا عن الشرطة؟ـ يقول لويد إنه سيقتل الرهائن إذا ذهب أي شخص سواي إلى المنزل. أنا أعرف أمثاله، سيفعلون بالضبط ما يهددون به. عليَّ أن أذهب وحدي بمساعدتك. سأتركك في بايو. وجهتي على بعد بضعة كيلو مترات شمال القرية. يمكنك أن تستقلي أول قطار يعود إلى باريس في الصباح. ستكونين على بعد أميال من أي خطر، أعدك.

سألته: «ماذا أسميك؟».

ـ جيم.

ـ حسنًا جيم. سنذهب بشرط واحد.

ـ ما هو؟

ـ دعني أعطِك القليل من مسكن الآلام، فقط من أجل العملية، سنجد شيئًا في العيادة يمكننا تقديمه لك، وما إن يرتفع ضغط الدم بعد نقله إليك سنأخذ سيارتي. سأقود إلى جار سان لازار لتحصل على سيارتك، ثم يمكننا الذهاب. لن تكون هناك حركة مرور على الطريق ما إن نغادر المدينة. سأعالج إصابتك في أثناء القيادة.

فكر كورت في ذلك. كانت كل ذرة من كيانه تعارض تناول أي دواء من شأنه أن يغيِّب عقله ويضعف حواسه، ويتركه في حالة أقل من التركيز الكامل على المهمة التي يسعى إلى إنجازها. شعر أنه يستطيع تحمل الألم.

لا، لم تعجبه خطة جوستين، لكنه يثق بها لسبب ما. وبينما كان ينظر إلى الفتاة اللطيفة الشقراء التي تقف أمامه، ولا تزال جميلة، وشعرها مربوطًا كذيل حصان مبعثر من نومها، ودون مساحيق تجميل في وجهها، وقد تكوم العرق على شفتيها من مشقة إبقاء شخص غريب مخيف على قيد الحياة، اعترف بأنه ليس في وضع يسمح له بالمجادلة على الإطلاق.

ساعدت جوستين كورت على الوقوف على قدميه، واندفع الاثنان معًا ببطء خارج غرفة العلاج وأسفل القاعة باتجاه الجزء الخلفي من العيادة. جفل جينتري مع كل خطوة، ما إن تمايل رأسه للأسفل كما لو كان سيغشى عليه.

أسندته جوستين إلى الحائط في الفناء بينما كانت تتحسس مفاتيحها.

سأل جينتري: «ماذا هذا بحق الجحيم؟».

ـ إنها سيارتي.

ـ هذه سيارة؟

ـ ما الخطأ في هذا؟

ـ إنها صغيرة.

ـ عندما اشتريتها، لم أكن أعرف أنني سأنقل المرضى في مقعد الراكب.

ـ هذا معقول. لا بأس. من المؤكد بحق الجحيم أنها لن تلفت الكثير من الانتباه.

ابتسم كلاهما قليلًا، لكن الابتسامات اختفت وهي تحاول المساعدة في إنزاله إلى المقعد. صرخ كورت من الألم، صرخة بلغت ذروتها باللهاث الشديد.

استغرق الأمر منها ما يقرب من دقيقة لتشغيل المحرك الصغير. بحلول ذلك الوقت كان كورت قد نام. لقد أخفض مقعده إلى حيث يمكن أن يستلقي بشكل مسطح تقريبًا. تمكنت بعد مجهودٍ من رفع ساقيه على لوحة القيادة للمساعدة على حمايته من التعرض لصدمة. عندما انعطفت شمالاً في شارع مونج، رأت طائرات هليكوبتر تحلق في الهواء على مسافة فوق النهر.

أوقفت جوستين سيارتها على بعد بضعة أمتار من العيادة قبالة شارع دي إيكول. في الثالثة والنصف، لم يكن هناك أحد في الجوار على الإطلاق. تقلب كورت في مقعده، ونظر حوله للحظة، ثم طلب منها قلمًا وقطعة من الورق. دست يدها في حقيبتها للحظة ثم أعطته مظروفًا وقلم رصاص.

ـ هناك دواء آخر أريدك أن تعثري عليه. لا بُدَّ أنه ضمن أدوية الأطفال.

ـ إحدى التوأمين بحاجة إلى دواء؟

ـ لا إنه لي.

دوَّن شيئًا ما وسلم المظروف إلى جوستين فنظرت فيه.

ـ ديكستروستات؟ فيمَ يستخدم؟

ـ سيساعد، إنه مهم للغاية، ابحثي عنه.

هزت كتفيها، ووعدت كورت بالبحث عنه دون أن تقول كلمة أخرى. قفزت من السيارة الأونو الصغيرة ورجعت إلى صندوق السيارة.

لم يستطع جينتري الالتفات ليرى ما كانت تفعله. بعد ثوانٍ سارت إلى الباب الزجاجي للمبنى وتلفتت حولها بسرعة في كلا الاتجاهين، ثم حطمت الزجاج بإطار حديدي في يدها اليمنى، ومدت يدها عبر

الشظايا الحادة لتفتح الباب من الداخل. راقبها كورت في عجز تام، اختفت في العيادة المظلمة حيث ملأ الإنذار المدوي الشارع.

سقط كورت في النوم مرة أخرى في السيارة بالرغم من الخطر الوشيك. استيقظ مع هزة السيارة الصغيرة ذات البابين، إذ تنطلق إلى الأمام. وحين ألقى نظرة على وجه المرأة الشابة، في وهج مصابيح الشوارع التي تومض فوقهما وهما يبتعدان عن أجراس الإنذار، لمح فيه الشدة والتصميم.

سأل: «علام حصلتِ؟».

ـ ثلاث وحدات منة فصيلة O موجبة، وحقيبتان من سكر العنب، ومورفين، وفيكودين، ومعدات نقل الدم، ومطهرات، ومجموعة خياطة.

ـ و...؟ ـ والدواء الذي سألت عنه.

ـ أحسنتِ.

قالت بابتسامة صغيرة: «نعم.. كان هذا ممتعًا».

في مرأب السيارات أسفل جار سان لازار، استقل كورت وجوستين السيارة المرسيدس الكبيرة. استلم جينتري عجلة القيادة، وجلس هناك مشوشًا ومقطبًا جبينه من الألم. بدأت جوستين بنقل الدم وعبوات التغذية بالحقْن، حيث جلسا معًا في مرأب مظلم وفارغ. لقد علقت العبوات في مفتاح الإضاءة فوقهما للحفاظ على استمرار التنقيط، بينما أفسح الجزء الداخلي المصنوع من الجلد الأسود اللين المجال لتحركات الفتاة الفرنسية، فانحنت فوق كورت، وسكبت المطهر بحرية على خصره لتمتصه ضماداته وجروحه.

أمرت جوستين كورت بالاستلقاء والاسترخاء، وغادرت السيارة. اختفت عن نظره وهو جالس بمفرده، فحاول التفكير في المهمة التي لا تزال قيد التنفيذ. كان يعلم أن هذه التأخيرات تعني أنه لن يصل إلى القصر قبل السادسة صباحًا. لن يكون لديه أي وقت تقريبًا

لاستكشاف وتقصي المنطقة. لا، كما هو الحال الآن، سيكون لديه الوقت فقط للقيادة حتى الباب الأمامي وبدء هجومه إذا أراد فعل ذلك تحت جنح الظلام. تبًّا!

أدرك كورت أن فرصه في النجاح لم تكن جيدة على الإطلاق، ولكن بعد تعرضه للطعن في باريس، أصبحت فرصه الآن ضئيلة للغاية.

عادت جوستين بعد ذلك ومعها كيس من المعجنات وكوبان كبيران من القهوة. سحب من يدها أحد الكوبين المملوء بالرغوة، شرب بشراهة حتى لسع فمه.

طالبته: «توقف![1]. توقف. ارشف ببطء».

أخذ كورت كرواسون ومزقه بشراسة، حاولت دهنه له بالزبدة بينما كان يأكل، لكنه أخذ القليل من الزبدة من يديها والتهمها أيضًا.

عنفته جوستين. قائلةً: «لن تفخر بك والدتك هكذا، استرخ، أنت تحصل على السوائل والتغذية التي تحتاج إليها من الوريد. هذا كثير من الطعام مع المورفين، سيجعلك تتقيأ، اشرب القهوة ببطء. هل يمكنك القيادة؟».

قال كورت بإصرار عابس: «سنكتشف حالًا». وأرجع المرسيدس إلى الخلف، ثم خرج من المرأب تحت الأرض ببطء، وانطلق في الليل.

أخذا الطريق السريع **(A15)** شمالًا خارج المدينة، وكما أكدت جوستين، لم تكن هناك حركة مرور تقريبًا في الرابعة من صباح يوم الأحد.

سبَّت بصوت عالٍ عندما لاحظت أن كيس الدم قد فرغ بعد خروجهما من المدينة بدقائق. بدَّلت به كيس لتر كامل آخر، وبدَّلت الدكستروز فقط حتى تظل السوائل تقطر في الوريد بأسرع معدل ممكن.

---

(1) بالفرنسية في الأصل.

كان الطريق **(A13)** هو الطريق المباشر إلى بايو، لكن كورت تجنبه. كان يعلم أنه من السهل تثبيت المراقبة على الطريق الرئيسي للقصر. بدلًا من ذلك، سلك كورت سلسلة من الطرق الخلفية التي من شأنها أن تضيف نصف ساعة أو نحو ذلك إلى رحلته.

أخيًرا المحتوم ساعة. تحدثت جوستين عن عائلتها وأصدقائها، وقططها الست. اتضح توترها لكورت من حديثها العشوائي. وقبل ساعة من الوصول إلى القصر، هدأت جوستين، وحقنت وريد جينتري بعناية بجرعة صغيرة من المورفين. إذا انخفض ضغط دمه للغاية، وعاد إلى نفس معدلاته حين كان في العيادة البيطرية، لكان المورفين أوقف قلبه. ولكن بعد وحدتين ونصف من الدم، قررت أن حقنة صغيرة من مسكن الآلام القوي تستحق المخاطرة، مع الأخذ في الاعتبار ما كان على وشك أن يواجه.

في أثناء قيادته السيارة في الظلام، بدأ كورت يشعر بالتحسن، إذ عزز مسكن الألم والدم والماء المحلى بالسكر قوته ومعنوياته. تحدثا عن العملية، واستغرقت جوستين عدة دقائق لتجهيز الغرز والضمادات على لوحة القيادة أمامها. كانت متوترة، بينما تربط الإبرة المعقوفة الحادة لتغمسها في زجاجة من المطهر، ثم تضعها على شاش معقم.

فتحت قميصه، وقطعت ضماداته، وسكبت نصف محتويات الزجاجة على بطنه، فارتجف من اللدغة.

فك كلاهما أحزمة المقاعد، ونهضت على ركبتيها في مقعد الراكب. وضع جينتري يديه عاليًا على عجلة القيادة للسماح لها بالوصول إلى بطنه. ابتلع آخر رشفة من القهوة الباردة، وألقى الكوب خلفه. ثم استخدمت جوستين شريطًا لاصقًا لربط كشاف إضاءة كورت الصغير بالجزء السفلي من عجلة القيادة، مما أدى إلى إضاءة منطقة تركيزها تمامًا، طالما حرصت على منع يديها من أن تظلل فوق جرح الطعنة.

قالت جوستين: «لم أفعل هذا من قبل مع إنسان، حتى في الظروف الصحيحة، لكني خيطت جروح قطط».

قال كورت: «ستؤدين عملًا جيدًا». أدركا أن كلًّا منهما يحاول تهدئة أعصاب الآخر.

لكن عزيمة جوستين تعثرت أولًا. نظرت إلى الأمريكي وسألته: «هل أنت واثق؟ سأضطر إلى التعمق في العضلات لإغلاق الجرح. إذا اكتفيت بثقب الجلد فسيتمزق ما إن تتحرك».

أومأ كورت وعيناه تدمعان بالفعل تحسبًا للألم. قال بهدوء: «جوستين.. مهما أقل أو أفعل، فلا تتوقفي».

أومأت برأسها، واستجمعت رباطة جأشها وقالت: «هل أنت جاهز؟».

أومأ برأسه بعد قليل، سحب حزام الأمان من صدره ووضعه في فمه ليعض عليه بشدة.

كان الطريق مسطحًا ومستقيمًا كما كشفته المصابيح الأمامية.

اخترقت جوستين لحم مريضها بعد نصف بوصة من جرح السكين الدموي. وجدت الإبرة المعقوفة مسارها الخاص في عمق عضلات بطنه. مرت عبر الشق، وتناثر الدم الطازج في شعاعٍ المصباح. أدى تقوس السن الحاد إلى خروجه من جلده، على بعد نصف بوصة، من الجانب الآخر من جرحٍ الطعنة.

صرخ كورت عاضًا حزام المقعد المثبت في فمه. أخذت جوستين الخيط بيدها التي ارتدت عليها قفازًا، وجذبت الأداة إلى الخلف مرة أخرى، وأعادت خيط الإبرة. حتى مع مرور ربع جرعة من المورفين عبر مريضها، شعرت بقطرات دموعه على ذراعيها وهي تصنع الغرزة الثانية بالقرب من الأولى.

واصلت ذلك لمدة عشرة كيلو مترات. لم تلتفت بعيدًا عن عملها في أثناء تخييطها الجرح، لكنها تحدثت إليه بفرنسية باعثة على الهدوء طوال الوقت، تمامًا كما لو كان كلبًا مصابًا. وفوقها جفل مريضها وتأوه.

تعجبَت من مواصلته القيادة، وقيامه بانعطافات سلسلة كلما احتاج، حتى أنه لم يستخدم المكابح إلا مرة واحدة. افترضت جوستين أن امتداد الطريق أمامه ٍوحاجته إلى التركيز فيه هما الشيئان الوحيدان اللذان جعلاه متماسكًا.

استخدمت الشاش لمسح الدم في أثناء عملها، وسكبت المطهر من الزجاجة التي وضعتها بين ساقيه للحصول على رؤية أفضل للجرح الذي يضخ دمًا.

أخيرًا قالت: «أوشكت على الانتهاء. ليس أمامي سوى سحبها بإحكام وربطها. بضع ثوانٍ فقط الآن». سمعته يلهث وينتحب فوقها. أثار إيقاع صوته قلقها. علمت أنه قد يصاب بصدمة في أي وقت. وأكملت: «ها نحن، سأكون خفيفة قدر الإمكان». شدت الخيط، وأغلقت الجرح ببراعة، وتوقف آخر نزيف على الفور. وقالت: «نعم ممتاز. الآن أنا فقط سأربطها و...».

مرت الإطارات فوق سلسلة من المطبات، لكن ثبات المرسيدس كان رائعًا. لم تكد تشعر بالسطح الخشن. ولكن عندما لم تتوقف المطبات بعد عدة ثوان، نظرت إلى الأعلى للاطمئنان على مريضها.

ذعرت حين رأت رأسه يتدلى فوقها مباشرة، وعيناه مغمضتان.

فقد جيم وعيه.

انحرفت المرسيدس السوداء عن الطريق، وتحطمت في الخامسة والنصف صباحًا.

31

كان جميع الحراس البيلاروسيين العشرة في مواقعهم حول العقار: ستة في الخارج، واثنان عند نوافذ الطابق الأرضي، واثنان أعلى البرج. جلس سيرج وألن، مهندسا الأمن الإلكتروني، في مكتبة الطابق الأرضي، تتفحص عيونهما الحمراء الشاشات دون كلل، وتشاهد صور الأشعة تحت الحمراء حول محيط المبنى.

كانا يجريان اتصالات لا سلكية كل خمس دقائق للتواصل مع الدوريات. الليبيون هم فرقة الصيد والقتل الوحيدة التي لا تزال في المنطقة. كانوا يعانون إرهاقًا شديدًا بينما تجري شاحنتهم دوريات في بايو. أيقنوا أنهم استبعدوا من الفوز، أرسِلت الفرق الأخرى التي كانت في المنطقة منذ ذلك الحين إلى باريس للبحث عن الهدف، كذلك فعل كل فنان رصيف على بعد 300 ميل.

مُنح الليبيون فرصة واضحة للهدف مرة أخرى عند سفح التل في سويسرا، وقد فشلوا، لذلك أُمروا الآن أن يلزموا مكانهم وينتظروا، كان تكرار فرصتهم ضد الرجل الرمادي أمرًا غير محتمل.

لم يتوقع أحد وصول جينتري إلى بايو الآن.

جلس ريجيل ولويد والفني وفيلكس في غرفة التحكم ذات الإضاءة المنخفضة، يرتشفون القهوة أمام الصور المتذبذبة المتأرجحة في شاشات الكمبيوتر، التي تبثها كاميرات الفيديو الرقمية، تلك التي يحملها المراقبون وفرق القتل في باريس.

ما زال الفني يدير عملية البحث حول نهر السين. في الوقت الحالي، اعترف كل من ريجيل ولويد بنجاح جينتري في الخروج من الماء في

اتجاه مجرى النهر، وأنه ترنح مبتعدًا. لذلك جرى توسيع نطاق البحث ثم توسيعه مرة أخرى على جانبي النهر.

بحلول الخامسة والنصف صباحًا، جاءت أخبار جديدة في باريس أدت إلى فورة من النشاط حول القصر. علم مراقب يستمع إلى راديو الشرطة باقتحام شخص عيادة طوارئ صغيرة في الدائرة الخامسة. كان هذا عكس تيار المياه حيث سقط الهدف في النهر، لكن الفني أرسل مراقبًا لمعرفة ما في مقدوره أن يعرفه. وكان أصحاب العيادة قد وصلوا وأعلنوا أن الأدوية والدم والمعدات المسروقة كلها أدوات ضرورية لعلاج الجروح.

وقف ريجيل وراء الفني وقال: «يجب أن نقسِّم البحث. أبقِ البوليفيين والسريلانكيين في باريس. قل للبوتسوانيين أن يأتوا إلىَ هنا عبر الطريق السريع، واعرف هل بإمكانهم رصده في الطريق. أرسل مروحية لالتقاط الكازاخيين، إنهم أمهر رماة المدفعية. أريدهم هنا. يمكنهم إجراء دوريات في الطرق الخلفية حول العقار وكشف أي شيء يتحرك. ونبِّه الليبيين في بايو! يجب أن يبقوا هناك لمراقبة محطة القطار والطرق عبر المدينة. إذا كان الرجل الرمادي لا يزال يقاتل بطريقة ما، فسيصل هنا قبل الفجر».

تمتم الفني في نفسه: «رأيناه بحق الله، رأيناه يتألم بحق الله، رأيناه يسقط في الماء بحق الله».

صفعه لويد على رأسه من الخلف قبل أن يخرج من الغرفة، متجهًا إلى الطابق السفلي ليخبر الرجال الذين يراقبون كاميرات الأشعة تحت الحمراء أن هدفهم قد يكون في الطريق.

***

«أرجوك! من فضلك يا جيم! يجب أن تستيقظ!».

فتح كورت جينتري عينيه، وفوقه يلوح أحد في الظلام. بشكل غريزي، مد يده وجذب رقبته وأمسكها بقوة وطرحها أرضًا بجانبه وهو يحاول التدحرج فوقها.

سقط كورت على جوستين في العشب الممتد الرطب.

«آسف». كان هذا هو كل ما يمكن أن يقوله وهو يبتعد عن الفتاة الفرنسية.

كانت حركته بطيئة، ومن الواضح أن جسده قد أعاقته المخدرات. كان بطيئًا أيضًا حين نهض في الظلام، ورغم ذلك استطاع أن يميز تمامًا عينيها الواسعتين. جلست بجانبه في النهاية، فيما نظر هو بعيدًا بانزعاج إذ يتفقد محيطه.

جلسا على العشب الرطب، واتكأ كل منهما بظهره إلى المرسيدس. كانا في حقل، فقد اقتحمت السيارة ا السوداء غابة. افترض جينتري أن الطريق كان على الجانب الآخر، حيث انبسط وهج القمر بسبب الضباب فوقه، لكنه ميَّز حركة الأبقار المتثاقلة في الحقل الموحل قرب السيارة.

كان الهواء باردًا.

ـ ماذا.. ما هو.. أين نحن؟

ـ لم أستطع إيقاظك. نحن غرب كاين، ما زلنا نبعد ثلاثين دقيقة عن بايو.

ـ تبًّا! كم الساعة؟

تذكر الأمريكي مهمته ببطء، كما لو أنها ظهرت من ضباب دماغه المخدر.

ـ إنها السابعة تقريبًا. ستشرق الشمس في أقل من ساعة.

ـ اصطدمنا، أليس كذلك؟

ـ لا سيدي، لم نصطدم. أنت من اصطدم.

كان يستعيد وعيه ببطء. وضع يده على بطنه المصاب، على الرغم من أن ألمه كان خفيفًا في الوقت الحالي. كان يرتدي قميصًا بنيًّا نظيفًا، شعر من خلاله بالضمادات مشدودة بإحكام.

نظر إلى أسفل لسرواله الجديد وقال: «هل ألبستني؟».

نظرت جوستين بعيدًا صوب الحقل المظلم وقالت: «وجدت الملابس في حقيبة في السيارة، بعد الاصطدام».

سأل: «هل أُصبتِ؟».أجابت جوستين: «ليس بشدة. بعض الكدمات. كنا محظوظين. خرجتَ عن الطريق إلى مسار أبقار عبر السياج. لقد اصطدمنا بتلك الأشجار. السيارة عالقة، بعد الحطام أعطيتك القليل من الدواء وضمدتك وألبستك. بقينا هنا منذ ذلك الحين. قبل فترة وجيزة حلقت طائرة هليكوبتر بالأعلى. لقد أخافتني. اعتقدت أنهم ربما يبحثون عنا».

بدأ رأس جينتري ينتبه في هذه اللحظة، لقد استرد وعيه الآن.

ـ لن أصل في الموعد المحدد أبدًا.

ـ قلت لي إنه في الثامنة صباحًا، ما زال بوسعنا فعل ذلك قبل الموعد.

ـ كان يجب عليَّ أن أصل موقعي قبل شروق الشمس.

تنهد جينتري وزفر الهواء، ثم نهض فكان وقوفه أصعب مما توقع.

ـ ماذا أعطيتني؟

ـ أعطيتك بعض المسكنات، ووضعت ضمادات ضيقة للغاية حول خصرك لتخفيف الألم.

فحص جينتري الضمادات من فوق القميص وهو يتحدث: «جيد. أنا لا أشعر بالسوء».

ـ لن يدوم. سيعود الألم قريبًا. أنا لم أعطك المخدر الآخر، الديكستروستات، قرأت المكتوب على الزجاجة. إنه من الأمفيتامين شديدة القوة، إذا تناولت إحدى هذه الحبوب فسيرتفع ضغط دمك.

وإذا لم تكن الغرز مثالية فستنزف بشدة. وقد تنزف داخليًا كذلك. سيكون من الجنون أن تبتلع واحدة من تلك الحبوب.

ـلن أبتلع واحدة من تلك الحبوب، بل سأكسر ثلاثة منها، أفرغ المحتويات في كوب من القهوة الساخنة. فأحرر المادة الفعالة من الغلاف، وأحصل على كل التأثير فورًا.

قالت: «هذا انتحار! لستُ طبيبة، لكنني أعرف ما سيفعله هذا بجسمك».

قال جينتري: «سيساعدني هذا على البقاء يقظًا لمدة نصف ساعة أو نحو ذلك. إذا نزفت بعد ذلك، فلا بأس. أنا فقط يجب أن أنجز مهمتي أولًا».

حين بدأت في الاعتراض قاطعها قائلًا: «نحن بحاجة إلى وسيلة نقل جديدة. شيء محلي، شيء لن يلفت الانتباه».

هزت جوستين رأسها من الإحباط وقالت: «ثمة مزرعة هناك مباشرة. ربما يمكنك استعارة عربتهم».

نظر جينتري إلى السياج الذي أحاط بالمزرعة، على بعد خمس وسبعين ياردة. بالفعل كان هناك ضوء في النافذة. سيارة قديمة لونها أبيض، بأربعة أبواب، منخفضة ويتناثر حولها الطين والسماد، وتتوهج في ضوء النافذة. قال: «نعم، سأذهب لاستعارة سيارتهم». وصل ببطء إلى صندوق السيارة المرسيدس وأخذ مسدس جلوك الثاني، إذ فقد الأول في ممر باريس.

سحب الشريحة إلى الوراء شبرًا واحدًا دون أن ينظر، واستخدم طرف إصبعه ليتحقق من تعبئة المسدس.

وقال لها: «سأعود حالًا».

***

في الساعة الأخيرة قبل الفجر، تمركزت قوات ريجيل كافة في القصر في كل محطات القتال. إذ توقع أن يأتي الرجل الرمادي في التو، هذا

إذا جاء. قُسِّم المسلحون العشرة من مينسك إلى ثلاث مجموعات من فردين، يجرون دوريات في الحديقة والممر المؤدي إلى البوابة الرئيسية، ممسكين ببنادقهم الكلاشينكوف. واثنان آخران في الطابق الأول من القصر؛ أحدهما يراقب من نافذة بالسيارة والآخر من نافذة باتجاه الحديقة الخلفية.

كان آخر اثنين من البيلاروسيين أعلى برج القصر؛ قناص واحد ببندقية دراجونوف، إنه الرجل نفسه والسلاح اللذان أنهيا حياة فيليب فيتزروي. وحارسٍ يضع بندقية **(15AR)** على ظهره، بينما ينظر في كل الاتجاهات ليلًا بالمنظار.

بالإضافة إلى البيلاروسيين العشرة، كان هناك رجال لويد الثلاثة من لندن، والأيرلندي الشمالي والأسكتلندي. يرقد الأيرلندي الشمالي الآخر الآن مهملًا في الطابق السفلي بجوار جثة فيليب. وهناك اثنان في المطبخ بأجهزة راديو في آذانهما وبنادق رشاشة معلقة في رقبتيهما، وينتظران احتياطيًّا أن يرسلهما ريجيل نفسه إلى أي مكان يظهر فيه الرجل الرمادي.

والثالث ماكسبادن، كان في القاعة خارج غرفة نوم الطابق الثاني، يحرس عائلة فيتزروي.

هناك أيضًا مهندسان فرنسيان في مكتبة الطابق الأول، يراقبان شاشات كاميرا الأشعة تحت الحمراء المثبتة حول الفناء. كلاهما جندي مشاة سابق في الأربعينيات من عمره. ثبتا مسدسات على أرجلهما، وهما ممن يجيدون استخدامها.

أخيرًا كان هناك الفني ولويد وريجيل وفيلكسٍ، في غرفة التحكم. كان ريجيل الوحيد بين الأربعة الذي يُعدُّ مقاتلًا حقيقيًّا. إذ يضع مسدسه في حافظة كتف تحت سترته الجلدية، وسواء مثَّل خطرًا على الآخرين أم لا، كان لويد مسلحًا بمسدسه الآلي الصغير، بينما يضع رشاش الأوزي المعبأ دائمًا على مكتب الكمبيوتر الخاص بالفني،

بالرغم من أن البريطاني ذا ذيل الحصان لم يقترب يومًا من سلاح معبأ.

جعل هذا الأفضلية لتسعة عشر مدافعًا مقابل مهاجم واحد، لكن هذا فقط الخط الداخلي للتغطية حول القصر. كان عملاء جهاز الأمن في الجماهيرية الليبية الأربعة على اتصال لا سلكي مستمر بالفني، على بعد عشرة كيلو مترات في بايو. رأوا أن الطريق من المدينة إلى القصر ومحطة القطار التي أوشك افتتاحها، أقرب الطرق إلى باريس.

حلقت طائرة يوروكوبتر السوداء الأنيقة بالتدريج على ارتفاعات عالية، وعلى متنها خمسة سعوديين. أطلت المروحية على الطرق السفلية من كاين إلى الشرق بطول الساحل إلى الشمال، تحسبًا لظهور الرجل الرمادي بطريقة سحرية على شاطئ نورماندي من أجل إعادة تنفيذ عملية نورماندي[1] برجل واحد.

قام الكازاخيون الأربعة القادمون من باريس بدوريات في سيارة ستروين زرقاء صغيرة، وكانت بنادقهم الكلاشينكوف في أحضانهم مطوية الكعوب. قادوا سيارتهم عبر الريف، وتوقفوا وراء أول سائقي النهار، وفحصوا لوحات سياراتهم، وسلطوا أضواء ساطعة في السيارات ليتفرسوا في ملامح ركاب السيارة.

لم يستخدم الكازاخيون أجهزة الراديو الخاصة بهم. نعم استمعوا إلى اتصال الفني مع الفرق الأخرى، لكنهم لم يقروا قط أو يستجيبوا لطلبات الفني لهم بأن يؤكدوا وصولهم. لقد كانوا هناك لقتل الرجل الرمادي وكسب المال والعودة إلى ديارهم. ما كانوا ليتواصلوا مع الرجال في القصر إلا عندما يلقون جثة جينتري أمام البوابة الأمامية ويطالبون بأموالهم.

---

(1) المعركة التي مهدت لانتصار الحلفاء على الألمان في الحرب العالمية الثانية.

أشرف ريجيل على العملية كلها من غرفة التحكم في الطابق الثالث، سيكون هو أول من يعترف بأنها لم تكن معركة عادلة، أكثر من ثلاثين رجلًا مسلحًا ضد خصم مصاب بجروح مروعة، ومعه أقل الإمكانات، ولم يحصل سوى على القليل من النوم. لكن ريجيل كان صيادًا، فلم يألف المعارك العادلة.

32

أشرق وهج الصباح الباكر قبالة القناة الإنجليزية، ولامست درجات ألوان الصباح الأولى كتفي جوستين، بينما تقود السيارة البيضاء القذرة ذات الأبواب الأربعة غربًا على الطريق الساحلي. التزمت بالسرعة المحددة، وقرأت اللافتات بعناية.

كان مقعد الراكب ومقعدها الخلفي فارغين باستثناء عدة حقائب مصنوعة من الألومنيوم. قادت بمفردها وانعطفت يسارًا إلى قرية لونج سومير الساحلية، ولم تسرع أو تبطئ عندما انقضت طائرة هليكوبتر سوداء على مسافة بضع مئات من الأقدام فوقها. دارت مرة ثم الثانية ثم الثالثة قبل أن تختفي عن نظرها متجهة إلى الجنوب الغربي.

خلا لها الطريق كله لفترة من الوقت، ولكن بعد وقت قصير من اختفاء المروحية، انطلقت خلفها سيارة سيتروين زرقاء من ممر مليء بالحصى إلى يسارها، يتصاعد الغبار والعادم من خلفها. ألقت نظرة خاطفة على منظرها الخلفي، ولم تر سوى المصابيح الأمامية الساطعة. ظلت على مقربة وراءها لبضع مئات من الأمتار، ثم تقدمت بجوارها.

أمسكت جوستين بعمود التوجيه الرفيع بشدة حتى اعتقدت أنه سينخلع في يدها، عندها أضاء شعاع كشاف يدوي داخل سيارتها ليرصد المقعد الخلفي، ثم انطفأ، وابتعدت عنها السيارة السيتروين. كانت على يقين من أنها ستشاهد أضواء المكابح تضيء لتُجبَر على التوقف. لكن السيارة انطلقت، واختفت المصابيح الخلفية أمامها في الضباب بعد دقيقة أخرى.

بعدما توجهت جنوبًا لبضعة كيلو مترات، نظرت إلى الخريطة في حجرها، ولاحظت علامات القلم الرصاص التي وضعها لها جيم هناك.

انعطفت يسارًا بعد أن أطفأت أضواءها. كان الطريق الضيق مستقيمًا. امتدت أسيجة شجرية عالية على كلا الجانبين. بعد ثلاث دقائق من القيادة عبر الظلام، امتد الطريق جنوبًا، لكنها أبطأت وصدمت السيارة الصغيرة بالرصيف، وأسرعت بما يكفي لتصل بالسيارة إلى الغابة العميقة.

ارتفع جدار حجري كبير من الأرض على الجانب الآخر من الغابة مسافة ثلاثة أمتار. ملأ الزجاج الأمامي وبدا وكأنه يصل إلى السماء اللانهائية. لقد صدمت المصد الأمامي للسيارة به، وأوقفت تشغيل المحرك.

كان الظلام دامسًا بسبب الأشجار العالية على جانبي الطريق الضيق. قفزت بسرعة من مقعد السائق، وحرصت ألا تغلق الباب خلفها. طرقت أربع مرات ببطء على الصندوق الخلفي للسيارة الفيات، في إشارة متفق عليها مسبقًا إلى أن كل شيء على ما يرام.

بعد لحظة، رفعت غطاء صندوق السيارة. نظر إليها جيم المحشور في الداخل، وكوب قهوة فارغ بجانبه وبندقية سوداء بين ذراعيه.

سأل وهو يقفز إلى الخارج ببطء: «لا مشكلات؟». استطاعت أن ترى على وجهه ألم تأثير الحركة في إصاباته. ترك البندقية في صندوق السيارة، ومشى حولها إلى الجانب، وتمدد بعد أن عانى ضيق مساحة صندوق السيارة.

قالت جوستين وهي تقف خلف السيارة على الطريق: «هناك رجال في الجوار، هناك سيارة وطائرة هليكوبتر، أنا واثقة أن هناك المزيد داخل المبنى. لا بُدَّ أنهم يعتقدون أنك رجل خطير للغاية حتى يكلفوا كل هؤلاء الناس بانتظارك».

دفع الأمريكي الشجيرات الطويلة على جانب باب الراكب ليفتحه ويصل إلى المقعد الخلفي وهو يقول: «سمعتي مبالغ فيها».

ـ ماذا؟

ـ لا تهتمي. أود أن أشكرك على كل ما فعلتِه. تستحقين كل سنت من هذا المال. لم أكن لأفعل هذا من دونك.

ابتسمت جوستين في الإضاءة الخافتة وقالت: «لم تفعل أي شيء بعد حقًّا، يا جيم».

قال: «هذه إشارة سديدة».

سألت: «كيف حالك الآن؟».

أجابها جينتري: «كما لو أنني ابتلعت جرعة ثلاثية من منشط مع إسبريسو مضاعف. غرزك تثبت جيدًا».

دون سابق إنذار، انطلقت المصابيح الأمامية لسيارة في جسد جوستين. التفتت لتنظر إلى الضوء، ثم عادت بسرعة للنظر إلى جيم في حيرة، لكنه كان قد رحل.

بعد ثوانٍ، توقفت السيتروين الزرقاء خلفها، وخرج منها أربعة رجال بسرعة.

وقفت جوستين في الضوء الساطع، ورفعت يدها لتحمي عينيها. غمرها الضوء الساطع حتى شعرت أنها عارية. تحرك الرجال الأربعة أمام الأضواء فكانوا ظلالًا، رأت ملامح البنادق الطويلة بين أذرع الرجال.

صاح فيها أحدهم، لكنها لم تفهم، وعجزت عن الكلام. بدلًا من ذلك التفتت يمينًا ويسارًا، في ظلام الفجر الذي خيم على المكان.

أيقنت أنه بعيد عن أعمدة الضوء، وفي مكان آمن، هرب جيم وتحرر من الرجال الذين وقفوا أمامها. لا بُدَّ أنه شق طريقه فوق الجدار الحجري. لقد تركها هنا لتبرر وجود صناديق المعدات في السيارة، وتتوصل إلى سبب معقول لوجودها هنا الآن.

كاد قلبها ينفجر رعبًا داخل صدرها.

قالت للظلال الأربعة بصوتها الرقيق الأقرب إلى الأنين: «صباح الخير[1]».

اقتربوا منها في خطوة واحدة، مصوبين بنادقهم إلى الأمام.

خمسة عشر مترًا، عشرة أمتار، تقاربت الظلال وهم يحاصرونها.

ثم تحركت الظلال الثابتة إلى الأمام فجأة، ظل سريع من اليسار انحرف نحو الحركة، وارتفع معه مسدس طويل، ثم صرخة مفاجأة من الأشباح أمامها حين تكومت أمامهم هيئة طويلة اتخذت شكل كرة.

رجعت إلى الوراء بسرعة واصطدمت بصندوق السيارة بينما تشاهد حركة رقص الضوء والظلام أمامها. استطاعت أن تميز عبر الفوضى في الطريق أمامها ملامح الذراعين والساقين حيث تمطر اللكمات والركلات، وتدور البنادق في الهواء وترتطم بالحصى المغبر وسط الصياح وشق اللحم وارتطام العظام.

سقطت الهيئة الثانية دون حراك تحت إضاءة المصابيح الأمامية. رأت أنه ليس جيم. مزيد من التقارب للظلال في سحابة الغبار الصاعدة، وهيئة رجل مظلمة يمسك برأس ورقبة شخص آخر من الخلف ويدور، ثم يرفع الظل من الرصيف، ثم سمعت جوستين طقطقة عنق بينما تحطمت فقرات عنق بالتواء شديد.

شاهدت جوستين معارك بالأيدي في برامج الحركة التلفزيونية. لكن هذا لم يشبه ما رأت، كانت الحركات أسرع وأكثر وحشية وقسوة. لم يكن هناك مشاعر أو رقة فيما بين الخصوم، لا لقد كان اصطدام صلب بصلب، وردود أفعال ارتجاجية، ووحوش برية تصرخ وتنخر، وصعوبة التنفس من الإجهاد والذعر. أصوات الصدمات وهيجان

(1) بالفرنسية في الأصل.

القتال بلا رحمة، كانت واثقة بأن جميع الرجال سيُمزق بعضهم بعضًا في الشارع أمامها.

سقط ثلاثة رجال، وهرب رابع من بين أعمدة الضوء ليحضر بندقية سقطت وانزلقت بعيدًا عن القتال. رأت جوستين جيم وهو يلاحق رجلًا آخر في الشارع المغبر ويطرحه أرضًا. تعارك الاثنان، وسقط جيم على ظهره في الطريق البارد. استدارت المرأة الفرنسية بسرعة إلى صندوق السيارة لرفع البندقية التي تركها الأمريكي هناك، رغم أنها تجهل تمامًا كيفية تشغيلها حتى تستخدمها. عندما التفتت بعيدًا عن القتال، سمعت صرخة ألم رهيبة. رفعت البندقية الكبيرة واستدارت لتجد جيم على ركبتيه بينما يتدحرج الرجل الرابع بعيدًا عنه ويداه فوق عينيه.

نهض جيم مرة أخرى وفي يده مسدس طويل اقترب به من رأسه، راقبت جوستين جيم وهو يضرب الرجل المتألم بكعب المسدس مرة تلو الأخرى، مثل فأس تقطع الخشب، سقطت الضربات على ظهر الرجل المكافح. يداه مرفوعتان للدفاع عن نفسه، لكن كعب المسدس يشق طريقه إلى عينيه اللتين مُلئتا رعبًا.

احتقنت عيناه بالدماء وانكسر فكه وفُتح بشكل مقزز. لا بد أنه تلقى عشرات الضربات القاسية على رأسه المحطم حتى يبقى على ظهره في الطريق البارد، ولم تستطع جوستين أن تنظر بعيدًا.

عندما انتهى كل شيء، أنزلت الفرنسية مصدات السيارة أرضًا ببطء، وضعت البندقية أمامها، وارتجفت يداها الفارغتان وهي تغطي وجهها وتبكي.

***

لهث كورت إذ يُبعد الجثث الأربع عن الطريق، وسمع طائرة هليكوبتر بالأعلى في ضوء الصباح. كان على المروحية أن تحلق فوقه مباشرة لتحديد موقعه، بسبب السياج على كلا الجانبين والجدار العالي

المحيط بقصر لوران. لكن جينتري كان يعلم أن كل ثانية يبقى فيها مكشوفًا على الطريق الترابي كانت مخاطرة.

هَمَّ بالبحث في صندوق السيارة عن أي معدات يمكنه استخدامها. وجد على الفور أربع مجموعات من الدروع الواقية للبدن من المستوى **(A3)**. كل ذلك بلا قيمة أمام رصاص البنادق، لكنها فعالة في إيقاف نيران المسدس. سرعان ما دفع رأسه من خلال سترة، ولف الألواح الجانبية بإحكام حول خصره. وفي الخلف كانت هناك واقيات ركبة صلبة ووسادات للمرفق، ارتدى كل هذا أيضًا، واعتقد أن خدشًا في المرفق سيكون أقل مخاوفه وطأة في الدقائق القليلة القادمة، لكن لم يكن هناك أي معنى لترك أقل المعدات الواقية وراءه.

جلس في مقعد السائق في السيارة السيتروين الصغيرة، ودفعها نحو شجرة سميكة محاولًا إخفاءها. نظر إلى أسفل، وأدرك أن بعض الغرز التي استخدمتها جوستين لخياطة جُرح معدته قد انقطعت، إن لم تكن كلها. نزف جرح السكين ونزفت ضماداته وقميصه تحت السترة الواقية من الرصاص. سالت الدماء من بطنه وأسفل سرواله، وعلى مقعد السيارة فصاح: «تبًّا!». لقد كان وقته ينفد مرة أخرى.

بعد أن أخفى الجثث والسيارة وألقى بنادق الكلاشنكوف في الأدغال، ذهب إلى جوستين، التي كانت لا تزال جاثية بجوار السيارة. مسحت الدموع وخيوط الشعر الأشعث من عينيها، ووقفت ببطء على قدميها.

نظرت نحو الجثث المخبأة في الأدغال بإهمال، فتباعدت الذراعان والساقان تباعدًا غير طبيعي. وقالت: «كانوا أشرارًا، صحيح؟».

أجابها جينتري: «أشرار للغاية. كان عليَّ أن أفعل ذلك، والآن عليَّ أن أعبر هذا الجدار وأفعل الكثير من ذلك».

لم تستجب جوستين.

بدأ كورت يفتح علب الألومنيوم، وربط حزام الأدوات بإحكام حول خصره معلقًا جراب المسدس حول فخذه الأيمن، وحاملة الخزائن الإضافية حول فخذه اليسرى.

وقال: «نفد الوقت. عليَّ أن أذهب». علّق البندقية القصيرة حول رقبته وذراعه اليسرى وربط الرشاش الصغير (MP5) في سترة العدة التي أخذها من السيارة السيتروين الزرقاء لتتدلى فوهته إلى الأسفل. أدخل مسدس جلوك عيار 19 في جراب فخذه، وربط قنبلتين يدويتين في مكانهما على السترة، ثم أخذ هاتف القمر الصناعي من المقعد الأمامي للسيارة ووضعه في جيبه الخلفي.

في أقل من ثلاث دقائق كان جاهزًا. عاد إلى جوستين التي وقفت خلفه في صمت، فما زالت تنظر إلى الأرجل المكشوفة للجثث الأربع الممزقة. وقال: «سأحتاج إلى استخدام غطاء السيارة لتسلق السياج. ما إن ألقي نظرة على الجزء العلوي، أريدك أن ترجعي إلى الخلف، وتستديري وتعودي بالسيارة إلى الساحل، ثم تتجهين غربًا لا شرقًا. وأوقفي السيارة عند أقرب محطة قطار، واستقلي أول قطار صباحي إلى باريس، ثم عودي إلى المنزل. شكرًا لك مرة أخرى على كل ما فعلتِه من أجلي».

كانت نظرات جوستين شاردة. علم جينتري أن قتل الرجال الأربعة في قتال مباشر أمامها قد هزَّها بشدة. فكر أن هذا من المفترض أن يزعج أي شخص، على الأقل أي شخص عادي لا يعيش الحياة التي يعيشها هو.

سأل بلطف: «هل ستكونين بخير؟».سألت وعيناها ما زالتا شاردتين من أثر القتال: «هل أنت رجل سيئ يا جيم؟».

وضع يده على ذراعها، وأمسكها برفق وإن لم يبدُ لها هذا مريحًا. قال: «لا أعتقد ذلك. لقد تعلمت بعض الأشياء السيئة. أفعل بعض.. بعض الأشياء السيئة، لكن للأشرار وحسب».

قالت: «أجل». بدتٍ كأنها استرخت قليلًا. «أجل». نظرت إليه ثم قالت: «أتمنى لك حظًا سعيدًا».

قال: «ربما، عندما أنتهي من هذا، يمكننا التحدث ـــــــــــ».

قاطعته قائلة: «لا». وأشاحت بنظرها. وأكملت: «لا. من الأفضل أن أنسى ذلك».

قال لها: «أفهم».

عانقته لفترة وجيزة، ولكن بدا لجينتري أنها تشعر بالحيرة، كما لو أنها تعامله الآن كحيوان بعد عرضه الوحشي للعنف.

من الواضح أنها أرادت فقط أن تبتعد عنه وعن كل هذا الجنون.

صعدت إلى مقعد السائق في السيارة بدون كلمة أخرى، بينما تسلق هو غطاء المحرك. منحته المسكنات التي أعطته إياها في أثناء نومه بعض الراحة. ومع ذلك، كان تسلق الجدار معاناة شديدة لرجل مصاب بمثل هذا الجرح الحاد في بطنه، فضلًا عن معصمه وساقه وقفصه الصدري.

انزلق جينتري فوق الجزء العلوي من الجدار الحجري، وأنزل قدميه إلى أسفل ليسقط على العشب الناعم، وسمع السيارة السيدان الصغيرة تنسحب بعيدًا وتنعطف إلى الطريق. نظر كورت في ساعته، كانت السابعة وأربعين دقيقة صباحًا. حجب الضباب الكثيف القصر تمامًا. كل ما كان يراه هو بداية بستان تفاح أمامه. فرشت الأرض بفاكهة حمراء زاهية تحت صفوف لا نهاية لها من الأشجار الصغيرة ذات الجذوع الضيقة.

تفقد كورت معداته للمرة الأخيرة، وأخذ نفسًا عميقًا للسيطرة على آلامه وأوجاعه، وراح يركض عبر البستان في الضباب الرمادي الكثيف.

33

قال ريجيل: «أغلقوها».

امتثل الفرنسيان اللذان كانا يحدقان إلى صف الشاشات في المكتبة لمدة اثنتي عشرة ساعة متواصلة لما قيل لهما. بدآ في تقليب المفاتيح من اليسار إلى اليمين، وإيقاف تشغيل الصور من كاميرات الأشعة تحت الحمراء حول القصر.

ظهر لويد خلفهم جميعًا عند باب المكتبة وسأل: «ماذا تفعل؟».

أجاب ريجيل: «كاميرات الأشعة تحت الحمراء تعمل في الليل يا لويد. لقد انتهى الليل».

ـ قلت إنه سيأتي في الليل.

ـ نعم فعلت.

ـ لكنه ما زال سيأتي، أليس كذلك؟

أجاب ريجيل الصياد: «لا يبدو الأمر كذلك». وصوته مشوب بالارتباك والغم.

سأل لويد: «لدينا خمس عشرة دقيقة للحصول على جثة لفيليكس. ماذا سنفعل بحق الجحيم؟».

التفت ريجيل إلى الأمريكي الأصغر وقال: «لدينا مروحية فوقنا، وأكثر من مائة رجل وامرأة يبحثون عنه. لدينا ثلاثون بندقية هنا في القصر، في انتظاره. لقد أطلقنا النار عليه، طعناه، أرسلناه إلى سفح جبل من أعلى الجسر. لقد قتلنا أصدقاءه، وجعلناه ينزف حتى جَفَّ. ماذا يمكن أن نفعل غير ذلك؟». حينها فقط صدر صوت الفني عبر خاصية الاتصال اللاسلكي من هاتفي الرجلين.

قال الفني: «لدينا مشكلتان».

سأل ريجيل: «ما هما؟». أجاب الفني: «لقد خرج البوليفيون من المنافسة. اتصلوا للتو من باريس ليخبرونا أنهم استقالوا».

رد لويد قائلًا: «يا للمصيبة!».

وأتبع الفني: «والكازاخيون لا يسجلون وصولهم».

رفع ريجيل هاتفه عن حزامه. «إنهم لا يسجلون الوصول مُطلقًا».

قال الفني: «لا يمكننا العثور على مروحية السعوديين على الطريق».

تحدث لويد عبر هاتفه الآن: «كنا سنسمع طلقات نارية لو كانوا في معركة مع الرجل الرمادي. لا تقلق بشأن ذلك. ربما هرب الأوغاد مثل البوليفيين».

سار لويد وريجيل عائدين إلى الطابق الثالث. كان كلا الرجلين متعبًا بشدة، لكن لن يسمح أي منهما للآخر برؤية أي علامة ضعف. وبدلًا من ذلك، تجادلا حول ما كان يمكن فعله بطريقة مختلفة، وما الإجراءات التي لا يزال من الممكن اتخاذها في اللحظة الأخيرة.

دخلا غرفة التحكم، ولاحظا على الفور أن فيليكس يقف بالقرب من النافذة، وهاتفه المحمول على أذنه. بعد ثوانٍ، أنهى الرجل الأسود النحيل الذي يرتدي البذلة مكالمته، واستدار ليواجه الغرفة. لم ينطق بكلمة واحدة منذ ساعات. ثم قال: «أيها السادة، يؤسفني أن أقول إن وقتكم قد انتهى».

اندفع لويد نحوه بنظراتٍ منفعلة.

ـ لا! لدينا عشر دقائق. عليك أن تمنحنا المزيد من الوقت. رأيته يسقط في الماء. لقد قتلناه. نحن فقط بحاجة إلى وقت للعثور على أي خندق زحف إليه ليموت. أخبر أبا بكر أنك رأيته يسقط.

ـ كانت تعليماتك أن تحصل على جثة، لقد فشلت في هذا التعهد. وأبلغت رئيسي بهذا. أنا آسف. إنه واجبي، أنت تفهم.

ارتخت كتفا ريجيل العريضتان، ونظر بعيدًا. لم يصدق أن الرجل الرمادي، إذا كان على قيد الحياة، لم يأتِ لإنقاذ الطفلتين.

قال لويد: «سيصل في أي ثانية. لا يجبَ أن يوقّع أبو بكر على العقد حتى يغادر منصبه في غضون ساعة أخرى».

قال فيليكس: «إنها الآن نقطة خلافية. لقد أبلغت الرئيس عن تقدمك. أو بالأحرى، عدم إحرازك لأي تقدم. لقد وقع عقد منافسك في أثناء مكالمتنا، تلقيت تعليمات بالعودة إلى باريس في انتظار المزيد من التعليمات».

أومأ ريجيل برأسه ببطء وقال لفيليكس: «يمكنك العودة مع المهندسين الفرنسيين. سيغادران إلى باريس في غضون ساعة».

بادله فيليكس إيماءة تقدير وقال: «أنا آسف أن هذه المهمة لم تنجح معك. أنا أقدر مهارتك، وآمل أن تلتقي مصالحنا مرة أخرى ذات يوم».

انحنى الألماني والنيجيري لبعضهما بعضًا. تجاهل فيليكس الأمريكي، وترك الغرفة استعدادًا للمغادرة.

نظر ريجيل إلى الفني وقال: «أبلغ الفرق أن المهمة انتهت، لقد فشلوا. دعهم يعرفون أنني سأتصل برؤساء وكالاتهم بعد ظهر اليوم لأقدم لهم نوعًا من الـ.. مواساة».

نفذ الفني ما قيل له. أغلق الشاشات أمامه، نزع سماعات رأسه ووضعها على المنضدة ببطء، وتخللت أصابعه شعره الطويل.

جلس باقي الرجال الثلاثة في غرفة التحكم بمفردهم شاردين لبضع دقائق. سطع ضوء الصباح عبر النافذة، بدا كأنه يزحف على الأرض تجاههم، ويسخر من فشلهم. كان عليهم أن يحصلوا على رجلهم مع شروق الشمس، في حين يسخر شروق الشمس منهم الآن.

نظر لويد إلى ساعته وقال: «إنها الثامنة وخمس دقائق الآن. لا داعي للمماطلة بعد الآن».

كان كيرت ريجيل ينظر إلى قاع فنجان قهوته، منهكًا. سأل بشرود: «المماطلة في ماذا؟».

قال لويد: «الالتزامات في الطابق الثاني».

انتبه ريجيل وقال: «تقصد السير دونالد. سأتولى الأمر. أنت ستستغرق اليوم كله».

هز لويد رأسه وقال: «ليس دون فقط، كلهم، الأربعة».

نهض ريجيل من كرسيه وقال: «عم تتحدث؟ تريد قتل المرأة؟ الطفلتين؟».

ـ أخبرت جينتري أنه إذا لم يظهر فسوف يموتون، وهو لم يظهر. لا تبدُ متفاجئًا هكذا بحق الله.

ـ لم يظهر؟ هذا يعني أنه ميت. لماذا تعاقب ميتًا أيها الأحمق؟

ـ كان يجب أن يبذل جهدًا أكبر.

سحب لويد مسدسه الآلي فضي اللون من وركه وتركه يتدلى من يده.

ـ أفسح الطريق يا ريجيل. لا تزال عمليتي.

ـ ليس بعد الآن.

كان ثمة تهديد في صوت الألماني الكبير.

قال لويد: «مهما يكن الأمر، لا يزال لديّ عمل لأقوم به، ولا يمكنك منعي. يمكنك أن تنافق تلك العائلة، لكنك تعلم أن بوسعهم التعرف إلينا، وتحديد هذا المكان. يجب أن يموتوا».

تخطى ريجيل ودخل الرواق. رن هاتف سير دونالد فيتزروي على مكتب الفني. سرعان ما ظهر لويد في المدخل، وجلس الفني الشاب على الفور واضعًا سماعاته فوق أذنيه، وعاد فيليكس إلى الغرفة من باب الفضول، حقيبته الدبلوماسية في يده وعلى ذراعه معطفه الواقي من المطر ذو اللون الجملي.

أوصل الفني المكالمة بمكبرات الصوت العلوية. قال لويد: «أجل؟».

ـ صباح الخير يا لويد. كيف الأحوال؟

***

ـ فات الأوان يا كورت، لقد خسرنا العقد، مما يعني أنك فشلت. لست بحاجة إلى نفوذ فيتزروي بعد الآن. كنت متجهًا إلى الطابق السفلي لإطلاق بعض الرصاص عليهم. هل تريد الاستماع؟

ـ أنت بحاجة إليهم أحياء أكثر من أي وقت مضى.

ابتسم لويد. «أوه حقًّا، ولماذا؟».

ـ تأمينًا لحياتك.

ـ نعم.. كورت، شاهدتك تسقط من فوق ذلك الجسر الليلة الماضية. أنا لا أعرف أين أنت بحق الجحيم، لكنك لست في وضع يسمح لك بـ....

ـ انسوا العقد مع أبي بكر، لا تقلق بشأن طرد رئيسك إياك من العمل، وانسَ احتمال ظهور أتباع ريجيل عند بابك ذات ليلة باردة. تجاهل كل مشكلاتك المستقبلية في الوقت الحالي، الخطر الوحيد في عالمك هو أنا.

ـ كيف تكون خطرًا على...

ـ لأنني مدجج بالسلاح، وغاضب بشدة، وأقف بالخارج.

دبَّت نوبة نشاط صامتة في غرفة التحكم. انتقل ريجيل إلى النافذة بسرعة، ودفع ستائر الدانتيل جانبًا بأطراف أصابعه، ودقق النظر في الضباب الكثيف الذي غطى الحديقة الخلفية. ترنح الفني عبر المكتب إلى جهاز الراديو المحمول الخاص به وبدأ يهمس بالأخبار للحراس في ذعر. أخرج فيليكس هاتفه المحمول واندفع نحو الردهة، وهو يضغط على الأزرار بينما يتحرك.

وحده لويد لم يجفل. وقف كما لو أن قدميه عالقتان في الأرض. وقال: «أنت مخادع. هل تتوقع أن أسمح لأسرة فيتزروي بالرحيل فقط لأنك تقول إنك بالخارج؟ أي نوع من الحمقى تحسبني؟».

أجاب جينتري: «أحمق منتهي الصلاحية. وأفترض أن حاصد الأرواح في مجموعة لوران يستمع إليَّ. ريجيل، الأمر نفسه ينطبق عليك. إن مسست شعرة من رأسي الطفلتين أو السيدة فيتزروي، فستموت في هذا المنزل».

تحدث ريجيل: «صباح الخير سيد جينتري. إذا كنت في الخارج، فلماذا لا تأتي إلى الباب الأمامي؟ فُقِد عقد لاجوس. لقد تلاشى حافزنا لقتلك. لقد ألغينا للتو فرق القتل. انتهت اللعبة. إذا كنت هنا حقًّا، فلِم لا نذهب لاحتساء القهوة؟».

قال جينتري: «إذا كنت تشك أني قريب فربما يجب أن تحاول التحقق من الرجال الأربعة ذوي الرائحة الكريهة في السيارة السيتروين الزرقاء».

كانت هذه مفاجأة، لم يعرف ريجيل السيارة التي قادها الكازاخيون، لكن الفني المتلهف عاود الاتصال بهم. وعندما فعل ولم يتلقَّ أي رد، نظر إلى رؤسائه برعب. أخيرًا قال ريجيل: «هذا مثير للدهشة. لا يزال بمقدور رجل في وضعك القضاء على أربعة عملاء من الدرجة الأولى دون إطلاق رصاصة. كما قلت، لم يعد لدينا خلاف معك بعد الآن. من فضلك تعال وسـ...».

قال جينتري: «أطلقوا سراح أسرة فيتزروي وسلموا ملفات إدارة الأنشطة الخاصة، وإلا أقسم أنني سأقتل كل شيء حي في ذلك المنزل!».

كان لويد هادئًا، ويداه على ساقيه وقد شمّر كُمَّيه المتعرقين إلى مرفقيه. لكنه تحرك الآن. اندفع عبر الغرفة إلى مكتب الفني، وانحنى إلى ميكروفون الهاتف المحمول وقال: «فلتأتِ أيها الأعرج القذر، في غضون ذلك سآخذ شفرة حادة لأذهب بها إلى الكلبتين الصغيرتين السخيفتين في الطابق السفلي...».

سحب ريجيل المحامي الأمريكي بعيدًا عن الهاتف ودفعه بقوة في الحائط الحجري. انحنى بنفسه وتنحنح قائلًا: «نعم كورت، هل تسمح لنا بلحظات لمناقشة اقتراحك؟ أنت تعرف كيف هي الشركات، يجب أن ندعو إلى اجتماع لمناقشة كل شيء».

أجاب جينتري: «بالتأكيد يا ريجيل، سأعود بعد قليل. خذ وقتك، لا داعي للاستعجال».

وانقطع الاتصال.

***

صاح لويد في الفني: «أحضِر جميع الفرق هنا، الآن!».

رفع ريجيل يده ليُبقي الفني مكانه. عندما تحدث، كان صوته أكثر منطقية: «لأي غرض يا لويد؟ لم يعد العقد على المحك بعد الآن. انتهت اللعبة».

ـ لكن ما زال لدينا الرجل الرمادي!ـ هذه مشكلتنا، وليست مشكلة مجموعة لوران. لن ينفق مارك لوران سنتًا واحدًا على فرق القتل الأجنبية لحمايتنا. لا يوجد أكثر من عشرين مليون دولار مكافأة يتعين دفعها.

من الواضح أن لويد لم يفكر في هذا. هز كتفيه. وقال: «لا يجب أن نخبر القتلة بذلك».

هز ريجيل رأسه وقال: «لذا بدلًا من محاربة رجل جريح الآن، تريد أن تزعج مارك لوران وأجهزة أمن ست دول، وتحارب مؤسستنا وست دول لاحقًا؟ أعلم أنك مجنون يا لويد، تيقنتُ من هذا، لكن هل أنت انتحاري أيضًا؟».

كان الفني ينظر إلى مديريه في انتظار التعليمات. ثم أمال رأسه إلى جانبًا ووضع يده على سماعة الرأس.

وقال: «مهلًا! كل الفرق قادمة إلى هنا على أي حال!».

قال لويد سعيدًا بتسوية الأمر: «جيد».

سأل ريجيل: «لماذا؟».قال الفني: «اتصل بهم فيليكس. إنه يعرض عشرين مليون دولار نقدًا من أبي بكر للفريق الذي يقتل الرجل الرمادي».

صاح لويد: «رائع! متى يبدؤون...».

قال الفني: «ليس رائعًا! لقد أخبرهم أن يقتلوا أي شخص يعترض طريقهم. بما في ذلك الفرق الأخرى! بما في ذلك نحن. سيقاتلون بعضهم البعض من أجل رأس جينتري هنا في القصر!».

لم يتردد كيرت ريجيل: «اسحب كل حراس مينسك إلى داخل المبنى! ألبرت سيرج وألن، والحراس البريطانيين الثلاثة. يجب أن ندافع عن هذه الجدران ضد كل التهديدات! الرجل الرمادي أو فرق القتل».

نظر الفني إلى ريجيل وقال: «سيصل الليبيون إلى هنا خلال لحظات! والسعوديون فوق رؤوسنا الآن!».

نظر ريجيل من النافذة للمرة الأخيرة وصاح: «اتصل بمجموعة لوران في باريس، فليأتوا بمروحية الإخلاء لإخراجنا من هنا! ثم شكِل فرق القتل، وأخبرهم أنه لا يزال بإمكاننا العمل معًا. قل لهم كورت بالخارج. أخبرهم أننا لن نسمح لأي شخص بالدخول إلى القلعة. يجب أن يقتلوه قبل أن يدخل».

دار الفني في كرسيه وأجرى اتصالًا بالمقر الرئيسي.

***

لم يكن لدى جينتري أي نية للاتصال بريجيل مرة أخرى. أمام كل ثانية أجَّل فيها هجومه على القصر هناك ثانية أخرى يمكن للمدافعين أن يجهزوا فيها أنفسهم، ويبحثوا عنه، ويحضروا المزيد من التعزيزات. وقد حان الوقت لقتل الفتاتين.

لا، كان عليه أن يتحرك الآن. كانت الأرض قد غمرها ضوء الصباح وهو يرقد في بستان التفاح في الجزء الخلفي من المنزل. بصعوبة

يمكنه أن يميّز حدود البناء الكبير الذي يلوح أمامه على ارتفاع في الضباب الرمادي. لقد قطع ربع ميل منذ سقط فوق الحائط، وكان لا يزال على بعد مائتي ياردة فقط من قصر لوران.

المساحة المكشوفة أمامه هي مصدر قلقه الأكبر. ما إن يتحرر من تغطية صفوف الأشجار والضباب الكثيف العالق في الهواء، سيكون مكشوفًا تمامًا. كما حلقت طائرة هليكوبتر في حلقات عالية في الجو. لم يستطع رؤيتها، لكن المروحة الخفَّاقة أعلنت وجودها فوق العقار.

سيكون هذا صعبًا بما يكفي حتى لو لم تكن إصاباته كثيرة، ولكن بغض النظر عن ظروفه الشخصية السيئة، كان يعلم أنه لا وقت ليضيعه. نهض كورت على واقيات ركبتيه، ثم انحنى ببطء. شعر بالدم على ساقه اليسرى، وعرف أنه كان يتدفق مرة أخرى من جرح السكين. جرعة المنشط التي أدخلها في مجرىٍ دمه ستزيد فقد الدم فقدانًا كبيرًا.

قال بصوت عالٍ: «تبًّا!». فكَّ رشاش (M4) وثبته بين ذراعيه. ثم نهض وركض إلىٍ الأمام بكل ما تبقى لديه من قوة.

ما إن نبه الفني الطوق الأمني حول القصر بأن الرجل الرمادي بالخارج، اندفع سيرج من المطبخ إلى المكتبة وقلب الشاشات مرة أخرى، إذ يعلم أن كاميرات الأشعة تحت الحمراء ستلتقط أي شخص يختبئ في الضباب. حدق باهتمام إلى شاشة واحدة ثم التالية. يرصد ذهابًا وإيابًا. سرعان ما ثبَّت عينيه على صورة. اندفعت يده للراديو على مكتبه.

وجَّه البث لجميع العناصر في القصر. مناديًا:

«حركة في الخلف! حركة في الخلف! رجل واحد، يتقدم بسرعة!».

جاء صوت لويد عبر الراديو: «أين؟ أين هو بحق الجحيم؟».

أجاب: «في البستان. يا إلهي! يمكنه الركض!».

صرخ لويد عبر الراديو: «أين في البستان؟». أجاب سيرج: «إنه يركض حتى المنتصف!».

اقتحم مراقب البرج الموجة نفسها. كان صوته السميك ذو اللكنة البيلاروسية هادئًا، عكس صرخة لويد.

وقال: «ليس لديّ هدف. لا نرى أي شيء، انتظر، نعم. رجل واحد، يأتي بسرعة! سنقتله!».

***

ترك موريس مجموعة رائعة من المعدات لجينتري، لكن موريس كان بالتأكيد من الطراز القديم، ولم يكن العتاد الذي اضطر كورت لاستخدامه مثاليًا لتلبية احتياجاته. منظار بندقية كولت في يديه حديدي. لم تكن هناك رؤية ثلاثية الأبعاد مثل التكنولوجيا الفائقة ذات اللمسات السحرية التي يفضلها جينتري.

تتضح ملامح القصر أمامه شيئًا فشيئًا، إذ يركض بسرعة مخترقًا الضباب بمشقة، وقد رصد البرج أعلاه. كان يعلم أن هذا سيكون مخبأ قناص، ويعلم أن هذا الرجل سيكون لديه أفضل مهارة وأفضل نطاق وأفضل بندقية وأفضل فرصة لوضع حد لهجوم الرجل الواحد الهزلي الذي يجريه كورت.

لذلك رفع الرجل الرمادي بندقيته على كتفه، ولا يزال في طريق مسدود. كان من المستحيل إطلاق النار بمنظار حديدي في أثناء الجري؛ هدفه ببساطة هو ضخ أكبر قدر ممكن من الرصاص في البرج لإلهاء أعدائه ريثما يصل إلى جدار المبنى. علم كورت أنه لا يوجد شخص في المنزل لديه القدر نفسه من التدريب أو الخبرة في المعارك عن قرب مثله. عليه فقط البقاء على قيد الحياة لفترة طويلة بما يكفي لتصبح معركة عن قرب، فيحصل على أي نوع من فرص النجاح.

***

رأى القناص الهدف يطلق النار من الضباب أمامه. تطايرت خصلات من البخار في دوامة خلفه وهو يركض. عدّل البيلاروسي ذو الثلاثين

عامًا تصويبه ووجّهه نحو صدر الرجل الجريء. وضع إصبعه على الزناد من أجل طلقة سريعة في منتصف الصدر.

لقد لاحظ الدروع الواقية للبدن تحت السترة الحربية، وأنزل كعب بندقية القنص الكبيرة ملليمترًا للتصويب على جبهة الرجل السريع. عندما بدأت أطراف أصابعه في الضغط على الزناد الضيق، شعر بسلاح هدفه الأساسي يرتفع أمامه، لكنه لم يرَه. ومضات من فوهة السلاح وطقطقة نيران البندقية. ثم سمع القناص أصوات فرقعات وانفجارات في حجارة وخشب البرج، وامتلأ الهواء من حوله بغبار دخاني حيث اصطدمت قذائف فائقة السرعة مغطاة بغطاء معدني بحجارة عمرها مئات السنين. صرخ المراقب إلى يساره، لكن القناص كان منضبطًا. لم يرفع خده عن البندقية، ولم يرفع عينه عن المنظار، وضغط الزناد بثقة تجاه الرجل الذي انطلق نحوه.

34

أطلق جينتري ما يقرب من ثلاثين رصاصة كاملة على البرج الذي يلوح فوقه بينما يقترب منه بأسرع ما يمكن. لقد أراد إنهاء الخزينة ببضع طلقات أكثر دقة في اتجاه البرج، لذلك ثبت البندقية السوداء في مستوى العين أمامه، وحاول أن يحصل على تصويب عبر فتحة المسدد الدائرية فوق مقبض البندقية. وحين فعل ذلك ارتدت البندقية مرة أخرى في وجهه، وأفلت بقوة من بين يديه، وانقلبت في الهواء.

ركض كورت دون سلاح.

بعد نحو أربع خطوات أو خمس عبر العشب المبلل، كان وجهه يحترق ألمًا من أثر ضربة الكعب أسفل عينه، أدرك أن بندقيته (M4) لا بُدَّ أنها أصيبت بقذيفة من بندقية عالية القوة. على أي حال فقد سلاحه الأساسي، أدرك أن البندقية قد أنقذت حياته، مما أدى إلى تحريف اتجاه رصاصة القناص إلى رأسه.

مد يده إلى أسفل، وسحب المسدس الرشاش من مكانه على صدره دون أن يفقد اتزانه. أطلق النار مرة أخرى على البرج الذي لا يبعد عنه أكثر من مائة ياردة. كان مسدس (MP5) فعالًا مثل مضرب ذباب يحمله رجل يركض عبر أرض مكشوفة، ويطلق النار على نافذة صغيرة بعيدة دون تصويب، لكنه كان يأمل في أن يؤدي ذلك على الأقل إلى إلهاء بعضهم.

***

رأى القناص الرجل الذي يركض يترنح من أثر رصاصته، فرفع رأسه بعيدًا عن المنظار ليدعم زميله، لقد تلقى وجهه ضربة من قطعة حجر، فكسِرت نظارته ونزفت جبهته، لكنه كان متماسكا ولم يصب بأذى

شديد. عندئذ اندلع المزيد من إطلاق النار من الحديقة الخلفية. وفجأة نظر القناص البيلاروسي إلى أسفل، ورأى الرجل الذي أيقن أنه أطلق عليه رصاصة، يواصل مهمته.

علم الرجل في البرج من التقارير الواردة عن وجود البندقية في يده، أن الرجل الرمادي قد انتقل إلى مسدس رشاش عيار 9 ملم. سرعان ما جلس على الطاولة ببندقية القنص. تولى موقعه خلف المنظار في أقل من ثانيتين. فجأة اندلعت فرقعة جديدة من نيران البندقية، هذه المرة من خلفه على الجانب الآخر من القصر. لم يفهم للحظة ما كان يحدث، حتى جاء صوت أحد أبناء موطنه عبر الراديو على المنضدة: «إنهم الليبيون! إنهم عند البوابة الأمامية! تخلص منهم أيها القناص!».

بتردد رفع القناص بندقية الدراجونوف الكبيرة من الطاولة وأخذها إلي البوابة الأمامية للبرج. أصبح الرجل الرمادي مشكلة شخص آخر الآن، عليه أن يشتبك مع الأهداف البعيدة، الليبيين.

ولم يعد الرجل الرمادي بعيدًا. كان قريبًا.

خارج برج القناص مباشرة حلقت مروحية اليوروكوبتر السوداء على ارتفاع منخفض فوق ممر السطح. اندفع أربعة عملاء سعوديون مدججين بالسلاح والمعدات العسكرية، وقفزوا من ارتفاع ست أقدام في الجانب الشرقي من السطح المنبسط، لقد تجاهلوا المعركة التي تدور عند مدخل المبنى، وبدلا من ذلك، اتخذوا جميعًا مواقع خلف الأسوار المزخرفة التي تطل على الحديقة الخلفية، وعلى الرجل الوحيد الذي يركض نحوهم في المساحة المكشوفة.

عندما أوشك جينتري على بلوغ هدفه، أعاد تصويب نيرانه من البرج فوق القصر إلى نافذة في الطابق الأول حيث ومضت فوهة سلاح عدة مرات، أفرغ جينتري خزينته الأولى في النافذة أمامه. حُطمت الجدران حول النافذة، وانكسر الجرانيت إلى قطع مغبرة، وتحطم الزجاج،

وخفقت الستائر الدانتيل يمينًا ويسارًا حين وصلت إلى المكان بضع طلقات رصاص من بندقية كورت.

كان من الصعب إطلاق النار بسرعة كاملة، وكذلك يستحيل التصويب بدقة. لم يَرَ كورت المزيد من ومضات الفوهة من النافذة، لكنه لاحظ بدلًا من هذا طائرة اليوروكوبتر السوداء الأنيقة فوقه وأمامه، والرجال الذين قفزوا منها.

تبًّا!.

لا يزال على بعد سبعين ياردة من أقرب غطاء، لقد دفع ساقيه بقوة أكبر ليقترب من القصر قدر الإمكان قبل أن يحصل الرجال ـ الذين يغادرون الآن المروحية السوداء ـ على وضع يسمح لهم بالانقضاض عليه. هنا على العشب المسطح سيكون هناك بطة جالسة أم نيران مصوبة.

جذب جينتري قنبلة يدوية من سترته في أثناء ركضه، ونزع الفتيل بأسنانه، وتركها تطير.

ظهرت أمامه مباشرة هيئة ضخمة بشعر أشقر من نافذة في الطابق الثالث، رفع مسدسًا وأطلق النار عبر الزجاج. طار كورت إلى الأمام على العشب الأخضر الرطب لتجنب النار، وسقط على كتفه اليمنى، وتدحرج بسرعة إلى الأمام. عندما أنهى تدحرجه، نهض على قدميه.

منح الركض والوثب جسده دفعة هائلة، قوة دفع استخدمها لإلقاء القنبلة اليدوية عاليًا وبأقصى قوته. على بعد خمس وأربعين ياردة انطلق أزيز قنبلة بحجم حبة بطاطس في الهواء في حركة دائرية، وارتفعت فوق حافة الحواجز، ثم انفجرت، لكنها لم تصب مروحية اليوروكوبتر التي هربت إلى السماء، لقد هربت من القتال بأسرع ما يمكن. أسفر الانفجار فوق رؤوس السعوديين عن مقتل رجل على الفور وإصابة آخر في رقبته وظهره. وجد الاثنان الآخران الغطاء في

الوقت المناسب، لكنهما أضاعا فرصتهما في الحصول على تسديدة مفتوحة على هدفهما في الحديقة.

عند مدخل المنزل، لقي اثنان من بيلاروسيا وليبيان حتفهما بالفعل. قُتل الحراس من مينسك بالقرب من البوابة الأمامية. كانوا يركضون عائدين إلى القصر الآمن عندما تعطلت شاحنة عملاء طرابلس أمام البوابة الحديدية، أطلق الشرق ـ أوسطيون النار من مسدساتهم الآلية من طراز سكوربيون من السيارة المتحركة. قُتل الليبيان عندما أصدرت الشاحنة صريرًا حتى توقفت في الطريق المرصوف بالحصى.

قتل قناص البرج العميل الجالس في مقعد الراكب الأمامي برصاصة في وجهه، ونال الرجل الأول الذي انزلق من الخلف ثلاث طلقات من البيلاروسيَيْن الوحيدين اللذين ما زالا خارج القصر.

قتل الليبيان المتبقيان الرجال في الممر، وأغلقا باب القصر الأمامي. أطلقا الرصاص الآلي من مسدسات سكوربيون الآلية على نوافذ كلا الجانبين، وحافظا على مسافة منضبطة بين أحدهما الآخر، وصاحا مطالبين بالاختباء في أثناء إعادة تعبئة السلاح وإعادة تموضعهما.

أطلق رقم اثنين نصف خزينة على مفصلات الباب المصنوع من خشب البلوط الثقيل، ثم فتحه. وفي أثناء إعادة تعبئة السلاح، اصطدم بالمبنى أمامه، وأصيب بدفعتين من الرصاص من حارس أيرلندي شمالي في الردهة، مما أردى الليبي قتيلًا على الأرض. رد الليبي الآخر الذي ما زال على قيد الحياة على الأيرلندي بالسكوربيون؛ فتناثرت الدماء والأنسجة على الجدار الأبيض خلف الرجل في الردهة في أثناء سقوطه.

***

لم يَرَ ريجيل شيئًا مثل هذا من قبل. كان الرجل الرمادي في مرمى البصر، يرتدي قميصًا بنيًا أدكن عليه بقع دماء عند خصره، وجراب مسدس ينسدل على وركه اليمنى، ويضع خزينتين في وركه اليسرى.

وتزين صدره سترة سوداء ومسدس رشاش. حليق الرأس، وحتى على بعد خمسين ياردة، ظن كيرت أنه لاحظ الشراسة في عينيه.

عندما سحب ريجيل مسدسه ووجهه نحو الرجل الراكض، كان يعلم أنها كانت تسديدة بعيدة المدى بالنسبة لمسدس، لكن بالنسبة لرام ماهر كالألماني، ما كان يجب أن يخطئ هدفه. لكن الرجل الذيَ يركض انخفض بعيدًا عن رصاصاته، وتدحرج إلى اليمين تمامًا لينهض على قدميه، وألقى قنبلة يدوية في الهواء.

اختبأ ريجيل تلقائيًا بجوار مكتب الفني، مفترضًا أن القنبلة كانت تستهدفه. ودوى الانفجار فوقه على السطح. سمع صراخًا وصياحًا عبر النافذة، وسرعان ما استعاد موقعه ليطلق بضع رصاصات أخرى على جينتري في أثناء اقترابه.

لكن عندما نظر إلى الخلف عبر النافذة، كان الرجل الرمادي قد اختفى، والآن لا توجد طريقة لمنعه من دخول المبنى.

رائع. تمامًا كما وعد جينتري عبر الهاتف في الليلة السابقة، أصبحت الفريسة هي المفترس.

اصطدم ظهر كورت بجدار القصر، وأعاد تعبئة سلاحه بخزينة جديدة من حزام الأدوات المعلق على فخذه. كان الرجل الأشقر الضخم يحمل مسدسًا فوقه بطابقين مباشرة. ويعلوه مباشرة من يطلقون النار من المروحية. أيقن بطريقةٍ ما أنه أضعف صفوفهم بعض الشيء، لكنه لم يتوهم أنه أزال التهديدَ الموجود على السطح.

على يساره ويمينه كانت هناك نوافذ في مستوى خصره.

تحطم الزجاج بمسدس جينتري الرشاش فأصبح من الخطر الدخول دون الاستعداد أولًا. على يساره كانت هناك درجات تصعد إلى الباب الخلفي الرئيس، وقرب الزاوية على يساره كان ثمة معركة محتدمة في مدخل السيارات الأمامي، وإلى يمينه الجدار الخلفي الطويل مبطنًا

بالنوافذ، ثم مجموعة صغيرة من الأبواب. انطلق منحنيًا بطول الجدار، تحتك كتفه بالحجر ليبقى بعيدًا عن أنظار الصيادين فوقه.

كان بالقرب من الباب عندما فُتح للخارج. رفع سلاحه لإطلاق دفعة من النيران عبر الباب الخشبي، لكنه تردد في الثانية الأخيرة. ماذا لو كان أحد أفراد أسرة فيتزروي، أدرك كورت أنه لم يكن أفضل رجل لتنفيذ عملية الإنقاذ.

وقت القتال يفضل أن يطلق النار على أي شيء يتحرك؛ الآن كان عليه أن ينتظر لحظة إضافية لتحديد هدفه.

أطل رأس من حافة الباب، فكان كبيرًا وسلافيًّا، وعندما رأى ماسورة البندقية تمر من حافة الباب، اقتنع جينتري نفسه بصحة هدفه. أرسل ثماني طلقات عبر الباب إذ يركض نحوه. وأغلق الباب، لكن البلطجي الذي مات لتوه ترك حاجز الباب مفتوحًا أمام جينتري ليدخل ردهة مظلمة.

***

مع أول صوت لإطلاق النار في الحديقة الخلفية، ركضت كلير وكيت فيتزروي إلى أمهما النائمة لتهزَّاها وتصيحا في وجهها لتستيقظ. تعثرت إليز فور وقوفها على قدميها، فساعدتها الفتاتان على التوازن بأيديهما، وقادتاها إلى الجانب الآخر من غرفة النوم، حيث جلس الجد دونالد منتصبًا على السرير المغطى ذي الأعمدة الأربعة.

أبلغتهم كلير أن جيم يريدهم جميعًا تحت الفراش، ووافق الجد دونالد.

نزلت الأم بسرعة متمددةً ووجهها إلى أسفل على الخشب الصلب. تكومت كلير وكيت معًا في خوف، واسترقتا النظر تحت مفرش السرير باتجاه باب الردهة، بينما ظل الجد دونالد فوقهما.

بعد انفجار مدوٍّ على السطح من طابقين بالأعلى، نادى الجد دونالد الحارس: «ماكسبادن! ماكسبادن!».

رأت كلير حذاء الحارس الأسكتلندي يتحرك إلى الغرفة، وسمعت المحادثة فوقها، رغم أنها لم تفهم كل الكلمات.

ـ يا فتى، من الأفضل أن تركض الآن، لكن كن شابًّا مطيعًا واترك لنا سلاحًا.

ـ تبًّا لك يا فيتزروي! فات أوان الجري. سأحتاج إلى سلاحي لمحاربة كلبك المهاجم. يقولون عبر الراديو إنه موجود بالفعل في المنزل.

ـ ماكسبادن، إذا رأيت كلبي المهاجم، فسيكون آخر شيء ينقذك هو مسدس في يدك. قد تخلع لباسك الداخلي الأبيض وتلوح به استسلامًا إذا لم تكن لطخته بالفعل. هيا يا فتى. أنت تفهم ما الذي تواجهه. لا يمكنك إنقاذ نفسك إلا بمساعدتنا.

رأت كلير الرجل يجر حذاءه كما لو كان على وشك الهرب، لكنه عوضًا عن ذلك عاد إلى جدها. مد يده إلى أسفل، ورفع إحدى ساقي سرواله، وجذب منه مسدسًا فضيًّا لامعًا.

وضعت كلير يدها على فم كيت لتمنعها من الصراخ.

ـ سأترك لك النسخة الاحتياطية الخاصة بي. فقط ست رصاصات صغيرة.

ـ إنها رائعة يا بطل. الآن انطلق، اخرج من الباب، لتحرسنا في حال ما إذا جاء ريجيل أو ذاك المعتوه لويد للتحقق. وإذا رأيت الرجل الرمادي، فأخبره أنك معي.

ـ حسنًا، سيكون هذا جيدًا لو أراد الدردشة معي أولًا. لقد انتهى أمري يا فيتزروي.

ابتعدت قدما الحارس وغادر الغرفة. بعد ثوانٍ قليلة، انزلق الجد دونالد من الفراش وزحف تحته، وبرز المسدس اللامع في يده المكتنزة.

كل شيء على ما يرام، سيداتي. لن يمر وقت طويل الآن. الفتى جيمي في الطريق.

***

بقي ريجيل ولويد والفني في غرفة التحكم بالطابق الثالث.

وقف لويد بالقرب من الباب المفتوح الذي يؤدي إلى الردهة ومسدسه يتدلى في يده اليمنى، وياقة قميصه الزرقاء الدكناء مفتوحة، وقد عُلِّقت تحتها عقدة ربطة عنقه.

وقف كيرت والفني أمام أجهزة الكمبيوتر، بالقرب من النافذة المحطمة في منتصف المسافة بين مخرجي الغرفة. استخدما أجهزة الراديو للتواصل مع من تبقى من البيلاروسيين في جميع أنحاء المبنى، والمهندسين الفرنسيين في الطابق الأول. فقد أحد الأسكتلنديين، لكن الأسكتلندي الآخر والأيرلندي كانا لا يزالان في موقعيهما.

اندلع إطلاق نار فجأة على السطح، وافترض الألماني الكبير أنهم السعوديون في المروحية اليوروكوبتر يشتبكون مع فريق القناصة عبر نوافذ البرج. فاتصل بضابط الأمن الأسكتلندي وأمره بالصعود إلى الطابق الثالث لتغطية القاعة أمام مخرج الغرفة الرئيس.

عندئذٍ أعلن أحد البيلاروسيين عن وصول السريلانكيين وتقدمهم عبر المدخل الأمامي. حاول التحدث إلى فريق القناصين على السطح لكن لم يرد عليه أحد.

ولا أحد يعرف أين ذهب الرجل الرمادي.

أيقن ريجيل أن مهمته الوحيدة الآن هي بقاؤه على قيد الحياة. لم يكن بحاجة إلى الرجل الرمادي ميتًا؛ انتهت هذه المهمة. ومع ذلك، إذا دخل جينتري إما من باب القاعة على يمينه، أو من مدخل السلم الدائري إلى يساره، إذا جاء أي شخص من أي مكان، فسيطلق ثلاث رصاصات من سلاح شتاير الكبير في وجهه قبل أن يزعج نفسه بمعرفة هوية المقتحم.

عليه فقط أن يصمد حتى وصول طائرة الإنقاذ من مقر الوطن.

***

أراد كورت أن ينحني ويتحرك خفية عبر المنزل، لكن ألم بطنه حال دون هذا. إن اضطُر إلى الحركة، وهو ما سيحدث بالتأكيد، يمكن حينها أن يسقط، يتدحرج، يزحف، أيًا كان ما سيتعين عليه فعله. لكنه يخشى أنه إذا اضطر إلى الانبطاح أو الاختباء فقد لا يتمكن من النهوض. لذلك سار منتصبًا بشكل كامل، يكاد يجر ساقه اليسرى المخدرة خلفه.

سمع إطلاق نار فوقه في المطبخ الضخم، في الطابق الثالث أو السطح ربما. في الطابق الأول، بالقرب من الردهة، بدا الأمر لأذني الرجل الرمادي المتمرستين كأن معركة فرد ضد مجموعة قد انتهت للتو، والآن وصل تهديد جديد، ربما أربعة ضد أربعة.

استطاع أن يميز دوي رصاص بنادق الكلاشنكوف وبنادق عيار 12، وصياحًا روسيًا بدا أنه من أحد أطراف القتال. اجتاز كورت المطبخ. كاد يصل إلى باب باتجاه الجزء الخلفي من القصر، بعيدًا عن إطلاق النار، عندما ظهر أمامه عند المدخل رجل أسود يرتدي بذلة بنية.

صوب كورت المسدس الرشاش على الرجل واسع العينين وسأله: «من أنت؟».

أجاب: «فقط الخادم الشخصي، سيدي. ليس لي دور في هذا».

أمسك جينتري بالرجل من حلقه وقاده باتجاه الحائط. ضغط فوهة سلاحه الساخنة على رقبته النحيلة، وفتش الأمريكي أسيره بسرعة فلم يجد سلاحًا واحدًا. ألقى كورت هاتف الرجل الخلوي في إناء من الماء على الموقد المجاور له. لم يعثر على أي هوية معه.

ـ ما اسمك؟

ـ فيليكس.

ـ دعني أخمن. فيليكس كبير الخدم النيجيري؟

ـ لا سيدي. أنا من الكاميرون.
ـ بالطبع يا صديقي.
دفع كورت الرجل باتجاه الباب من نهاية المطبخ. أبقى الرجل الأسود يديه في الهواء وهو يمشي وخلفه جينتري بعدة أقدام. عبرا غرفة طعام مزخرفة مع مدفأة مطلية بالذهب وطاولة ضخمة من خشب البلوط. اصطفت الجداريات واللوحات على الجدران. عندما دخلا إلى ممر صغير له باب على يساره مباشرة، همس جينتري مرة أخرى للرجل أمامه: «ماذا يوجد هناك؟».
قال بتردد: «إنها... إنها غرفة نوم».
ـ أنت غير واثق؟ خادم لا يعرف غرف المنزل؟
ـ أخبرتك.. غرفة نوم. أنا جديد هنا يا سيدي. أنا خائف.
ـ افتحه. دعنا نرَ ما إذا كنت على حق.
سحب كورت مسدسه الجلوك وأمسكه خلفه بيده اليسرى إذ يمشي في الردهة، بينما يصوب المسدس الرشاش إلى رأس فيليكس بيمينه.
فتح الرجل ذو البذلة الباب، وعاد إلى الرجل الرمادي. نظر كورت بطرف عينه، حيث تكدست ملاءات وبطانيات في الأرفف من الأرضية إلى السقف. لم تكن غرفة نوم. بل كانت خزانة أغطية كبيرة.
قال كورت: «إذا كنت كبير الخدم، فأنت فاشل».
لم يقل فيليكس شيئًا. واستمر إطلاق النار في مدخل المنزل دون توقف.
ثبت كورت الجلوك على وركه، وأخذ آخر قنبلة يدوية من سترته. سحب الدبوس ووضعه في جيبه، وأمسك بالمسمار إلى أسفل، ووضعه في يد فيليكس المتعرقة. عندما تيقن القاتل الأمريكي من استسلام أسيره قال: «لا تسقطها. ولا تحسب أن بوسعك استخدامها ضدي. يوجد فتيل مدته ست ثوان.. متسع من الوقت لأرديك قتيلًا وأدخل غرفة لأتفادى الانفجار».

قال فيليكس بصوتٍ واهن. «ماذا أفعل...؟».
أجاب كورت: «استمر في السير أمامي وحسب. سآخذها منك وأدعك تغادر ما إن أصل إلى هدفي. لا تقلق، ستعود إلى وطنك في الكاميرون في أسرع وقت».
انعطف الممر إلى اليسار وانتهى عند مجموعة كبيرة من الأبواب المزدوجة. دفع كورت الرجل المرتبك إلى الأمام، حاول الرجل التحدث مرتين لكن جينتري كتم لهجته الإفريقية القوية، وأمره قائلًا: «افتح تلك الأبواب». بينما لا يزال في الخلف عند انعطاف الممر.
قال فيليكس: «لكنني...».
صوب جينتري مسدسه الرشاش نحو رأس الرهينة، فاستدار فيليكس ببطء، وفتح الباب الأيمن، بينما يخبئ القنبلة خلف ظهره بيده اليسرى.
تردد على الفور صدى فرقعات نيران المسدس خارج الغرفة أمامه، وتناثرت شظايا البلوط من الأبواب الثقيلة. دار فيليكس في مكانه وسقط على وجهه في المدخل. في حين خرج كورت من خط النار، وسقط على واقيات ركبتيه وهو يلهث، وراح يعد إلى ستة.

***

تحرك سيرج وألن نحو باب المكتبة في وضع القتال مصوبين مسدسات بيريتا في أيديهما الممدودة.
تعرف ألن إلى الرجل الذي قتله للتو. «إنهم النيجيريون».
قال سيرج: «تبًّا!». وضغط على زر جهاز الاتصال اللاسلكي الخاص به في اللحظة التي انفجرت فيها القنبلة اليدوية الموجودة على الأرض بجوار جثة الرجل الميت.

***

قفز كل من لويد والفني عند سماع صوت القنبلة اليدوية على مسافة طابقين أسفلهما مباشرة. لم تأتِ الضوضاء من تبادل إطلاق النار

المحتدم في الردهة، بل ارتدت إلى مؤخرة المبنى. جاء الصوت أيضًا عبر مكبرات الصوت في أجهزة الراديو الخاصة بهم.

ألقى كيرت ريجيل نظرة خاطفة من النافذة مرة أخرى. لقد رأى الطائرة السوداء من طراز يوروكوبتر تنجرف داخل ضباب الصباح وخارجه في أثناء تحليقها جنوبًا. تحرك رجلان في انحناء بالأسفل قرب النافورة الرخامية في الحديقة. كانا صغيري البنية ذوي بشرة سوداء، يحملان مسدسات آلية، ويرتديان سترتي تزلج سوداوين.

قال ريجيل في الغرفة ببرود: «وصلت فرقة القتل من بوتسوانا، أو ربما هؤلاء هم الليبيريون»..

قال لويد من ورائه: «إنها أمم متحدة افتراضية من المتسكعين هنا».

شاهد الألماني الأفارقة يقطعون الحديقة باتجاه سلم الباب الخلفي. لم يطلق عليهم النار، فمع وجود الرجل الرمادي في المبنى، شعر كيرت أن هناك فرصة أفضل لأن يكون هؤلاء البوتسوانيون عونًا أكثر من كونهم عائقًا.

قال ريجيل: «لنتحصن في هذه الغرفة. سيتعين علينا نحن الثلاثة أن نتمسك بالجميع حتى تصل المروحية من باريس».

سأل لويد: «حتى لو نجوت من هذا ستقتلني، أليس كذلك؟».أجاب ريجيل وهو يضع مسدسه في جراب كتفه تحت سترته: «جينتري كان على حق. عليك أن تقلق أكثر مني الآن. تعالَ وساعدني». رفع كرسيًا ليضعه أمام باب السلم الدائري.

قال لويد: «مهما يكن الأمر، أفضِّل التعامل مع أي تهديد في أقرب فرصة ممكنة».

كان ريجيل يولي ظهره للويد، فتوقف وأنزل الكرسي وساوى كتفيه، ثم استدار ببطء. صوَّب المحامي الأمريكي المسدس الآلي الفضي إلى صدر كيرت على مسافة عشرين قدمًا. وقال:

«أنزل هذا المسدس. هيا يا زميل! ليس لدينا وقت لهذا. سيكون لدينا متسع من الوقت بعد العملية بعد أن نخرج من هنا».

جلس الفني على المكتب وراقب الرجلين بحدة دون أن ينطق بكلمة.

قال لويد: «كان بوسعي أن أمسك بالوغد، وأن أحتفظ بالعقد. عمليتك فشلت، وليست عمليتي».

ـ كما تشاء يا لويد.

ـ لا، أريدك أن تقول ذلك. أخرج هاتفك ببطء، اتصل بالسيد لوران وأخبره أن خطتك قد فشلت. تحمل المسؤولية.

ـ وبعد ذلك ستطلق عليَّ النار؟ فكر يا لويد! سيعرف أنني كنت أتحدث مكرهًا.

لأول مرة يسمعون طلقات نارية في الطابق الثالث، بعيدًا عن الممر من موقعهم.

أكمل ريجيل: «يجب أن نغلق الغرفة الآن! سنتحدث فيما بعد!».

ـ أخرج هاتفك، أجرِ المكالمة، لا تخدعني!

تنهد كيرت ومد يده اليمنيٍ ببطء إلى سترته.

رمق لويد بنظرة ثاقبة بدلاً من النظر في الهاتف، وضع ريجيل يده حول عقب المسدس. عندما بدأ يسحب المسدس من مخبئه، واستعد للاختباء جانبًا لتفادي إطلاق النار الحتمي من المحامي، لاحظ أن عيني لويد قد ابتعدتا عنه وركزتا على شيء خلفه. انتهز كيرت الفرصة لسحب المسدس، وصوبه في صدر الأمريكي، وحين كان على وشك إطلاق النار على لويد المشتت، نادى صوت من الخلف.

هل جئتُ في وقت غير مناسب؟

35

قال لويد: «أنت تنزف بشدة يا كورت». ظل مسدسه مصوبًا إلى ريجيل، وظهره إلى المدخل المفتوح في الطابق الثالث. لكن عينيه كانتا على الرجل الملطخ بالدماء في عتاده العسكري. ظهر الرجل الرمادي في صمت عبر باب السلم الدائري، وبينما ثبَّت لويد نظره على يد كيرت داخل سترته، باغته جينتري بمسدس رشاش عنيف المظهر في مستوى النظر، مصوبًا فوهته إلى صدر لويد.

قال جينتري: «ألقوا أسلحتكم».

سأل كيرت بينما يولي ظهره للرجل الرمادي: «إلى من تتحدث؟». ولكي يرى جينتري كان عليه أن يرفع عينيه عن لويد، ولم يكن على استعداد لفعل هذا.

أجاب كورت: «إذا كان لديك سلاح في يدك، أيها الأحمق، فأنا أتحدث إليك».

قال لويد: «لن تصمد طويلًا يا كورت، أيها الصديق القديم. وجهك شاحب، لقد ضعفت كثيرًا، دمك يلطخ الأرض».

قال كورت: «سأعيش طويلًا بما يكفي لركل مؤخرتك. ألقِ أسلحتك. أنت هناك عند الطاولة. انهض ببطء».

كان الفني هو أول من نفذ ما قيل له. وقف ويداه مرفوعتان فوق رأسه وهو يرتجف خوفًا.

بدأ لويد بإنزال مسدسه. تبعه كيرت ريجيل، إذ حول الألماني نظره من لويد إلى الفني للحظة.

وحينئذٍ أطلق لويد رصاصة في صدر كيرت ريجيل.

أمسك الألماني الضخم بمكان الجرح ثم سقط على جانبه. تدحرج مسدس شتاير بعيدًا على الأرضية الخشبية فصرخ الفني ذعرًا. أطلق الرجل الرمادي سلسلة من الطلقات النارية على لويد حين اختفى في مدخل القاعة. عانى كورت نوبة دوار، نتيجة حتمية لانخفاض ضغط دمه. تأرجح على ركبتيه وعيناه تلمعان.

***

بدا أن عقله يستعيد تشغيله، وعندما استعاد تركيزه، أدرك أنه قد أنزل المسدس الرشاش إلى جانبه، لكنه سرعان ما صوبه نحو الرجل ذي ذيل الحصان وسماعات الرأس الذي وقف بجوار مكتب أجهزة الكمبيوتر. لم يُبدِ الرجل أي حركة سوى ارتعاش يديه فوق رأسه. أدرك جينتري أنه كان من الممكن أن يجري إسقاطه بسهولة هناك في بضع ثوانٍ بأخف حركة، ففرح لأن خوف الرجل ذي ذيل الحصان كان أكبر من أن يحاول فعل ذلك.

سأل كورت: «من أنت؟».

ـ فقط.. فني، يا سيدي. أدير الاتصالات وما إلى ذلك. ليس لديّ أي مشكلات معك.

ـ على الأقل لم تحاول أن تقنعني بأنك خادم شخصي.

ـ عفوًا، سيدي؟

قطع كورت الغرفة نحو الرجل، وفي الطريق أبقى سلاحه مصوبًا إلى باب الردهة المفتوح، وركل مسدس شتاير بعيدًا عن جسد ريجيل في أثناء مروره. وجد كورت الملفات السرية لإدارة الأنشطة الخاصة على مكتب الفني.

ـ هل هذا كل شيء؟

ـ حسب معرفتي يا سيدي.

ـ ألا توجد نسخ احتياطية؟ ألا توجد نسخ أخرى؟

ـ لا أعتقد هذا.

أطاح بهم كورت وألقاها في المدفأة، ثم أمر الفني بإشعال النار فيها.

ما إن بدأت الملفات تحترق، أدار الرجل الرمادي الفني ودفعه مرة أخرى إلى مقعده، في مواجهة الأجهزة أمامه. وسأله: «أنت من تتواصل مع الرجال الذين يطاردونني؟».

ـ أوه لا يا سيدي! لست أنا! أنا فقط أحافظ على الكهر...

ـ أعتقد أنني لست بحاجة إليك إذن، أليس كذلك؟

أومأ الفني بسرعة وغير نبرته فجأة وهو يقول: «نعم، سيدي! أنا مسؤول عن جميع الاتصالات والتنسيق بين فناني الأرصفة وعملاء الحكومة».

ـ جيد. اتصل بهم جميعًا. قل لهم إنني قفزت للتو من النافذة وأهرب عبر البستان في الخلف.

ـ حالًا، يا سيدي.

اهتزت يدا الفني بشدة عندما قلب مفاتيح وحدة التحكم اللاسلكية الخاصة به لتشغيل كل موجات الراديو في الوقت نفسه. قال: «كل العناصر، هنا الفني. تسلل الهدف إلى القصر. إنه يتحرك إلى الشمال، عبر البستان سيرًا على قدميه».

قال كورت: «أحسنت. والآن، اخلع حزامك».

نفذ الفني ما قيل له بسرعة وقدمه للرجل الرمادي.

ـ عض عليه بقوة.

ـ عفوًا سيدي؟

ـ نفذ!

اتسعت عينا الفني ووضع حزامه في فمه.

سأل جينتري: «هل تعض؟». أومأ الفني برأسه.

قال كورت: «جيد».

ثم ضرب صدغ الرجل بكعب مسدسه، فسقط الفني من كرسيه، لكن جينتري أمسك برأسه بعدما فقد وعيه ووجهه إلى أسفل على المنضدة أمامه. ثم أطلق جينتري خزينة كاملة على أجهزة الكمبيوتر، وأجهزة الراديو على المكتب.

تعثر كورت إثر نوبة دوار أخرى، لكنه استرد البندقية وأعاد حشوها، دقق في الوثائق المحترقة في المدفأة. وارتضى بنجاح هذا الشق من العملية، ثم خرج إلى ممر الطابق الثالث، وبندقيته الصغيرة أمامه.

***

كانت كلير فيتزروي هي أول من سمع صوت وقع الأقدام خارج الباب.

دوى إطلاق النار عن قرب، حتى في الخارج مباشرة قبل بضع دقائق، ولكن الأجواء هدأت منذ ذلك الحين، غير أن شخصًا آخر كان يتقدم. لقد ضغطت كلير على كتف الجد دونالد بقوة من الخوف.

رمشت عيناها الصغيرتان بشدة من التوتر، لكنهما تسمرتا على الجزء السفلي من الباب المؤدي إلى الرواق.

سمعت رنين المعدن على الخشب، والمزيد من المراوغات، ثم قعقعة المزلاج. فُتح الباب ببطء، وشعرت كلير أن ذراع جدها السميكة تضغط بقوة على المسدس في يده، الذي صوبه الآن على قدمين تدخلان الغرفة.

كان حذاء الرجل الأيسر مبتلًا وأحمر.

أنا إيوان يا سيد دونالد. لا تطلق النار.

بدأت كلير بالزحف مع الجد دونالد، لكنه دفعها إلى الخلف ونهض بعدها مباشرة.

قال الجد: «من الجيد رؤيتك يا بني!».

أين الفتاتان؟

تعرفت كلير إلى صوت السيد جيم، والآن لا شيء يمكن أن يمنعها من الزحف من تحت السرير. عندما وقفت، ركضت نحوه واصطدمت بساقه وخصره، وعانقته بقوة أكبر مما يمكنها أن تعانق أي شيء في حياتها. مرت بضع ثوانٍ قبل أن تبتعد وتنظر إليه. كان يرتدي سترة سوداء على صدره ومعه بنادق وحقائب على حزام يتدلى من ساقيه. في يده بندقية، ووجهه ورأسه الأصلع كانا أبيضين مثل ورق الكتابة، وقد غرق سرواله البني في الدماء.

كانت عيناه حمراوين ودامعتين. يقطر العرق من وجهه مثل ماء المطر.

لاحظ الجد دونالد أيضًا بقعًا على ملابس جيم.

ـ أهذا دمك يا فتى؟

ـ لا، ليس كذلك. اقترضته.

ـ بحق الجحيم يا رجل. أنت بحاجة إلى طبيب.

ـ أنا بخير.

أشار جينتري إلى الحارس الأسكتلندي الذي يقف بجانبه وقال: «يقول هذا الرجل إنه معك».

ـ إيوان كان متعاونًا للغاية.

ـ هل تثق به بما يكفي لأعطيه سلاحًا؟

صمت للحظة ثم قال: «أثق به». ثم أضاف: «فقط احترس لنفسك يا ماكسبادن».

أجاب: «أجل، سيدي».

خلع جينتري المسدس الرشاش **(MP5)** من رقبته وسلمه إلى ماكسبادن. سحب جينتري مسدس جلوك الخاص به من العدة حول ساقه، وأمسكه بجانبه. وسأل: «أين لويد؟ أعتقد أنني أصبته، لكنه ابتعد عني. ظننت أنه سيكون هنا في الأسفل ليأخذ رهائن».

قال الجد دونالد: «لم أرَ ذلك البغيض». فنظر جينتري إلى كلير وكيت.
ـ دون، أمسك عليك لسانك.
ـ آسف.
نظر كورت حوله وسأل: «أين إليز؟».
سحب ماكسبادن وسير دونالد السيدة فيتزروي من أسفل الفراش من ذراعيها. ثبتها ماكسبادن على كتفه ممسكا بالمسدس الرشاش أمامه بينما يتحرك. قاد إيوان الطريق، وكان سير دونالد يعرج خلفه متأثرًا بجراحه، شاهرًا المسدس الفولاذي الصغير.
تبعت الفتاتان جدهما، وترنح وراءهم جينتري ببطء، مثبتًا نفسه على جدران الممر وحاجز السلالم، حاولت كلير أن تسنده في أثناء صعوده، لكنه ابتسم لها، وقال لها إنه بخير، ويجب عليها أن تظل قريبة من جدها.
تحركت القافلة ببطء، وكانت تتكون من طفلتين، وشخص مصاب، وامرأة أخرى فاقدة للوعي تمامًا. بعد فترة، نزلوا السلم إلى بهو الطابق الأول، وصاح جينتري من الخلف: «أيتها الفتاتان! فلتنظرا مباشرة إلى ظهر جدكما. إلى الأمام مباشرة، هل تفهمان؟ لا تنظرا حولكما في الغرفة».
كانت ثمة مذبحة هائلة حولهم في مدخل ضخم من الخشب الصلب والأحجار. أربع جثث داخل الأبواب المفتوحة، وجثتان داميتان في منتصف الغرفة، واثنتان أخريان على الدرج بجوارهم في أثناء نزولهم.
بدأت كلتا الفتاتين الصغيرتين في البكاء. سعلت كيت من الرائحة الكريهة الكثيفة لغبار الكوردايت والحجر المتفجر والخشب المحروق. في نهاية الدرج هناك شخص ممدد على الأرض، يتحرك ويتلوى. رجل شرق أوسطي ملتحٍ ما زال على قيد الحياة، تجاوزه

ماكسبادن وكذلك البقية. كان كورت آخر من يمر بجوار الرجل المصاب.

التقت عيونهما لثانية واحدة، لكن كورت لم يبطئ لكي يساعده.

لم يُظهر الرجل الرمادي أي رحمة لأعدائه.

انتقلوا من البهو إلى غرفة جلوس مفتوحة، بمنأى عن ساحة المعركة. مُلئت الجدران بصور عائلية كبيرة. توقف ماكسبادن مؤقتًا ليُحكِم الإمساك بامرأة فيتزروي، ومال جينتري إلى الحائط للحظة من الراحة. بعد ذلك، دخل رجل بلا قميص من المدخل البعيد، إنه أحد الحراس البيلاروسيين، يعاني إصابة في رقبته لفها بمنشفة، لكن بقي رشاشه في يده اليمنى. متفاجئًا من المجموعة التي رآها أمامه، رفع سلاحه بسرعة. أطلق السير دونالد النار من مسدسه، وفجر الرجل عاري الصدر عبر المدخل وأسقطه على ظهره.

غطت الفتاتان أعينهما وصرختا.

رفع كورت رأسه ببطء عندما انتهى الأمر. لم يلحظ حتى التهديد. التفت حوله بسرعة على يقين من أن لويد سيكون واقفًا خلفه، لكن لم يكن هناك أحد.

أصاب الوهن ركبتا كورت، وسقط إلى الوراء، وتعثر في طاولة صغيرة ثم سقط عليها لتتحطم على الأرض. ركض فيتزروي والفتاتان نحوه، وجذبوه من قدميه، ثبتوه في أثناء استعادة توازنه.

قال كورت: «أنا بخير. استمروا في الحركة».

خرج الستة من باب جانبي إلى طريق دائري يقود إلى مدخل السيارات المرصوف بالحصى في الخلف. ومع ذلك، قاد الأسكتلندي الطريق، وعلى كتفه المرأة فاقدة الوعي، عبر بستان التفاح الضبابي. سمعوا دوي طلقات نارية. يبدو أن فرق القتل كانت يشتبك بعضها مع بعضٍ في الضباب. عثر السير دونالد على سيارة بي إم دبليو ذات

صالون سوداء كبيرة، ورأى المفاتيح فيها، فأمر الجميع بالركوب بأقصى سرعة.

تأخر كورت في الخلف، واستدارت كلير وركضت عائدة إليه، أسندته فلم يعترض هذه المرة. نظر جينتري خلفه مرتين بحثًا عن أي علامة على لويد، وفي المرتين عاد رأسه مكانه دون نتيجة.

ترنح كالحلزون، ولم يتمكن من ذلك إلا بمساعدة بسيطة من فتاة تبلغ من العمر ثماني سنوات.

***

جاهدت كلير لرفع جيم. بدا الأمر كما لو كان يضع ثقلًا أكبر على كتفيها مع كل خطوة. راح يلهث ويجفل عندما تحركوا بطول ممر الحصى نحو السيارة السوداء الكبيرة. أعطى الحارس الأسكتلندي سلاحه إلى الجد دونالد ووضع الأم في المقعد الخلفي، وصعدت كيت معها. جلس الحارس خلف عجلة القيادة، وجلس الجد في مقعد الراكب الأمامي. دار المحرك، فدفع جيم كلير أمامه، وحثها على الركض إلى السيارة.

فعلت ما قيل لها، صعدت إلى المقعد الخلفي، واستدارت للمساعدة على جذب المنقذ الذي كان وراءها. كان جيم على بعد خطوات قليلة، لكنه يقترب.

ابتسم ابتسامة واهنة عندما التقت أعينهما، وانطلقت رصاصة واحدة من القصر. كانت كلير تنظر، اتسعت عيناه ومال جسده إلى الأمام، كاد يدفعه نحو السيارة ولكن ليس تمامًا. سقط الأمريكي على واقيات ركبتيه فوق الحصى، ونظر إلى الأسكتلندي الجالس خلف عجلة القيادة وصاح: «انطلق!».

ترنحت السيارة الكبيرة نحو الأمام، وأُغلِق باب كلير بقوة الحركة. صرخت إذ تستدير لتنظر من النافذة الخلفية، وتضرب زجاج النافذة بيديها الصغيرتين.

ترنَّح خلفهم جيم نحو الأمام منهارًا على واقيات ركبتيه فوق الحصى، ثم سقط بقوة على وجهه. حجبت سحابة الغبار الناتجة من أثر حركة العجلات على الحصى رؤية كلير الرجلَ الذي تركوه وراءهم.

36

زحف كورت نفس عبر ممشى الحصى مستندًا إلى ذراعيه.

تحركت ساقاه بصعوبة، والتصق الحصى بالدماء على ذراعيه ووجهه وفروة رأسه المتعرق. كان على بعد خمس ياردات من العشب الرطب الذي يفصله مائتا ياردة عن حافة بستان التفاح. بالسرعة التي كان يتحرك بها، سيحل الظلام قبل أن يصل إلى حافة البستان.

لقد كان ميؤوسًا منه، لكنه تحرك دون سبب منطقي، فقط بالفطرة.

اخرج من منطقة القتل. لا تعبأ بالوجهة.

جاء صراخ لويد من الخلف: «أنت! أيها الرجل القوي؟ إلى أين أنت ذاهب بحق الجحيم؟». يتبعه سحق الأحذية للحصى. اقترب وقع خطواته بسرعة.

وأكمل: «عليَّ أن أعترف.. أنت ترقى إلى مستوى الضجيج الذي تحدثه. لقد أحرقت ملفات إدارة الأنشطة الخاصة وحصلت على آل فيتزروي. يبدو أنك تمكنت من إنقاذ الكل إلا أنت».

ظل كورت يزحف على ساعديه الملطخين بالدماء في الحديقة الباردة الرطبة. أخيرًا داس لويد على ظهره لإيقافه. نظر الرجل الرمادي وراءه متألمًا. أمسك المحامي بمسدس صغير من نوع بيريتا مصوبًا إياه أمامه. كانت ذراعه اليسرى وكتفه تنزفان وقد أصبحتا واهنتين، ولم يبدُ لويد منزعجًا من جروحه.

قال لويد: «لقد أطلقت عليك النار في الخلف. ليس فعلًا نبيلًا للغاية على ما أعتقد. لم أكن أعلم أنك ترتدي سترة. لكن أراهن أن هذا ما زال يؤلمك، أليس كذلك؟».

استلقى كورت ببطء على ظهره. كانت سماء الصباح شديدة الزرقة منذ دخل القصر قبل خمس عشرة دقيقة تقريبًا. وقف لويد فوقه ونظر إلى الأسفل مباشرة. علم كورت أن مسدسه الجلوك قد انزلق بعيدًا في مكان ما عندما سقط. لم تكن لديه القوة لرفع رأسه للبحث عنه.

قال جينتري بينما يسعل بشدة: «ما زلت لا أتذكرك يا لويد».

قال لويد: «حسنًا، سوف تتذكرني في الجحيم، أليس كذلك؟ سيكون وجهي آخر شيء تراه».

رفع لويد المسدس إلى وجه كورت جينتري، وانطلقت رصاصة.

حرك لويد رأسه، وقد بدا عليه الارتباك. تقدم المحامي الشاب نصف خطوة إلى الأمام. ظهر الدم على شفتيه ومن أنفه، ظلت عيناه على كورت، رغم أن جفونه بدأت ترتخي. ووجَّه المسدس مرة أخرى إلى صدر كورت.

جاءت رصاصة أخرى من الخلف، ثم أخرى. تشنج لويد مع كل ضربة. انطلق الرصاص من مسدس بيريتا، لكنه كان قد نزل إلى جانبه الآن. أطلقت الرصاصة رذاذًا من الحصى الأبيض بين ساقي جينتري، بينما كان الرجل الرمادي مستلقيًا على ظهره يراقب.

ألقى لويد مسدسه على الحصى، ثم انهار فوقه ميتًا.

حدق كورت لعدة ثوانٍ في السماء. أخيرًا دفع رأسه إلى أعلى، ونظر إلى القصر. كان ريجيل في نافذة بالطابق الثالث، وقد تحطم الزجاج أمامه، ومسدسه مصوب الآن نحو جينتري.

أنزل الألماني مسدسه ببطء إلى جانبه.

تبادل الرجلان النظر لبضع ثوانٍ، كلاهما أضعف من أن ينطق، وأبعد من أن يتواصلا بصريًّا. لكن هذا التقدير المطول أظهر إحساسًا بالاحترام المتبادل؛ محاربان، يعترف كل منهما بجهود الآخر.

تراجع كيرت ريجيل إلى الوراء واختفى عن الأنظار.

ألقى كورت رأسه إلى الوراء في العشب. جعله الطنين الواصل إلى أذنيه يميز صوت طائرة مروحية مألوفًا. لم تكن طائرة يوروكوبتر سوداء. كانت طائرة أكبر تقترب بثبات من جهة الشرق.

لم يرفع رأسه عن العشب الندي، لكنه وجَّهه إلى اليمين في الوقت المناسب ليرى السيكورسكي البيضاء الكبيرة تهبط على بعد 75 ياردة. كُتب: «مجموعة لوران» باللون الأزرق على جانبها. اندفع منها رجال مسلحون، ما يقرب من ستة أفراد، بدؤوا في التحرك نحو القصر بحذر. ثم أنزلت الطائرة ثلاثة رجال يرتدون سترات برتقالية ويحملون حقائب ظهر، قد يكونون أطباء أو مسعفين أو أي نوع آخر من أفراد الطوارئ. أخيرًا، انحنى ثلاثة رجال يرتدون بدلات في أثناء مرورهم تحت المراوح الدوارة. كان أحدهم يحمل مفكرة من نوع ما، وآخر يحمل حقيبتين كبيرتين، والثالث يبدو أكبر سنًّا منه بكثير، يرتدي معطفه على ظهره مثل معطف الرأس، يبدو فرنسيًّا.

فقد كورت الاهتمام بما يجري وعاود الاستمتاع بالسماء الجميلة. بعد دقيقة واحدة، أو ربما عشر دقائق، وقف فوقه رجل ببندقية، لكن بدا أنه كان مهتمًا أكثر بجثة لويد التي ترقد بجانبه. صاح الفرنسي في الراديو.

بعد ذلك بوقت قصير، ظهر الرجال الثلاثة الذين يرتدون بدلات، واستند كورت على مرفقيه مشرئبًا عندما اقتربوا.

لم يتعرف جينتري إلى الرجل الأكبر سنًّا الذي يرتدي معطف الرأس، لكن كورت استنتج من تأثيره وسيطرته على الاثنين الآخرين أن هذا لا يمكن أن يكون سوى مارك لوران.

قال الرجل: «أفترض أنك السيد جينتري؟».

لم يقل كورت شيئًا. تقدم الرجل الصغير على يمين لوران الذي يحمل مفكرة، وركله بحذاء يبدو باهظ الثمن. لم يشعر كورت بالضربة. لقد تخدر جسده بالكامل.

قال الرجل الصغير: «عندما يسألك السيد لوران سؤالًا عليك أن تجيب!».

قال لوران: «لا بأس، بيير، إنه مريض». ثم نظر حوله إلى الجثث والزجاج المكسور والدخان المتصاعد من سقف القصر. وأتبع: «بيير.. ضع في قائمة مهامك أننا سنحتاج إلى نقل مكان اجتماع عيد الميلاد السنوي لمجلس الإدارة هذا العام. لا أعتقد أننا سننظف المنزل في الوقت المناسب».

ـحسنًا، يا سيد لوران[1].

ـسيد جينتري. أرى السيد لويد الشاب هناك. يبدو مفيدًا كعادته دومًا. هل تعرف أين يمكنني أن أجد هير ريجيل؟تحدث كورت بهدوء ناعس: «قتله لويد، وقتل هو لويد. حدث بعض التنافس بين إدارات مؤسستك قبيل وصولك».

هز لوران كتفيه قائلًا: «فهمت». كما لو أن رجاله يموتون طوال الوقت، ولم يكن ذلك ليثير قلقه على نحو خاص.

قال لوران: «لم أكن أعرف شيئًا عما يجري هنا». لم يجب جينتري. قيلت الجملة بالطريقة ذاتها التي يكذب بها رجل ذو سلطة بشكل فاضح. لم يعبأ إذا كان الرجل الرمادي سيصدقه أم لا، بدا فقط كما لو أنه يفي بالتزامات قانونية وحسب.

إنكار غير معقول.

فاجأت كلمات لوران التالية كورت حين قال: «أنا بحاجة إلى رجل». نظر حوله إلى الصباح المشرق. وقال: «إنها مشكلة، كما ترى. زميل تربطني به علاقة عمل طويلة الأمد انتهت قيمتها. وإذا لم يكن ذلك سيئًا بما يكفي، فهو يمتلك معلومات قد تكون محرجة لي ولمن

(1) بالفرنسية في الأصل.:

يلاحقني. والسماح له بالاستمرار في مسار عمله الحالي لن يخدم مصالح أحد».

بدا أن مارك لوران يشعر بالملل تقريبًا. نظر إلى طلاء أظافره الحديث وقال: «وكما يحدث، أعرف أنك الرجل الذي يجب أن ألجأ له بشأن مشكلات كهذه. هل يمكن أن تكون متاحًا؟».

كان كورت مستندًا على مرفقيه على العشب الرطب. أدار رأسه إلى اليسار واليمين وتفرس لدقيقة في جثة لويد.

قال جينتري: «أنا مشغول بأمر ما في الوقت الحالي».

لوح لوران بيده باستخفاف وقال: «أوه، يمكنني أن أرى ذلك».

رد كورت باستخفاف شديد: «سيكون ذلك جيدًا».

قال لوران: «وكما أفهم، قد يكون من مصلحتك الشخصية أن يموت الرئيس السابق والآن المواطن العادي، يوليوس أبو بكر. الإشاعة تقول إنك قضيت على شقيقه، والآن يخطط الرئيس السابق للقضاء عليك».

تراجع كورت مرتين قبل الرد: «لقد سمعت هذه الشائعات أيضًا يا سيد لوران».

أومأ لوران برأسه وقال: «وجَّه أبو بكر ضدي ادعاءات محددة، كلها أكاذيب بالطبع. أدير عملًا تجاريًّا نزيهًا وصادقًا لا غبار عليه».

لم يتغير تعبير وجه جينتري وهو يقول: «دون شك».

ـ ومع ذلك، في بعض الأحيان يمكن للادعاءات المثيرة أن تنتشر، وتثير مخاوف غير ضرورية، وتؤدي إلى تحقيقات مزعجة. أود تجنب ذلك إن أمكن.

ـ لذلك تريدني أن أقتله.

أومأ لوران برأسه وقال: «سأدفع جيدًا مقابل خدماتك».

تردد كورت ثم قال: «أرى مشكلة واحدة صغيرة في اقتراحك».

ارتفع حاجبا الفرنسي وسأله: «وماذا تكون؟».

أجاب جينتري: «أنا أنزف حتى الموت».

قهقه لوران وفرقع أصابعه، فظهر الرجال الثلاثة الذين يرتدون سترات برتقالية ومعهم نقالة.

قال لوران: «لا مشكلة أيها الشاب». بينما سقط كورت مغشيًّا عليه بعد أن خانه مرفقاه. لقد عاش هذه المحادثة مرة أخرى في حلم، وفيما بعد ظن أنه واحد من أغرب الأحلام وأكثرها خيالًا على الإطلاق.

الخاتمة

لم يتبقَّ سوى أربعة أيام حتى عطلة عيد الميلاد، وأخبرت الأم الفتاتين أن بإمكانهما الانتظار حتى العام الجديد قبل العودة إلى المدرسة. قبلت كيت عرض أمها، لكن كلير رفضته، فالروتين مهم للطفل، وقد أرادت العودة إلى دورة الأشياء. ربما يساعدها هذا على النسيان.

أرادت أن تنسى جنازة أبيها، والقصر في فرنسا، والضجيج والخوف والبنادق والدم. كانت تود أن تنسى كيف تركت السيد جيم وراءها. أكد لها الجد دونالد أن جيم هرب، لكنها لم تعد تصدق شيئًا مما يقوله الجد دونالد بعد الآن.

كانت تعلم أن جيم مثل أبيها، ميت.

دخلت هايد بارك، اعتادت أن تقطع طريقها من هناك إلى المدرسة، وتمشي قاصدةً الشرق في نورث كاريدج درايف، دخلت ممرًّا إلى نورث رو، ثم بعد ذلك بقليل إلى مدرستها في شمال شارع أودري. أرادت والدتها اصطحابها إلى المدرسة، لكن كلير رفضت. أرادت أن يكون كل شيء كما كان عندما كان والدها موجودًا. كانت تمشي بنفسها إلى المدرسة، وتمشي بنفسها إلى المنزل.

جلس رجل على مقعد عند الرصيف. لم تعره أي اهتمام حتى ناداها باسمها أثناء ابتعادها:

«مرحبًا كلير».

توقفت خطواتها، واستدارت لمواجهة جيم. أصاب الوهن ركبتيها من الصدمة، وأسقطت كتبها المدرسية على الرصيف.

قال جيم: «لم أقصد أن أخيفك. أخبرني جدكِ أنك لا تصدقين أنني بخير. أردت فقط أن آتي وأكشف لك أنني حقًا بخير».

عانقته، لكن عقلها كان يأبى الاعتراف بوجوده وسألت بابتهاج شديد:أنت. لقد تأذيتَ بشدة. هل تشعر بتحسن؟». أجابها جيم: «أنا أفضل».

نهض وابتسم وصعد بضع خطوات على الرصيف ثم عاد إليها وقال: «انظري، أنا حتى لست بحاجة إلى مساعدة على المشي بعد الآن».

ضحكت كلير وعانقته مرة أخرى. ملأت الدموع عينيها وهي تقول: «يجب أن تأتي إلى المنزل على الفور. ستحب ماما أن تراك. إنها لا تتذكر وجودك هناك في فرنسا».

هز جيم رأسه وقال: «أنا آسف. يجب أن أذهب، لديَّ بضع دقائق فقط».

عبست وسألته: «أما زلتَ تعمل مع جدي؟».

نظر جيم بعيدًا وقال: «أعمل لدى شخص آخر الآن. ربما سأسوي أنا ودون الأمور يومًا ما».

قالت: «جيم؟». ثم جلست على المقعد ففعل مثلها. وسألته: «الذين قتلوا والدي.. لقد قتلتهم، أليس كذلك؟».

ـ لن يؤذوا أي شخص آخر، كلير. أعدك.

ـ هذا ليس ما سألته. هل قتلتهم؟

ـ مات الكثير من الناس. طيبين وأشرارًا. لكن هذا انتهى الآن. هذا كل ما يمكنني أن أخبرك به حقًا، لا يمكنني مساعدتك في فهم كل شيء. ربما يمكن لشخص آخر، أنا آمل ذلك، ولكن ليس أنا، آسف.

نظرت كلير عبر الحديقة وقالت: «أنا سعيدة لأن الجد دونالد لم يكذب بشأنك».

قال جيم: «أنا أيضًا».

ساد الهدوء للحظة، وتململ جيم في المقعد.

قالت كلير: «عليك أن تذهب الآن، أليس كذلك؟».
ـ أنا آسف. يجب أن ألحق بالطائرة.
ـ حسنًا. عليَّ الذهاب إلى المدرسة. لا مفر من الروتين.
ـ نعم.
ثم نهض وقال: «أعتقد ذلك».
وقف كلاهما، وتعانقا مرة أخرى. وأوصاها جيم قائلًا: «اعتني بأختك وأمك يا كلير. أنت فتاة قوية ستكونين بخير».
قالت كلير: «أعرف يا جيم. عيد ميلاد سعيد».
ثم ودع كلٌ منهما الآخر.

***

سار كورت ببطء خارج المتنزه إلى ميدان جروسفينور العلوي. عاوده العرج الذي تمكن من إخفائه عن كلير،
وجفل مع كل خطوة. خارج البوابة تقف سيارة بيجو سوداء، فانحنى ليدخل إلى المقعد الخلفي دون أن يخبر الركاب.
استدار اثنان من الفرنسيين يرتديان بذلتين لمواجهته من الأمام. سلمه أحدهما حقيبة بينما تدخل السيارة في حركة المرور. فتحها كورت بهدوء وفحص محتوياتها، ثم أغلقها.
قال فرنسي في منتصف العمر يجلس في مقعد الراكب: «الطائرة تنتظر في ستانستيد. ثلاث ساعات طيران. يجب أن تكون في مدريد في وقت مبكر بعد الظهيرة».
لم يرد كورت، فقط نظر من النافذة.
ثم أكمل الرجل الفرنسي: «سيصل أبو بكر إلى فندقه في الساعة السادسة. هل أنت واثق بأن لديك الوقت الكافي للاستعداد؟».
لا يزال لا يوجد رد من الأمريكي.
لقد حجزنا لك غرفة في الطابق أسفل جناحه مباشرة.

حدق جينتري للتو إلى الحديقة في أثناء مروره. مشى الأطفال مع والديهم، وتشابكت أذرع العشاق.

طقطق الفرنسي في مقعد الراكب بأصابعه بوقاحة أمام وجه جينتري، كما لو كان يوجه اللوم إلى خادم غافل. وسأله:

«سيدي، هل تستمعني؟».

التفت الرجل الرمادي ببطء إلى الرجل. أصبحت عيناه أكثر وضوحًا الآن.

وقال: «مفهوم، لا مشكلة. الكثير من الوقت».

صاح الفرنسي: «لا أريدك أن تفسد هذا الأمر».

ـ وأنا لست بحاجة إلى نصيحتك. إنه استعراضي الخاص. أنا أحدد الوقت والمكان.

ـ أنت مِلكي يا سيدي. لقد أنفقنا الكثير من المال على شفائك، ستنفذ ما قيل لك.

امتعض كورت، وهمَّ بأن باتخاذ خطوة متهورة لكنه تراجع عن ذلك.

قال: «أجل، سيدي». رغم أنه أراد أن يقول المزيد. التفت إلى النافذة، وألقى نظرة أخيرة على الطرف الجنوبي من الحديقة، حيث تختلف حياة العشاق والأطفال والأسر وحياة الآخرين اختلافًا لا يصدق عن حياته.

انعطفت البيجو يسارًا إلى بيكاديللي بعيدًا عن الحديقة، واختفت في زحام لندن المروري في الصباح.

مقتطفات من رواية الرجل الرمادي القادمة

الانفجار الخلفي

شارع خافت الإضاءة في وسط واشنطن هاي لاندز كان مكانًا رهيبًا للتجول ليلًا، تقع هاي لاندز في الزاوية الجنوبية الشرقية للمنطقة، تطل على نهر أناكوستيا في الحي الثامن، حيث تزدحم بها المباني الحكومية العالية ومجمعات الشقق ذات الدخل المنخفض، والمنازل العائلية المهملة على مسافات متقاربة تعج بالقمامة، كان الحي الثامن هو ثاني أكثر الأحياء خطورةً في المنطقة بعد الحي السابع، لكنه استعاد مؤخرًا الصدارة بفضل جريمة قتل ثلاثية في الأسبوع الأخير خلال الفترة المشمولة بالتقرير، و على الرغم من تأخر الوقت والسمعة السيئة للمنطقة، تجول أحد المشاة بهدوء في المساء الضبابي، متجهًا شمالًا إلى شارع أتلانتيك الجنوبي الشرقي، سار على رصيف مكسور، كأنه لا يهتم بشيءٍ في هذا العالم، ينظر إلى وهج معظم أعمدة الإنارة التي لم يطلق عيها النار أو لم تحرق وتترك سوداء، مدينة لا تهتم بأفقر سكانها، كان يلبس سروال جينز وسترة رسمية زرقاء مجعدة، شعره البني الأدكن كان مسرحًا ورطبًا، ووجهه الحليق كشف عن بشرته البيضاء، ووجوده في هذا المكان وفي هذا الوقت من الليل لربما يعني أنه لا يفعل شيئًا جيدًا، الساعة العاشرة مساءً، وبدا الحي خاليًا من أي حياة بخلاف عابر السبيل هذا، الذي تتبعت حركاته عيون المسنين المندهشين من وراء قضبان حماية نوافذ شققهم، أم عازبة تسهر مع طفلها المريض وتراقب من خلال بابها الزجاجي الشبكي المقفل في منزلها الدوبلكس، تظهر على وجهها علامات الأسف، عالمة تمامًا أن الأحمق في الشارع سيتعرض بأفضل الأحوال للسطو وبأسوأ الأحوال

للقتل، وفتى يحمل هاتفًا خلويًا على سطح مظلم لمبنى سكني يراقب الرجل بعناية، ويبلغ ما يراه لصديق في الطرف الآخر من الاتصال على أمل جمع رسوم الباحث إذا ظهر صديقه مع فريقه وسلب كل ما له قيمة من المتطفل البائس، ولكن لم يكن الفتى وصديقه محظوظين، لأن مجموعة أخرى من المفترسين وضعت عيونها على هذا الصيد الثمين واقتربت منه أكثر، راقب الرجل الأبيض ثلاث هيئات ظلية بشرية حيث وقفوا في مدخل سيارة، أمام برميل سعته خمسة وخمسون جالونًا، مليء بالقمامة المشتعلة.

مارفين الأكبر سنًّا بين الثلاثة، هو في الحادية والثلاثين من عمره، وقد جرى توقيفه أحد عشر مرة، معظمها بسبب الاقتحام والسرقة المسلحة، فقط توقيفان حقًا تركا أثرًا، الأول حصل على إدانة لمدة أحد عشر شهرًا وتسعة وعشرين يومًا في مركز احتجاز المدينة، ثم، في الداخل، تسبب مارفين لنفسه بالسجن عشر سنوات في هاجرستاون بتهمة القتل غير العمد، قضى منها ست سنوات قبل أن يطلق سراحه لسلوكه الجيد ـ وهو مصطلح نسبي في السجن ـ والآن عاد إلى الشوارع، ولم يبحث عن عمل، بل بحث عن فرصة، وفي سعيه هذا، ضم معه شابين، هما دريوس وجيمس البالغان من العمر ستة عشر عامًا، وبسبب فارق السن، ولأن مارفين قضى وقتًا في السجن وقتل رجلًا، فقد احترماه وأطاعاه في كل شيء، ومارفين، أحب مارفين قيادة فريق من المراهقين لأنهم يستطيعون المخاطرة؛ وأي إدانات تسجل بحقهم على الأرجح ستُمحى في عيد ميلادهم الثامن عشر، حمل مارفين مسدسًا في حزام خصره تحت سرواله الواسع، مسدسًا من نوع لورسين آرمز إل 380 صدئ، قطعة بالية، حتى بالمقارنة بالمسدسات المعدنية الأخرى التي تملأ هذا المكان، حيث الجريمة في أسوأ مستوياتها هنا في «منطقة خالية من الأسلحة» في واشنطن، لم يطلق النار من السلاح قط، فهو للعرض فقط، مما يعني أنه أبقى قبضة سلاحه معروضة ، تخرج من أسفل سترته المصنوعة من جلد

صناعي، ولكن فقط عندما لا يكون رجال الشرطة في الجوار، فإذا رأى سيارة دورية، سيسقط المسدس الصغير داخل سرواله الدافئ، ثم إلى الأرض، ثم يمكنه ركله أو إخفاؤه تحت شيء ما، أو يمكنه فقط الجري، هرب مارفن من المشكلات قبل فترة طويلة من قدوم هذين الولدين الواقفين معه إلى الحياة، حمل المراهقان سكاكين رفيعة قابلة للطي، سرقاها من محل رئيس في هاياتسفيل، بالرغم من أنها سكاكين رخيصة وتدعو إلى السخرية إذا قورنت بالأسلحة، لكن لم يعرف الولدان أفضل من ذلك، وظنا أن قوتهما لا تضاهى لحملهما هذه الخردة داخل جيوبهما.

وضع كل من داريوس وجيمس أيديهما على السكاكين المخبأة تحت ملابسهما، وهما يراقبان الرجل الأبيض يختفي في الضباب، قرب سياج متداع مليء بالقمامة المبعثرة، نظر كل منهما إلى الآخر في الوقت ذاته، مُبتسمين بالدهشة من الثروة الباهظة التي ظنا أنهما سيحصلان عليها هذه الليلة، يبدو أن الرجل لم يدرك حقيقة خطر مروره بجانب الرجال الثلاثة الواقفين أمام النار، مما جعلهم يعتقدون أن هذا الأحمق إما سكران وإما مخمور، أو ربما كلاهما، فهم نادرًا ما يرون البيض يتجولون في هذا الجزء من هايلاندز في واشنطن في الليل، والرجال والنساء من جميع الأعراق يأتون إلى هذا الحي لشراء المخدرات في كل وقت، خصوصًا في الليل، ولذلك لا يستطع الشابان الصغيران تخيل سببًا آخر لوجود هذا الأحمق سوى شراء المخدرات، ومن ثم، فهو إما يملك نقودًا وإما مخدرات، ولا يهم أيهما، لأن المخدرات هي النقود هنا، نظر داريوس وجيمس إلى ما وراء ألسنة النار الخارجة من برميل النفط، في اتجاه زعيمهما، فأومأ مارفين برأسه إلى فريقه، مما أعطاهم الحافز الذي ينتظرانه، خرج الثلاثة جميعًا مبتعدين عن دفء البرميل، وتوجهوا إلى الرصيف، يتبعون الرجل الأبيض وأيديهم قريبة من الأسلحة التي احتفظوا بها داخل ملابسهم.

في اللحظة نفسها التي طارد فيها ثلاثة صيادين فريستهم في شارع 8 جنوب شرق واشنطن، حلقت طائرة هيلوكوبتر من نوع يوروكوبتر بقيمة 24 مليون دولار عاليًا فوق العاصمة، قادمة من ماريلاند في الشمال الشرقي ومتجهة نحو فرجينيا في الجنوب الغربي، ناقش الرجال على متنها احتمال وجود شخص ما أسفلهم يستعد لإطلاق صاروخ أرض-جو محمول باليد باتجاه الذيل الدوار الخلفي، أو ربما يتعقبون مقدمة الطائرة بالمنظار المقرب لقاذفة قنابل صاروخية، ولذلك اتخذت التدابير الدفاعية على متن الطائرة، وأجرى الطيار مناورات دفاعية، وتركزت جميع الأعين على الخارج، تمسح الشوارع بحثًا عن توهج إطلاق صارخ ما تجاههم، إلا أنهم لم يلحظوا أي توهج أو إطلاق، مع أن الرجُل الذي يخشونه، في الواقع، كان في مكانٍ ما أسفلهم، لكنه لا يحمل صاروخ سام، ولا حتى قاذفة آر بي جي، ولم يملك مسدسًا أو أي نقود، سار كورت جينتري وحيدًا في أخطر مناطق واشنطن، مدركًا خطوات أشخاص يريدون الإطباق عليه، بالإضافة إلى الألم الذي يشعر به في ذراعه اليمنى والحكة المجنونة تحت الجص الملفوف حول كوعه ومعصمه، عرف أن ثلاثة رجال يتبعونه، زعيم محدد بجانبه تابعان أصغر سنًّا وخاضعان تمامًا له، وقد حدد جينتري كل ذلك خلال نصف ثانية من نظرة ألقاها عليهم عندما مر بهم، بالإضافة إلى أصوات خطواتهم، فالرجل في المنتصف أكثر ثقة، الشابان على كل جانب غير مستقرين، يتباطؤون من حين لآخر، ثم يهرعون للحاق بزعيمهما.

كان كورت مطلعًا على علم نفس الجريمة، لم يكون هؤلاء البلطجية يبحثون عن معركة؛ بل يبحثون عن ضحية، وستنعكس قوة إصرار المهاجمين في مدى سرعة تصرفهم، فإذا أفسدوا الأمر على أنفسهم وتتبعوه لعدة مبانٍ، فمن المحتمل ألا ينجحوا في مرادهم، من ناحية أخرى، إذا تحدوه الآن، فهذا يعني أن ثقتهم عالية وأنهم لن يتوقعوا أي مقاومة، وهذا سوف يدل جينتري إلى أنهم مسلحون وأنهم فعلوا

أشياء كهذه من قبل، في هذه اللحظة، وعلى بعد نصف مبنى من التقاطع التالي، ناداه الرجل الذي في المنتصف: «أنت! هل تعرف هذا، ليس عليك أن تصاب»، سرّ كورت أن هذا الرجل كان يتحدث مباشرةً، فهو ليس لديه وقت، توقف، لكنه لم يستدر، فقط توقف ووجهه ينظر بعيدًا، اقترب من ورائه الشباب الثلاثة، قال زعيمهم: «استدر، أيها الأحمق! ببطء»، أخذ كورت بضعة أنفاس بهدوء، لكنه لم يلتفت، «أنت، أيها الأحمق! أتحدث معك!» هنا استدار كورت ببطء لمواجهة التهديد، وقف المهاجمون الثلاثة على بعد ست أقدام على الرصيف، فحص كورت عيونهم، هذا هو الحال دائما في وضع التهديد، تحديد الإرادة وتحديد المهارة، لاحظ أن الزعيم مغرور ومتأهب بسبب الإثارة وليس القلق، حاول الآخران إظهار الثقة، لكن نظرتهما الخافتة خانتهما، حمل الثلاثة أسلحة، لدى الزعيم مسدس صغير من اللون الأزرق المعدني، والشابان اللذان معه ـ في الحقيقة هما بالنسبة لكورت الآن، يبدوان مراهقين ـ يحملان سكينًا، تحدث كورت بهدوء: «مساء الخير، يا سادة».

دهش الزعيم من رده، ثم بعد ثانية، قال الرجل الأسود الرفيع: «أريد تلك المحفظة وذلك الهاتف» ونظر حوله إلى الشارع، ثم سأل: «أين سيارتك؟».

تجاهل كورت صوت الرجل، وركز على المسدس في يده، وسأله: «ماذا لديك هنا؟»

إنه مسدس، يا غبي!

حسنًا. ما نوع المسدس؟

إنه نوع المسدس الذي سيطلق النار عليك إذا لم تسحب المحفظة وتنزلها ببطء.

رفع الرجل المسدس إلى مستوى العين، مباشرةً في وجه كورت، على الرغم من سوء الإضاءة، تمكن كورت من تحديد نوعية السلاح

بسرعة، وعلى بعد ثلاث أقدام من أنفه، تنهد كورت بخيبة أمل وقال: «L380؟ بحق الإله، ماذا يفترض أن أفعل بهذه الخردة؟»

شد الرجل زناد مسدسه، ثم ابتسم قائلًا: «أوه، فهمت، أنت تحاول الموت الليلة.»

نظر كورت حوله إلى الشابين وسألهما: «هل لديكما أي فرصة أيها الطفلان المقيدان؟» نظر الولدان إلى رئيسهما بارتباك، بعد ثانية، رفعا سكاكينهما إلى أعلى، تابع كورت: «لم أعتقد ذلك»، ثم نظر إلى السماء الرطبة بابتسامةٍ خفيفة وقال: «حظي العاثر.»

• • •

كان مارفين يوجه السلاح إلى الناس قبل أن يبلغ الثالثة عشرة، وبعد كل هذا الوقت لم ير أحدًا مثل هذا الرجل، عادةً ما تتوسع عيون الناس لتصبح بحجم الطبق، وتركز على فوهة سلاحه، ويغض النظر عما يفعلونه بقية اللقاء، فالشخص تحت تهديد السلاح لا يبعد عينيه أبدًا عن الأداة في يده، ونادرًا ما يرمش بعينيه، ولكن هذا الرجل الواقف أمامه التفت نحو الشابين الآخرين، ونظر حوله في الشارع، وإلى السماء، وحتى إلى نوافذ البيوت ذات الطابقين المتناثرة في كل مكان، لم يبدُ قلقًا على الإطلاق لوجود مسدس مصوب إلى وجهه، ولم يبدُ الرجل الأبيض مخمورًا، فرائحة الكحول لا تفوح منه، وعيناه الخاملتان واضحتان، وجسده المسترخي لا يترنح، لسبب ما، لم يكترث بتاتًا، وهذا أثار غضب مارفن، فليس لديه خطة بديلة لتخويف الضحية، دار الولدان حول فريستهما، ومارفين يوجه مسدسه نحو جبين الرجل، وصبياه يصوبان السكاكين إليه عن يساره ويمينه، غير أن الرجل الأبيض يهتم بشأن السكاكين أيضًا، ببساطة تأفف بعمق، وأرخى كتفيه وقال: «هل هناك أي فرصة لإقناعكم بالابتعاد؟ ليس لدي نقود، ولا هاتف، ولا سيارة... ليس لدي شيء يمكنني تقديمه لكم سوى المشاكل، وأعدكم أنا أمثل مشكلة أكثر مما يستحق

الأمر، ماذا تقولون إذًا لنُنهي الليلة و...». شعر مارفين بالضجر من هذا الأحمق، وخطا نصف خطوة إلى الأمام، رفع المسدس عاليًا لتوضيح موقفه، وبينما فعل ذلك، ارتفعت يد الرجل الأبيض اليسرى بسرعة إلى الأعلى وإلى الأمام ودار على قدمه اليسرى في لمح البصر، وابتعد بجسده عن خط النار، تفاجأ مارفين بالحركة، وعندما لف الرجل، ثبت يده القوية على سبطانة المسدس، خلف الفوهة، ودفع السلاح جانبًا وأسفل، سحب مارفين غريزيًا الزناد، صدح مسدس لورسين بصوته العالي في الشارع الخالي، لكن الرجل الأبيض ما إن أطلق مارفين النار دار بجسده بعيدًا عنه إلى اليمين ودفع السلاح لأسفل إلى يسار مارفين، أدرك مارفين على الفور أنه أخطأ، قفز جيمس في الهواء، ووقع سكينه على الأرض بينما يمسك بأسفل ساقه بيديه، سقط على العشب بجانب الرصيف وبدأ بالعويل، أصابت الرصاصة الجوفاء أعلى قدم الولد، عرف مارفين أنه ارتكب خطأ، لكن المسدس لا يزال في يده، ولسبب غير مفهوم، أرخى الضحية يده عن السلاح.

تحول الرجل بعيدًا عن مارفين الآن، حيث كان اهتمامه بداريوس ونصله، تاركا ظهره معرضًا للخطر، على بعد قدمين فقط من مسدس مارفين، لم يصدق مارفين غباء هذا الأحمق ليتجاهل مسدسًا ذا ذخيرة ويدير ظهره له، رفع مارفين السلاح وسدده نحو مؤخرة رأس الأحمق، مستعدًا لقتل الرجل قبل أن يفعل أي شيء لداريوس، ثم سحب الزناد، سُمع صوت النقرة.

لم يلقِ كورت بالًا لحامل السلاح الأحمق خلف ظهره، لأنه يعرف أن الرجل خارج المعركة للحظات القادمة، فعندما أمسك بالجزء الخلفي من المسدس، منعه من العمل بعد إطلاق النار، فهناك طلقة مستهلكة داخل خزينة المسدس، ويمكن للرجل الذي وراءه أن يسحب الزناد طوال اليوم ولن يحدث شيء، حتى يسحب الجزء الخلفي من سلاحه لإخراج الطلقة المستهلكة وتحميل طلقة جديدة من الخزينة، لم يعتقد كورت لحظة واحدة أن الرجل سيفهم ما يجري لمدة ثوانٍ، فمعركة

المهاجم الآن من أجل حياته، والأدرينالين سيجعله عصبيًا وغير قادر على معالجة المعلومات المتدفقة إليه، تعلم كورت منذ زمن بعيد أنه في أي معركة بالأسلحة النارية، لا يرتقي المرء إلى المستوى المطلوب، بل يتخلف عن المستوى الذي يتقنه، وحامل السلاح التعس هذا لم يتقن شيئًا يتعلق بالأسلحة النارية، وإلا لما حمل مسدسًا سيئًا كهذا، الآن لدى كورت الوقت للتصرف مع الخنجر أمامه، فقد حاول الولد طعنه مباشرة، فاندفع بجسده لتسديد ضربة له، رفع كورت ذراعه اليمنى، واخترق السكين الجبس على ذراعه، ثم استخدم كورت يده اليسرى للإمساك بمعصم الولد التي تحمل السكين ولفها حتى سقط سكينه.

واصل كورت لف يده إلى الخلف، ثم دفعها بالاتجاه المعاكس للأربطة التي تربط الجزء العلوي من ذراع الولد بالسفلي، ثم سحبها إلى الخلف بزاوية خمس وأربعين درجة، مما لوى الذراع بعيدًا عن مفصل الكوع، متسببًا بتمزق الأربطة، بعد كل ذلك الألم استوعب الولد أن الدفاع الوحيد المتاح له هو السقوط على ظهره على الرصيف، ففعل ذلك، ثم سقط على الأرض الباردة وهو يتألم من ذراعه، اعتقد كورت أن الرجل الذي خلفه سيكون في منتصف حل مشكلة مسدسه، فعاد إليه، ووجد الرجل النحيل يضع يده أعلى المسدس، وبدأ للتو بسحب الزلاقة، أطلق في الهواء الطلقة المستهلكة، لكن قبل أن تنطلق الزلاقة إلى الأمام، لف كورت يده اليسرى مرة أخرى حول البارود المكشوف الإطار المسدس، مما منع تقدم الترس إلى الأمام، ثم ضغط إصبعه على زر إطلاق الخزينة، مما أدى إلى سقوط الخزينة التي كانت مليئة بالرصاص على الرصيف، ترك كورت المسدس.

لا تزال قبضة مارفين على السلاح وإصبعه على الزناد، قبل أن يفهم ما يحدث، ضغط على الزناد، ضغط المهاجم على زناد خزينة فارغة، ولم يصدر سلاحه إلا صوت النقرة مرة أخرى، نظر مارفين إلى الرجل الأبيض، وعيناه اتسعتا كالطبق، نظر «ضحيته» إليه، بهدوء يميل إلى الضجر، نظر مارفين إلى مسدسه الفارغ وخزينة الطلقات على الأرض،

لم يفهم ما حدث للتو، ولكنه متأكد تمامًا أن سلاحه أصبح عديم النفع، لديه سكين قابل للطي في جيبه الخلفي، إلا أن ذلك غاب عن تفكيره، في الواقع، لن يتذكره حتى وقت لاحق، أما حاليًا فتفكيره يجثم عليه الذعر.

استدار وركض، بعد كل شيء اختار مارفين الركض كما فعل طوال حياته، هرب وترك طاقمه المراهق وراءه.

شاهد كورت الرجل النحيل وهو يركض بسرعة إلى الضباب، فانحنى فوق الولدين المصابين، حيث جلس المراهق الذي يمسك ذراعه المتضررة على الرصيف، لكن الولد الذي تلقى رصاصة في قدمه لا يزال يتألم على العشب، وأسلحتهما بعيدةً عن متناولها في مكان ما في الظلام، تفحص كورت المباني في جميع الاتجاهات، والنوافذ والأبواب والطرق التي يمكن رؤيتها من خلال الضباب، وبينما يفعل ذلك تحدث بلطف: «إنه رجل رائع، زعيمكم الشجاع»، فلم يجب أي من الولدين؛ فقط نظر كلاهما برعب إلى الرجل الهادئ الذي ينحني فوقهما. انتظر كورت أي رد فعل، ولكن عندما لم يفعلا شيئًا، هز كتفيه، وقال: «كم تحملان من النقود؟» نظر الولدان إلى بعضهما البعض بدهشة، ثم عاودا النظر إلى كورت، الذي أخذ نفسًا عميقًا وقال: «كيف ذلك؟ أنا أسرقكما، يا للسخرية! صحيح؟» مد يده، و تحسس ثياب الولد الذي لديه ثقب في قدمه، وأخرج ورقة من فئة عشرة دولارات من جيبه الأمامي، فمد الولد ذو الذراع المصابة يده المرتجفة التي تحمل مجموعة من أوراق النقود المتجعدة من فئة دولار واحد ، دسها كورت في جيب بنطاله الجينز، ثم أمسك بقدم الولد المصابة ونظر إلى الثقب الدموي في مقدمة حذائه الرياضي الأبيض، بصوت خافت قال: «يبدو أسوأ مما هو عليه، لذلك لا تنظر إليه»، ثم التفت إلى الولد صاحب الذراع الملتوية وساعده على الوقوف مرة أخرى، قال له: «أنت بخير، ستؤلمك لبضعة أيام، على الأكثر، إذا وضعت الثلج عليها، مهمتك الآن هي مساعدته، اصطحبه

إلى المستشفى، وعندما تصل هناك، قل للشرطة إن غبيًا ما كان يلهو بمسدسه وخرجت منه رصاصة أصابته، سوف يزعجونكما، لكن اثبتا على هذه القصة، سيصدقونها ويدعونكما تذهبان».

أومأ الولدان بالموافقة ببطء، ثم عبس وجه كورت وأصبح صوته قاتمًا: «ولكن إذا كنتما ستخبرانهم عني، وتعطيانهم وصفا، أي معلومات... فسأعود إلى هنا، سأجد ما تحبان في هذا العالم... وسأقتله، هل هذا واضح؟»، أومأ الولدان مرة أخرى، بسرعة أكبر هذه المرة، قال لهما: «ليلة سعيدة».

أسند الولد ذو الذراع المصابة صديقه ذا القدم الجريحة، و مضيا معًا يتعثران خلال ظلام الليل، لاحظ جنتري أنهما ذهبا في اتجاه مختلف عن رئيسهما، واعتبر ذلك إيجابيًا، لكنه لاحظ أيضًا أن أحدًا لم يخرج من أي من المنازل القريبة للتحقق من إطلاق النار، وهذا جعله يشعر بالاكتئاب قليلاً، ابتعد كورت عن الولايات المتحدة لمدة خمس سنوات، وها هي أمريكا أمامه لا تختلف كثيرًا عن بعض أخطر الدول النامية التي عمل فيها، كان يعتقد دائمًا أن الولايات المتحدة هي بيته، وملاذه، ومكانه الآمن، ولكن هذا كان وهمًا، والحقيقة التي عرفها هي عكس ذلك تمامًا، هذه هي بلاد الهنود الحمر، وهو مطلوب هنا... والخطر والتهديد يتربص به في كل منعطف.

بعد لحظة، سار كورت جينتري، جامعًا سترته حوله لدرء الهواء البارد.

THE GRAY MAN

الرجل الرمادي

مارك غريني

"لم تكن هناك سوى فترة واحدة في الستة عشر عامًا الماضية لم يكن فيها كورت قاتلا، ولم يكن جاسوسًا، أو شخصية غامضة تتحرك داخل وخارج المشهد. قبل ذلك بعامين، ولأقل من شهرين، عيّن فيتزروي الرجل الرمادي في وظيفة مميزة تمامًا عن أي شيء آخر في سيرته الذاتية، إذ تولى كورت منصبًا في الحماية الشخصية القريبة، كحارس شخصي لحفيدتيْ السير دونالد".

يواجه جينتري، أعتى قاتل مأجور في العالم، إطارًا زمنيًا ضيقًا بالإضافة إلى جيش من القتلة المأجورين، الذين يعترضون طريقه إلى باريس للقضاء عليه قبل أن يصل إلى مقر احتجاز فتاتين صغيرتين، فيصارع إطلاق النار مع إصاباته الشديدة واقترابه الوشيك من الموت، ليثبت أن أسطورة الرجل الرمادي حقيقية، فلا شيء يعترض طريقه، ولا حواجز تمنعه.





9 789778 201253

